الطبعة الثانية

الكتاب الأول على قائمة مبيعات النيويورك تايمز

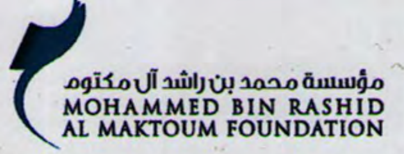
باراك أوباما

جرأة الأمل

أفكار عن استعادة الحلم الأمريكي

نقله إلى العربية

معين الإمام



العبيكان
obeikan

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ:

في عصر يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهي من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، مشروع بالغ الأهمية، ولا ينبغي الإمعان في تأخيره.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، في العام الواحد، لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة في العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها.

أطلقت المؤسسة برنامج (ترجم)، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضاري للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد.

وتأمل مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم في أن يكون هذا البرنامج الإستراتيجي تجسيداً عملياً لرسالة المؤسسة المتمثلة في تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة، التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج (ترجم) والبرامج الأخرى المنضوية تحت قطاع الثقافة، يمكن زيارة موقع المؤسسة:

www.mbrfoundation.ae

عن المؤسسة :

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة كريمة من صاحب السمو الشيخ محمد ابـن راشد آل مكتوم نائـب رئيس دولة الإمارات العربية المتحـدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبـي، وقد أعلن صاحب السمو عـن تأسيسها، لأول مرة، في كلمته أمـام المنتدى الاقتصادي العالمـي في البحـر الميت - الأردن في أيار/مايو 2007. وتحظى هـذه المؤسسة باهتمام ودعم كبيرين من سموه، وقد قام بتخصيص وقفٍ لها قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار).

وتسعـى مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم - كمـا أراد لها مؤسسها - إلى تمكين الأجيال الشابة فـي الوطن العربي، من امتـلاك المعرفة وتوظيفهـا بأفضل وجه ممكن لمواجهـة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة مستمدة من الواقع، للتعامل مع التحديات التي تواجه مجتمعاتهم.

جرأة الأمل

أفكار عن استعادة الحلم الأمريكي

باراك أوباما

نقله إلى العربية

معين الإمام





Original Title

The Audacity of Hope

Thoughts on Reclaiming the American Dream

BARACK OBAMA

ISBN 0-307-23769-9

Published by Crown Publishing Group, a division of Random House, Inc., New York. U.S.A.

ISBN 978-9960-54-647-6

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف 2937574 - 2937581 فاكس: 2937588 ص.ب: 67622 الرمز: 11517

الطبعة العربية الثانية 1430هـ - 2009م

ح مكتبة العبيكان، 1430هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

باراك، أوباما

جرأة الأمل./ باراك أوباما؛ معين الإمام - ط2.- الرياض 1430هـ

370ص؛ 17× 24 سم.

ردمك: 978-9960-54-647-6

1. الولايات المتحدة - الأحوال السياسية   2. الولايات المتحدة - تاريخ

أ. معين الإمام (مترجم)   ب. العنوان

ديوي 973   1430 / 955

صدرت هذه الطبعة باتفاقية نشر خاصة بين الناشر العبيكان و مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM FOUNDATION

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلف وليس بالضرورة عن رأي المؤسسة.

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف 4160018 - 4654424 فاكس 4650129 ص.ب 62807 الرمز 11595

إلى الامرأتين اللتين ربتاني صغيرا

جدتي (لأمي)، توتو،

التي كانت صخرة من الاستقرار طوال حياتي

وأمي،

التي ما زالت روحها المحبة تقدم لي الدعم والتشجيع والعون

المحتوى

تمهيد

انقضت الآن قرابة عشر سنوات على دخولي معترك السياسة. كنت آنذاك في الخامسة والثلاثين، وقد تزوجت حديثا بعد حصولي على شهادة الحقوق من الجامعة (قبل أربع سنين) وعيل صبري من الحياة عموما. شغر مقعد في مجلس شيوخ ولاية الينوي، وأشار علي عدد من الأصدقاء بالترشح، على أساس أن عملي محامياً متخصصاً في الحقوق المدنية، وصلاتي واتصالاتي منذ عملت في ميدان التنظيم الاجتماعي، تجعل مني مرشحا مؤهلا. بعد مناقشة الأمر مع زوجتي، دخلت السباق وفعلت ما يفعله أي مرشح أول مرة: تحدثت مع كل من يريد الإصغاء. ذهبت إلى لقاءات أعضاء نوادي الأحياء السكنية، والاجتماعات التي تعقدها الكنائس، وصالونات التجميل والحلاقة. وحتى إن وجدت رجلين يقفان على زاوية الشارع، أعبره إليهما وأناولهما كتيبات الدعاية. في كل مكان ذهبت إليه، واجهني الناس بسؤالين اثنين بصيغ مختلفة:

«من أين حصلت على هذا الاسم الغريب؟».

ثم: «يبدو أنك رجل نظيف وصالح. لماذا تريد دخول معترك قذر وكريه كالسياسة؟».

تعودت مثل هذه الأسئلة، فقد واجهت تنويعات منها قبل سنوات، عندما وصلت أول مرة إلى شيكاغو لأعمل في حي معظم سكانه من محدودي الدخل. وهي تؤشر على شك وريبة لا في السياسة وحسب بل في فكرة العمل في الحياة العامة ذاتها، غذاهما — على الأقل في أحياء ساوث سايد التي سعيت إلى تمثيلها - ما ساد عبر الأجيال من نكث بالوعود ونقض للعهود. ردا على ذلك، كنت ابتسم عادة وأومئ برأسي وأقول: إنني أتفهم مشاعر الشك والريبة هذه لكن هناك (وسيظل دوما) تراثا مختلفا للسياسة، امتد من أيام تأسيس البلاد إلى أمجاد حركة الحقوق المدنية، واعتمد على فكرة بسيطة مفادها أن من مصلحتنا اهتمام أحدنا بالآخر، وأن ما يجمعنا يفوق ما يفرقنا، وإذا اعتقد ما يكفي من الناس بحقيقة وصوابية هذه الفكرة المقترحة،

وعملوا وفقا لها، فإننا لن نتمكن من حل المشكلات كلها فقط، بل من إنجاز أهداف مهمة أيضا.

برأيي، كان كلامي مقنعا. وعلى الرغم من عدم تيقني أن كل من سمعه تأثر به، إلا أن العديد من الناس قدروا قيمة ما لدي من حماسة وجدية وخيلاء الشباب، وهكذا أصبحت عضوا في المجلس التشريعي لولاية الينوي.

بعد ست سنوات، حين قررت الترشح إلى مجلس شيوخ الولايات المتحدة، لم أكن واثقا من نفسي إلى هذا الحد.

وفقا لجميع العلامات الظاهرية، بدا اختياري لحياتي المهنية موفقا. وبعد أن نجحت في تجديد العضوية مدة أخرى، حيث جاهدت ضمن الأقلية، سيطر الديمقراطيون على مجلس الشيوخ، واستطعت من ثم تمرير عدد من مشروعات القوانين، بدءا بإصلاح نظام حكم الإعدام في ولاية الينوي، وانتهاء بتوسيع برنامج الرعاية الصحية لأطفالها. تابعت التدريس في كلية الحقوق بجامعة شيكاغو، وهو عمل أحببته واستمتعت به، ودعيت مرارا لإلقاء الخطب والمحاضرات في مختلف أرجاء المدينة. استطعت المحافظة على استقلاليتي، وسمعتي الجيدة، وحياتي الزوجية، وكلها، من الناحية الإحصائية، تتعرض لخطر داهم لحظة دخول عاصمة الولاية.

لكن السنوات فعلت فعلها أيضا. بعضها لا وظيفة لها سوى أن تحسب من أعمارنا، فكل سنة تجعلنا أكثر تعودا على أخطائنا وألفة مع عيوبنا ـ نقاطنا العمياء، وعاداتنا في التفكير، الخلقية أو المكتسبة، التي تزيد سوءا بمرور الزمن حتما، مثلما تتحول الوخزة الخفيفة في الساق عند المشي إلى ألم ممض في الورك. لقد سبب أحد هذه العيوب والمثالب قلقا مزمنا لي: عدم تقديري للنعم والآلاء التي أراها أمامي حتى لو كانت الأمور تسير على خير ما يرام. أعتقد أن هذه النقيصة تصيب بدائها الحياة الحديثة ـ وهي متوطنة أيضا في الشخصية الأمريكية ـ ولا تبدو أكثر وضوحا منها في ميدان السياسة. لكن ليس من الواضح هل تشجع السياسة هذه النزعة فعلا أو تكتفي بمجرد جذب أولئك المصابين بها. قال أحدهم ذات مرة: إن كل إنسان يحاول إما

الارتقاء إلى مستوى توقعات أبيه أو تفادي أخطائه، وأفترض أن ذلك ربما يفسر العلة لدي إضافة إلى كل شيء آخر.

على أي حال، قررت نتيجة لهذا القلق تحدي مرشح ديمقراطي قوي ومنافسته على مقعده في الكونغرس في انتخابات عام 2000. كان قراري يجافي الحكمة ويفتقد الرؤية فخسرت السباق ـ بدت الخسارة نوعا من الهزيمة النكراء التي تفتح العينين لرؤية حقيقة أن الحياة ليست ملزمة بالسير حسبما خططنا. بعد سنة ونصف السنة، اندملت الندوب التي خلفتها تلك الخسارة إلى حد كاف، فضربت موعدا مع مستشار إعلامي كان يشجعني للترشح لمنصب على مستوى الولاية كلها. وبمحض الصدفة، حدد موعد الغداء في أواخر شهر سبتمبر 2001.

قال المستشار وهو يأكل من طبق السلطة: «أنت تدرك طبعا أن الديناميات السياسية قد تغيرت»

سألته، وأنا أعرف مقصده: «ما الذي تعنيه؟» نظرنا إلى الصحيفة الموضوعة قربه، وشاهدنا على الصفحة الأولى صورة أسامة بن لادن.

قال وهو يهز رأسه: «الوضع صعب أليس كذلك؟ لسوء الحظ، لا تستطيع تغيير اسمك طبعا. الارتياب يملأ نفوس الناخبين. لو كنت في بداية حياتك المهنية لاستطعت استخدام لقب آخر. لكن الآن..»، انخفض صوته وهز كتفيه معتذرا، ثم أشار إلى النادل ليحضر الحساب.

حسبت أنه أصاب الرأي، وسبب لي هذا الإدراك قلقا مدة طويلة. فلأول مرة في حياتي المهنية، بدأت أعاني الحسد والغيرة من رؤية سياسيين أصغر عمرا يحققون النجاح حيث يعيقني الفشل عن بلوغ ما أطمح إليه وإنجاز ما أريد. وأخذت متع السياسة ـ حماسة المناظرات والمجادلات، حرارة مصافحة الأيدي الممدودة ولقاء الجماهير المحشودة ــ تبهت إزاء المهمات الوضيعة للمنصب: استجداء التمويل للحملة الانتخابية، العودة إلى البيت بعد حضور مأدبة طالت ساعتين عن الموعد المقرر، الطعام الرديء والجو الممل، الأحاديث الهاتفية السريعة مع زوجة وقفت معي

حتى الآن لكن سئمت تربية البنتين بمفردها وبدأت تضع أولوياتي موضع المساءلة. حتى العمل التشريعي، أي رسم السياسة الذي دفعني للترشح أصلا، بدا إضافيا وزائدا عن الحاجة وبعيدا كل البعد عن المعارك الكبرى ـ على الضرائب، والأمن، والرعاية الصحية، والوظائف ـــ التي كانت تشن على المستوى الوطني. بدأت أشك في السبيل الذي اخترته؛ كما يشعر الممثل أو المتسابق الذي يدرك، بعد سنوات من التزام فريق معين، وانتظار نتائج الاختبارات أو اللعب في دوري الدرجة الثانية، أنه بلغ الحد النهائي لما يملكه من مهارة أو حظ. الحلم لن يتحقق، وهو الآن يواجه خيار قبول هذه الحقيقة بوصفه شخصا بالغا راشدا والسعي لأهداف معقولة، أو رفضها، ليغدو شخصا مزعجا بل حتى سيئا وبائسا يرثى لحاله.

الإنكار والغضب والمساومة واليأس ـــ لست واثقا من أنني مررت بجميع هذه المراحل التي وصفها الخبراء والمختصون. لكن في نقطة ما وصلت إلى مرحلة القبول ـــ الاعتراف بالحدود التي تقيدني، أي بأنني من البشر الفانين. أعدت التركيز على عملي في مجلس شيوخ الولاية وشعرت بالرضى على الإصلاحات والمبادرات التي أستطيع القيام بها عبر منصبي. قضيت مزيدا من الوقت في المنزل، وشاهدت البنتين تكبران، وأظهرت الحب والحنان لزوجتي، وفكرت بالتزاماتي المالية على المدى الطويل. مارست الرياضة، وقرأت الروايات، وبدأت أقدر وأعجب بدوران الأرض حول الشمس وتوالي الفصول دون جهد مبذول من البشر.

وكان هذا القبول، كما أعتقد، هو الذي أتاح لي التوصل إلى فكرة الترشح لمجلس شيوخ الولايات المتحدة، وهي فكرة غيرة معقولة دون شك. فكرت بإستراتيجية لإبلاغ زوجتي بالأمر، الطلقة الأخيرة لاختبار أفكاري قبل الرضى بحياة أكثر راحة واستقرارا وأعلى أجرا. ووافقت ـ ربما بدافع الشفقة لا الاقتناع ـ على هذا السباق الأخير، مع الإشارة إلى أنني يجب ألا أعتمد على صوتها، نظرا للحياة المنظمة التي تفضلها لأسرتها.

تركتُ احتمالات فوزي القليلة والصعوبات الجمة التي تعترض طريقي تملؤها بالارتياح. فقد أنفق خصمي، المرشح الجمهوري بيتر فيتزجيرالد، 19 مليون دولار

مـن ثروته الشخصية للفوز بمقعد عضو مجلس الشيوخ السابق كارول موسلي براون. لكنـه لم يتمتـع بشعبية كبيرة؛ وفي الحقيقة لم تكن السياسـة تمتعه كثيرا. ومع ذلك، فهـو يملك ثروة غير محـدودة في أسرته، إضافة إلى قدر كاف مـن الأمانة والنزاهة جعله يحظى باحترام من الناخبين يجب أن أعترف به.

حـين عاودت كارول موسلي براون الظهور، بعد أن عادت من السفارة في نيوزيلندا وفكـرت باستعادة مقعدها القديم، أوقف احتمال ترشحها ما وضعته من خطط. لكن عندمـا قررت الترشح للرئاسة بدلا من الكونغرس، بدأ الجميع يتطلعون إلى السباق. وبحلـول الوقت الذي أعلن فيـه فيتزجيرالد أنه لن يسعى إلى إعـادة ترشيحه، بدأت السبـاق مـع ستة خصوم رئيسيـين، منهم المفتش المـالي للولاية، ورجـل أعمال تقدر ثروتـه بمئات ملايـين الدولارات؛ وكبـير موظفي محافـظ شيكاغو السابـق؛ وامرأة سـوداء، مختصة في مجـال الرعاية الصحية، فـكان من المرجـح أن تنقسم أصوات السود وتتضاءل الفرص المتاحة أمامي أصلا.

لم آبـه لذلك كله. تحررت من إسار سقف التوقعات المنخفض، وتعزز ما لدي من مصداقيـة من عدة جهات مؤيدة، فدخلت السباق بـكل الطاقة والمتعة اللتين حسبت أننـي فقدتهمـا. وظفت أربعـة من المساعديـن الأذكيـاء الشبـاب (في العشرينيات والثلاثينيات من العمر) بأجر زهيد. وجدنا مكتبا صغيرا، ووصلناه بخطوط الهاتف، وابتعنـا عـددا من الحواسب، وطبعنا صفحـات لها ترويسة. كنـت في كل يوم أتصل طـوال أربع أو خمس ساعات بالمتبرعين الديمقراطيـين الرئيسيين محاولا الحصول علـى دعمهم. عقـدت مؤتمرات صحفية لم يـأت لحضورها أحـد. شاركنا في موكب عيد القديس باتريـك، فخصص لنا آخر مكان، حيث وجدنا أنفسنا، أنا والمتطوعين العشـرة، نسير على بعد عـدة خطوات من سيارات جمع القمامـة، ونلوح بأيدينا لمن بقـي على الطريق من الجماهير في حين كان عمال النظافة يكنسون الشارع ويزيلون الملصقات عن أعمدة الإنارة.

ومـع ذلك، تنقلت في مختلف أحياء شيكاغو أولا، ثم عبر المقاطعات والبلدات، ثم الولاية، لأقطع مسافات كبيرة، وحدي على الأغلب، عبر حقول الذرة والبقول والسكك

الحديديــة وصوامع الحبوب. افتقدت حملتي الانتخابيــة الكفاءة. ففي غياب الجهاز التنظيمي للحــزب الديمقراطي في الولاية، ودون لائحــة المراسلات والإنترنت، وجب علــي الاعتماد على الأصدقاء أو المعارف ليفتحوا بيوتهم لمــن يأتي، أو لترتيب زيارتي إلى كنائسهم أو قاعات نقاباتهم أو مباني جمعياتهم ونواديهم. في بعض الأحيان، بعد رحلة بالسيارة تمتد عدة ساعات، كنت أجد شخصين أو ثلاثة في انتظاري حول طاولة في مطبخ أحد البيوت، كان علي أن أطمئن المضيفين بأن العدد كاف ثم أشكرهم على المرطبــات التي حضّروها. في أحيان كثيرة، كنت أحضر المراسم كلها في الكنيسة، ثم ينسى القســ قضيتي، أو يسمح لي رئيس النقابة المحلية بالحديث أمام أعضائها قبل أن يعلن أن النقابة قررت اختيار مرشح آخر.

لكــن بغضــ النظر هل كنت أقابل شخصين أم خمســين، في منزل فخم من منازل نــورث شور الظليلة، أو شقة عادية في طابــق مرتفع (في مبنى دون مصعد) في ويست سايــد، أو بيــت في مزرعة خــارج بلومنغتون، وبغض النظــر أكان الجمهور ودودا أم لا مباليــا أم معاديا بــين الحين والآخر، بذلــت قصارى جهدي لأغلق فمــي وأفتح أذني لمــا كان يقول. أصغيت إلى النــاس وهم يتحدثــون عن وظائفهم وأعمالهم، وتجارتهم، ومدارسهم المحلية؛ عن غضبهم على بوش وعلى الديمقراطيين؛ عن كلابهم، وآلامهم، وخدمتهــم في الحرب، وذكرياتهم عن الطفولــة. بعضهم كانت لديه نظريات متطورة عــن فقــدان الوظائف في مجال التصنيع، أو ارتفاع تكلفــة الرعاية الصحية. بعضهم الآخــر أعــاد ذكر ما سمعه من روش ليمبو أو عبر الإذاعــة. لكن معظمهم انهمكوا في العمــل أو انشغلوا بأطفالهم بحيث لا يركزون اهتماما كبــيرا على السياسة، وتحدثوا بــدلا من ذلك عما شاهدوه أمامهم: مصنع يغلق، ترقية تقدم، فاتورة تدفئة مرتفعة، أب أو أم في مأوى العجزة، أول خطوة لطفل بدأ المشي.

لم تظهر رؤى تعمي البصيرة من تلك الأحاديث واللقاءات التي دامت شهورا. لقد فوجئت بتواضع توقعات وآمال النــاس، ومدى تجاوز ما يعتقدونه لحدود العرق والدين والطبقة الاجتماعية. اعتقد معظمهم أن من حق كل من يريد أن يعمل على العثور على وظيفــة بأجر يكفي لضروريات الحياة. وأن من غير اللائــق أن يعلن المواطن إفلاسه

إذا أصابـه المرض. وأن من حق كل طفل الحصول على تعليم جيـد ـ وأن ذلك يجب ألا يكون مجرد كلام في الهواء ـ ودخول الجامعة حتى وإن كانت أسرته فقيرة. أرادوا أن يعيشوا في أمان، من المجرمين والإرهابيين؛ في بيئات هواؤها نظيف وماؤها سائغ، وأن يكون لديهم الوقت الكافي لقضائه مع أولادهم. وحين يبلغون أرذل العمر، يريدون التقاعد مع التمتع بما يكفي من الكرامة والاحترام.

هـذا كل مـا في الأمر. لم تكـن المطالـب استثنائية. ومـع أنهم فهمـوا أن مستوى معيشتهم يعتمـد غالبا على جهودهم وكدهم وكدحهم ـ لم ينتظروا من الحكومة حل جميـع مشكلاتهـم، ولا تبديد ضرائبهم الدولارية بالتأكيد ـــ إلا أنهم اعتقدوا أن من واجب الحكومة مساعدتهم.

قلـت لهم: إنهم على حق، فليس بمقـدور الحكومة حل جميع مشكلاتهم. لكن عبر إجـراء تغيـير بسيط في الأولويات يمكننا ضمان الرعايـة الكريمة لكل طفل ومواجهة التحديـات التي تعترضنا كأمة. في معظم الأحوال، كان الناس يوافقون ويسألون كيف يشاركـون. وحين أعود من اللقاء بهم، والخريطة مفتوحة على المقعد بجانبي، وأتوجه إلى المحطة التالية في رحلتي، أعرف مرة أخرى لماذا دخلت معترك السياسة.

شعرت بدافع لبذل جهد أكبر من أي جهد بذلته في حياتي.



هـذا الكتاب مستمـد مباشرة مـن الأحاديث التـي أجريتها مـع الناس خلال حملتي الانتخابية. لم تؤكد لي مقابلاتي ولقاءاتي مع الناخبين ما يتمتع به الشعب الأمريكـي جوهريـا من لياقة وذوق وحشمة فقط، بـل ذكرتني أيضا بأن جملة من المثل العليا التي ما تزال تحرك ضميرنا الجمعي تقع في صميم التجربة الأمريكية؛ مجموعـة مشتركة مـن القيم التي تجمعنـا معا على الرغم مـن الاختلافات التي تفرقنـا؛ خيط ممتد من الأمل يجعل تجربتنا التي لا تصدق في الديمقراطية تعمل بنجـاح. ولا تجد هذه القيم والمثـل التعبير عنها في الكتابات والشعارات على رخام المعـالم والأوابـد الأثريـة ولا في الكتـب التاريخية، بـل تبقى حية في قلـوب غالبية الأمريكيين وعقولهم، ويمكن أن تشكل مصادر إلهام للفخر والواجب والتضحية.

أدرك مخاطـر الحديث بهذه الطريقـة. ففي حقبة العولمة والتغيير التقاني الذي تسبب سرعته الدوار والتشوش، والسياسة العنيفة التي لا تعرف الرحمة، والحروب الثقافيـة التـي لا تتوقـف، لا نملك، حتـى ظاهريا، لغـة مشتركة يمكـن بواسطتها مناقشـة مثلنـا العليا، فضـلاً عـن الأدوات اللازمة للتوصـل إلى نوع مـن الإجماع التقريبـي على طريقة عملنا معا، كأمة، لتطبيقهـا. معظمنا يعرف الكثير عن طرق وأساليب مسـؤولي الدعاية، واستطلاعات الرأي العـام، وكتاب الخطب، والخبراء العارفين. نعرف كيف يمكن للكلمات الطموحة المخلصة أن توضع في خدمة الأهداف الأنانيـة المريبة، وكيف يمكن لأنبل العواطف أن تتعرض للتخريب والتشويه بواسطة السلطـة أو القـوة أو الذريعـة أو الطمـع أو التعصب. حتى كتـب التاريخ المعياري في المدارس الثانوية تلاحظ ـ منذ بدايته ـ درجـة انحراف واقع الحياة الأمريكية عن مثلهـا الأسطوريـة. في مثل هـذا المناخ، لا بد أن يبـدو أي توكيد على المثـل أو القيم المشتركـة ساذجا إلى حد اليأس، إن لم يكن محفوفا بالخطر ـ محاولة للتستر على الاختلافـات الجدية والعميقـة في السياسة والأداء، أو أسوأ مـن ذلك، وسيلة لكبت شـكاوى أولئك المحرومين من الخدمـات الجيدة التي تقدمهـا الترتيبات المؤسسية الراهنة عندنا.

لكـن حجتـي هي أننا لا نملك خيارا آخـر. فأنت لا تحتـاج إلى استفتاء لتعرف أن الأغلبيـة الساحقة من الأمريكيين ـــ جمهوريين وديمقراطيـين ومستقلين ـ أرهقتهم وأسأمتهم الحالة الجامدة التي وصلت إليها السياسة، حيث المصالح الضيقة تتنافس على الفوائد والمكاسب، والأقليات الأيديولوجية تسعى إلى فرض نسختها الخاصة عن الحقيقة المطلقة. وبغض النظر هل ننتمي إلى الولايات الحمراء أم الزرقاء، نشعر في أعماقنـا بافتقاد الصدق والأمانة والحيوية والمنطق السليم في مناظراتنا ومناقشاتنا السياسية، ونكره ما يبدو أنها لائحة مستمرة من الخيارات المزورة أو الضيقة. وبغض النظـر عـن كوننا متدينين أم علمانيين، وعن لون بشرتنا (سـودا أو بيضا أو سمرا)، نشعـر ـ ونحن علـى صواب في شعورنا ـــ أن أهم التحديات التـي تواجه الأمة يجري تجاهلها، وأننا إذا لم نغير المسار قريبا، سنصبح أول جيل منذ زمن طويل يترك خلفه

أمريـكا وهي أكثر ضعفا وتشظيا وانقسامـا من تلك التي ورثناها. ولربما نحتاج أكثر مـن أي وقت مضى في تاريخنا القريب، إلى نوع جديد من السياسة، سياسة يمكن أن تنقب وتحفر وتبني على أسس التفاهمات المشتركة التي تجمعنا معا كأمريكيين.

هنالـك موضوع رئيس في هـذا الكتاب: كيف يمكن أن نبـدأ عملية تغيير سياستنا وحياتنـا المدنيـة. هذا لا يعني القول إنني أعرف الطريقـة الفضلى. لا أبدا. ومع أنني أناقش في كل فصل عددا من أهم التحديـات الضاغطة في السياسة، وأقترح السبيل العام الذي أعتقد أن علينا اتباعه، إلا أن معالجتي للقضايا تظل غالبا جزئية وناقصة. فأنا لا أعرض نظرية توحيدية للحركة الأمريكية، ولا تقدم هذه الصفحات بيانا ثوريا "مانيفستو" للعمل، تكمله المخططات والرسوم البيانية، والجداول، وخطط مؤلفة من عشر نقاط.

بـدلا من ذلك، أعرض شيئا أكـثر تواضعا: تأملات شخصية عن تلك القيم والمثل التـي قادتني إلى الحياة العامة، وبعض الأفـكار عن الطرق التي يستخدمها الخطاب السياسـي الراهن لتفريقنـا دون داع، وأفضل تقييم لي ـ اعتمادا على تجربتي كعضو في مجلـس الشيوخ ومحام، وزوج وأب، ومسيحي ومؤمـن بمذهب الشك ـ للسبل التي يمكن أن نؤسس عبرها سياستنا على فكرة الصالح العام.

دعـوني أكون أكثر تحديدا فيما يتعلق بكيفية تنظيم وترتيب الكتاب. الفصل الأول يستمـد مادته من تاريخنا السياسي المعاصـر ويحاول شرح وتفسير مصادر السياسة الحزبيـة المريرة في أيامنا هـذه. في الفصل الثاني، أناقش تلـك القيم المشتركة التي قـد تخدم كركيزة مؤسسة لإجماع سياسي جديد. الفصل الثالث يستكشف الدستور، لا كمصـدر للحقـوق الفردية فقط، بل كوسيلـة أيضا لتنظيم حـوار ديمقراطي حول مستقبلنـا الجمعي المشترك. في الفصل الرابع، أحـاول عرض بعض القوى المؤسسية ـــ المال، وسائـل الإعلام، جماعات الضغـط، العملية التشريعية ـــ التي تكبت وتخنق حتـى أصدق السياسيين مقصدا وأصفاهم نيـة. في الفصول الخمسة الباقية، أقترح الطرق الكفيلـة بتجاوز انقساماتنا في سبيل التصـدي بفاعلية للمشكلات المحسوسة المتعينة: تنامي حالة انعدام الأمان الاقتصادي للعديد من الأسر الأمريكية، والتوترات

العنصرية والدينية داخل ميدان السياسة، والتهديدات العابرة للحدود الوطنية ـ من الإرهاب إلى جائحات الأمراض ـ التي تتجمع فيما وراء شواطئنا.

أظن أن بعض القراء ربما يجدون عرض هذه القضايا غير متوازن إلى حد كاف. وأعترف أنني مذنب بهذه التهمة. فأنا على الرغم من كل شيء ديمقراطي؛ وآرائي فيما يتعلق بمعظم الموضوعات والقضايا أقرب إلى افتتاحيات صحيفة نيويورك تايمز منها إلى وول ستريت جورنال. وأشعر بالغضب على السياسات التي تحابي باستمرار الأغنياء والأقوياء على حساب الأمريكيين العاديين، وأصر بإلحاح على أن للحكومة دورا مهما في توفير الفرص للجميع. أؤمن بالارتقاء والتطور، والاستقصاء العلمي، ويقلقني الاحتباس الحراري؛ أؤمن بحرية الكلام، بغض النظر عن صوابيته السياسية، وأرفض استخدام الحكومة لفرض المعتقدات الدينية ـ حتى معتقداتي أنا ـ على غير المؤمنين. فضلا عن ذلك، أنا أسير سيرتي الذاتية: لا أستطيع إلا معاينة التجربة الأمريكية من منظور رجل أسود مختلط التراث، ولا يغيب عن ذهني أبدا كيف أخضعت أجيال من أمثالي، وقهرت، ووصمت بالعار، والطرق المراوغة وغير المراوغة التي يستمر عبرها العرق والطبقية في صياغة حياتنا.

لكن ذلك ليس كل شيء عني. فأنا أعتقد أيضا أن حزبي يمكن أن يعاني أحيانا الزهو والخيلاء، والانفصال عن الواقع، والدوغمائية. أؤمن بالسوق الحر، والتنافس، وروح المبادرة التجارية، وأحسب أن عددا غير قليل من المشروعات الحكومية لم ينجح كما روجت الدعاية. أود لو يكون في البلد عدد أقل من المحامين وعدد أكبر من المهندسين. وأعتقد أن أمريكا كانت في أغلب الأحوال قوة للخير لا للشر في العالم. ليست لدي أوهام كثيرة فيما يتعلق بأعدائنا، وأجل شجاعة وكفاءة قواتنا المسلحة. وأرفض السياسة القائمة على الهوية العرقية، أو الجندرية (النوع الاجتماعي)، أو ذات التوجه الجنسي، أو الشعور بالاضطهاد والقهر. وأعتقد أن معظم البلاء في أحياء مدننا الداخلية ناجم عن انهيار في الثقافة لن يكون بالمستطاع معالجته بالمال وحده، وأن قيمنا وحياتنا الروحية على القدر نفسه من أهمية ناتجنا المحلي الإجمالي على أقل تقدير.

وبلا شك، سوف تعرضني بعض هذه الآراء للمشكلات. أنا جديد على المشهد السياسي الوطني بحيث أبدو كشاشة بيضاء يمكن للناس من مختلف المشارب السياسية أن يعرضوا عليها آراءهم. ومن ثم، لا بد أن أصيب بعض الناس بخيبة الأمل، إن لم يكن كلهم. وهذا يشير ربما إلى موضوع ثان وأكثر أهمية في الكتاب ـ ألا وهو: كيف يمكن لي، أو لأي مسؤول في منصب عام، أن يتجنب شراك الشهرة، وأفخاخ الرغبة في الإمتاع والإرضاء، والخشية من الخسارة، ومن ثم يحتفظ بجوهر الحقيقة، ذاك الصوت المتميز الخارق داخل كل منا، الذي يذكرنا بأعمق التزاماتنا وواجباتنا.

منذ مدة قريبة، أوقفتني صحفية تتابع أخبار الكونغرس وأنا في الطريق إلى مكتبي، وقالت إنها استمتعت بقراءة كتابي الأول: «أتساءل، هل تكون على القدر نفسه من الإثارة في كتابك الثاني» وكانت تقصد: أتساءل، هل تكون صادقا وأمينا بعد أن أصبحت عضوا في مجلس الشيوخ؟

أطرح السؤال على نفسي أنا أيضا. وآمل أن تساعدني كتابة هذا المؤلف على الإجابة عنه.

- 1 -

جمهوريون وديمقراطيون

في معظم الأيام، أدخل مبنى الكونغرس عبر القبو. إذ ينقلني قطار أنفاق صغير من هارت بيلدنغ، حيث يقع مكتبي، عبر نفق تحت الأرض تحفه أعلام وشعارات الولايات الخمسين. يتوقف القطار وأترجل منه لأشق طريقي عبر موظفين يعملون بنشاط، وطواقم صيانة، ومجموعات من الزوار تتجول في المبنى أحيانا، وصولا إلى المصاعد القديمة التي تحملني إلى الطابق الثاني. وحين أغادر المصعد ألوح للصحفيين المتجمعين عادة هناك، وألقي التحية على شرطة الكونغرس، وأدخل عبر مجموعة من الأبواب الضخمة المزدوجة إلى قاعة مجلس الشيوخ الأمريكي.

لا تعد القاعة أجمل مكان في مبنى «كابيتول هيل»، لكنها مهيبة مع ذلك. فلون الجدران البني المائل إلى الرمادي تغايره ألواح مستطيلة من الدامسكو الأزرق وأعمدة من الرخام المعرق الجميل. في حين يأخذ السقف شكلا بيضاويا حليبي اللون يربض في مركزه نسر أمريكي، وتنتصب فوق شرفة الزوار - بوقار ومهابة - تماثيل نصفية لأول عشرين رئيسا.

وتبرز من أرضية القاعة مئة من المنابر المتدرجة المصنوعة من خشب الماهوغني على شكل حدوة فرس من أربعة صفوف. بعض هذه المنابر يعود تاريخ صنعه إلى عام 1819، وفوق كل منبر دواة للحبر والريشة. وعند فتح درج أي منبر ستجد داخله أسماء الأعضاء الذين استخدموه ذات يوم - تافت ولونغ، ستينيس وكنيدي - خطتها أيديهم. في بعض الأحيان، حين أقف هناك، أتخيل بول دوغلاس أو هيوبرت همفري، يقف أمام واحد من هذه المنابر ويطالب بإلحاح بتبني تشريع الحقوق المدنية؛ أو جو مكارثي يبحث في اللوائح ويستعد لتسمية الأسماء ومهاجمة أصحابها؛ أو ال بي جي يتجول في الممرات خلسة، ويقبض على طيات صدور المعاطف ويجمع الأصوات. في أحيان أخرى، أذهب إلى المنبر الذي جلس أمامه ذات يوم دانييل ويبستر وأتخيله

يقف في الصالة المحتشدة بزملائه، في حين احمرت عيناه وهو يدافع بصوت مدو عن الاتحاد ضد قوى الانفصال.

لكن هذه اللحظات تبهت بسرعة. وباستثناء الدقائق القليلة المطلوبة للتصويت، لا نمضي أنا وزملائي وقتا طويلا في قاعة المجلس. ومعظم القرارات ـــ المتعلقة بمشروعات القوانين والتعديلات عليها، وكيف يُقنع الأعضاء غير المتعاونين بالتعاون ـ يعمل عليها مقدما زعيم الأغلبية، ورئيس اللجنة المعنية، وموظفوهما، ونظراؤهم الديمقراطيون (اعتمادا على درجة الجدل الخلافي وشهامة تعامل الجمهوريين مع مشروع القانون). وبحلول الوقت الذي نصل فيه إلى قاعة المجلس ويبدأ الموظف المسؤول إعلان جدول الأعمال، يكون كل عضو قد قرر ـ بالتشاور مع طاقم مساعديه، ورئيس أعضاء حزبه، ومجموعات الضغط المفضلة، والدائرة الانتخابية، والميول الأيديولوجية ـ موقفه من القضية.

يساعد ذلك كله في تعزيز كفاءة العملية، ويقدر قيمته الأعضاء، الذين يعملون مدة اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة ساعة ويريدون العودة إلى مكاتبهم لمقابلة الناخبين أو الرد على المكالمات الهاتفية، أو الذهاب لاجتماع مع المتبرعين في فندق مجاور، أو إلى الاستديو لإجراء مقابلة تلفزيونية على الهواء مباشرة. لكن إذا بقيت بعد أن تنفض الجلسة فلربما تجد عضوا وحيدا يقف أمام منبره، يسعى للحصول على الحق في إلقاء بيان في القاعة. قد يكون تفسيرا لمشروع قانون يقدمه، أو تعليقا أوسع على تحد لم تتم مواجهته على الصعيد الوطني. ربما يتفجر صوت المتحدث حماسة وقوة، وتبدو حججه ـــ فيما يتعلق بتخفيضات ميزانية البرامج المخصصة للفقراء، أو اعتراضات على التعيينات القضائية، أو الحاجة إلى استقلالية الطاقة ـ دامغة ومفحمة. لكن المتحدث يخاطب قاعة خالية تقريبا، لا تضم سوى الضابط المسؤول، وبعض الموظفين، ومراسل يتابع أخبار مجلس الشيوخ، وعين كاميرا المحطة الكبلية التي لا تطرف. وحين ينتهي، يأتي حاجب يرتدي حلة زرقاء ويجمع صامتا البيان لتسجيله رسميا. عندها قد يأتي عضو آخر ويكرر الطقوس ذاتها.

في أعظم هيئة تشاورية في العالم، لا يصغي أحد إليك على ما يبدو.

تـرك الرابـع من كانـون الثـاني/ يناير 2005 ــ اليوم الـذي قمت فيـه، أنا وثلث أعضـاء مجلس الشيوخ بأداء القسم بوصفنا أعضـاء في الكونغرس التاسع بعد المئة ـ ذكـرى مشوشة وجميلة في آن. كانت الشمس مشرقـة، والهواء دفيئا (على غير العادة في الشتـاء). احتشـدت عائلتي والأصدقاء من الينوي وهـاواي ولندن وكينيا في شرفة الزوار ليهللوا ويصفقوا حين وقفت أنا وزملائي الجدد جانب المنصة الرخامية ورفعنا اليـد اليمنى لأداء قسم تسلم المنصب. في قاعة المجلس القديمة، انضمت إلي زوجتي، ميشيـل، وابنتاي لالتقـاط الصور التذكارية مع نائب الرئيسـ تشيني (صافحت ماليا التـي كانت في السادسة آنذاك نائب الرئيسـ بوقار واحترام كما تقضي الشكليات، في حـين قـررت ساشـا، وكانت في الثالثـة، أن تدق كفها بكـف تشيني قبـل أن تلوح لآلات التصويـر). بعد ذلك، شاهدت الطفلتين تنزلان درج مبنى الكابيتول الشرقي، وتطاير ثوباهما الوردي والأحمر مع نسمات الهواء اللطيفة، ولعبتا حول الأعمدة البيضاء المهيبة لمبنـى المحكمة العليا. أمسكنا أنا وميشيل بأيديهما، ومشينا معا إلى مكتبة الكونغرس، حيث التقينا ببضع مئات من المهنئين الذين أتوا من مسافات بعيدة، وقضينا الساعات التالية نصافحهم ونعانقهم وتلتقط لنا الصور معهم ونوقع على دفاترهم.

كان يومـا متخما بالابتسامات وكلمات الشكر، والمجاملات المؤدبة والاستعراضات الرائعـة ـ هكذا بدا حتمـا لزوار الكابيتول. لكن حتى لو أظهـر جميع سكان واشنطن أفضل سلوك عندهم في ذلك اليوم، وأكدوا جميعا استمرارية ديمقراطيتنا، فإن فضلة مـن الهواء الراكـد الثقيل ظلت مخيمة على المكان، علامة على أن الجو الاحتفالي لن يـدوم. فبعد ذهاب الأصدقاء إلى بيوتهم، وانتهاء الاحتفالات، واختباء الشمس خلف أستار الشتاء الرماديـة، سيطرت على المدينة حتمية حقيقية وحيدة لا يمكن تغييرها على ما يبدو: البلد مقسم سياسيا، وكذلك واشنطن، إلى درجة لم يشهدها منذ عهد ما قبل الحرب العالمية الثانية.

بـدت الانتخابات الرئاسية ومختلـف المعايير والمقاييس الإحصائيـة وكأنها تؤكد الحكمـة التقليدية. هنالك طيف واسـع من القضايا التي يختلـف عليها الأمريكيون: العـراق، الضرائب، الإجهاضـ، الأسلحة، الوصايـا العشر، الـزواج المثلي، الهجرة،

التجارة، السياسة التعليمية، أنظمة وقواعد البيئة، حجم الحكومة، دور المحاكم. لم نكتف بالاختلاف الهادئ، بل تنازعنا بحدة، حيث لم يعد لدى الحزبيين على طرفي خط التقسيم أي ضوابط وكوابح في نقدهم اللاذع للخصوم وهجومهم الجارح على المناوئين. اختلفنا على مدى ومجال اختلافاتنا، وطبيعتها، ودواعيها. كل شيء أصبح محل خلاف، من سبب تغيير المناخ إلى حقيقة تغيير المناخ، ومن حجم العجز في الميزانية إلى المتواطئين الذين يجب تحميلهم مسؤولية العجز.

فيما يتعلق بي، لم يمثل أي من هذه القضايا مفاجأة تامة. فقد تابعت من قبل تصاعد حدة المعارك السياسية في واشنطن: إيران ـ كونترا واولي نورث، ترشيح بورك وويلي هورتون، كليرانس توماس وانيتا هيل، انتخاب كلينتون وثورة غينغريتش، وايت ووتر وتحقيق لجنة ستار، مساءلة الحكومة وإخضاعها للمحاكمة، قصاصات الورق التي تلقى من نوافذ المكاتب، بوش مقابل غور. وراقبت مع باقي الأمريكيين سرطان ثقافة الحملات الانتخابية ينتشر في مختلف أعضاء الجسم السياسي على شكل صناعة كاملة من الإهانة ـــ الدائمة والمربحة إلى حد ما ـــ برزت لتهيمن على محطات التلفزيون الكبلية، والأحاديث الإذاعية، ولائحة أفضل الكتب مبيعا في صحيفة نيويورك تايمز.

وعرفت طوال ثمانية أعوام في المجلس التشريعي لولاية الينوي أصول اللعبة. وبحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى سبرينغفيلد (عاصمة الينوي) عام 1997، كانت الأغلبية الجمهورية في مجلس شيوخ الولاية قد تبنت القواعد ذاتها التي كان رئيس المجلس غينغريتش يستخدمها للحفاظ على السيطرة المطلقة على مجلس النواب في الولايات المتحدة. وفي غياب القدرة على تبني أكثر الصيغ اعتدالا للجدل حول إدخال تعديلات على القوانين، فضلا عن تمريرها، اكتفى الديمقراطيون بالصراخ والصياح والاحتجاج والتذمر، ثم الوقوف عاجزين أمام الجمهوريين وهم يتبنون قانون خفض الضريبة على الشركات الكبرى، أو فرض ضرائب على القوة العاملة، أو تقليص الخدمات الاجتماعية. وبمرور الوقت، انتشر غضب يتعذر تهدئته بين الأعضاء الديمقراطيين، وكان زملائي يسجلون كل إهانة أو انتهاك يرتكبه الأعضاء

الجمهوريــون. بعد ست سنوات، سيطــر الديمقراطيون، لكن سلــوك الجمهوريين لم يتغير. بعض قدامى الأعضــاء يتذكرون بتشوق تلك الأيام التي كان فيها الجمهوريون والديمقراطيــون يلتقون على العشاء معا، ويتوصلون إلى التسويات وهم يتناولون قطع اللحم ويدخنون السيجار. لكن حتى مثل هذه الذكريات العزيزة لدى بعض هؤلاء تبهت بسرعة حــين يختارهم الناشطون السياسيون من الطــرف الآخر أهدافا لهجماتهم، ويرسلون إلى الناخبين في مناطقهم وابلا من الرسائل التي تتهمهم بمخالفة القانون، والفساد، والعجز وعدم الكفاءة، والدناءة الأخلاقية.

لا أزعــم أننــي بقيــت متفرجــا مستكينــا وسلبيا في خضــم ذلك كلــه. لقد فهمت السياســة بوصفها رياضة عنيفــة، ولم آبه للكم والركل والضــرب تحت الحزام. لكن تمثيلي لدائرة ديمقراطية حديدية أنقــذني من أسوأ انتقادات وطعنات الجمهوريين. بــين الحين والآخر، كنت أشارك حتى أشد المحافظــين من زملائي العمل على تشريع قانون، ونستنتج ونحن نلعب الورق أو نتناول قدحا من الجعة أن العوامل المشتركة بيننا تفــوق ما نعترف به علنا. وهــذا يفسر ربما سبب تشبثي طوال سنواتي في سبرينغفيلد بفكرة أن السياسة يمكن أن تأخذ صيغة مختلفة، وأن الناخبين يريدون شيئا مختلفا؛ وأنهــم سئموا التشويه والتحريــف، والسباب والشتائم والإهانــات، والحلول الوجيزة المؤقتــة للمشكلات المعقدة؛ وأنني لو استطعت الوصــول إلى هؤلاء الناخبين مباشرة، وتأطــير القضايــا كما أراها، وشرح الخيــارات بأسلوب صادق كمــا عرفته الآن، فإن فطرة الناس التي تدفعهم إلى النزاهة والمنطق البدهي السليم سوف تجمعهم حولي. وإذا ركــب عــدد كاف منهم هذه المخاطرة، كما حسبت، فلن تتغير سياسة البلاد نحو الأفضل فقط بل سياسات الأمة بأسرها.

بهــذه الذهنية دخلت سبــاق الترشح إلى مجلس الشيوخ عــام 2004. وطوال مدة الحملة بذلت قصارى جهدي لإعلان ما أفكر به، والمحافظة على نقائه، والتركيز على الجوهــر. وحين فزت بالانتخابات التمهيدية ثــم العامة، بهامش كبير، شعرت بإغراء الاعتقاد بأنني أثبت حجتي.

بقيــت مشكلة واحــدة: سارت حملتــي الانتخابية على ما يرام بحيــث بدت وكأنها رمية من غير رام. ولاحــظ المراقبون السياسيون أن المرشحين الديمقراطيين السبعة

في الانتخابات التمهيدية لم يعرضوا أي إعلانات سلبية على شاشة التلفزيون. وأغنى المرشحين، وهو تاجر سابق تناهز ثروته 300 مليون دولار، أنفق مبلغ 28 مليون دولار، معظمه على سلسلة من الدعايات الإيجابية، ولم تفقد الحملة اندفاعتها إلا في الأسابيع الأخيرة بسبب ملف طلاق مسيء فتحته الصحافة. أما خصمي الجمهوري، وهو رجل وسيم وثري كان شريكا لغولدمان ساكس، ثم عمل مدرسا في الأحياء الداخلية، فقد بدأ الهجوم على سجلي على الفور تقريبا، لكن قبل أن تنطلق حملته، اجتاحته فضيحة طلاق أخرى. وبقيت قرابة شهر أسافر في مختلف أنحاء الينوي دون أن أتعرض للهجوم، قبل أن يتم اختياري لإلقاء الخطبة الرئيسة أمام المؤتمر الوطني الديمقراطي ـ استمرت سبع عشرة دقيقة تبث على الهواء مباشرة دون انقطاع. وأخيرا، اختار الحزب الجمهوري في الينوي، دون تفسير معقول، المرشح السابق للرئاسة الان كيز خصما لي، مع أنه لم يقم في الينوي أبدا، وثبت أنه عنيف وعنيد في مواقفه إلى حد أن الجمهوريين أنفسهم كانوا يخشونه.

فيما بعد، عدني الصحفيون والمراسلون أكثر السياسيين حظا في الولايات الخمسين كلها. في السر، أعرب المساعدون العاملون معي عن سخطهم على هذا التقييم، لأنه يقلل من أهمية الجهد الذي بذلوه، وجاذبية رسالتنا. ومع ذلك، ليس ثمة ضرورة لإنكار حقيقة حظي السعيد. فقد كنت غريبا وخارجا عن المألوف؛ ولم يثبت انتصاري شيئا للسياسيين المطلعين على بواطن الأمور.

لا عجب إذن أنني شعرت، عند وصولي إلى واشنطن في شهر كانون الثاني/ يناير، كأنني لاعب هاو غرير ينضم إلى الدوري الممتاز، ويخرج بعد أول مباراة نظيف الملابس ويتشوق للعب مباراة أخرى مع أن زملاءه في الفريق قد لطخ الوحل ملابسهم وما يزالون يعالجون جراحهم. وفي حين كنت منهمكا ومشغولا بالمقابلات والوقوف أمام عدسات المصورين، ومترعا بالأفكار الأخلاقية السامية حول الحاجة إلى تقليص حدة الحزبية والنزاعات، كان الديمقراطيون يتعرضون للضربات عموما ـ الرئاسة، ومقاعد مجلس الشيوخ ومجلس النواب. لقد رحب بي زملائي الديمقراطيون الجدد أجمل ترحيب؛ ودعوا انتصاري واحدة من نقاطنا المضيئة القليلة. لكن في الممرات، أو

عندما يخف النشاط في قاعة المجلس، كانوا يذكروني بالنمط الذي أصبحت تتخذه الحملات في مجلس الشيوخ.

أخبروني عن زعيمهم الذي سقط، توم داشل (داكوتا الجنوبية)، بعد أن تعرض لقصف حملات دعائية سلبية كلفت ملايين الدولارات ــ منها إعلانات احتلت صفحات كاملة في الجرائد ودعايات تلفزيونية، تبلغ جيرانه كل يوم أنه يؤيد قتل الأطفال وارتداء الرجال أثواب الزفاف، بل إن بعضها أشار إلى أنه كان يسيء معاملة زوجته الأولى، على الرغم من حقيقة أنها سافرت إلى داكوتا الجنوبية للمساعدة على إعادة انتخابه. وتذكروا ماكس كليلاند، الذي شغل مقعد جورجيا، وخسره في الدورة السابقة بعد أن اتهم بعدم الوطنية، ومساعدة واسترضاء أسامة بن لادن، مع أنه من قدامى المحاربين في المعارك وبترت ثلاثة من أطرافه.

ثم هناك المسألة المتعلقة بجمعية سويفت بوت لقدامى المحاربين في سبيل الحقيقة: الكفاءة الصادمة التي يمكن عبرها للإعلانات الدعائية المناسبة وصيحات وسائل الإعلام المحافظة أن تحول بطلا خاض حرب فيتنام وتقلد وساما لشجاعته، إلى خائن مستسلم يسترضي العدو.

لا شك في أن هنالك جمهوريين شعروا بتعرضهم للإساءة وسوء المعاملة أيضا. وقد تكون افتتاحيات الصحف التي ظهرت في الأسبوع الأول من الجلسات على صواب؛ لربما حان الوقت لكي نضع الانتخابات خلفنا، ويتجاوز الحزبان العداوات بينهما، مدة سنة أو اثنتين على الأقل، والالتفات إلى حكم البلد. قد يكون ذلك ممكنا لو لم تكن الانتخابات على هذا القدر من التنافس، أو لم تكن الحرب في العراق مستعرة، أو لم تستهدف مجموعات الضغط، والخبراء والعارفون، ووسائل الإعلام تحقيق الكسب والمنفعة عبر الإثارة والتهييج. لربما كان السلام سينجو لو أن في البيت الأبيض إدارة مختلفة، إدارة أقل التزاما بشن الحملات الدائمة ــ إدارة تعد انتصارا بنسبة 51 ـ 48 دعوة للتواضع والتسوية بدلا من تفويض لا يمكن دحضه.

لكن مهما كانت الشروط والظروف المطلوبة لمثل هذا الانفراج، إلا أنها لم تكن متوفرة عام 2005. لم تظهر أي إشارات على تنازلات أو صفاء النية. فبعد يومين

مـن الانتخابات، ظهر الرئيس بوش أمـام عدسات الكاميرات وأعلن أن لديه رأسمال سياسيـا وأنـه ينـوي استخدامه. وفي اليـوم ذاته، لاحـظ الناشط المحافـظ غروفر نوركويست، دون أن يكبحه الوقار المطلوب في منصبه أن «أي مزارع سيخبرك أن بعض الحيوانـات تكـره التجول بحرية، لكن حينما توضع في قفصـ تسعد وتهدأ»، وذلك في معرضـ الإشارة إلى وضع وحالة الديمقراطيين. وبعد يومين من أدائي القسم، وقفت عضـو الكونغرس ستيفـاني توبس جونز (مـن كليفلاند) في مجلسـ النواب متحدية صحـة وموثوقيـة ناخبي اوهايو، مستشهـدة بالشكاوى من المخالفـات التي حدثت في الولاية يوم الانتخابات. وتجهم الأعضـاء الجمهوريون العاديون (وسمعتهم يتمتمون: «خاسرون فاشلون»)، لكن حدق كل من رئيس المجلس هاسترت وزعيم الأغلبية دي لاي من فوق منبره مكفهر الوجه، وبدا رابط الجأش وهو يعلم أنه يمتلك أغلبية الأصوات والمطرقـة. عضو مجلس الشيوخ باربرا بوكسر (من كاليفورنيا) قبلت التحدي، وحين عدنـا إلى قاعة المجلس، وجـدت نفسي أصوت أول مرة إلى جانـب ثلاثة وسبعين من أصل أربعة وسبعـين صوتوا في ذلك اليوم، لإعادة انتخاب جورج بوش رئيسا للولايات المتحدة لولاية ثانية.

تلقيـت أولى الاتصالات الهاتفية والرسائـل السلبية بعد هذا التصويت. اتصلت ببعضـ أنصاري الديمقراطيين الساخطين، وأكدت لهـم أنني مطلع على المشكلات في اوهايـو، وأظن أن التحقيـق يجري بصورة منتظمة، لكنني مازلت أعتقد أن بوش فـاز في الانتخابـات، ولم أتخل عـن القضية ولم يجرفني التيـار، إذ لم ينقض سوى يومين على دخولي المجلس. في ذلك الأسبوع نفسه، قابلت صدفة السيناتور المتقاعد زيل ميلـر، الديمقراطي النحيل الحاد العينين (من جورجيـا) وعضو إدارة جمعية السـلاح الوطنية، الذي اختلف مـع الحزب الديمقراطي، ووافق علـى بوش، وألقى خطبـا لاذعة في مؤتمـر الحزب الجمهوري ــ تنتقد بأسلوب مسرحـي استعراضي خيانة جون كيري وضعفه المزعوم في مجال الأمن القومي. كان حديثا قصيرا ومليئا بالسخرية المبطنة ـ خروج الجنوبي العجوز، دخول الشمالي الأسود الشاب، والتغاير الـذي لاحظته الصحافة في خطبنا أمام المؤتمـر. كان السيناتور ميلر كريما وتمنى

لي حظـا سعيدا في عملـي الجديد. قرأت فيما بعد مقتطفات مـن كتابه «قلة أدب»، قـال فيهـا إن خطبي أمام المؤتمر كانت من أفضل ما سمع في حياته، قبل أن يلاحظ ـــ وتخيلـت أن على وجهه ابتسامـة ماكرة ـ إنهـا ليست الأكثر فاعليـة فيما يتصل بالمساعدة على الفوز بالانتخابات.

بكلمات أخرى: خسرت أنا وفاز زيل ميلر. ذلك هو الواقع السياسي القاسي البارد، وكل ما عداه عواطف ومشاعر.

سوف تخبرك زوجتي أنني، بالطبيعـة، لست شخصا ممن يستفزون أو يستثارون بسهولـة. وحـين أشاهد آن كوتلـر أو شون هانيتـي يصرخان ويصيحـان على شاشة التلفزيون، يصعب علي أخذ أي منهما على محمل الجد؛ وأفترض أنهما يفعلان ذلك أساسـا لترويج مبيعات كتاب ما أو تعزيـز أهميته، مع أنني أتساءل: من يهدر أمسيته الثمينـة مع شخص نكد وسيئ الطبع كهذين. عندمـا كان الديمقراطيون يؤكدون لي في بعض المناسبات ويلحون بإصرار على أننا نعيش في أسوأ العصور السياسية، وأن قبضة فاشية زاحفة تطبق على خناقنا، أذكر لهم احتجاز الأمريكيين من ذوي الأصول اليابانية في عهد فرانكلين روزفلت*، أو قوانين الأجانب والتحريض في عهد جون آدمز **، أو الإعـدام بـلا محاكمة على يـد الغوغاء طوال مئات السنـين وفي عهد عشرات الإدارات، بوصفهـا حـالات أشـد سوءا، وأقـترح أن نأخذ جميعا نفسـا عميقا. وحين كان الناس يسألوننـي في حفلات العشاء كيف يمكننـي أن اشتغل في البيئة السياسية الحاليـة، مـع كل الحملات السلبيـة والانتقـادات والهجمات الشخصيـة، كنت أذكر نيلسـون مانديلا، أو ألكسندر سولجنتسـين، أو بعض الأشخاص في السجون الصينية أو المصريـة. وفي الحقيقـة، إن السبـاب والشتائم ليست أمرا سيئـا ومهددا إلى هذا الحد.

ومـع ذلـك، لا أتمتـع بالحصانـة التامة مـن القلق والتوتـر. وعلـى شاكلة معظم الأمريكيين، أجد صعوبة هذه الأيام في التخلص من الإحساس بأن ديمقراطيتنا ضلت سواء السبيل وانحرفت إلى حد خطر.

* (1882-1945)، الرئيس الثاني والثلاثون للولايات المتحدة (1933-1945). (م).

** (-1735 1826)، الرئيس الثاني للولايات المتحدة (-1797 1801) وأحد زعماء الثورة الأمريكية. (م).

الأمر لا يقتصر على وجود فجوة بين مثلنا المعلنة التي نعترف بها كأمة وبين الواقع الـذي نشهـده كل يوم. بـل إن هذه الفجوة وجـدت بشكل أو بآخر منـذ ولادة أمريكا. فقد شُنت الحروب، وأصدرت القوانين، وأصلحت الأنظمة، ونظمت النقابات، وأعلنت الاحتجاجات في سبيل تقريب الوعد المأمول إلى الممارسة العملية.

لا أبـدا، فإن ما يقلق هو الفجوة بين اتساع حجـم التحديات التي تواجهنا، وضيق أفق سياستنا ـ السهولة التي يشتت بها انتباهنا بالتافه والسطحي، ومشكلتنا المزمنة المتمثلـة في تجنـب القرارات الصعبة، وعجزنا الظاهر عـن التوصل إلى إجماع عملي للتصدي لأي مشكلة كبرى.

نعلم أن التنافس العالمي ـ فضلاً عن أي التزام حقيقي بالقيم المرتكزة على الفرص المتساويـة والحـراك والارتقـاء ـ يتطلـب منا ترميـم وتجديده نظامنـــا التعليمي من القمــة إلى القاعدة، وتحديث ورفـد هيئاتنا التدريسية، وبذل جهد مركز على تدريس الرياضيات والعلوم، وإنقاذ أطفال الأحياء الداخلية من الأمية. ومع ذلك فإن الجدل المحتـدم بيننا فيما يتعلـق بالتعليم يبدو أنـه محاصر بين الراغبـين في تفكيك نظام المدارس العامــة، والمدافعين عن الوضع القائـم الذي يتعذر الدفـاع عنه، بين الذين يقولـون إن المـال لا تأثير له في التعليم والذين يريـدون مزيدا من المال دون إظهار أنه سيستخدم في المكان المناسب.

نعــرف أن نظام الرعاية الصحية لدينا منهار: باهظ التكلفة، وعاجز إلى أبعد حد، وغير قادر على التكيف مع اقتصاد لم يعد مبنيا على الاستخدام مدى الحياة، نظـام يعرض الأمريكيين المجديـن في عملهم إلى حالة مزمنة مـن انعدام الأمان الاقتصـــادي وربمـــا يوصلهـم إلى حافة الفقر المدقـع. لكن سنة بعـد أخرى، أدت الإيديولوجية وفن الفوز على الخصوم إلى حالة من العطالة والشلل، باستثناء عام 2003، حـين أصدرنا قانون وصفات الدواء الذي جمع أسوأ ما في القطاعين العام والخاص ـ ارتفاع الأسعار والتخبط البيروقراطي، والفجوات في التغطية والفواتير المذهلة لدافعي الضرائب.

نعلم أن المعركة مع الإرهاب الدولي هي في الوقت ذاته صراع مسلح وحرب أفكار، وأن أمننا على المدى الطويل يعتمد على إبراز قوتنا العسكرية بأسلوب حصيف وحكيم وعلى زيادة التعاون مع الأمم الأخرى، وأن التصدي لمشكلات الفقر في العالم والدول الفاشلة أمر حيوي لمصالح أمتنا وليس مسألة إحسان وصدقة. لكن عند متابعة معظم الجدل فيما يتعلق بسياستنا الخارجية، قد تحسب أن أمامنا خيارين لا ثالث لهما: الحرب أو الانعزال.

نعتقد أن الدين مصدر للراحة والفهم، لكننا نجد تعبيراتنا عن الدين تزرع بذور الانقسام؛ نظن أننا قوم نتصف بالتسامح، حتى حين تهيمن على المشهد التوترات العرقية والدينية والثقافية العاصفة. وبدلا من حل هذه التوترات أو التوسط لتسوية هذه الصراعات، تعمل سياستنا على تأجيجها، واستغلالها، وزيادة الفرقة بيننا.

في السر، يعترف المسؤولون في الحكم بهذه الهوة الفاصلة بين السياسة التي نتبعها والسياسة التي نحتاجها. ومن المؤكد أن الديمقراطيين لا تسرهم الحالة الراهنة لأنهم على الأقل حاليا في الجانب الخاسر، وخاضعون للجمهوريين الذين يهيمنون، بفضل الانتخابات التي يأخذ فيها الرابح كل شيء، على كل فرع من الحكومة ولا يشعرون بالحاجة إلى التسويات والتنازلات. لكن يجب على العقلاء من الجمهوريين ألا يغالوا بالتفاؤل، فإذا واجه الديمقراطيون صعوبة في الفوز، فإن الجمهوريين لا يستطيعون الحكم، بعد أن كسبوا الانتخابات على أساس التعهدات والالتزامات التي تناقض الواقع غالبا (تخفيض الضرائب دون تقليص الخدمات، خصخصة الضمان الاجتماعي دون تغيير في المنافع، شن الحرب دون تقديم تضحيات).

لكن في العلن، يصعب العثور على من يراجع ضميره أو يتفحص ذاته على جانبي خط التقسيم، أو حتى أوهى اعتراف بالمسؤولية عن الأزمة المأزقية المتشابكة. وما نسمعه بدلا من ذلك، لا في الحملات فقط بل في افتتاحيات الصحف والكتب ومواقع الإنترنت، مجرد تحريف وتضليل وتحويل لوجهة النقد وتحميل المسؤولية. واعتمادا على الذائقة، يصبح وضعنا الراهن نتيجة طبيعية إما للمحافظين المتطرفين أو الليبراليين المنحرفين، توم دي لاي أو نانسي بيلوتشي، شركات النفط الكبرى أو

المحامــين الجشعــين، المتزمتين من المتدينين أو الناشطين مــن المثليين. محطة فوكس الإخباريــة أو صحيفــة نيويــورك تايمز. سوف تتفــاوت بلاغة رواية هــذه القصص، ومكــر ومراوغة الحجج المقدمة، ونوعية الأدلة والبيانات وفقا للكاتب، ولن أنكر ميلي إلى تفضيــل القصــة التي يرويها الديمقراطيــون، ولا اعتقادي أن حجــج الليبراليين مؤسسة غالبا على المنطق والحقيقة. لكن التفسيرات والشروحات في صيغها المصفاة التــي يقدمها اليمين واليسار كلاهمــا أصبحت صورا مرآوية لكل منهما. إنها قصص المؤامــرة، وأمريكا التي يختطفها متآمر شريــر. وعلى شاكلة جميع نظريات المؤامرة، تضــم حكايات الطرفين ما يكفي مــن الحقيقة لإرضاء أولئــك المستعدين لتصديقها أصلا، دون الاعتراف بأي تناقضات قد تزعزع ركائز تلك الافتراضات. فهدفها ليس إقناع الطرف الآخر بل الإبقاء على القواعد الشعبية مهتاجة ومتيقنة صوابية قضاياها ـ واستمالة وغواية أنصار جدد لإجبار الطرف الآخر على الخضوع والاستسلام.

هنالــك بالطبع قصة أخــرى تروى، من جانب ملايــين الأمريكيين الذين يذهبون إلى أعمالهــم ووظائفهــم كل يوم، أو الذيــن يبحثون عن عمل، أو يبــدؤون مشاريعهم التجاريــة، أو يساعــدون أطفالهــم في كتابة واجباتهــم المنزلية، ويكافحــون ويعانون فواتير الغاز المرتفعة، وعدم كفاية الضمان الصحي، والتعويض التقاعدي التي جعلته بعضــ محاكــم الإفلاس غير قابــل للتطبيق. وهــم بدورهم يملؤهم الأمــل ويضنيهم الخوف مــن المستقبل. وحياتهم متخمة بالتناقضات والغموض. ولأن السياسة لا تعبر كثيرا عن معاناتهم ـ حيث السياسة اليوم تجارة لا رسالة، وليس الجدل المحتدم سوى مشهد مسرحي استعراضي ـ فهم يتحولون إلى الداخل، بعيدا عن الضجيج والصخب والغضب واللغو الذي لا نهاية له.

المطلــوب من الحكومــة التي تمثل حقا هــؤلاء الأمريكيين ـ وتخدمهــم فعلا ـ نوع مختلف من السياسة. نوع يحتاج إلى التعبير عن حياتنا كما نعيشها على أرض الواقع. ولــن يكــون مسبق الصنع، يمكن سحبه من على الرفــ، بــل يجب أن يشيد على أفضل مــا في تقاليدنــا التراثية ويفسر الجوانــب المظلمة في ماضينا. نحــن بحاجة إلى فهم كيــف وصلنا إلى هذا المــكان، أرض الفصائل المتحاربة والقبائــل المتصارعة. وسوف

نحتاج إلى تذكير أنفسنا، على الرغم من اختلافاتنا، بالعوامل المشتركة بيننا: الآمال والأحلام روابط لا ينفصم عراها.

من أول الأمور التي لاحظتها عند وصولي إلى واشنطن الود (النسبي) الذي يتمتع به أعضاء مجلس الشيوخ الأكبر سنا: اللطف الدائم الذي يحكم كل علاقة تفاعلية بين جون وارنر وروبرت بيرد، أو الرابطة الحقيقية من الصداقة التي تجمع الجمهوري تيد ستيفنز والديمقراطي دانييل اينوي. كان من الشائع القول إن هؤلاء الرجال يمثلون بقية جيل منقرض، رجال لا يحبون المجلس فقط لكنهم يجسدون السمة التي هي أقل تزمتا حزبيا في السياسة. وهي في الحقيقة واحدة من السمات القليلة التي يتفق عليها المعلقون المحافظون والليبراليون، إنها حقبة ما قبل السقوط، العصر الذهبي في واشنطن، حين سادت الدماثة والتهذيب وأدت الحكومة واجبها، بغض النظر عن الحزب الموجود في السلطة.

في حفل استقبال أقيم في إحدى الأمسيات، بدأت حديثا مع أحد المساعدين الذين عملوا في «الكابيتول» وحوله طوال خمسين سنة تقريبا. سألته عن رأيه بالسبب الكامن وراء اختلاف الجو بين أمس واليوم.

أجاب دون تردد: «اختلاف الأجيال. ففي ذلك الحين، كان كل مسؤول في واشنطن تقريبا قد خدم في الحرب العالمية الثانية. ربما تجادلنا وتنازعنا باستمرار حول القضايا. والعديد منا أتوا من خلفيات وأحياء متباينة، وتبنوا فلسفات سياسية مختلفة. لكن الحرب مثلت عاملا مشتركا بيننا. لقد تطورت التجربة المشتركة إلى نوع من الثقة والاحترام. وساعدتنا على العمل والإنجاز على الرغم من الخلافات بيننا».

حين كنت أستمع إلى الرجل وهو يسترجع ذكرياته، عن دوايت ايزنهاور وسام ريبيرن، ودين اتشسون وايفريت ديركسن، صعب علي مقاومة اكتساح الصورة الضبابية التي رسمها، عن زمن سبق الأخبار المستمرة مدة أربع وعشرين ساعة، وعن جمع التبرعات دون توقف، زمن الرجال الجادين وهم ينجزون عملهم الجدي

المحفوف بالخطر. ذكرت نفسي بأن حبه لهذه الحقبة السالفة شمل ذكريات انتقائية معينة: فقد مسح من الصورة اللجان الحزبية الجنوبية وهي تدين تشريع الحقوق المدنية المقترح في قاعة المجلس؛ والقوة القادرة للمكارثية؛ والفقر المخدر والمدقع الذي سلط عليه الضوء بوبي كنيدي قبل مقتله؛ وغياب النساء والأقليات عن مركز صنع القرار.

أدركت أيضا أن مجموعة من الظروف الفريدة ضمنت استقرار الإجماع الحاكم الذي كان جزءا منه: لا مجرد التجربة المشتركة في الحرب، بل الإجماع شبه العام الذي تشكل نتيجة الحرب الباردة والتهديد السوفييتي، وربما الأهم، الهيمنة التي لا تضاهى للاقتصاد الأمريكي خلال الخمسينيات والستينيات، بينما كانت أوروبا واليابان تخرجان من ركام ما بعد الحرب.

ومع ذلك، لا يمكن إنكار أن السياسة الأمريكية في سنوات ما بعد الحرب كانت أقل تمسكا بالأيديولوجيا ـ ومعنى الارتباط بالحزب أقل تحديدا وتبلرا ـ مقارنة بالحال اليوم. فالتحالف الديمقراطي المسيطر على الكونغرس طوال معظم هذه السنوات كان خليطا من الليبراليين الشماليين، مثل هيوبرت همفري، والديمقراطيين الجنوبيين المحافظين، مثل جيمس ايستلاند، والموالين الذين ترقيهم الآلات الانتخابية في المدن الكبيرة. أما ما جمع هذا التحالف معا فكان الشعبوية الاقتصادية للبرنامج الجديد ـ رؤية للأجور والمنافع العادلة، والرعاية والأشغال العامة، ومستوى المعيشة الذي يرتفع باستمرار. وفيما وراء ذلك، رعى الحزب ونمى فلسفة «عش ودع الآخرين يعيشون»: فلسفة اتصلت اتصالا وثيقا بالخضوع للقمع العنصري في الجنوب أو بترويجه وتشجيعه؛ فلسفة اعتمدت على ثقافة أكثر اتساعا، حيث المعايير الاجتماعية ـ طبيعة الجنسانية، مثلا، أو دور المرأة ـ لا تخضع للمساءلة غالبا؛ ثقافة لم تمتلك بعد المفردات اللازمة لإثارة الانزعاج والقلق، فضلا عن الجدال السياسي، حول مثل هذه القضايا.

أظهر الحزب الجمهوري أيضا طوال الخمسينيات وأوائل الستينيات تسامحا مع أنواع التصدعات والانقسامات الفلسفية ـ بين ليبرتارية باري غولدووتر الغربية

وأبويـة نيلسـون روكفلر الشرقيـة؛ بين الذيـن استدعوا التوجه الجمهـوري لابراهام لينكولـن وتيـدي روزفلت، الذي اعتنـق النشاطيـة الفيدرالية، وأولئـك الذين اتبعوا التوجه المحافظ لادموند بيرك، الذي فضل التقليد التراثي على التجريب الاجتماعي. ولم تكن عمليـة مواءمة هذه الاختلافات الإقليمية/ المناطقيـة والمزاجية، فيما يتعلق بالحقـوق المدنية والتنظيم الاتحـادي أو حتى الضرائب، منسقة ولا مرتبة. لكن مثلما هـي الحال مـع الديمقراطيـين، كانت المصالـح الاقتصادية هي التـي تربط الحزب الجمهوري معا عبر فلسفة الأسواق الحرة والتحفظ المالي التي يمكن أن تجتذب جميع أجزائـه التكوينية وشرائـح ناخبيه، من صاحب المتجر في الشـارع الرئيس إلى مدير النادي الريفي (ربما اعتنق الجمهوريون أيضا شعارا أشد تحمسا في معاداة الشيوعية في الخمسينيات، لكن مثلما أثبت جون كنيدي، كان الديمقراطيون على أتم الاستعداد لتجاوز الجمهوريين في هذا الصدد كلما اقترب موعد الانتخابات).

الستينيـات هـي التي أنهت هـذه الاصطفافات السياسية، لأسبـاب وبطرق تتالت زمنيـا وتاريخيا بترتيب منطقي. ظهـرت أولا حركة الحقوق المدنية، التي تحدت حتى في أيامهـا الهادئة المبكرة، أساس البنية الاجتماعية القائمة وأجبرت الأمريكيين على تحديـد موقفهم. في نهاية المطاف، اختار لينـدون جونسون الجانب الصحيح في هذه المعركة، لكن بوصفه ابن الجنوب، فهم أكثر من غيره التكلفة المتضمنة في هذا الخيار: حـين وقع قانون الحقوق المدنية عام 1964، قال لمعاونه بيل مويرز: إنه بجرة قلم سلم الجنوب إلى الحزب الجمهوري في المستقبل المنظور.

ثـم أتت الاحتجاجـات الطلابية على حرب فيتنام وبرزت الإشـارة إلى أن أمريكا ليست دائما على حق، وأن أعمالنا ليست مبررة على الدوام - وأن هناك جيلا جديدا لن يدفع أي ثمن أو يحمل أي عبء، يفرضهما زعماء من أجيال سابقة.

وبعدئـذ، مع اختراق جـدران الوضع السائـد، عبر كل شكل من أشـكال «الغريب اللامنتمي» البوابات: النسويات، والأمريكيون من ذوي الأصول اللاتينية (سندعوهم اللاتين في هـذا الكتاب)، والهيبيـون، والفهود السود، والأمهـات المحتاجات للمعونة

الاجتماعيـة، والمثليـون، وجميعهم يؤكـدون حقوقهم ويصرون علـى الاعتراف بهم، ويطالبون بمقعد على الطاولة وقطعة من الكعكة.

سيتطلـب الأمـر عـدة سنـوات ليبرز المنطـق الكامـن وراء هذه الحـركات. غلت إستراتيجيـة نيكسـون الجنوبيـة، وتحديه لنظام نقـل الطـلاب إلى المدارس البعيدة لأسباب تتعلق بالتمييز العنصري كما أمرت به المحاكم، وجاذبيته للأغلبية الصامتة، أرباحـا انتخابية فورية. لكـن فلسفته في الحكم لم تتحول أبدا إلى أيديولوجيا راسخة ومتماسكـة ـ فنيكسون على الرغم من كل شـيء هو الذي ابتـدأ أول برامج لتشجيع تمثيل النساء والأقليـات (خصوصا في الاستخدام) على المستوى الاتحادي ووقع على إنشـاء وكالـة حماية البيئـة وإدارة الأمان الوظيفي والمهني والصحـي لتصبح قوانين ساريـة. وسيثبت جيمي كارتر إمكانية جمـع وموالفة دعم الحقوق المدنية مع الرسالة الديمقراطية المحافظة تقليديا؛ وعلى الرغم من الانشقاقات في صفوف الديمقراطيين الجنوبيـين من أعضاء الكونغرس، إلا أن الذين اختاروا البقاء في الحزب سيحتفظون بمقاعدهم اعتمادا على قوة مؤهلاتهم، وهذا ما ساعد الديمقراطيين على الاحتفاظ بالسيطرة على مجلس النواب على الأقل.

لكـن الصفائح التكتونية لأمريكا تحركـت. إذ لم تعد السياسة مجرد قضية تتعلق بالمـال فقط بـل بالأخلاق أيضا، حيث أصبحت تخضع لضـرورات أخلاقية ومطلقات معنويـة. السياسـة أمر شخصـي حتما لكن تدس أنفها في كل علاقـة تفاعلية ـ بين السود والبيض أو الرجال والنساء مثلا ـ وتتورط في كل توكيد للسلطة أو رفضها.

ووفقـا لذلك كلـه، جرى تعريف الليبرالية والمحافظـة في المخيال الشعبي بواسطة الطبقـة لا الموقف ـ الموقف الذي يتخذ إزاء الثقافة التقليدية والقوى المضادة للثقافة. ومـا كان مهمـا لم ينحصر في الموقف من الحق في الإضـراب أو ضريبة الشركات، بل شمل الموقف من الجنس أو المخدرات أو موسيقى «روك اند رول»، أو القداس اللاتيني، أو القانون الكنسي الغربي. وفيما يتعلق بالناخبين الاثنيين البيض في الشمال، والبيض في الجنـوب عموما، لم تكن هذه الليبرالية الجديدة تعني الكثير. فالعنف في الشوارع والذرائع التبريرية لهذا العنف في أوساط المفكرين والمثقفين، وانتقال السود ليسكنوا

في المنزل المجاور ونقل تلاميذ المدارس البيض في الحافلات إلى مناطق أخرى، وحرق الأعلام والبصق على المحاربين القدماء، بدا ذلك كله إهانة وتجنيا، إن لم يكن هجوما علـى هذه الرموز ـ الأسرة والدين والعلم والحي والمزايا المقتصرة على البيض ـ التي يقدرها ويجلها هـؤلاء (الناخبون البيض في الشمال والبيض في الجنوب عموما). في خضـم هذه الحقبـة التي انقلبت فيها الأمـور رأسا على عقب بعـد الاغتيالات وحرق المـدن والهزيمة المنكرة والمـرة في فيتنام، حين أفسح التوسـع الاقتصادي المجال إلى خطـوط الغاز والتضخم وإغلاق المنشآت والمصانـع، وكان أفضل ما يقدر عليه جيمي كارتـر هو اقتراح خفض ضوابط درجة الحـرارة، واستطاعت حفنة من الراديكاليين الإيرانيين إضافة الملح إلى الجرح المفتوح الذي سببته منظمة البلدان المصدرة للنفط (أوبك) ـ بدأ جزء كبير من تحالف البرنامج الجديد يبحث عن بيت سياسي آخر.

شعـرت دومـا بعلاقـة غريبـة تربطني بحقبـة الستينيـات. وبمعنى مـن المعاني، أنـا نتـاج صرف لتلك الحقبة: كطفـل ولد من زواج مختلط، كانـت حياتي مستحيلة، وفرصـي معدومة كلية، لولا الثـورات والاضطرابات الاجتماعية التـي حدثت آنذاك. لكن كنت صغيرا حينها ولم أفهم تماما طبيعة تلك التغييرات، وبعيدا جدا ـ في هاواي وإندونيسيا ـ عن رؤية آثارها وتبعاتها على روح أمريكا. معظم ما تشربت به من حقبة الستينيـات أتى عبر والدتـي، التي ظلت حتى اليوم الأخير مـن حياتها فخورة بكونها ليبرالية لم تعد صياغة أفكارها. إذ استلهمت احترامها من حركة الحقوق المدنية على وجـه الخصوص؛ وكلما سنحـت الفرصة كانت تغرس في القيـم التي وجدتها هنـاك: التسامح، والمساواة، والدفاع عن المحرومين والمضطهدين.

لكـن فهم والدتي لحقبة الستينيات كان محدودا من جوانب عديدة، بسبب بعدها المـكاني (غـادرت الـبر الأمريكي عـام 1960) ورومانسيتهـا الـودودة العنيدة. على الصعيـد الفكري، ربمـا حاولت فهم «القـوة السوداء»، أو منظمـة «الطلاب من أجل مجتمـع ديمقراطـي»، أو أولئك النسوة من صديقاتها اللاتـي توقفن عن إزالة الشعر عـن سيقانهن، لكن غابت مشاعر الغضـب وروح المعارضة عن نفسها. وعلى الصعيد العاطفـي/ الوجداني، بقيت ليبراليتها تنتمي انتماء حاسمـا إلى ما قبل عام 1967،

وكان قلبهـا مثـل «كبسولة الزمن»*، مترعا بصـور برنامج الفضـاء، وفيلق السلام، و«ركاب الحرية»**، ومهيليا جاكسون ***، وجوان بايز ****.

ولم أتمكن إلا بعد أن تقدم بي العمر (خلال السبعينيات) من تقدير الدرجة التي بدأت عندها الأمور تخرج عن زمام السيطرة - في نظر أولئك الذين خبروا بطريقة مباشـرة أحـداث الستينيات ومـا أفرزته من عوامـل أثرت في التطـورات اللاحقة. فهمـت ذلك، جزئيـا، عبر تذمر جـدي وجدتي (لأمـي)، وكانا مـن الديمقراطيين المخلصـين الذين اعترفوا بأنهم صوتـوا لمصلحة نيكسون عام 1968، وهو فعل عدته والدتـي خيانة محرجـة لا يمكن أن تنسى. أتى فهمي لحقبـة الستينيات على الأغلب نتيجـة استقصاءاتـي الخاصة، حين سعى تمـرد المراهقة لـدي إلى تبرير للتغيرات السياسيـة والثقافية التي بدأت تتحسر آنذاك. في سنـوات المراهقة، سحرتني سمة الحقبـة الديونيسية المتاحة لمـن يشاء، وتشربت بواسطة الكتـب والأفلام والموسيقى برؤية للستينيات مختلفة اختلافا كبيرا عن تلك التي تحدثت عنها أمي: صورة هيوي نيوتـن، والمؤتمر الوطني الديمقراطي عام 1968، والفـرار بالحوامات من سايغون، والصخـور في التامونت. ومع أنه لم يكن لدي أسبـاب مباشرة للثورة، إلا أنني قررت أن أصبـح ثائـرا في الأسلوب والموقف، دون أن تكبلني الحكمـة الراسخة لمن هم فوق الثلاثين من العمر.

في نهاية المطاف، تسرب رفضي للسلطة إلى الانغماس في شؤون الذات وإلى تدمير الـذات، وبحلـول الوقت الذي التحقت فيـه بالجامعة بدأت أرى كيـف يضمر كل تحد للتقليد السائـد احتمال الغلو والإفراط وإمكانية التشـدد والتزمت. شرعت في إعادة تفحصـ افتراضاتي، وتذكرت القيـم التي تعلمتها من أمي وجـدي وجدتي. وفي هذه العمليـة البطيئة المتقطعـة لفرز معتقداتي، بدأت بأسلـوب صامت تسجيل النقطة في

* حاوية تضم وثائق وأشياء تميز الحقبة الراهنة، تدفن في الأرض لتكتشفها أجيال المستقبل. (م)

** مناهضون لسياسة الفصل العنصري في المرافق العامة قاموا برحلات بالحافلات إلى ولايات الجنوب الأمريكي خلال ستينيات القرن العشرين. (م)

*** (1911 - 1972)، منشدة تراتيل إنجيلية شهيرة في الولايات المتحدة. (م)

**** مغنية شعبية أمريكية ولدت عام 1941. (م)

الأحاديـث التـي دارت في مهاجع النـوم حين كنا أنا وزملائـي في الجامعة نتوقف عن التفكير ونتزلق إلى مستوى اللغة الطنانة والرياء والتظاهر: النقطة التي تأتي عندها إدانـات الرأسمالية أو الإمبريالية الأمريكية بسهولـة، وتُعلن الحرية من قيود الزواج الأحادي أو الدين دون فهم كامل لقيمة مثل هذه القيود والكوابح، ويُعتنق دور الضحية بأسلـوب جاهز كوسيلة للتهرب من المسؤولية، أو توكيد الحق المخول، أو ادعاء التفوق الأخلاقي على أولئك الذين لا يعدون من الضحايا.

ربمـا يفسر ذلك كلـه، السبب الـذي جعلني أتفهـم جاذبية رونالـد ريغان، على الرغـم من القلق الذي سببه انتخابه رئيسا عـام 1980 (وعدم اقتناعي بجون واين في فيلـم «الأب أفضـل من يعـرف»)، وسياستـه القائمة على الطرائـف والحكايات المسليـة، وهجومه دون مبرر على الفقراء. فهي الجاذبية نفسها التي شعرت بها إزاء القواعـد العسكرية في هاواي حين كنت صبيـا، بشوارعها المنظمة النظيفة ومعداتها الحديثـة، والبذات والتحيـات العسكرية السريعة والواثقة. وهـي تتصل بالمتعة التي مـا أزال أشعـر بها عند مشاهدة مباراة جميلة بالبيسبـول، أو باستمتاع زوجتي عند مشاهـدة برنامج «ديك فان دايك» خاطب ريغان تشوق أمريكا إلى النظام، وحاجتنا إلى الإيمـان بقدرتنـا على صياغـة مصائرنا الفرديـة والجمعية، ما دمنـا نستطيع إعادة اكتشاف الفضائل التقليديـة: العمل الجاد والدؤوب، وحب الوطن، والمسؤولية الشخصية، والتفاؤل، والإيمان.

قدرة رسالة ريغان على العثور على تلك الآذان المصغية لم تثبت مهارته الاتصالية فقط؛ بل دلت أيضا على فشل الحكم الليبرالي، خلال حقبة من الركود الاقتصادي، في تزويد ناخبي الطبقة الوسطى بأي إحساس بأنه يحارب من أجلهم. لأن الحكومة على كل مستوى أصبحت مغالية في تعجرفها فيما يتعلق بإنفاق أموال دافعي الضرائب. وفي كثـير من الأحيان، أغفلت البيروقراطيات كلفة التفويض الذي منح لها. وبدا معظم الخطـاب البلاغي الليبرالي أنه يقدر قيمة الحقوق أكـثر من الواجبات والمسؤوليات. ربما بالغ ريغان في تضخيم ذنوب وخطايا دولة الرعاية الاجتماعية، وكان الليبراليون على حق بالتأكيد في الشكوى من أن سياسته المحلية تحابي بشدة النخب الاقتصادية،

حيث حقق الذين استولوا على الشركات مرابح كبيرة طوال الثمانينيات، في حين تفتت النقابات وبقي دخل العمال العاديين على مستواه المنخفض ذاته.

ومع ذلك، قدم ريغان للأمريكيين، عبر الوعد بالوقوف إلى جانب أولئك الذين يعملون ويكدحون، ويطيعون القانون، ويهتمون بأسرهم، ويحبون وطنهم، إحساسا بالهدف المشترك الذي لم يعد الليبراليون قادرين على تحقيقه. وكلما تعاظم اعتراض منتقديه بالغوا في لعب الدور الذي رسمه لهم - عصبة من النخب الجاهلة، المبذرة، التي تلقي اللوم على أمريكا أولا، وتدعي الصوابية السياسية.

ما وجدته لافتا ومشهودا ليس نجاح تلك الصيغة السياسية التي طورها ريغان آنذاك، بل ديمومة الرواية السردية التي ساعد في ترويجها. وعلى الرغم من مضي أربعين سنة على حقبة الستينيات، ما زال ضجيجها وصخبها وردود الأفعال اللاحقة تحرك خطابنا السياسي. فهي تؤكد في جزء منها مدى عمق الإحساس بصراعات الستينيات لدى جيل من الرجال والنساء بلغوا سن الرشد آنذاك، والدرجة التي بلغها فهم حجج وأدلة الحقبة لا كمجادلات ومنازعات سياسية فقط بل كخيارات فردية حددت الهوية الشخصية والموقف الأخلاقي.

أفترض أنها تسلط الضوء أيضا على حقيقة أن القضايا الحاسمة في أهميتها التي شكلت بؤرة العنف في الستينيات لم تجد الحل أبدا. فقد تحول غضب الأفكار المضادة للثقافة السائدة إلى نزعة استهلاكية، وخيارات لأسلوب الحياة، وتفضيلات موسيقية بدلا من التزامات سياسية، لكن لم تختف مشكلات العرق والحرب والفقر والعلاقات بين الجنسين.

وربما يتعلق الأمر بمجرد حجم جيل ارتفاع نسبة المواليد بعد الحرب العالمية الثانية، وهذه قوة ديمغرافية مارست التأثير الجاذب في السياسة نفسه الذي مارسته في الميادين الأخرى جميعا، بدءا بالسوق وانتهاء بـ «الفياغرا»، مرورا بعدد الأبطال الفائزين الذين وضعتهم الشركات المصنعة للسيارات في سياراتها.

ومهما كان التفسير، سوف ترسم الخطوط الفاصلة بين الجمهوري والديمقراطي، والليبرالي والمحافظ بتعابير أيديولوجية أكثر حدة ودقة بعد رونالد ريغان. ويصدق

هــذا بالطبـع على القضايــا الخلافية المتفجرة فيمــا يتعلق بتمثيل النســاء والأقليات (المســاواة في الاستخــدام مثــلا)، والجريمــة، والرعايــة الاجتماعيــة، والإجهاض، والصــلاة في المدارس، وجميعها استطالات لمعارك سابقة. لكنها أصبحت تنطبق الآن أيضــا على كل قضية أخرى، كبيرة أو صغيرة، داخلية أو خارجية، حيث تقلصت كلها إلى لائحــة من إما/ أو، مع أو ضد، وخيارات جاهــزة مستمدة من الخطب السياسية التي تناقلتها وسائل الإعلام. لم تعد السياسة الاقتصادية مسألة تتعلق بإقامة التوازن بين الأهداف المتنافسة للإنتاجية وعدالة التوزيع، بين تضخيم الكعكة وتقسيمها. أنت إمــا مع خفض الضرائب أو رفعها، مع الحكومة التدخلية في كل شيء أو الحكومة التي تتبــع سياسة عدم التدخــل. لم تعد السياسة البيئية مسألة تــوازن بين حماية مواردنا الطبيعيــة ومطالــب الاقتصاد الحديــث؛ فإما أن تؤيد التطوير غــير المنضبط، وحفر واستنفــاد المناجم وغيرها، أو تدعم البيروقراطية الخانقة والروتين الكابح للنمو. في السياسة، أصبح التبسيط فضيلة.

في بعضــ الأحيــان أظن أن الزعماء الجمهوريين أنفسهــم الذين جاؤوا بعد ريغان مباشــرة لم يشعروا بالارتياح التام إزاء الوجهة التــي اتخذتها السياسة. فوفقا لقادة مثل جورج بوش الأب وبوب دول، بدا الخطاب الاستقطابي وسياسة الاستياء والاعتراض مفروضين فرضا على الدوام، طريقة لاقتناص الناخبين من القاعدة الديمقراطية لا وصفة للحكم بالضرورة.

لكــن فيما يتعلــق بالجيل من الناشطــين المحافظين الذين سيصعــدون قريبا إلى السلطــة، مثــل نيــوت غينغريتشــ وكارل روف وغروفــر نوركويست ورالــف ريد، كان الخطــاب الناري أكثر من مجرد إستراتيجية للحملات الانتخابية. فقد آمنوا حقا بما يقولــون، وما يرفعون من شعارات مثل «لا ضرائب جديدة» أو «نحن أمة مسيحية» وفي الحقيقة، فإن هذه القيادة المحافظة الجديدة، بعقائدها ومبادئها المتصلبة، وأسلوبها القائــم على القطــع والحرق (ثم الزرع)، والإحساس المغــالي بالتعرض للظلم، تذكر بطريقــة غريبة ببعض زعمــاء اليسار الجديد خــلال الستينيــات. ومثلما هي الحال مــع النظــراء اليساريين، رأت هذه الطليعة الجديدة لليمــين السياسة بوصفها مباراة

تنافسية لا بين الرؤى السياسية المتصارعة فقط، بل بين الخير والشر أيضا. فقد بدأ الناشطون من الحزبين كليهما بوضع وتطوير اختبارات صارمة، وتنظيم قوائم ولوائح بأسماء المؤيدين المتشددين، وهذا جعل الديمقراطي الذي يضع الإجهاض موضع المساءلة يشعر بالوحدة باطراد، والجمهوري المنادي بالسيطرة على انتشار الأسلحة يشعر بالعزلة والإقصاء. في هذا الصراع الثنوي (بين الخير والشر)، يبدو أي تنازل وهنا وأي تسوية ضعفا، ويجب معاقبة كل من يلجأ إليهما أو طرده وتصفيته. إما أن تكون معنا أو علينا. عليك أن تختار معسكرك.

من مساهمات بيل كلينتون الفريدة محاولته السمو على هذا الخلاف الأيديولوجي المستحكم، مدركا لا مجرد الفائدة التي تعود على الجمهوريين بتصنيف الناس إلى «محافظين» و«ليبراليين» كما أصبح يعني، بل عدم كفاية هذه التصنيفات للتصدي للمشكلات التي نواجهها. فخلال حملته الانتخابية الأولى، كانت إشاراته أحيانا إلى غدر الديمقراطيين الذين أيدوا ريغان تبدو خرقاء ومفضوحة («ماذا حصل للأخت سولجاه؟»)، أو تفتقد التعاطف والإحساس إلى حد مرعب (السماح للجدل حول إعدام سجين متخلف عقليا بالظهور عشية انتخابات تمهيدية مهمة). وخلال أول سنتين من ولايته، أجبر على التخلي عن بعض من العناصر الجوهرية في برامجه السياسية ـــ الرعاية الصحية الشاملة، والاستثمار الجريء في التعليم والتدريب ـ التي ربما عكست بصورة حاسمة النزعات البعيدة المدى التي أضعفت وضع العائلات العاملة في الاقتصاد الجديد.

ومع ذلك، فهم غريزيا زيف الخيارات المعروضة على الشعب الأمريكي. فقد رأى أن الإنفاق والتنظيم الحكومي يمكن أن يمثلا، عند تصميمهما بأسلوب صحيح، مكونات حيوية، لا كوابح، للنمو الاقتصادي، وكيف يمكن للانضباط المالي وضبط الأسواق أن يساعدا في تشجيع وتعزيز العدالة الاجتماعية. وأدرك أن الحاجة إلى محاربة الفقر لا تتطلب المسؤولية المجتمعية فقط بل المسؤولية الشخصية أيضا. في برنامجه السياسي، إن لم يكن في سياسته اليومية، تجاوز «الطريق الثالث» الذي تبناه كلينتون الفارق التقسيمي، فقد استفاد من الموقف البراغماتي غير الإيديولوجي للغالبية العظمى من الأمريكيين.

في الحقيقة، وبحلول نهاية ولاية كلينتون، تمتعت سياساته ـ التقدمية وإن كانت معتدلة في أهدافها ـ بتأييد شعبي واسع. على الصعيد السياسي، انتزع من الحزب الديمقراطي بعض التجاوزات المغالية التي منعته من الفوز في الانتخابات. لكنه فشل، على الرغم من انتعاش الاقتصاد، في ترجمة السياسات التي تحظى بالشعبية إلى ما يشابه تحالفا حكوميا يتناول الصعوبات الديمغرافية التي كان الديمقراطيون يواجهونها (خصوصا التحول في النمو السكاني إلى جنوب جمهوري راسخ على نحو متزايد) والمزايا البنيوية التي تمتع بها الجمهوريون في مجلس الشيوخ، حيث عادل صوتان لعضوين جمهوريين عن ولاية وايومنغ التي يبلغ عدد سكانها 493، 782 صوتين لعضوين ديمقراطيين عن كاليفورنيا، التي يبلغ عدد سكانها 33،871،648 نسمة.

لكن الفشل أيضا يشهد على مهارة غينغريتش وروف ونوركويست وأمثالهم وقدرتهم على ترسيخ ومأسسة الحركة المحافظة. فقد استفادوا من الموارد غير المحدودة للشركات الراعية والمتبرعين الأثرياء لإيجاد شبكة من المستشارين ومنافذ وسائل الإعلام. واستخدموا أحدث التقانات في مهمة حشد وتعبئة قواعدهم الجماهيرية، وقوتهم المركزة في مجلس النواب لتعزيز وتقوية الانضباط الحزبي.

وأدركوا تهديد كلينتون لرؤيتهم القائمة على أغلبية محافظة على المدى الطويل، وهذا يساعد في تفسير الحماس والعنف في مطاردته. ويفسر أيضا السبب وراء استثمار ذاك الوقت الطويل في مهاجمة مبادئه الأخلاقية، فإذا لم تكن سياسات كلينتون راديكالية تماما، فقد ثبت أن سيرته الذاتية (المسلسل الطويل لمسودة الرسالة، نفخ الماريجوانا، فكر مثقفي جامعات الساحل الشمالي الشرقي، الزوجة المهنية التي لا تعرف خبز الفطائر، والأهم: الجنس) ذات منفعة مثالية للقاعدة المحافظة. فمع ما يكفي من التكرار، وتحريف الحقائق، والدليل الدامغ والنهائي على هفوات وأخطاء الرئيس الشخصية، تحول كلينتون إلى نموذج يجسد ليبرالية الستينيات التي ساعدت في تحفيز الحركة المحافظة أصلا. ولربما كانت نتيجة صراع كلينتون مع تلك الحركة التعادل، لكنها ستخرج أشد قوة منه ـ وخلال ولاية جورج بوش الأولى، سوف تستولي الحركة على الحكم في الولايات المتحدة.

أعـرف أن أسلـوب رواية هــذه القصة مبالــغ في التنظيم والترتيـب. فهو يتجاهل الخيـوط والنزعات الحاسمة في السرد التاريخي ـ كيف أثر انحطاط وركود التصنيع وطرد ريغان للمراقبين الجويين تأثيرا حاسما، وجارحا، في الحركة العمالية الأمريكية؛ وكيـف ضمن إيجاد مناطق أغلبية/ أقلية في المناطق الانتخابية في الجنوب مزيدا من الممثلـين السـود وقلص مقاعد الديمقراطيـين في الوقت ذاته؛ والافتقـار إلى التعاون بين كلينتـون والديمقراطيين في الكونغرس، حيث أصيبوا بالترهل وقنعوا بحالهم ولم يدركـوا أنهـم في معركة. ولا يصـور الدرجة التي وصـل إليها التقـدم في إعادة رسم الدوائر الانتخابية في استقطاب الكونغرس، أو مدى كفاءة المال والدعايات التلفزيونية السلبية في تسميم الجو.

ومع ذلك، حين أفكر بما قاله لي في تلك الأمسية ذاك المساعد العجوز المطلع على أسـرار واشنطـن، وأتأمل في عمل جورج كينـان أو جورج مارشـال، وأقرأ خطب أمثال بوبـي كنيـدي أو ايفريت ديركسن، لا أستطيع منع نفسي مـن الشعور بأن سياسة هذه الأيام تعاني من حالة من توقف التطور. ففي نظر هؤلاء الرجال لم تكن القضايا التي تواجههـا أمريكا مجردة ونظرية، ومن ثم لم تكن بسيطة. قد تكون الحرب شرا لا بد منـه. ويمكن للاقتصادات أن تنهـار على الرغم من أفضل الخطـط الموضوعة. وقد يعمل النـاس بجد ودأب طوال حياتهم ومع ذلك يخسرون كل شيء.

وفيمـا يتعلق بالجيل التالي مـن الزعماء، الذين ترعرعوا في بيئـة مريحة نسبيا، أعطت التجـارب والخبرات المختلفة موقفا مختلفـا إزاء السياسة. ففي الجدل الذي احتـدم بين كلينتـون وغينغريتش، وفي انتخابات عامـي 2002 و2004، شعرت أحيانا كأننـي أشاهد درامـا نفسية لجيل حقبة زيادة المواليد *، ـ حكاية تجذرت في الأحقاد وخطـط الانتقام القديمة التي رسمت في حفنة مـن الجامعات قبل زمن طويل ـ تمثل علـى المسـرح الوطني. الانتصارات التـي حققها جيل الستينيات ـــ منح حق المواطنة الكاملـة للنســاء والأقليـات، تقويـة وتعزيـز الحقوق الفرديـة والرغبـة الإيجابية في مساءلـة السلطة ـ جعلت أمريكا في وضع أفضل بكثير لجميع مواطنيها. لكن ما ضاع

* حقبة امتدت في الولايات المتحدة بين عامي 1946 – 1965 تقريبا وشهدت ارتفاعا حادا في عدد المواليد. (م)

في العملية، ولم يستبدل حتى الآن، تلك الافتراضات المشتركة ـ تلك النوعية من الثقة والشعور بالزمالة ـ التي تجمعنا معا كأمريكيين.

إذن، أيـن يتركنا ذلـك كله؟ نظريا، ربما ينتج الحزب الجمهوري نسخة خاصة به عـن كلينتون، على هيئة زعيم من يمين الوسط يعتمد علـى السياسة المالية المحافظة لكلينتـون مع التحرك بجرأة أكبر مـن أجل ترميم البيروقراطية الاتحادية المتصدعة وتجريـب حلول مرتكزة على السـوق أو الدين للسياسـة الاجتماعية. وفي الحقيقة لم يظهـر هذا الزعيم بعد. فلا يسهم جميع المسؤولـين الجمهوريين المنتخبين في مبادئ الحركة المحافظـة الحالية. في مجلسي النواب والشيوخ كليهما، وفي عواصم الولايات في شتـى أنحـاء البلاد، هنالك هؤلاء الذيـن يتشبثون بالفضائـل المحافظة التقليدية القائمة على الاعتدال وضبط النفس ـ رجالاً ونساءً يدركون أن مراكمة الدين لتمويل التخفيضات الضريبية للأثرياء أمر طائش ومتهور وغير مسؤول، وأن تخفيض العجز لا يمكن أن يحدث على حساب الفقراء، وأن فصل الكنيسة عن الدولة يحمي الكنيسة والدولـة معـا، وأن الاعتدال والنزعـة المحافظـة لا يتصادمان بالضـرورة، وأن على السياسة الخارجية الارتكاز على حقائق واقعية لا التعلل بالآمال والأمنيات.

لكـن هؤلاء الجمهوريين ليسـوا أولئك الذين دفعوا بقوتهـم الجدل المحتدم طوال السنـوات السـت الأخيرة. فبـدلا من «النزعـة المحافظـة التراحمية» التـي وعد بها بوشـ في حملتـه الانتخابية عـام 2000، فإن ما يسـم الجوهـر الأيديولوجي للحزب الجمهـوري اليوم هو النزعـة الإطلاقية لا المحافظة. هنالـك النظرية المطلقة للسوق الحر، وأيديولوجية إلغاء الضرائب والقوانين والأنظمة وشبكة الأمان ـ في الحقيقة، لا توجد سلطة حكومية فيما وراء ما هو مطلوب لحماية الملكية الخاصة وتوفير الميزانية اللازمة للدفاع الوطني.

هنالـك الإطلاقيـة الدينية لليمين المسيحـي، وهي حركة اكتسبت قـوة الدفع من القضيـة الصعبة التي لا يمكن إنكارها لكنها سرعان مـا امتدت لتشمل مجالا أوسع: الإجهاض؛ إذ تصر بإلحاح لا على أن المسيحية هي الديانة المهيمنة على أمريكا فقط، بل على وجوب أن يوجه مذهب خاص وأصولي من هذه الديانة السياسة العامة، ويتجاوز

أي مصـــدر بديل للفهـم، بغض النظر هل تمثل في كتابـات اللاهوتيين الليبراليين، أو مكتشفات الأكاديمية الوطنية للعلوم، أو كلمات توماس جيفرسون.

وهنالـك الاعتقـاد المطلـق بسلطـة إرادة الأغلبيـة، أو علـى الأقل أولئـك الذين يزعمـون امتـلاك القوة والسلطة باسـم الأغلبية ـــ ازدراء لتلك الكوابـح المؤسسية (المحاكـم، الدستـور، الصحافة، معاهدات جنيف، قوانين وأحـكام مجلس الشيوخ، التقاليـد الناظمة لتقسيم المناطق الانتخابية) التـي يمكن أن تبطئ المسيرة العنيدة نحو «المدينة السماوية»

وبالطبـع هنالـك الذيـن يميلـون نحـو تبني نزعـة متزمتـة مشابهـة في الحزب الديمقراطـي. لكنهـم لا يقتربون أبـدا من امتلاك السلطـة التي يتمتع بهـا روف أو دي لاي، السلطـة التـي تستولي على الحــزب، وتحشد فيه الأنصـار والموالين، وتحول بعضـ أكثر أفكارهـا تطرفا إلى قوانـين. إن انتشـار الاختلافات المناطقيـة والاثنية والاقتصاديـة داخل الحزب، والخريطة الانتخابية والبنيـة التكوينية لمجلس الشيوخ، والحاجـة إلى جمع الأموال من النخب الاقتصادية لتمويل الانتخابات ـ تميل جميعها نحـو منـع أولئك الديمقراطيـين المسؤولين من الانحراف بعيدا عـن الوسط والمركز. وفي الحقيقـة، لا أعرف سوى قلة قليلة مـن الديمقراطيين الذين تنطبق عليهم تماما الصـورة الكاريكاتوريـة الليبراليـة؛ فجـون كيري يؤمـن بالحفاظ على تفـوق القوة العسكريـة الأمريكية، وهيلاري كلينتون تؤمن بفضائـل الرأسمالية، وجميع الأعضاء الديمقراطيـين السـود في مجلس الشيـوخ تقريبا يؤمنـون بأن المسيح مـات من أجل التكفير عن خطاياهم.

بدلا مـن ذلك، نعاني نحن الديمقراطيون من التشوشـ والارتباك. هنالك الذين مـا يزالـون يدافعون عن الديـن كما كان قديمـا، وينافحون عـن كل «برنامج جديد» و«مجتمـع عظيم» في وجه التعديـات الجمهورية، وينالون نسبـة 100% من تقديرات مجموعـة الضغـط والتمثيل الليبرالية. لكـن هذه الجهود تعاني مـن الإنهاك على ما يبـدو، في خضم لعبة دفاعية مستمرة، وتفتقـر إلى الطاقة والأفكار الخلاقة اللازمة للتعامل مع ظروف العولمة المتغيرة، أو مع الأحياء الداخلية المعزولة في المدن الأمريكية.

بعض الديمقراطيين يتبنـون مقاربة أكثر قربا من «الوسطية»، على أساس أن الموقف الوسطـي المعتدل إزاء القيادة المحافظـة يعني أنهم يتصرفون بمنطق معقول ـ لكنهم يخفقون في ملاحظة أنهم في كل سنة تمر يتخلون عن مزيد من الأرض. على الصعيد الفـردي، يقـترح المشرعون والمرشحـون الديمقراطيـون جملة من الأفـكار المنطقية وإن تكـن زائـدة عن الحاجة، فيما يتعلق بالطاقة والتعليـم والرعاية الصحية والأمن الوطني، على أمل أن تضيف جميعا إلى شيء يشابه فلسفة للحكم.

لكـن الحزب الديمقراطي على الأغلب أصبح حزب ردة الفعل. ففي ردة فعله على حـرب سيئـة التخطيـط والتنفيذ، نبدو وكأننـا نشكك في كل عمـل عسكري. وفي ردة فعلـه علـى أولئك الذين يزعمـون أن السوق يمكـن أن يعالج جميع الشـرور والآفات، نعارض الجهود المبذولة لاستخدام مبادئ السوق للتصدي للمشكلات الضاغطة. وفي ردة فعلـه على هيمنة الدين وانتشاره، نساوي بـين التسامح والعلمانية، ونتجنب اللغة الأخلاقيـة التي يمكن أن تساعد في إشبـاع سياساتنا بمعنى أوسع وأكبر. نحن نخسر الانتخابات ونأمـل أن تجهض المحاكم مخططات الجمهوريـين. نخسر حكم المحكمة وننتظر تفجر فضيحة في البيت الأبيض.

ونشعر على نحو متزايد بالحاجة إلى مضاهاة اليمين الجمهوري في الصوت المرتفع المسمـوع والأساليب التكتيكية المتشددة التـي لا تعرف الرحمة. فالحكمة المقبولة التي توجه العديد من مجموعـات الضغط والناشطين الديمقراطيين هذه الأيام تبدو على الصورة التالية: تمكن الحـزب الجمهوري من الفوز بالانتخابات باستمرار لا بتوسيع قاعدتـه بل بأبلسة الديمقراطيـين والطعن بهم وتشويه سمعتهـم، ودق الأسافين بين الناخبـين، وتنشيط جناحه اليميني، ومعاقبة من ينحرف عن خط الحزب. فإذا أراد الديمقراطيون العودة إلى السلطة، عليهم تبني المقاربة ذاتها.

أتفهـم الإحباط الذي يعاني منه هـؤلاء الناشطون. فقدرة الجمهوريين على الفوز بشكل متكرر على أساس استقطاب الحملات الانتخابية مؤثرة ومشهودة فعلا. وأدرك أخطـار المراوغـة والمفارقة في وجه حماسة الحركة المحافظـة. وعلى الأقل في ذهني، هنالك جملة من سياسات إدارة بوش تبرر الاستياء والسخط.

لكن في نهاية المطاف، أعتقد أن أي محاولة يقوم بها الديمقراطيون لتبني إستراتيجية حزبية وأيديولوجية أكثر حدة وشدة تسيء فهم اللحظة التي نعيشها. وأنا مقتنع بأننا حين نبالغ أو نعاني أو نؤبلس، أو نبسط أو نعقد قضيتنا، فسوف نخسر. وحين نقلص المحتوى الفكري للجدل السياسي، سوف نخسر. لأن المسعى وراء النقاء الأيديولوجي، والتشدد المتزمت، والتوقع المجرد للجدل السياسي الراهن، هو بالضبط ما يمنعنا من العثور على طرق جديدة للتصدي للتحديات التي تواجهنا كوطن وبلد. فهو ما يحاصرنا في إسار التفكير القائم على مبدأ «إما/ أو»: الفكرة التي تقول إننا إما أن نخضع لحكومة تدخلية أو نبقى دون حكومة؛ الافتراض الذي يشير إلى أننا إما أن نقبل حرمان ستة وأربعين مليون أمريكي من الضمان الصحي أو نعتنق مبدأ «الطب الاشتراكي»

مثل هذا التفكير النظري الذي يتعذر تطبيقه عمليا والسياسة الحزبية الصارخة هما اللذان أبعدا الأمريكيين عن السياسة. ليست هذه مشكلة لليمين؛ فالناخبون المستقطبون ـ أو الذين يرفضون الحزبين كليهما بسبب لهجة الجدل الكريهة والكاذبة ــ يناسبون تماما أولئك الذين يسعون إلى تحطيم فكرة الحكم. فعلى الرغم من كل شيء، يعد الناخب المتشكك ناخبا متمركزا على الذات ومهتما بشؤونها.

لكن أولئك الذين يعتقدون أن للحكومة دورا تؤديه في ترويج وتشجيع فرص الازدهار والرخاء للأمريكيين كلهم، لا يناسبهم استقطاب الناخبين. فالحصول على أغلبية ديمقراطية ليس كافيا. ما نحتاجه هو أغلبية عريضة من الأمريكيين ـ ديمقراطيين وجمهوريين ومستقلين من ذوي النوايا الحسنة ـ الذين يعاودون الانخراط في مشروع التجديد الوطني، ويرون مصلحتهم الخاصة مرتبطة برباط لا تنفصم عراه مع مصالح الآخرين.

لا أعاني توهم الاعتقاد أن بناء مثل هذه الأغلبية الناشطة مهمة يسيرة، لكن لأن مهمة حل مشكلات أمريكا ستكون صعبة فإن هذا ما يجب علينا فعله. وأعرف أنه يتطلب خيارات صعبة، وتضحيات كبرى. وإلى أن ينفتح الزعماء السياسيون على الأفكار الجديدة (وليس تغليفها بغلاف جديد) لن نتمكن من تغيير ما يكفي

مـن القلوب والعقول لإطلاق سياسـة جدية للطاقة أو تخفيض العجز في الميزانية. ولن نتمتـع بالدعـم الشعبي المطلوب لابتـكار سياسة خارجية تتصدى لتحديـات العولمة أو الإرهـاب دون اللجوء إلى الانعزاليـة أو إضعاف الحريات المدنيـة. ولن نملك تفويضا بإصـلاح نظام الرعايـة الصحية المنهار. ولن نحظـى بالتأييد السياسـي العريض أو بالإستراتيجيات الفعالة المطلوبة لانتشال أعداد كبيرة من مواطنينا من وهدة الفقر.

قدمـت الحجـة ذاتها في رسالـة بعثت بهـا إلى موقع يساري علـى الويب (Daily Kos) في أيلـول/ سبتمبر 2005، بعد أن قام عـدد من جماعات الضغط والناشطين بمهاجمـة بعض زملائي الديمقراطيين بسبب التصويـت على تثبيت قاضي المحكمة العليـا جون روبرتس. شعر العاملون معـي ببعض التوتر من الفكرة؛ لأنني صوت ضد تعيـين روبرتـس، ولم يجـدوا سببا وجيها لتهييـج مثل هذا الجزء القـوي والمعبر من القاعـدة الديمقراطيـة. لكنني بدأت أقـدر أهمية الحوار الـذي يعرضه الموقع، وفي الأيـام اللاحقة على عرض رسالتي، بأسلوب ديمقراطي حقيقي، علق عليها أكثر من ستمئـة شخص. بعضهم وافقني الرأي. وغيرهم اعتقد أنني مبالغ في المثالية ـ ذلك النـوع الـذي أقترحه من السياسة لا يمكن أن ينجح في مواجهـة آلة العلاقات العامة الجمهوريـة. وظن عدد كبير منهم أنني «مرسل» من نخب واشنطن لوقف ومناهضة الانشقـاق في الصفـوف، أو أنتـي أقمـت في واشنطن مـدة طويلة ففقـدت الاتصال بالشعـب الأمريكي، أو كنـت، على حد تعبير أحد التعليقات، مجرد «أحمق»، أو جميع هذه الأمور معا.

لربمـا يكون النقاد على حق. ربما لا يوجـد مهرب من انقسامنا السياسي العميق، وصـراع الجيوش بلا نهاية، وأي محاولات لتغيير قواعـد الاشتباك ستكون عقيمة. أو ربمـا بلغت تفاهة وسطحية السياسة نقطة اللاعـودة، بحيث أن معظم الناس يرونها بوصفهـا تسليـة أخرى، لعبـة، مباراة يؤدي فيهـا السياسيـون دور المصارعين الذين انتفخـت بطونهم في حين سيكون المهتمـون بها مجرد مشاهدين على المدرجات: نحن نصبـغ وجوهنا بالأحمـر أو الأزرق ونهتف ونلوح لفريقنا ونطلـق صيحات الاستهجان والصفير على الفريق المنافس، وليكن ذلك، فالمهم هو الفوز.

لكنني لا أعتقد بصواب هذه الفكرة. فهناك، كما أقول في سري، المواطنون العاديون الذين نشؤوا في خضم جميع المعارك السياسية والثقافية، لكنهم وجدوا طريقة ـ في حياتهم الخاصة على الأقل ـ للعيش بسلام مع جيرانهم ومع أنفسهم. أتخيل الشاب الجنوبي الأبيض الذي سمع أباه يتحدث عن الزنوج بازدراء لكنه عقد صداقة مع زملائه السود في الشركة ويحاول تعليم وتثقيف ابنه بأسلوب مختلف، ويعتقد أن التمييز العنصري أمر خاطئ، لكنه لا يجد سببا يدعو لدخول ابن طبيب أسود إلى كلية الحقوق قبل ابنه. أو عضو سابق في «الفهود السود» قرر الدخول في مجال العقارات، فابتاع بضعة أبنية في الحي، وقد مل رؤية تجار المخدرات أمام بناياته، مثلما أضناه رفض المصارف منحه قرضا لتوسيع نشاطه التجاري. هنالك الناشطة النسوية التي بلغت منتصف العمر وما زالت تندب عملية الإجهاض التي أجرتها، والمرأة المسيحية المتدينة التي دفعت مالا لإجراء عملية إجهاض لابنتها المراهقة، وملايين النادلات والسكرتيرات (اللاتي يعملن في وظائف مؤقتة) ومساعدات الممرضات والعاملات في وال ـ مارت اللاتي يحبسن أنفاسهن كل شهر أملا في الحصول على ما يكفي من المال لرعاية الأطفال الذين أتين بهم إلى هذا العالم.

أحسب أن عامة الأمريكيين في انتظار سياسة تتمتع بما يكفي من النضج للموازنة بين المثالية والواقعية، والتمييز بين ما يمكن وما لا يمكن التنازل عنه، والاعتراف باحتمال أن يكون الطرف الآخر على صواب في حجته. فهم لا يفهمون دوما الحجج والمجادلات بين اليمين واليسار، والمحافظين والليبراليين، لكنهم يدركون الفارق المميز بين العقيدة الدوغمائية المتزمتة والمنطق البدهي السليم، بين المسؤولية واللامسؤولية، بين الثابت والدائم والزائل والعابر.

ها هم هناك، في انتظار الجمهوريين والديمقراطيين للحاق بركبهم.

ـ 2 ـ
القيم

كانت المرة الأولى التي شاهدت فيها البيت الأبيض عام 1984. كنت قد تخرجت للتو في الجامعة وأعمل في مجال التنظيم الاجتماعي في سيتي كوليج في مدينة نيويورك. اقترح الرئيس ريغان جولة من التخفيض على معونة الطلاب آنذاك، ولذلك تعاونت مع مجموعة من القادة الطلابيين ــ معظمهم من السود، أو من بورتوريكو، أو من أصول أوروبية شرقية، وكانوا كلهم تقريبا أول من انتسب إلى الجامعة في عائلاتهم ـ لجمع طلبات وعرائض تعارض التخفيضات ثم تسليمها إلى ممثلي نيويورك في الكونغرس.

كانت الرحلة وجيزة، أمضيت معظمها محاولا العثور على طريقي داخل الممرات والدهاليز الممتدة إلى ما لا نهاية في مبنى رايبيرن، وعقدت اجتماعات مع موظفي «كابيتول هيل»، أظهروا فيها لطفا واستعجالا ولم يكونوا أكبر عمرا مني بكثير. لكن في نهاية اليوم، وجدنا أنا والطلاب الوقت الكافي للتنزه ومشاهدة «المول» و«النصب التذكاري لواشنطن»، ثم قضينا بضع دقائق نحدق إلى البيت الأبيض. حين وقفنا في جادة بنسلفانيا، على بعد بضعة أمتار من محطة «مارين غارد» عند المدخل الرئيس، حيث السابلة والسيارات تئز خلفنا، لم أعجب من أناقة وفخامة البيت الأبيض، بل من حقيقة أنه مكشوف ومعرض لزحمة وضجيج المدينة؛ والسماح لنا بالوقوف قرب البوابة، ثم الدوران والوصول إلى الجانب الآخر من المبنى واختلاس النظر إلى الحديقة الوردية ومكان إقامة الرئيس وراءها. لقد عبر انفتاح وانكشاف البيت الأبيض عن شيء يتعلق بالثقة التي تملؤنا كبلد ديمقراطي، كما اعتقدت. وجسدا فكرة أن زعماءنا وقادتنا ليسوا مختلفين عنا؛ وأنهم يبقون خاضعين للقوانين ولمواقفنا الجمعية.

بعد عشرين سنة، لم يكن الاقتراب من البيت الأبيض بمثل تلك البساطة. إذ تطوق الآن نقاط التفتيش وسيارات الشرطة والمرايا والكلاب البوليسية والحواجز المتحركة دائرة واسعة حول البيت الأبيض. ولم يعد يسمح للسيارات غير المرخصة بالسير في جادة بنسلفانيا. في أصيل يوم بارد من شهر كانون الثاني/ يناير، اليوم السابق على أداء القسم في مجلس الشيوخ، كانت حديقة لافاييت خاوية، وحين عبرت بالسيارة بوابات البيت الأبيض ومن ثم المدخل، شعرت بحزن خاطف على ما ضاع وغاب وفقد.

لا تجد داخل البيت الأبيض التألق الذي ربما تكون توقعته من مشاهدته على شاشات التلفزيون أو السينما؛ صحيح أنه مرتب لكن متهالك، بل يشبه بيتا عتيقا كبيرا قد يتخيل المرء أن الرياح تعصف به في الليالي الشتائية الباردة. ومع ذلك، وقفت في الردهة وتركت بصري يجول في الممرات، وكان من المستحيل نسيان التاريخ الذي صنع هنا - جون وبوبي كنيدي يجتمعان معا لمناقشة أزمة الصواريخ الكوبية؛ فرانكلين روزفلت يضع اللمسات الأخيرة على خطبة سيلقيها عبر الإذاعة؛ لينكولن وحيدا، يذرع الردهات جيئة وذهابا ويحمل عبء الأمة (لم أشاهد غرفة نوم لينكولن إلا بعد عدة شهور، بمساحتها المتواضعة وأثاثها العتيق والسرير ذي الأربع قوائم، ونسخة أصلية من خطبة غيتسبرغ معروضة بحذر تحت لوح زجاجي - وشاشة تلفزيون كبيرة مسطحة فوق أحد المكاتب. تساءلت متعجبا: من يقلب صفحات «سبورت سنتر» وهو يمضي الليلة في غرفة نوم لينكولن؟).

استقبلني على الفور عضو من طاقم البيت الأبيض التشريعي وقادني إلى الغرفة الذهبية، حيث تجمع معظم أعضاء مجلسي النواب والشيوخ الجدد. في الساعة الرابعة تماما، أعلن عن قدوم الرئيس بوش واتجه نحو المنبر. بدا نشيطا وحيويا ومتمتعا باللياقة البدنية، بتلك المشية الواثقة التي تدل على أن وقته ضيق ولديه مواعيد ويحاول تقليص الانعطافات إلى الحد الأدنى. تحدث مدة عشر دقائق تقريبا وألقى بضع نكات، ودعا إلى توحد البلاد، قبل أن يدعونا إلى الطرف الآخر من البيت الأبيض لتناول المرطبات والتقاط الصور التذكارية معه ومع السيدة الأولى.

تصـادف أنني كنت أتضور جوعـا ساعتئذ، ولذلك توجهت نحو «البوفيه»، في حين اصطف الأعضاء الآخرون لالتقاط الصور. وعندما بدأت بالمقبلات وتجاذبت أطراف الحديث مع حفنة من أعضاء مجلس النواب، تذكرت اللقاءين السابقين مع الرئيس، أولهما كان دعوة تهنئة بعد الانتخابات، والثاني دعوة لتناول الفطور في البيت الأبيض وجهت لي ولبعض أعضاء مجلس الشيوخ الجدد. في المناسبتين كلتيهما، وجدت الرئيس شخصا محبوبا وذكيا ومنضبطا، لكن يتبنى الأسلوب المباشر نفسه الذي ساعده على الفوز مرتين في الانتخابات؛ يمكنك بسهولة تخيله صاحب وكالة محلية لبيع السيارات، أو مدربـا لفريق من لاعبي البيسبول الناشئـين، أو رب أسرة يشوي اللحم في حديقته الخلفية - موظفاً يعمل في شركة ناجحة مادام الحديث يدور حول الرياضة والأولاد.

لكن مرت لحظة خلال اللقاء على مائدة الفطور، بعد المجاملات والتحيات وجلوس الجميـع إلى المائـدة، حين كان نائـب الرئيس تشيني يـأكل من طبـق البيض بهدوء، وكارل روف على الطرف الآخر من المائدة يتفحص المربى بحذر، شاهدت فيها جانبا مختلفا من الرجل. فقـد بدأ الرئيس مناقشة أجندة ولايته الثانية، مؤكدا مرة أخرى علـى النقاط التي أعلنها في حملته - أهميـة التشبث بالمسار في العراق وتجديد قانون الوطنيـة، الحاجة إلى إصلاح نظام الضمان الاجتماعي والنظام الضريبي، تصميمه على التصويت بنعم أولا على القضاة الذين يعينهم - حين شعرنا وكأن أحدا في الغرفة الخلفية لمس مفتاحا. جمدت عينا الرئيس؛ واهتاج صوته، فتكلم بنبرة سريعة لشخص لم يتعود أو يرحب بمن يقاطعه؛ وحل توكيد مسيحاني يقيني محل التهذيب والدماثة. وعندمـا كنت أراقب زملائـي الجمهوريـين، في أغلبهم، ينتظـرون كل كلمة، تذكرت خطـر العزلة التي تفرضها السلطة، وقدرت حكمـة الآباء المؤسسين في تصميم نظام يكبح جماحها.

«أيها السيناتور»

التفـت وأنا أتخلص من ذكرياتي، فرأيت نادلا أسود تقدم به العمر (معظم طاقم الخدمة في البيت الأبيض من السود) يقف بجانبي.

«هل تريد أن آخذ الطبق عنك؟»

أومـأت برأسي، محاولا ابتـلاع لقمة كبيرة من الدجاج، ولاحظت أن رتل المرحبين بالرئيس قد اختفى. أردت أن أشكر المضيفين، فاتجهت نحـو الغرفة الزرقاء. أشار حارس شـاب مـن «المارينز» بأدب جم بـأن جلسـة التصوير قد انتهـت وأن الرئيس بحاجـة للذهاب لأن لديه موعـدا آخر. لكن قبل أن أعود أدراجي، ظهر الرئيس نفسه في المدخل ولوح بيده يدعوني إلى الدخول.

قال الرئيس مصافحا: «أوبامـا! تعال وقابل لورا. لورا، أتذكرين أوباما. شاهدناه على التلفزيون في ليلة الانتخابات. لديك عائلة جميلة. وزوجتك ـ سيدة مؤثرة»

قلـت وأنـا أصافح السيدة الأولى متمنيا لو كنت مسحـت بقايا الطعام عن وجهي: «لقـد نلنـا أكثر مما نستحق، يا سيـدي الرئيس» التفت الرئيسـ إلى أحد المساعدين الذي ناوله علبة كبيرة تحوي سائلا منظفا لليدين.

سأل الرئيس: «أتريد بعضا منه؟ إنه جيد النوعية ولا تحتاج إلى غسل يديك بالماء»

لم أكن أريد أن أبدو معارضا لقواعد الصحة والنظافة، فرششت بالسائل على يدي.

قال بهدوء وهو يقودني إلى أحد أركان الغرفة: «تعال إلى هنا لحظة، آمل ألا تمانع في سماع نصيحة مني»

«لا أبدا يا سيدي»

أومـأ برأسه وقال: «أمامـك مستقبل مشرق. مشرق جـدا. لكنني عشت في هذه المدينـة مـدة، دعني أخبـرك إن الحياة فيها ليسـت سهلة. وحين تجتـذب اهتماما كبـيرا، كما فعلت، يبدأ النـاسـ التصويب عليك. وليس من الضـرورة أن يأتي ذلك مـن طرفي. بـل من طرفك أيضا. الكل سينتظر أن تزل قدمك، هل فهمت ما أعني؟ لذلك انتبه لنفسك»

«شكرا على النصيحة يا سيدي الرئيس»

«حسنا. علي أن أذهب. أتعرف أن بيننا عاملا مشتركا»

«ما هو؟»

«علينا معا مجادلة الان كيز. هذا الرجل ذكي أليس كذلك؟»

ضحكت، وحين مشينا نحو الباب رويت له بعض القصص عن الحملة الانتخابية. ولم أدرك إلا بعد أن غادر الغرفة أنني وضعت ذراعي على كتفه حين كنا نتحدث – وتلك عادة لا شعورية، لكنني أظن أنني جعلت العديد من الأصدقاء، فضلا عن رجال الأمن في الغرفة، يشعرون بشيء من القلق والانزعاج.

منذ وصولي إلى مجلس الشيوخ، لم أترك مناسبة دون انتقاد سياسات إدارة بوش بأسلوب حاد وعنيف. وبرأيي، كانت التخفيضات الضريبية على الأغنياء متهورة مالية ومقلقة أخلاقيا. لقد انتقدت الإدارة بسبب افتقارها إلى أجندة عمل هادفة فيما يتعلق بالرعاية الصحية، أو إلى سياسة جادة للطاقة، أو إلى إستراتيجية مناسبة لجعل أمريكا أكثر قدرة على المنافسة. في عام 2002، قبيل إعلان حملتي الانتخابية لدخول الكونغرس، ألقيت خطبة أمام تجمع حاشد مناهض للحرب في شيكاغو، حيث وضعت دليل الإدارة على أسلحة الدمار الشامل موضع المساءلة والتشكيك، وأشرت إلى أن غزو العراق سيثبت أنه خطيئة باهظة التكلفة. ولم تكذب الأخبار القادمة من بغداد أو الشرق الأوسط هذا الرأي.

لكن، كثيرا ما يفاجئ جمهور الديمقراطيين حين أقول: إنني لا أعد جورج بوش سيئا، وأنني أفترض أنه يحاول هو وأعضاء إدارته تقديم أفضل خدمة للبلاد برأيهم.

لا أقول ذلك بسبب إغراء الاقتراب من السلطة. فأنا أرى الدعوات الموجهة من البيت الأبيض كما هي فعلا — لباقة سياسية — وأدرك السرعة التي تشهر بها السكاكين والمدى حين تتهدد أجندة الإدارة بأي طريقة جدية. فضلا عن ذلك، كلما كتبت رسالة إلى أسرة فقدت عزيزا لها في العراق، أو قرأت رسالة بالبريد الإلكتروني من أحد الناخبين الذين تركوا الدراسة في الجامعة بسبب قطع المعونة عن الطلاب، أتذكر أن لأفعال القابعين في السلطة عواقب هائلة — وهذا ثمن لم يضطروا لدفعه قط.

هــذا يعنــي أنني أجد الرئيســ والمحيطين به، بعــد نزع جميع زخــارف المنصب ـ الألقــاب والموظفين والتفاصيل الأمنية ـ يشبهــون غيرهم، ويتبنون خلطة صغيرة من الفضائــل والرذائــل، ويشعرون بعدم الأمــان ويعانون من جراح دفينــة في أعماقهم، مثلما هي حالنا جميعا. وبغض النظر عن الأخطاء الفادحة لسياساتهم برأيي ـ ومدى إلحاحــي علــى محاسبتهم على نتائــج سياساتهم ـ ما أزال أجــد أن من الممكن، عبر الحوار معهم، فهم دوافعهم، وتمييز ما لديهم من قيم مشتركة بيننا.

ليســ مــن السهل الحفــاظ على هذا الموقــف في واشنطن. فالرهــان على مجادلة سياســة واشنطن مرتفــع غالبا ـ بغض النظر عن أسئلة مثل: هــل أرسلنا شبابنا إلى الحــرب؛ وهــل نسمح لأبحــاث الخلايا الجذعية بالتقــدم والارتقاء ـــ إلى حد أن أي اختلافــات بسيطة في المنظور تتضخم وتتعاظــم. فمطالب الولاء الحزبي، وضرورات الحمــلات الانتخابية، وتضخيــم الصراع بواسطة وسائل الإعــلام، تفاقم جميعا جو الشــك والارتيــاب. إضافــة إلى ذلك، تدرب معظــم الذين يخدمــون في واشنطن إما كمحامــين أو ناشطين سياسيين ـ أي من مهن تعطــي الأولوية للحجج المقنعة بدلا من حــل المشــكلات. وأستطيع أن أرى الآن، بعــد المدة التي قضيتهــا في العاصمة، أن من المغــري الافتراض بــأن أولئك الذين يخالفونــك الرأي يتبنون قيمــا مختلفة اختلافا جوهريا ـ وفي الحقيقة، تدفعهم بواعث سيئة، وربما هم سيئون أنفسهم.

لكــن خارج واشنطن، لا تشعــر أمريكا أنها منقسمة إلى هــذا الحد. ولاية الينوي على سبيل المثال لم تعد مؤشرا دالا على الاتجاهات المستقبلية. فقد أصبحت منذ عقد مــن السنين ديمقراطية باطــراد، بسبب ازدياد سكان المدن مــن جهة، ولأن السياسة المحافظة اجتماعيا للحزب الجمهوري لم تعد تصلح لأرض لينكولن. لكن تبقى الينوي نموذجا مصغرا للبلاد، خلطة غير متجانسة من الشمال والجنوب، والمدينة والريف، والســود والبيضــ، وكل شيءبين هذه الثنائيــات. لربما تمتلك شيكاغــو تطور وتعقيد المدينــة الكبيرة، مثل لوس أنجلوس أو نيويورك، لكن على الصعيد الجغرافي والثقافي تقــترب النهايــة الجنوبية من الينوي من ليتل روك أو لويسفيــل، والسهول الواسعة في الولاية تعد وفقا للتعبير السياسي الحديث، ذات لون أحمر أدكن.

سافـرت أول مرة عبر جنوب الينوي عـام 1997. كان الوقت صيفا بعد أول فصل تشريعي قضيته في المجلس، ولم نكن قد رزقنا بأولاد بعد. وبسبب عطلة المجلس وكلية الحقـوق التـي كنت أدرس فيها، إضافـة إلى انشغال ميشيل بعمـل خاص بها، أقنعت مساعـدي في المجلسـ، دان شومـون، بوضـع خريطة وعـدد من مضـارب الغولف في السيـارة، والذهـاب في جولة في أرجـاء الولاية مدة أسبوع. عمـل دان سابقا مراسلا لوكالـة يونايتدبرس انترناشونـال ومنسقا ميدانيا لعدد من الحمـلات الانتخابية في جنوب الولاية، ولذلك فقد عرف المنطقة جيدا. لكن مع اقتراب موعد انطلاق الرحلة، وضح أنه لم يتيقن كيف سيستقبلني الناس في المناطق التي خططنا لزيارتها. ذكرني أربـع مرات بنوعية الملابس التي يجب علي حزمها ـــ سراويل خاكي وقمصان خفيفة كمـا قـال؛ لا سراويل قطنية وقمصان حريرية. أكدت له أننـي لا أملك ثيابا حريرية. وبعـد الانطلاق توقفنا عند مطعم وطلبت شطـيرة همبرغر بالجبنة. وحين أحضرت النادلة الطعام، طلبت زجاجة خردل من نوع ديجون، فهز دان رأسه.

قـال بإلحاح وهو يلوح للنادلـة: «لا يريد ديجون» ثم دفع بيـده زجاجة صفراء من الخردل الفرنسي نحوي: «خذ، يوجد هنا خردل»

بدا الارتباك على النادلة، وقالت: «لدينا ديجون إذا رغبت»

ابتسمـت وقلـت: «شكـرا جزيلا لـك» وحـين ابتعدت قلت لـدان هامسـا لا يوجد مصورون هنا.

وهكـذا سافرنـا في الرحلة، لنتوقف مـرة في اليوم للعب جولة مـن الغولف في جو قائـظ، ونقـود السيارة علـى طرق تمتد أميـالا بين حقـول الذرة وغابـات كثيفة من أشجـار الدردار والسنديان، والبحيرات المتلألئـة المحاطة بالجذوع والقصب، عبرنا مدنـا كبيرة، مثل كاربونديل وماونت فيرمون، حيث تنتشر مراكز التسوق ومتاجر وال ـــ مـارت، وبلدات صغيرة مثل سبارتـا وبينكنيفيل، التي تنتصـب في مراكزها مباني المحاكـم المشيـدة بالآجر، في حين كان نصـف متاجرها مغلقـا، وشاهدنا بين الحين والآخـر بائعا متجولا يبيع الأجاص أو الذرة الطازجـة، ولفت انتباهي بائع كتب لوحة تقول: «تخفيضات كبرى على المسدسات والسيوف».

توقفنــا في مقهى لنأكل فطـيرة ونتبادل النكات مع رئيــس بلدية تشستر. ووقفنا أمــام تمثــال لسوبرمان بارتفــاع خمسة أمتــار تقريبا في مركز بلــدة ميتروبوليس. سمعنا عن هجرة الشباب إلى المدن الكبرى نتيجة إلغاء الوظائف في قطاع التصنيع واستخراج الفحم. وعرفنا شيئا عن الاحتمالات المتوقعة لفريق الثانوية المحلية لكرة القــدم في الموسم القــادم، والمسافــات الشاسعة التي يجب علــى المحاربين القدماء قطعهــا للوصول إلى أقرب فرع لإدارتهم. التقينا بنساء عملن في البعثات التبشيرية في كينيــا وألقين التحية علي باللغــة السواحلية، ومزارعين قــرؤوا صفحات المال في «وول ستريــت جورنال» قبل أن يركبــوا جراراتهم. كنت أشير إلى دان عدة مرات في اليــوم كــي يشاهد الرجال الذين يرتدون ملابس قطنيــة أو قمصانا حريرية ملونة. في غرفــة الطعام الصغيرة لمسؤول الحزب الديمقراطــي في دوكوين، سألت المدعي العام في الولاية عن اتجاهات الجريمة في مقاطعته (الريفية التي تسكنها أكثرية من البيض)، متوقعا أن يذكر شيئا عن قيادة السيارات المسروقة بطيش وتهور أو الصيد الجائر في الأوقات المحظورة.

قــال وهو يقضم جزرة: «فروع العصابات. لدينا جميع فروع العصابات [البيضاء] هنا، فتيان عاطلون عن العمل، يبيعون المخدرات والمنشطات»

بحلول نهاية الأسبوع، شعرت بالأسف لانقضاء الرحلة، لا لأني تعرفت بالعديد من الأصدقاء الجدد فقط، بل لأنني وجدت في جميع وجوه الرجال والنساء الذين قابلتهم ملامح من ذاتي. رأيت فيهم انفتاح جدي، وواقعية جدتي، ورقة أمي. الدجاج المقلي، وسلطة البطاطا، والكريفون، بدت كلها مألوفة لدي.

هذا الشعور بالألفة هو الذي يدهشني أينما ذهبت في الينوي. أحس به حين أجلس لأتنــاول العشــاء في ويست سايــد في شيكاغو. وعندما أشاهــد لاعبين لاتين يخوضون مباراة في كرة القدم، في حين تهتف عائلاتهم في أحد ملاعب بيلسن. وعندما أحضر حفلة زفاف هندية في ضواحي شيكاغو الشمالية.

أعتقد أننا نقترب من التشابه، لا التنافر، تحت السطح مباشرة.

لا أقصد الغلو هنا، والإشارة إلى أن جميع الاستفتاءات خاطئة ومزيفة، وأن اختلافاتنا ــ العرقية أو الدينية أو المناطقية أو الاقتصادية ـ سطحية وهامشية. في الينوي، كما في كل مكان آخر، يثير الإجهاض مشاعر الغضب والاستياء. في بعض أجزاء الولاية، يعد مجرد ذكر ضبط الأسلحة انتهاكا وتدنيسا للمحرم. والمواقف تجاه كل شيء، من ضريبة الدخل إلى الجنس على التلفزيون، متفاوتة ومتباينة من مكان لآخر.

أريد التوكيد بإلحاح أن تلاقح الأفكار يحدث عبر ولاية الينوي وعبر أمريكا، ولا أزعم أنه يجري بطريقة منظمة كليا، بل بتمازج سلمي عموما بين الناس والثقافات. الهويات تتداعى، ثم تتلاحم بطرق جديدة. والمعتقدات تنسل خارجة من إسار التوقعات. في حين تتعرض التوقعات السطحية والتفسيرات البسيطة للتغيير باستمرار. عندما تتحدث مع الأمريكيين تكتشف أن معظم الإنجيليين أكثر تسامحا مما تحاول وسائل الإعلام إقناعنا به، ومعظم العلمانيين أكثر روحانية. وغالبية الأثرياء يريدون أن ينجح الفقراء، وأغلب الفقراء أكثر انتقادا للذات وأكثر طموحا مما تسمح به الثقافة الشعبية السائدة. ومعظم معاقل الجمهوريين تضم نسبة 40% من الديمقراطيين، والعكس صحيح. والتصنيفات السياسية التي تميز بين الليبرالي والمحافظ نادرا ما تتعمق لتبلغ الصفات والسمات الشخصية للناس.

يثير ذلك كله السؤال الآتي: ما القيم الجوهرية التي نتقاسمها نحن الأمريكيون؟ بالطبع، ليست هذه هي الطريقة التي نؤطر ضمنها القضية عادة؛ فثقافتنا السياسية مثبتة على نقاط تصادم قيمنا. في أعقاب انتخابات عام 2004 مثلا، نشر استفتاء رئيس أجري على المستوى الوطني عد فيه الناخبون «القيم الأخلاقية» العامل المقرر لطريقة الإدلاء بأصواتهم. ركز المعلقون على البيانات والمعطيات لتقديم الحجة على أن معظم القضايا الاجتماعية الخلافية في الانتخابات ـ خصوصا زواج المثليين ـ أثرت في عدد من الولايات. فالمحافظون أنذروا بالنتيجة، واثبتوا تنامي قوة اليمين المسيحي.

حين أخضعت مثل هذه الاستطلاعات للتحليل فيما بعد، تبين أن الخبراء والمختصين والمتنبئين بالغوا في حجتهم قليلا. ففي الحقيقة، نظر الناخبون إلى الأمن

القومـي بوصفه أهـم قضية في الانتخابات، ومع أن أعـدادا كبيرة منهم عدت «القيم الأخلاقيـة» عاملا مهما في طريقة إدلائهم بأصواتهم، إلا أن معنى التعبير كان مبهما بحيث شمل كل شيء: من الإجهاض إلى مخالفة الشركات للقانون. وعلى الفور، تنفس بعض الديمقراطيين الصعداء، كأنما تراجع أهميـة «عامل القيم»يصب في مصلحة القضيـة الليبرالية؛ أو كأن مناقشة القيم عملية تشتيت خطرة وغير ضرورية للانتباه عن الهموم المادية التي تميز وتسم أجندة الحزب الديمقراطي.

أعتقد أن الديمقراطيين يخطؤون عندما يهربون من الجدل والنقاش حول القيم، مثلمـا يخطئ المحافظون الذين يعـدون القيم مجرد إسفين يدق لإبعاد ناخبي الطبقة العاملـة عن القاعدة الديمقراطيـة. إن لغة القيم هي التـي يستخدمها الناس لرسم خريطـة عالمهم. فهي التي تلهمهـم اتخاذ الخطوات العمليـة، وتدفعهم إلى التحرك خارج عزلتهم. لربمـا تنظم الاستطلاعات التي تلي الانتخابات بطريقة خاطئة، لكن السؤال العريض للقيم المشتركة ـ المعايير والمبادئ التي تعدها غالبية الأمريكيين مهمة في حياتهـم وحياة وطنهم ـ يجب أن يقـع في صميم سياستنا، وأن يكون حجر الزاوية لأي حوار هادف حول الميزانيات والمشروعات، والأنظمة والقواعد والسياسات.

«نعد هذه الحقائق مـن البدهيات: خلق البشر جميعا متساويين، ووهبهم خالقهم حقوقا معينة لا يمكن التصرف بها، منها الحياة، والحرية، والسعي إلى السعادة»

تجسـد هذه الكلمـات البسيطة نقطة انطلاق لنا نحـن الأمريكيون؛ فهي لا تكتفي بوصـف الركيزة المؤسسـة لحكومتنا فقط، بل مادة وجوهـر عقيدتنا المشتركة. قد لا يتمكـن كل أمريكي من تلاوتها؛ ولا تستطيع سوى قلـة قليلة (إن سئلت) اقتفاء منشأ إعلان الاستقلال إلى جذوره التكوينية في الفكر الليبرالي والجمهوري في القرن الثامن عشر. لكن الفكرة الجوهرية وراء إعلان الاستقلال ـ أننا ولدنا في هذا العالم أحرارا، جميعنا؛ وأن كلا منا يصل إلى هذه الدنيا مزودا بحزمة من الحقوق التي لا يمكن أن تسلب منه بواسطة أي شخص أو دولة دون سبب عادل؛ وأننا وحدنا نملك (ويجب أن نملـك) الحق في التصرف بشؤون حياتنا ـ يفهمها كل أمريكي. فهي توجهنا، وتضعنا على المسار، كل يوم وكل ساعة.

في الحقيقة، فإن الحرية الفردية منغرسة في أعماقنا إلى حد أننا نأخذها كقضية مسلم بها. إذ يسهل نسيان حقيقة أن هذه الفكرة كانت عند إقامة وطننا راديكالية تماما في مقتضياتها ومضامينها، بل تماثل في راديكاليتها وضع مارتن لوثر على باب الكنيسة. فكرة ما زالت بعض دول العالم ترفضها ـ ولا يجد قسم كبير من البشر سوى دليل واه عليها في حياتهم اليومية.

في الحقيقة، يأتي معظم تقديري لإعلان حقوق المواطنين من كوني قضيت جزءا من طفولتي في إندونيسيا، ومن أن قسما من عائلتي يعيش حتى الآن في كينيا، وهما من البلدان التي تخضع فيها حقوق الفرد كلية لأهواء جنرالات الجيش ونزوات البيروقراطيين الفاسدين. أتذكر أول مرة أخذت فيها ميشيل إلى كينيا، قبل وقت قصير من زواجنا. فبوصفها أمريكية إفريقية، ملأتها فكرة زيارة قارة أسلافها بالإثارة. قضينا هناك وقتا ممتعا، حيث زرنا جدتي في الشمال وتجولنا في شوارع نيروبي، وأقمنا في مخيم في سيرينغيتي، واصطدنا السمك على شاطئ بحيرة لامو.

لكن ميشيل عرفت أيضا خلال رحلتنا ـ مثلما عرفت أنا خلال رحلتي الأولى إلى إفريقيا ـ ذلك الإحساس الرهيب الذي يملأ الكينيين ويؤكد أن مصيرهم ليس بأيديهم. وتحدث أقربائي عن مدى صعوبة العثور على عمل أو البدء بنشاط تجاري خاص دون دفع رشاوى. وأبلغنا الناشطون هناك أنهم سجنوا بسبب التعبير عن معارضتهم لسياسات الحكومة. حتى داخل أسرتي، عرفت ميشيل قدرة الروابط العائلية والولاءات القبلية على الكبت والقمع، حيث يطالب أبناء العمومة بالمزايا ويأتي العم أو العمة دون موعد سابق. حين كنا عائدين إلى شيكاغو، اعترفت ميشيل أنها اشتاقت إلى الوطن. وقالت: «لم أدرك من قبل كم أنا أمريكية» وكانت تعني أنها لم تدرك مدى الحرية التي تتمتع بها ـ أو كم تقدر قيمة تلك الحرية.

على مستوى العناصر التكوينية، نحن نفهم حريتنا بمعنى سلبي. وكقاعدة عامة، نؤمن بحقنا في ألا يتدخل بحياتنا أحد، بل ونشتبه في نوايا أولئك الذين يريدون التدخل في شؤوننا، بغض النظر أكانوا من الحكام المستبدين أم من الجيران الفضوليين. لكننا نفهم حريتنا بمعنى أكثر إيجابية أيضا، في فكرة الفرصة والقيم

الفرعيــة التي تساعد في تحقيــق وإتاحة هذه الفرصة ـ جميــع تلك الفضائل المحلية التي أشاعها بنجامين فرانكلين أول مرة في كتابه «تقويم ريتشارد المسكين»، واستمرت في إلهــام ولائنا للوطن عبر الأجيــال المتلاحقة. قيم الاعتماد علــى الذات، وتحسين حظوظ الذات، وركوب المخاطر. قيــم الدافع والانضباط والاعتدال والعمل الدؤوب. قيم الازدهار والمسؤولية الشخصية.

هذه القيم متجذرة في صلب التفاؤل الأساس بالحياة والإيمان بالإرادة الحرة ـ ثقة بــأن كلا منا قادر، عبر الهمة والعــرق والذكاء، على تجاوز ظروف ولادته ومنشئه. لكن هذه القيم تعبر أيضا عن ثقة واسعة النطاق بأنه مادام الأفراد أحرارا في السعي لتحقيق مصالحهم الخاصة، فإن المجتمع ككل سوف يزدهر. نظامنا المؤسس على الحكم الذاتي واقتصادنا القائم على السوق الحر، يعتمدان على تشبث أغلبية الأمريكيين بهذه القيم. أما شرعية حكومتنا واقتصادنا فتعتمد على الدرجة التي تكافأ عندها هذه القيم، ولهذا السبب تكمل قيم الفرص المتساوية وعدم التمييز حريتنا ولا تنتهكها.

إذا كنا نحن الأمريكيون فردانيين في الصميم، وإذا كنا معادين بالغريزة للولاءات القبليــة والتقاليد البالية والعادات العتيقة، والطبقــات، فإن من الخطأ الافتراض أن هــذه هي السمة الوحيدة لنــا. فقد ارتبطت فردانيتنا على الدوام بمجموعة من القيم الجماعيــة، أي اللحمة التي يعتمد عليها كل مجتمــع سليم. نحن نقدر قيمة ضرورات وواجبــات الأسرة والالتزامــات التي تقتضيها عبر الأجيال. نحــن نقدر قيمة المجتمع والجيرة كما يعبر عنها في «بناء مخزن الحبوب»* أو تدريب فريق كرة القدم. نحن نقدر قيمة المشاعر الوطنية والتزامات وواجبات المواطنية، والإحساس بالواجب والتضحية في سبيل الأمة. نحن نقدر قيمة الإيمان بشيء أكبر من أنفسنا، بغض النظر هل تجسد في الدين الرسمي أم في المبادئ الأخلاقية. نحن نقدر قيمة مجموعة السلوكيات التي تعــبر عن احترامنا المتبــادل تجاه بعضنا بعضا: الصدق والأمانــة، والعدل والنزاهة، والدماثة واللباقة، والتواضع واللطف، والتراحم والإحسان.

* barn raising : مناسبة قد تستمر يوما أو اثنين يجتمع فيها أفراد المجتمع المحلي معا ويتعاونون في بناء هري (مخزن حبوب) لإحدى الأسر بطريقة طوعية. كان الهري يعد أهم وأكبرها المباني (وأكثرها كلفة) التي تحتاجها الأسرة حين تستقر في منطقة جديدة. والتقليد الذي ساد في القرنين الثامن والتاسع عشر، ما يزال متبعا على نطاق محدود في بعض الولايات والمناطق الأمريكية. (م)

في كل مجتمـع (وكل فرد)، تعاني هذه التوليفات الثنائية - الفردانية والجماعية، والاستقلاليـة والتضامن - من التوتر، وكان من النعم المباركة التي تمتعت بها أمريكا أن ظـروف ولادة أمتنـا قـد أتاحت لنا التعامـل مع هذه التوتـرات بطريقة أفضل من غيرنا. لم نكن مضطرين لمعاناة أي من الاضطرابات العنيفة التي أجبرت أوروبا على تحملهـا حين تخلت عن ماضيها الإقطاعي. وسهل عملية مرورنا من المجتمع الزراعي إلى الصناعـي حجم القارة الهائل، والأراضي الواسعة، والموارد الوفيرة، التي أتاحت للمهاجرين الجدد تجديد حياتهم باستمرار.

لكننا لا نستطيع تجنب هذه التوترات كلية. ففي بعض الأحيان تتصادم قيمنا، لأنها حين تكون تحت سلطة البشر لا بد أن تخضع للتشويه والتحريف والإفراط والتفريط. الاعتمـاد على الـذات والاستقلالية يمكن أن يتحولا إلى أنانيـة وتحلل من الالتزامات والواجبـات، والطموح إلى طمـع ورغبة محمومة في النجاح مهمـا كان الثمن. شهدنا أكـثر من مرة في تاريخنا الوطنيـة تنزلق إلى درك نعرة قومية عدائية، وخوف رهابي من الأجانب، وكبت المنشقين وخنق المعارضين؛ رأينا الدين يتحجر ويتحول إلى إيمان متزمت بصوابية الذات، وانغلاق ذهني، ووحشية تجاه الآخرين. حتى الدافع المحرك للإحسـان والعطف يمكن أن يتحول إلى نمط بطركـي (أبوي) خانق، وعدم استعداد للاعتراف بقدرة الآخرين على تحمل مسؤولية حياتهم.

حين يحدث ذلك كله - عندما يُستشهد بالحرية في معرض الدفاع عن قرار شركة بالتخلص من المواد السامة في أنهارنا، أو عندما تستخدم مصلحتنا الجمعية لتبرير هـدم منزل أحد المواطنـين من أجل بناء مركز جديد للتسوق - فإننا نعتمد على قوة القيم الكابحة لتعديل أحكامنا ووقف هذه التجاوزات.

في بعض الأحيان يكون من السهل نسبيا إقامة التوازن الصحيح. على سبيل المثال، نحن نتفق جميعا على أن من حق المجتمع تقييد الحرية الفردية حين تهدد بإلحاق الأذى بالآخريـن. التعديـل الأول لا يمنحك الحق في أن تصيح: «حريـق!» في مسرح مزدحم بالناس؛ وحقك في ممارسة شعائرك الدينية لا يشمل تقديم القرابين البشرية. وعلى نحو مشابه، نتفق جميعا على ضرورة وضع حدود لسلطة الدولة على التحكم بسلوكنا،

حتى وإن كان ذلك لمصلحتنا. ولن يشعر العديد من الأمريكيين بالارتياح حين ترصد الحكومة ما يأكلون، بغض النظر عن عدد الوفيات وحجم الإنفاق الطبي نتيجة ارتفاع معدلات البدانة.

لكن في معظم الأحيان، يكون من الصعب إقامة التوازن بين قيمنا المتنافسة. ولا تنشأ التوترات عن انحرافنا عن المسار الصحيح، بل لمجرد أننا نعيش في عالم معقد ومتناقض. أعتقد اعتقادا راسخا، مثلا، أننا منذ الحادي عشر من سبتمبر تلاعبنا بالمبادئ الدستورية في خضم الحرب على الإرهاب. لكنني أعترف بأنه حتى أكثر الرؤساء حكمة وحصافة وأكثر أعضاء الكونغرس تبصرا وفطنة، سوف يجدون صعوبة بالغة في إقامة التوازن بين المطالب الحاسمة التي يفرضها أمننا الجماعي والحاجة الملحة إلى تعزيز وتقوية الحريات المدنية. أعتقد أن سياساتنا الاقتصادية لا تركز بما فيه الكفاية على نزوح عمال التصنيع وخراب المدن الصناعية. لكنني لا أستطيع أحيانا استبعاد المطالب المتعارضة للأمن الاقتصادي والقدرة التنافسية.

لسوء الحظ، كثيرا ما نفشل في حواراتنا ومجادلاتنا الوطنية في الوصول حتى إلى النقطة التي نوازن عندها بين هذه الخيارات الصعبة. وبدلا من ذلك، إما أن نبالغ في الدرجة التي تنتهك فيها السياسات التي نكرهها قيمنا المقدسة، أو نصم آذاننا حين تتعارض سياساتنا التي نفضلها مع القيم الكابحة المهمة. المحافظون على سبيل المثال، يجفلون ويفزعون حين يتعلق الأمر بتدخل الحكومة في السوق أو حقهم في حمل السلاح. لكن العديد من هؤلاء المحافظين أنفسهم لا يظهرون اهتماما كبيرا حين يتعلق الأمر بالتنصت على المكالمات الهاتفية دون إذن قضائي، أو محاولات الحكومة السيطرة على الممارسات الجنسية للمواطنين. وبالمقابل، يسهل دفع معظم الليبراليين إلى إظهار الغضب والحنق على تعديات الحكومة على حرية الصحافة أو الحقوق الإنجابية للمرأة. لكن إذا أجريت حديثا مع هؤلاء الليبراليين أنفسهم حول التكاليف المحتملة للتنظيم على أصحاب المشروعات التجارية الصغيرة، لن ترى في عيونهم إلا نظرة خالية من المعنى.

في بلد باتساع وطننا، لا بد من ظهور حجج ومجادلات حادة حول كيفية رسم الخط الفاصل حين يتعلق الأمر بتصرف ومسلك الحكومة. هكذا تعمل ديمقراطيتنا. لكنها سوف تعمل بطريقة أفضل قليلا إذا أدركنا حقيقة أننا جميعا نتبنى قيما تستحق الإجلال والاحترام: إذا اعترف الليبراليون، على أقل تقدير، أن البنادق في نظر هواة الصيد تماثل في أهميتها الكتب بالنسبة لهم، وإذا أقر المحافظون بأن معظم النساء يشعرن بالحماية نتيجة تمتعهن بالحق في الحرية الإنجابية مثلما يشعر الإنجيليون بحقهم في العبادة.

يمكن لنتائج مثل هذا المقارنة أن تكون مفاجئة في بعض الأحيان. في السنة التي استعاد فيها الديمقراطيون الأغلبية في مجلس شيوخ ولاية الينوي، قدمت مشروع قانون يفرض تسجيل التحقيقات والاعترافات في الجرائم الكبرى على أشرطة فيديو. وفي حين يؤكد لي الدليل أن عقوبة الإعدام لا تردع الجريمة، إلا أنني أعتقد أن هناك جرائم بشعة ومستهجنة ـ القتل الجماعي، اغتصاب وقتل الأطفال ـ إلى حد تبرير عقوبة الإعدام بوصفها التعبير الكامل عن غضب المجتمع وحنقه. من ناحية أخرى، كانت طريقة محاكمة هذه الجرائم الكبرى في الينوي آنذاك متخمة بالأخطاء والعيوب والتمييز العنصري، وأساليب الشرطة مثيرة للشبهات، والدفاع عن المتهمين رديء وصل لدرجة تبرئة ثلاثة عشر من المدانين الذين ينتظرون تنفيذ حكم الإعدام، وهذا ما دفع الحاكم الجمهوري إلى إصدار قرار بتجميد تنفيذ عقوبة الإعدام.

على الرغم من أن نظام عقوبة الإعدام بدا نظاما أزف أوان إصلاحه، إلا أن قلة من المعنيين أيدت مشروع القانون الذي قدمته. فقد عارضه بعناد المدعون العامون ومؤسسات الشرطة في الولاية، على أساس أن التسجيل سيكون مكلفا ومربكا، ومعيقا لقدرتهم على إغلاق ملفات القضايا. بعض الذين فضلوا إلغاء عقوبة الإعدام خافوا من أن أي جهود تسعى للإصلاح سوف تشتت الانتباه عن قضيتهم الكبرى. والأعضاء من زملائي لم يرغبوا بأن يبدوا وكأنهم يظهرون اللين إزاء الجريمة. وأعلن الحاكم الديمقراطي المنتخب حديثا معارضته لتسجيل عمليات التحقيق والاستجواب خلال حملته الانتخابية.

كان رسم خط في الرمال سيبدو أسلوبا نمطيا مميزا للسياسة الراهنة لكل من الطرفين: المعارضون لعقوبة الإعدام يكررون دون ملل الإشارة إلى العنصرية وسوء معاملة رجال الشرطة، والشرطة تؤكد أن مشروع القانون يتساهل مع المجرمين ويبالغ في تدليلهم. بدلا من ذلك، عقدنا طوال عدة أسابيع اجتماعات يومية ضمت المدعين العامين، والمحامين، والشرطة، ومعارضي عقوبة الإعدام، وحاولنا إبعاد مفاوضاتنا عن الصحافة بقدر الإمكان.

وبدلا من التركيز على الاختلافات العميقة حول مائدة المفاوضات، تحدثت عن القيمة المشتركة التي أعتقد أن الجميع يتقاسمونها، بغض النظر عن موقفهم من عقوبة الإعدام: أي المبدأ الأساسي الذي ينص على حماية البريء من العقاب، وعدم تبرئة المذنب. وحين عرض ممثلو الشرطة المشكلات المتعينة الكامنة في صياغة مشروع القانون التي تعيق التحقيق والاستجواب، عملنا على تعديله. وحين عرضوا تسجيل الاعترافات فقط، تشبثنا برأينا، مع الإشارة إلى أن الغرض من القانون منح عامة الناس الثقة بأن الاعترافات استخلصت دون إكراه. في نهاية العملية، كان على القانون المقترح دعم ومساندة الأطراف المعنية كلها. ثم أقر بالإجماع في مجلس شيوخ ولاية الينوي وتحول إلى قانون.

وبالطبع، لن تنجح هذه المقاربة لرسم السياسة على الدوام. ففي بعض الأحيان، يرحب السياسيون وجماعات الضغط بالصراع والصدام سعيا وراء هدف أيديولوجي أعرض. على سبيل المثال، منع معظم الناشطين المناهضين للإجهاض حلفاءهم في المجلس التشريعي حتى من السعي إلى تحقيق تسويات يمكن أن تقلص تكرار الإجراء المعروف باسم إجهاض الولادة الجزئية، لأن صورة هذا الإجراء التي تستحضر في أذهان عامة الناس قد ساعدتهم على الفوز بمؤيدين لموقفهم.

وفي بعض الأحيان، تكون ميولنا الأيديولوجية متصلبة وعنيدة إلى حد تقلقنا فيه رؤية الواضح الجلي. في إحدى المرات، حين كنت في مجلس شيوخ الينوي، استمعت إلى زميل جمهوري يرغي ويزبد ويهاجم خطة مقترحة لتزويد الأطفال في سن ما قبل المدرسة بوجبة إفطار. فقد أصر على أن مثل هذه الخطة سوف تدمر روح الاعتماد

علـى الذات لديهم. وكان علي الإشـارة إلى أنني لا أعرف الكثير من الأطفال في عمر الخامسـة يعتمدون علـى أنفسهم، لكن الأطفال الذين يمضـون السنين التكوينية من عمرهـم والجوع يمنعهـم من التعليم سـوف ينتهي بهم المطـاف في مؤسسات الولاية لتتحمل هي مسؤوليتهم.

علـى الرغم من الجهود المبذولـة، ما يزال مشروع القانـون يواجه معارضة؛ لكنه أنقذ أطفال الولاية في عمر ما قبل المدرسة مؤقتا من التأثيرات السيئة لوجبة الحبوب والحليـب (سوف يجيز المجلس نسخة معدلة من القانون فيما بعد). أما خطبة زميلي فقـد ساعدت في إظهار واحد مـن الاختلافات المميزة بين الأيديولوجيا والقيم: القيم تطبق بأمانة على الحقائـق الواضحة أمامنا، في حين تسود الأيديولوجيا كلما شككت الحقائق بصواب النظرية.

ينشـأ معظـم الارتباك المحيط بالجدل حـول القيم من الفهـم المغلوط من جانب السياسيـين وعامة الناس، حـين يعتقدون أن السياسة والحكـم متماثلان. والقول إن القيـم مهمة لا يعني وجوب أن تخضع للتنظيـم والتشريع أو أنها تستحق آلية جديدة. وبالمقابـل، فـإن القـول إن القيم يجب ألا تشـرع (أو يتعذر أن تشـرع) لا يعني أنها لا تجسد موضوعا مناسبا للنقاش العام.

علـى سبيـل المثال، أقدر قيمـة آداب السلوك. وكلما التقيت بصبـي يتكلم بوضوح وينظر إلي قائـلا: «أجل يا سيدي»، أو «شكرا لك»أو «أرجوك»أو «عذرا»، أشعر بمزيد مـن الأمل بمستقبـل البلد. ولا أظـن أنني الوحيـد في ذلك. لا أستطيـع وضع تشريع للتهذيب وآداب السلوك. لكن أستطيع تشجيعها كلما خاطبت مجموعة من الشباب.

الشيء ذاته ينطبق على الأهلية والكفاءة. فلا يوجد سبب يجعل يومي مشرقا أكثر مـن التعامل مـع شخص يفخر بعملـه أو يبذل قصارى جهده ـ محاسـب أو سباك أو جـنرال بثلاث نجوم، أو متحدث على الهاتـف يرغب فعلا بحل مشكلتك. لقاءاتي مع مثل هؤلاء الأكفاء والمؤهلين انخفضت وتيرتها في المدة الأخيرة؛ ويبدو أنني أقضي وقتا أطـول في البحث عمن يساعدني في المتجر أو في انتظار وصول الموزع. ولا بد أن غيري قـد لاحظ هذه الظاهـرة؛ فهي تصيبنا بالهوس، وأولئك المسؤولـون في الحكم، مثل

العاملين في التجارة، يتجاهلون هذه المدركات المحسوسة ويتحملون مسؤوليتها (أنا مقتنع، على الرغم من عدم وجود دليل إحصائي يثبت زعمي، أن المشاعر المناهضة لفرض الضرائب والحكومة والنقابات تتعاظم كلما وجد المواطنون أنفسهم في طابور طويل أمام مكتب حكومي حيث لا توجد سوى نافذة واحدة في حين يتبادل ثلاثة أو أربعة موظفين الحديث أمام الناس).

يبدو أن الارتباك والتشوش أصابا التقدميين على نحو خاص في هذا السياق، ولهذا السبب نهزم في الانتخابات. ألقيت منذ مدة قريبة خطبة أمام «مؤسسة عائلة قيصر» بعد أن نشرت دراسة تظهر أن حجم المواد الجنسية المعروضة على التلفزيون قد تضاعف في السنوات الأخيرة. الآن، أنا أستمتع بمشاهدة محطة التلفزيون الكبلية مثل جاري، ولا يهمني عموما ماذا يشاهد البالغون سرا في بيوتهم. أما في حالة الأطفال، أعتقد أن من واجب الآباء مراقبة ما يشاهدونه على الشاشة، واقترحت في خطبتي أن الفائدة تعم الجميع إذا أغلق الأب جهاز التلفزيون وحاول مناقشة أطفاله في المسألة.

بعد ذلك، أشرت إلى أنني لا أشعر بسعادة كبيرة تجاه الدعايات المروجة لعقاقير الفحولة التي تبرز كل خمس عشرة دقيقة أمامي حين أشاهد مباراة لكرة القدم وابنتاي تجلسان في الغرفة معي. وقلت ملاحظا إن البرامج الجماهيرية التي تستهدف المراهقين، حيث تظهر الأفلام شبانا وشابات دون أي دعم أو مساعدة يقضون عدة أشهر يسكرون ويقفزون عراة في أحواض الاستحمام مع الغرباء، لا تمثل «العالم الحقيقي»، واختتمت باقتراح مفاده أن على صناعات البث والمحطات الكبلية تبني معايير أفضل وتقانة أحسن لمساعدة الآباء على التحكم بما يتدفق إلى بيوتهم.

ستظن أنني القس كوتون ماذر. ردا على خطبتي، ذكرت افتتاحية إحدى الصحف أن الحكومة لا علاقة لها بتنظيم حرية التعبير، على الرغم من حقيقة أنني لم أطالب بالتنظيم والتقنين. وأشار المراسلون إلى أنني أعد العدة للسباق على المستوى الوطني. وكتب الكثيرون إلي يشتكون من أنهم صوتوا لصالحي من أجل إسقاط أجندة بوش، لا لأكون مثل عجوز ملحاحة ومضجرة.

ومـع ذلك، فـإن كل أب أعرفـه، ليبراليا أم محافظا، يشتكي مـن فظاظة الثقافة المسيطرة، وترويج المادية السهلـة والإرضاء الفوري، وإبعاد الجنسانية عن الحميمية والخصوصيـة. لربمـا لا يرغب أمثاله بالرقيب الحكومي، لكنـه يريد الاعتراف بهذه المشاغـل والهمـوم، وتصديـق تجاربه وخبراتـه. حـين لا يستطيع زعمـاء سياسيون تقدميـون، خوفا من الظهور بمظهر السلطة الرقابية، حتـى الاعتراف بالمشكلة، فإن الآباء سـوف يستمعون إلى الزعماء الذين يعترفون بها- زعماء يعانون درجة أقل من الحساسية تجاه القيود الدستورية.

وبالطبع، يعاني المحافظون النقاط العمياء الخاصة بهم حين يتعلق الأمر بالتصدي للمشكلات في الثقافة. خذ على سبيل المثال أجر المدير التنفيذي. في عام 1980، كان أجـر المديـر التنفيذي في المعـدل المتوسط يزيد باثنين وأربعـين ضعفا عن معدل أجر العامل العادي. وبحلول عام 2005، ارتفعت النسبة على 262. وتحاول وسائل الإعلام المحافظة، مثل «وول ستريـت جورنال» في افتتاحياتها تبرير الأجور المرتفعة والحق في شراء الأسهـم بأسعار تفضيلية بوصفها ضرورة لازمة لاجتذاب أكفأ المواهب، وتشير إلى أن أداء الاقتصـاد يكـون أفضـل حالا حين يكـون كبار قادة الشـركات الأمريكية متخمـين وسعداء. لكن الارتفاع الصاروخي لرواتـب المديرين التنفيذيين لا علاقة له بتحسين الأداء. وفي الحقيقة، فإن بعضاً من أعلى المديرين التنفيذيين أجرا في أمريكا في العقـد الماضـي ترأسوا علـى شركات شهـدت هبوطا ضخما في الأربـاح، وخسائر جسيمـة في قيمـة الأسهـم، وتسريحا لأعداد كبـيرة من العمـال، وتراجعا ضخما في تمويل الصناديق التقاعدية لموظفيها.

السبـب الكامـن وراء ارتفـاع أجـور المديريـن التنفيذيين لا علاقة لـه بضرورات السـوق. بل بثقافته. ففي وقت لا يحصل فيه العمال العاديون على أي زيادة في الدخل (أو علـى زيادة طفيفة وحسب)، فقـد العديد من كبار المديرين التنفيذيين في أمريكا الشعـور بالخجل مـن اقتناص أي مزايا تسمـح بها مجالـس إدارة الشركات المذعنة لهـم. يعرف الأمريكيون مقدار الضرر الذي أصاب حياتنا الجمعية نتيجة الممارسات الجشعة هذه؛ ففي استطلاع أجري منذ مدة قريبة، احتل الفساد في قطاعي الحكومة

والأعمال التجارية، والجشع والمادية، المرتبة الثانية من بين أهم ثلاثة تحديات تواجه الأمة (المرتبة الأولى ذهبت إلى تربية الأولاد وفقا للقيم الصحيحة). ولربما يكون المحافظون على صواب حين يقدمون الحجة على أن تحديد رواتب المديرين التنفيذيين ليس من مهمة الحكومة. لكن عليهم أن يكونوا مستعدين على الأقل للاعتراض على السلوك المنحرف في غرف مجالس إدارة الشركات بالدرجة ذاتها من القوة الأخلاقية، والشعور بالغضب العارم ذاته الذي يوجهونه إلى كلمات أغنيات «الراب» القذرة.

هنالك بالطبع حدود لسلطة الاستئساد على الضعفاء. في بعض الأحيان، لا يمكن إلا للقانون وحده إثبات صحة وصوابية قيمنا، خصوصا حين تكون حقوق الضعفاء وفرص المحرومين في مجتمعنا على المحك. ومن المؤكد أن ذلك انطبق على جهودنا لإنهاء التمييز العنصري؛ ومهم كأهمية الحث الأخلاقي في تغيير قلوب وعقول الأمريكيين البيض خلال حقبة الحقوق المدنية. وما كسر في نهاية المطاف ظهر سياسة الفصل العنصري وبشر بعهد جديد من العلاقات العرقية كان القضايا التي نظرت فيها المحكمة العليا. وبلغت ذروتها في قضية براون ضد مجلس التعليم، وقانون الحقوق المدنية لعام 1965. حين كان الجدل محتدما حول هذه القوانين، ظهر أولئك الذين قدموا الحجة على وجوب عدم تدخل الحكومة في المجتمع المدني، وأكدوا عدم وجود قانون يمكن أن يجبر البيض على الارتباط مع السود. وعند سماع هذه الحجج، رد الدكتور كينغ بالقول: «قد يصح القول إن القانون لا يمكن أن يجعل رجلا يحبني لكن يمكن أن يمنعه من شنقي، وأظن أن هذا أمر بالغ الأهمية أيضا»

في بعض الأحيان نحتاج إلى التغيير الثقافي والإجراء الحكومي في آن - تغيير في القيم وفي السياسة - لتشجيع نوع المجتمع الذي نريد. وحالة المدارس في الأحياء الداخلية في مدننا مثال يثبت ذلك. فمال العالم كله لن يدعم إنجاز الطالب إذا لم يبذل الأبوان جهدا لغرس قيم العمل الجدي وعدم الرضى على الذات في أطفالهما. لكن حين يتظاهر المجتمع بأن الأطفال الفقراء سوف يحققون إنجازاتهم ويبرزون إمكانياتهم في مدارس متهالكة وغير آمنة ومجهزة بمعدات تالفة ومستهلكة وقديمة، ومدرسين غير مؤهلين ولا مدربين في المواد التي يدرسونها، فإنه يمارس الكذب على هؤلاء الأطفال، وعلى نفسه، ويخون قيمه.

هـذا واحد مـن الأشياء التـي تجعلنـي ديمقراطيا، كمـا أفترض ـ فكـرة قيمنا المشتركـة هذه، وإحساسنا بالمسؤوليـة المتبادلة والتضامن الاجتماعي، يجب أن تعبر عـن نفسهـا لا في الكنيسة أو المسجد أو الكنيس؛ ولا في المباني والأحياء التي نسكنها، ولا الأماكـن التي نعمل فيها، ولا داخل عائلاتنا فقـط؛ بل عبر حكومتنا أيضا. وعلى شاكلـة العديد مـن المحافظين، أؤمن بقـوة الثقافة لتقرير النجـاح الفردي واللحمة الاجتماعية، وأعتقد أننا حين نتجاهل العوامل الثقافية نعرض أنفسنا للخطر. لكنني أعتقـد أيضا أن بمقدور حكومتنـا أداء دور في صياغة تلك الثقافة وجعلها أحسن، أو أسوأ.

كثـيرا مـا تساءلـت متعجباً: لمـاذا يصعب علـى السياسيـين التحدث عـن القيم بأساليـب لا تبـدو محسوبة بدقة أو زائفـة؟ يعود جزء من السبـب برأيي، إلى مغالاة هـؤلاء في التشبث بالسلوكيات الاجتماعية المناسبة لكل حالة، وإلى الإشارات المفرطة في معياريتها التي يستخدمها المرشحون للدلالة على قيمهم (توقف عند كنيسة للسود، رحلـة صيـد، زيارة إلى الجمعيـة الوطنية لسيـارات السباق المعدلة، قـراءة في صف حضانـة)، بحيث أصبح من الصعب على عامـة الناس التمييز بين المشاعر الصادقة والتمثيل المسرحي السياسي.

ثـم هناك حقيقة أن ممارسـة السياسة الحديثة نفسها تبـدو متحررة من القيم. فالسياسة (والتعليق السياسي) لا تسمح فقط بالسلوك الذي نعده عادة شائنا ومعيبا بـل كثيرا ما تكافئه وتشجعه أيضا: تختلق القصص، وتحرف المعنى الواضح لما يقوله الآخـرون، وتوجـه الإهانة إلى دوافعهـم أو تضعها موضع المساءلـة عموما، وتنقب في شؤونهم الشخصية بحثا عن المعلومات المؤذية والمخربة.

خـلال حملـة الانتخابـات العامـة لدخول مجلـس الشيـوخ، مثلا، عـين خصمي الجمهـوري شابا مزودا بآلة تصوير لمتابعة لقاءاتـي العلنية كلها. وأصبح وجوده أمرا روتينيـا في حملاتي الانتخابية، لكن بغض النظر هل يعود السبب إلى حماسة واندفاع الشـاب، أم صدرت إليه التعليمات باستفزازي، فقد تحولـت متابعته لي إلى ما يشبه المطاردة. من الصباح إلى المساء، كان يلاحقني كظلي، على بعد لا يزيد عن مترين أو

ثلاثـة. في بعضـ الأحيان التقط صورا لي وأنا أركب المصعد، أو أخرج من الحمام، أو أتحدث على هاتفي الخلوي، أو أتكلم مع زوجتي وبنتي.

في البدايـة، حاولـت مجادلته بالمنطق. وقلـت له إنني أفهم أن لديـه عملا يؤديه، واقترحـت أن يبتعـد عني قليلا حتـى يسمح لي بالحديث مع الآخريـن دون أن يستمع إلي. كان يقابـل حججـي بالصمـت غالبا، بعد أن يقـول إن اسمه جوستـين. وأشرت عليـه بالاتصال برئيسه وسؤاله هل هذه هـي مهمته في الحملة الانتخابية. فأجاب إن بمقـدوري أنا الاتصال وأعطاني الرقم. بعـد يومين أو ثلاثة، قررت أن المسألة لم تعد تحتمـل. ففي يـوم كان فيه يلاحقني كالعـادة، دخلت إلى المكتـب الصحفي في مبنى مجلس الشيوخ في الولاية وطلبت من الصحفيين الاجتماع.

قلـت لهم: «أريـد أن أعرفكم بجوستـين. جوستين عينته حملة ريـان لمطاردتي حيثما أذهب»

عندمـا كنت أشـرح الوضع، ظـل جوستين واقفا يصـور. فالتفت إليـه المراسلون وأمطروه بوابل من الأسئلة:

«هل تتبعه إلى الحمام؟»

«هل تلازمه كظله دوما؟»

سرعـان ما وصل عدد من طواقم الأخبار وبدؤوا يصورون جوستين وهو يصورني. ومثل أسير الحرب، كرر جوستين اسمه ورتبته ورقم هاتف الحملة الانتخابية لرئيسه. وبحلول الساعـة السادسة، ظهرت قصة جوستين في معظـم نشرات الأخبار المحلية. ثـم هيمنت على الولاية طوال أسبوع ـ في الرسوم الكاريكاتورية وافتتاحيات الصحف وبرامـج الإذاعـة. وبعد عدة أيام من المكابـرة، أذعن منافسـي للضغوط، وطلب من جوستـين التراجـع بضعـة أمتـار، وأصـدر اعتـذارا. لكن الحادثـة أضـرت بحملته الانتخابيـة. ولربما لم يفهم الناس آراءنا المتضاربة فيمـا يتعلق بالرعاية الصحية أو ديبلوماسيـة الشـرق الأوسط. لكنهم عرفوا أن حملة منافسـي انتهكت إحدى القيم ـ السلوك المهذب ـ التي عدوها مهمة.

الفجوة بين ما نعده سلوكا لائقا في الحياة اليومية وما يتطلبه الفوز بحملة انتخابية تجسد إحدى الطرق التي تختبر عبرها قيم السياسي. قلة من المهن الأخرى يطلب منك فيها، في كل يوم، موازنة هذا العدد الكبير من المزاعم المتنافسة والحقوق المتضاربة - بين مجموعات مختلفة من الناخبين، بين مصالح الولاية ومصالح الأمة، بين الولاء الحزبي وشعورك الذاتي بالاستقلالية، بين قيمة الخدمة والالتزامات تجاه عائلتك. هنالك خطر ماثل على الدوام، في الأصوات النشاز، من أن يفقد السياسي مسلكه الأخلاقي ليجد نفسه قشة في مهب رياح الرأي العام.

لربما يفسر ذلك سبب تشوقنا إلى أكثر السمات مراوغة والخصال غموضا في زعمائنا - سمة الأصالة والصدق، تطابق ما يعلنونه وما يخفونه، التزام الصدق الذي يتجاوز إطار الكلمات. صديقي السيناتور الراحل بول سايمون كان يتمتع بهذه الخصلة. ففي معظم حياته المهنية، أذهل الخبراء والمختصين بقدرته على حشد تأييد الناس المعارضين، بشدة أحيانا، لسياسته الليبرالية. ساعد على ذلك أنه بدا أمامهم أهلا للثقة، مثل طبيب في بلدة صغيرة، بنظارتيه وربطة عنقه وملامح وجهه المريحة. فقد استشعروا أنه يطبق قيمه على أرض الواقع: صادق وأمين ويدافع عما يؤمن به، والأهم ربما أنه يهتم بهم وبمعاناتهم.

الملمح الأخير في شخصية بول سايمون، - التعاطف مع الآخرين - هو ما وجدت نفسي أضاعف تقديره واحترامه مع تقدمي في العمر. وهو يقبع في صميم مبادئي الأخلاقية، وأفهم عبره القاعدة الذهبية- لا كمجرد دعوة لتعاطف أو الإحسان وعمل الخير، بل كشيء يتطلب المزيد، دعوة وضع نفسي مكان شخص آخر ورؤية العالم بعينيه (أو ما يدعى بالتقمص العاطفي).

على شاكلة معظم القيم التي أتبناها، تعلمت التعاطف مع الآخرين من أمي. فقد كانت تزدري أي نوع من الفظاظة أو الخشونة أو إساءة استخدام السلطة، بغض النظر هل يجد التعبير عنه بشكل تعصب عرقي أو استئساد على التلاميذ الضعفاء في باحة المدرسة أو إعطاء العامل أقل من حقه. وكلما رأت إشارة ولو عابرة إلى مثل هذا السلوك لدي، كانت تنظر في وجهي مباشرة وتقول: «ما شعورك لو تعرضت أنت لذلك؟».

لكن عبر علاقتي بجدي بدأ التقمص العاطفي يصبح جزءا من ذاتي. ولأن عمل والدتي تطلب منها السفر خارج البلاد، كثيرا ما أقمت في بيت جدي خلال سنوات المدرسة الثانوية، وفي غياب الوالد، حمل جدي عبء معظم ثوراتي المتمردة في مرحلة المراهقة. لم يكن من السهل الانسجام معه؛ فقد كان طيب القلب لكن سريع الغضب، ولأنه لم يصب نجاحا كبيرا في حياته المهنية، فقد كان من السهل جرح مشاعره. وبحلول الوقت الذي بلغت فيه السادسة عشرة، أصبحنا نتجادل طوال اليوم، حول فشلي في التزام ما كان برأيي سلسلة لا نهاية لها من القواعد السطحية والعشوائية ـــ تعبئة خزان الوقود كلما استعرت سيارته مثلا، أو التأكد من غسيل علبة الحليب الكرتونية قبل وضعها في سلة المهملات.

مع شيء من الموهبة في الكلام البلاغي، إضافة إلى يقين مطلق بمزايا وفضائل آرائي، وجدت أنني قادر عموما على الفوز في هذه النقاشات والمجادلات، بالمعنى الضيق الذي ينحصر في إرباك وإغضاب جدي وجعله يبدو مجافيا للمنطق العقلاني. لكن عند نقطة ما، ربما في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية، لم تعد هذه الانتصارات ترضيني كثيرا. وبدأت أفكر بكفاحه ومعاناته والخيبات التي شهدها في حياته، وأقدر حاجته إلى الاحترام في منزله. وأدركت أن التزام قواعده يكلفني القليل، لكن يعني له الكثير. وأن حججه مقنعة في بعض الأحيان، وأنني في الإصرار العنيد على التصرف وفقا لما أريد، وتجاهل مشاعره وحاجاته، أقلل من قيمة ذاتي بطريقة أو بأخرى.

لا يوجد ما هو استثنائي في مثل هذه اليقظة بالطبع؛ فبشكل أو بآخر، كلنا نفعل ذلك حين نكبر. ومع هذا وجدت نفسي أعود مرة بعد أخرى إلى مبدأ والدتي البسيط: «ما شعورك لو تعرضت أنت لذلك؟»، كمعلم هاد يرشد سياستي.

أعتقد أنه سؤال لا نطرحه على أنفسنا كثيرا؛ بل نبدو، كأمة، وكأننا نعاني من نقص في التقمص العاطفي. فما كنا لنتساهل مع المدارس العاجزة عن التدريس، التي تعاني من نقص مزمن في التمويل، إذا عَدَدْنَا الأطفال فيها أطفالنا. ويصعب تخيل مدير تنفيذي في شركة يمنح نفسه علاوة بملايين الدولارات في حين يلغي الرعاية الصحية عن موظفيه وعماله، إذا عدهم أندادا مساوين له بمعنى من المعاني. ومن العدل

الافتراض أن أولئك القابعين في السلطة سوف يفكرون مرتين قبل شن الحرب إذا تخيلوا أن أولادهم وبناتهم سيسقطون ضحايا فيها.

أعتقد أن وجود إحساس أقوى بالتقمص العاطفي سوف يرجح كفة ميزان سياستنا الراهنة لصالح الذين يكافحون ويعانون في هذا المجتمع. فعلى الرغم من كل شيء، إذا كانوا مثلنا تصبح معاناتهم معاناتنا. وإذا فشلنا في مساعدتهم، نقلل من قيمة أنفسنا.

لكن ذلك لا يعني إعفاء الذين يكافحون ويعانون — أو أولئك الذين يزعمون التحدث باسمهم - من محاولة فهم وجهات نظر الميسورين. زعماء السود بحاجة إلى تقدير المخاوف المشروعة التي تدفع بعض البيض إلى معارضة سياسة تشجيع تمثيل النساء والأقليات (في التوظيف مثلا). وليس أمام ممثلي النقابات سوى محاولة فهم الضغوط التنافسية التي يتعرض لها أرباب العمل. أنا ملزم بمحاولة رؤية العالم بعيني جورج بوش، مهما بلغت معارضتي له. هذا ما يفعله التقمص العاطفي - فهو يدعونا جميعا، محافظين وليبراليين، أقوياء وضعفاء، مضطهدين ومضطهدين، إلى تحمل مسؤولياتنا. علينا جميعا التخلص من مشاعر الرضا الذاتي. نحن جميعا مضطرون إلى تجاوز رؤانا المحدودة.

لا يستثنى أحد من الدعوة إلى العثور على أرضية مشتركة.

وبالطبع، لا يكفي في نهاية المطاف امتلاك شعور بالفهم المتبادل. فعلى الرغم من كل شيء، الكلام لا يكلف شيئا؛ ومثل أي قيمة، يجب العمل على التقمص العاطفي. حين اشتغلت في مجال التنظيم الاجتماعي في الثمانينيات، كثيرا ما كنت أتحدى زعماء الأحياء بسؤالهم هل كرسوا ما يكفي من الوقت والطاقة والمال. فهذه هي الاختبارات الحقيقية لما نقدره من قيم، كما كنت أؤكد، بغض النظر عما نرغب بقوله. فإذا لم نكن على استعداد لدفع الثمن في سبيل قيمنا، فعلينا أن نسأل أنفسنا هل نؤمن بها حقا.

وفقا لهذه المعايير على الأقل، يبدو أحيانا أن الأمريكيين لا يريدون اليوم سوى أن يكونوا أغنياء ومشهورين وآمنين ويتمتعون بالرشاقة والشباب والتسلية. نحن نقول:

إننــا نهتم بالميراث الــذي نخلفه للجيل القــادم ومع ذلك نغرقه بالديــون. نقول: إننا نؤمــن بتساوي الفرص، لكننا نبقى متفرجين حــين يعاني ملايين الأطفال الأمريكيين من الفقر. ونصر بإلحاح على أننا نقدر قيمة وأهمية العائلة، لكننا نصمم اقتصادنا وننظم حياتنا بحيث نخصص لعائلاتنا وقتا اقل.

ومــع ذلــك، فإن قسمــا منا يعرفــون ويعلمون. نحــن نتشبث بقيمنا حتــى إن بدت أحيانــا ملطخة ومهترئة؛ حتى إذا عملنا، كأمة وفي حياتنا اليومية، على خيانتها أكثر ممــا نريد أن نتذكر. ما الذي لدينا غيرها لنسترشــد به؟ تلك القيم هي ميراثنا، ما يجعلنــا ما نحن عليه كشعب. وعلى الرغم من أننا ندرك أنها معرضة للتحدي، إلا أن من الممكــن للمثقفين والمفكرين والنقاد نخزها وحثها وتحفيزها وكشفها وقلبها رأسا علــى عقب، لنتبين أنهــا باقية وثابتة إلى حد مذهل عبر الطبقــات والأعراق والأديان والأجيال. يمكننا أن نطالب بحقوقنا باسمها، ما دمنا نفهم أن من الواجب اختبارها إزاء الحقيقة والتجربة، ونتذكر أنها تتطلب الأفعال لا الأقوال فقط.

وإلا، فإن علينا أن نتخلى عن أفضل ما في ذواتنا الحقيقية.

- 3 -

دستورنا

هنالك قول يستخدمه أعضاء مجلس الشيوخ مرارا وتكرارا حين يطلب منهم وصف عامهم الأول في «كابيتول هيل»: «مثل شرب الماء من خرطوم الإطفاء».

الوصف مناسب وفي محله. فخلال الشهور القليلة الأولى من عملي في مجلس الشيوخ بدا أن علي القيام بمهمات عديدة ومتزامنة وفورية. كان علي تعيين كادر من الموظفين وإقامة مكاتب في واشنطن والينوي. والتفاوض حول تعيينات ومهمات اللجان والإسراع في التصدي للقضايا المعروضة أمامها. كانت هناك عشرة آلاف رسالة من الناخبين تأخرت في الرد عليها وتراكمت منذ يوم الانتخابات، وثلاثمئة دعوة لإلقاء الخطب تصلني كل أسبوع. كنت أتنقل كالمكوك بين قاعة المجلس وغرف اللجان وبهو الفنادق واستوديوهات المحطات الإذاعية، معتمدا اعتمادا كليا على تشكيلة من الموظفين والمساعدين الجدد الذين تراوحت أعمارهم بين العشرينيات والثلاثينيات لإنجاز المهمات المطلوبة في الموعد المحدد، أو إعداد آخر المعلومات، أو تذكيري بمن أقابل، أو توجيهي إلى أقرب غرفة استراحة.

وفي الليل كان علي التأقلم مع العيش وحيدا. فقد قررنا، أنا وميشيل، أن نبقي العائلة في شيكاغو، لأننا من ناحية أردنا تنشئة البنتين خارج بيئة واشنطن التي تشبه الدفيئة، ومن ناحية ثانية لأن هذا الترتيب منح ميشيل الدعم والمساندة - من أمها وأخيها وباقي أفراد العائلة والأصدقاء - بحيث أمكنها تدبر أمر أوقات غيابي الطويلة حسبما يقتضيه عملي. ولذلك استأجرت شقة صغيرة من غرفة نوم واحدة قرب كلية جورج تاون للحقوق في مبنى مرتفع بين «كابيتول هيل» ومركز المدينة، لقضاء الليالي الثلاث من كل أسبوع في واشنطن.

في البداية، حاولت قبول العيش وحيدا، وأجبرت نفسي على تذكر متع حياة العزوبية - جمع لوائح الطعام «السفري» من كل مطعم في الحي، أو مشاهدة مباريات

كـرة السلـة، أو المطالعة حتى وقت متأخر من الليل، أو ممارسـة التمارين الرياضية، وتـرك الصحون في «المجلى»، وعـدم ترتيب السرير. لكن ذلك كله لم يجد نفعا؛ فبعد أربعـة عشر عاما من الزواج، وجدت نفسي مغرما بالحياة العائلية، وضعيفا وعاجزا. في صباحـي الأول في واشنطـن، أدركت أنني نسيت شراء ستـارة للحمام فاضطررت للالتصـاق بالحائط كـي لا أغرق الأرضية بالماء. في الليلـة التالية، حين كنت أشاهد مبـاراة وأرشف البـيرة، غلبني النعاس بـين الشوطين، واستيقظت علـى الأريكة بعد ساعتـين بسبـب الألم الحـاد في رقبتي. لم أعـد أستسيغ مـذاق الطعـام «السفري»؛ والصمـت أزعجني. وجـدت نفسي أتصل بالمنـزل مرارا، لكي أسمـع صوت البنتين، متشوقا لدفء عناقهما ورائحتهما الحلوة.

«مرحبا يا حبيبتي»

«مرحبا يا أبي»

«ما أخباركم؟»

«منذ أن اتصلت آخر مرة؟»

«نعم»

«لا شيء جديد. أتريد التحدث مع أمي؟»

هنالـك حفنة مـن أعضاء مجلس الشيوخ ممـن لديهم أولاد صغـار السن، وكلما التقينـا كنا نقارن محاسـن ومساوئ الانتقال للعيش في واشنطـن، إضافة إلى حماية الوقـت المخصص للأسرة من الموظفين والمساعدين المغالين في الحماسة. لكن معظم زملائـي الجـدد كانوا أكبر مني عمرا ـ معدل العمر المتوسط كان ستين سنة ـ ولذلك حين كنت أقوم بجولة على مكاتبهم تمثلت نصائحهم غالبا في العمل والمجلس. شرحوا لي مزايا مختلف اللجان ومهماتها ومزاجية رؤسائها. وقدموا مقترحات تتعلق بتنظيم كادر الموظفين، ومن المسؤول عن توفير مكاتب إضافية، وكيفية تلبية مطالب الناخبين. وجدت معظم النصائح مفيدة؛ وأحيانا متناقضة. لكن لقاءاتي مع الديمقراطيين على الأقـل كانـت تختم بتوصية متكررة: يجب ترتيب لقاء مـع السيناتور بيرد بأسرع وقت

ممكـن ـ لا لأسباب تتعلق بالمجاملات فقط، بل بسبـب موقع السينـاتور بيرد المهم في لجنة المخصصات والتمويلات والمكانة التي يحظى بها عموما في المجلس وما يتمتع به من سلطة ونفوذ.

لم يكـن السينـاتور روبرت بيرد (78سنة) مجرد عميد أعضاء مجلس الشيوخ؛ بل أصبـح يعد التجسيد الرامـز له، وجزءا حيا من التاريخ. في طفولته، كفله عمه وعمته بالرعايـة في بلـدات مناجم الفحم في غـرب فيرجينيا، بكل ما ميـز الحياة فيها من مشقـة، وتمتع بموهبة فائقـة مكنته من تلاوة قصائد طويلة مـن الشعر اعتمادا على الذاكـرة والعزف على الكمان بمهـارة مؤثرة. لم يستطع دخول الجامعة، فعمل جزارا وبائعـا ثم لحاما كهربائيـا على السفن الحربية خلال الحـرب العالمية الثانية، وحين عـاد إلى غـرب فيرجينيا بعد الحرب، فاز بمقعد في مجلـس شيوخ الولاية، ثم انتخب عضوا في الكونغرس عام 1952.

في عـام 1958، قفز إلى مجلس الشيوخ، وشغل كل منصب متاح فيه على مدى سبعة وأربعـين عاما ـ منها سـت سنوات كزعيم للأغلبية وست كزعيـم للأقلية، وحافظ على الدافـع الشعبوي الـذي قاده إلى التركيز علـى تقديم مكاسب ومنافـع ملموسة لمواطني ولايتـه: منافع عادت بالفائدة على المصابين بالرئة السوداء (سحار المعدنين) والحماية النقابيـة لعمال المناجم؛ وتشييد الطرق والأبنية ومشاريـع الكهرباء للمجتمعات المحلية الفقـيرة. وبعـد دراسـة مسائية استمـرت عشر سنين (وهـو عضـو في الكونغرس) نال شهـادة الحقوق، واشتهـر بفهمه الأسطوري لقواعد وأنظمـة المجلس. في نهاية المطاف، كتب تاريخا من أربعة أجزاء عن مجلس الشيوخ لم يكن متخما بالمعارف والعلوم فقط بل بالحب الجارف للمؤسسة التي صاغت عمل حياته. وفي الحقيقة، قيل إن حب السينـاتور بـيرد لمجلس الشيوخ لا يتفوق عليه سوى حبه وعطفـه على زوجته المريضة التي كانت في الثامنة والستين (وتوفيت بعد ذلك) ـ ولربما احترامه للدستور، حيث اعتاد حمل نسخة (بحجم الجيب) منه ثم التلويح بها في خضم النقاشات التي تجري في القاعة.

كنـت قد تركـت رسالة في مكتب السينـاتور بيرد أطلب فيهـا مقابلته، حين سنحت لي الفرصة برؤيته أول مرة. كانت المناسبة يوم القسم، وكنا في القاعة القديمة، وهي

غرفة معتمة ومزخرفة يهيمن عليها نسر ضخم غريب الشكل يمد جناحيه فوق مقعد الرئيس المسؤول من ظلة مخملية بلون الدم الغامق. الجو الكئيب شابه المناسبة، حيث اجتمع الأعضاء الديمقراطيون لتنظيم صفوفهم بعد الانتخابات الصعبة وخسارة زعيمهم. وبعد اختيار فريق قيادة جديد، طلب زعيم الأقلية هاري ريد من السيناتور بيرد أن يلقي كلمة. نهض السيناتور ببطء من مقعده، بدا رجلا نحيلا غزا الشيب شعره الذي ما يزال كثيفا، والتمعت عيناه الزرقاوان، وبرز أنفه الحاد. وقف وهلة صامتا، واستند إلى عكازه، ثم رفع رأسه وثبت نظراته على السقف، وبدأ يتحدث بنبرة هادئة محسوبة، مع لكنة خفيفة من منطقة جنوب جبال أباليشيا (كقطعة خشب مملوءة بالعقد تحت قشرة صقيلة).

لا أتذكر خطبته بالتفصيل، لكن أذكر الموضوعات العريضة، تتدفق من بئر غرفة المجلس القديمة بإيقاع شيكسبيري يعلو باطراد ـ تصميم الدستور الدقيق، والمجلس بوصفه جوهر الوعد المأمول لذلك الميثاق؛ خطر انتهاك وتعدي السلطة التنفيذية، سنة بعد سنة، على استقلالية المجلس المهمة والثمينة؛ حاجة كل عضو إلى إعادة قراءة وثائقنا التأسيسية، بحيث نبقى متشبثين بمعنى الجمهورية ومخلصين وصادقين معه. حين كان يتحدث، غدا صوته أكثر حدة وقوة؛ وطعنت سبابته الهواء؛ وبدت عتمة الغرفة كأنها تطبق عليه، حتى لاح كالشبح، كروح آتية من الماضي، وسنواته الخمسون في هذه القاعات تحاول لمس السنوات الخمسين السابقة، والتي سبقتها؛ حتى الحقبة التي كان فيها جيفرسون وآدامز وماديسون يهيمون في قاعات المبنى، حين كانت المدينة نفسها ما تزال قفرا ومزارع ومستنقعات.

إلى زمن ما كان فيه بمقدوري -أنا وأمثالي- الجلوس بين هذه الجدران.

حين كنت أستمع إلى السيناتور بيرد يخطب، شعرت بقوة بجميع التناقضات الجوهرية لوجودي في هذا المكان الجديد، بتماثيله الرخامية، وتقاليده الغامضة، وذكرياته، وأشباحه. فكرت بحقيقة أن السيناتور بيرد ذاق، وفقا لسيرته الذاتية، طعم أول زعامة قيادية عندما كان عضوا في أوائل العشرينيات من العمر في فرع رالي

لمنظمـة كو كلوكس كلان*، وهو ارتباط تخلى عنه منذ زمن طويل، وخطأ عزاه، بشكل صحيـح دون شك، إلى زمن نشأته ومكانها، لكن استمر بالظهور على السطح كقضية مهمة طوال حياته المهنية. فكرت كيف انضم إلى عمالقة المجلس الآخرين، مثل وليام فولبرايت (اركانساس) وريتشارد رسل (جورجيا)، في المعارضة الجنوبية لتشريعات الحقوق المدنية. تساءلت متعجبا هل يهم ذلك كله الليبراليين الذين يعظمون السيناتور بـيرد ويمتدحونه بسبب معارضته المبدئيـة لقرار الحرب على العراق ـ جماهير موقع (moveOn.org) مـن وارثـي الثقافة السياسية المضادة التـي قضى السيناتور معظم حياته المهنية يزدريها.

تساءلـت هل يهم ذلـك كله. لقد كانت حيـاة السيناتور بيرد، مثلنـا، صراعا بين الدوافـع المتنازعة، ومضـات من النور والظـلام. وبهذا المعنى أدركـت أنه كان رمزا صحيحا ومناسبا لمجلس الشيـوخ، الذي تعبر قواعده وأنظمته وتصميمه عن التسوية الكبرى عند تأسيس أمريكا: المساومة بين الولايات الشمالية والجنوبية، ودور المجلس بوصفـه الحامـي من عواطـف وأهواء اللحظـة، والمدافع عـن حقوق الأقليـة وسيادة الولايـات، لكـن كأداة أيضـا لحماية الأغنيـاء من الدهمـاء، وطمأنة مـلاك العبيد بعدم التدخل في شـؤون مؤسستهم الغريبة الشاذة. وانغرس في صميم ونسيج مجلس الشيوخ، في شيفرته الجينية، النزاع نفسه بين القوة والحق الذي ميز أمريكا برمتها، تعبـير دائم عن ذلك الجدل العظيم بين قلة من اللامعـين، والخطائين، الذي اختتم بإقامة صيغة من الحكم فريدة في نبوغها ـ لكنها عمياء تجاه أدوات القهر والاستعباد: السوط والسلسلة.

انتهـت الخطبـة؛ وصفق الزمـلاء الأعضاء وهنـؤوا السيناتور بـيرد على بلاغته الخطابيـة الرائعـة. ذهبت لأقدم نفسـي فصافحني بحرارة، معبرا عـن تشوقه إلى زيارتـي. وحين عـدت إلى مكتبي، قررت العودة إلى كتب القانون الدستوري تلك الليلة وقراءة الوثيقة مرة أخرى. فقد كان السيناتور بيرد على حق: فمن أجل فهم ما يحدث

* منظمة سرية (عنصرية) أنشئت عام 1915 (استمدت إلهامها من أخرى أشد عنصرية وعنفا أسست بعد الحرب الأهلية) ونشطت في ولايات الجنوب الأمريكي وغيرها، واستهدفت بأعمالها العدائية السود والكاثوليك واليهود والأجانب. (م).

ﬕ واشنطـن عام 2005، وفهم عملـي الجديد والسيناتور بيرد، أنا بحاجة إلى العودة إلى البدايـة، إلى المجادلات والنقاشات والوثائق التأسيسية، لتعرّف كيف طبقت على مدى الزمن، واستخدمت لإطلاق الأحكام ﬕ ضوء التاريخ اللاحق.

لو سألتَ ابنتي البالغة ثماني سنوات ما هي مهنة والدك لأجابت: يصنع القوانين. لكـن من الأشياء المفاجئـة ﬕ واشنطن حجم الوقت المخصصـ للمحاجة والجدل لا حـول مـا يجب أن يكون عليه القانون بل ماهية القانـون. فأبسط تشريع قانوني ـ مثل الطلب من الشركات منح فرصة لموظفيها (العاملين بالساعة) لدخول الحمام ـ يمكن أن يصبح موضوعا لتفسيرات مختلفة على نطاق واسع، اعتمادا على من تتحدث إليه: عضو الكونغرس الذي يرعى القانون، أم الموظف الذي يكتب مسودته، أم رئيس القسم الـذي تتمثل مهمته ﬕ تنفيذه، أم المحامي الذي يجده عمليا غير مناسب، أم القاضي الذي يطلب منه تطبيقه.

بعض أجزاء هذه العملية نتاج لآلية معقدة من الكوابح والضوابط والتوازنات. أما توزيع السلطة بين الفروع، وبين الحكومة الاتحادية والولايات، فيعني عدم وجود قانون نهائـي، وعدم انتهاء أي معركة نهاية حاسمة فعلا؛ فهناك على الدوام فرصة لتعزيز أو إضعاف ما أنجز ﬕ الظاهر، أو تمييع القانون أو إعاقة تنفيذه، أو الرد على السلطة المعنية بتخفيض ميزانيتها، أو الإمساك بزمام قضية حيثما ترك فراغ.

يعود ذلك، جزئيا، إلى طبيعة القانون ذاته. ففي معظم الأحيان يكون القانون راسخا وبسيطـا. لكن الحياة تفرز مشكلات جديدة، فيناقش المحامون والمسؤولون والمواطنون معـاني تعابيره وبنوده التي كانت تبدو واضحة قبـل بضع سنوات أو حتى بضعة شهور. ﬕ النهايـة، ليست القوانين سوى كلمات على الورق ــ كلمات تكون أحيانا حمالة أوجه وملتبسة، ومعتمدة على السياق والثقة مثلما هي الحال ﬕ القصة أو القصيدة أو الوعد الذي يقطعه الناس، كلمات تخضع مداليلها للتآكل، وتنهار أحيانا بطرفة عين.

لكـن المجادلات الخلافية القانونية التي كانت تهيـج واشنطن عام 2005 تجاوزت نطاق المشكلات المعيارية للتفسير القانوني. فقد امتدت لتشمل سؤال هل يلتزم أولئك القابعون ﬕ السلطة بأي قواعد قانونية.

حين يتعلق الأمر بمسائل الأمن القومي في حقبة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، مثلا، يتخذ البيت الأبيض موقفا عنيدا معارضا أي إشارة تلمح إلى أنه مسؤول أمام الكونغرس أو المحاكم. وخلال جلسات الاستماع للموافقة على تعيين كوندوليزا رايس وزيرة للخارجية، امتدت الحجج لتشمل كل شيء، من مدى تصميم الكونغرس على إجازة الحرب على العراق إلى رغبة واستعداد أعضاء السلطة التنفيذية للشهادة تحت القسم. وخلال الجدل المحيط بالموافقة على تعيين البيرتو غونزاليس، راجعت مذكرات كتبت مسوداتها في مكتب المدعي العام تشير إلى أن أساليب مثل الحرمان من النوم أو التعذيب بالماء لا تعد أساليب تعذيب ما دامت لا تسبب «ألما خطيرا وموجعا من النوع الذي يرافق فشل أحد الأجهزة الحيوية أو إعاقة وظيفة من وظائف الجسم، أو حتى الموت»؛ واقترحت المسودات أن معاهدات جنيف لا تنطبق على «مقاتلي العدو»الذين يؤسرون في الحرب في أفغانستان؛ وآراء تقول: إن التعديل الرابع لا ينطبق على المواطنين الأمريكيين المصنفين في خانة «مقاتلي العدو»الذين يلقى القبض عليهم على التراب الأمريكي.

هذا الموقف محصور في البيت الأبيض. أتذكر أنني كنت متوجها إلى قاعة المجلس في أحد أيام شهر آذار/ مارس، فأوقفني مدة وجيزة شاب أسمر. ثم عرفني بوالديه قائلا إنهما قدما من فلوريدا في محاولة أخيرة لإنقاذ امرأة شابة، تدعى تيري شيافو، تعاني من غيبوبة، ويخطط زوجها الآن لفصل أجهزة دعم الحياة عنها. القصة تملأ القلب بالحزن والشجن، لكنني أخبرتهم بعدم وجود سوابق لتدخل الكونغرس في مثل هذه القضايا ـ ولم أعرف في حينها سابقة كل من توم دي لاي وبيل فريست.

مدى سلطة الرئيس في أوقات الحرب. المبادئ الأخلاقية المحيطة بقرارات القتل الرحيم. لم تكن هذه من القضايا السهلة؛ فبقدر اختلافي مع سياسات الجمهوريين، اعتقدت أنها تستحق نقاشا جديا. لكن ما أقلقني هو الإجراء العملي، أو الافتقار إليه، الذي يتبعه البيت الأبيض وحلفاؤه في الكونغرس لمعارضة الآراء؛ الإحساس بأن قواعد الحكم لم تعد مطبقة، وغياب المعاني الدلالية أو المعايير الثابتة التي يمكن أن نلجأ إليها. كأنما قرر المتربعون في سدة الحكم أن الأوامر القضائية أو فصل

السلطـات مسائـل تتعلق بالشكليـات أو التفاصيل المعيقة، وأنها تعقـد وتبهم الواضح المبين (الحاجة إلى وقف الإرهابيين) أو تعرقل ما هو حق لا لبس فيه (حرمة الحياة)، ولذلك يمكن تجاهلها، أو على الأقل تطويقها بالإرادات القوية.

المفارقـة بالطبـع تكمـن في أن مثل هـذا التجاهل للقواعـد والقوانـين والتلاعب بالألفاظ لتحقيق نتيجة معينة هما بالضبط من التهم التي وجهها المحافظون منذ مدة طويلـة لليبراليين. ومثلا الأس المنطقي لعقد غينفريتش الجديد مع أمريكا ـ فكرة أن البارونات الديمقراطيين الذين سيطروا آنذاك على مجلس النواب ينتهكون باستمرار العملية التشريعية ويستغلونها لمصلحتهم الخاصة. وجسدا الركيزة المؤسسة لإجراءات التشكيـك في مصداقية بيل كلينتـون واتهامه بإساءة السلـوك، والازدراء الموجه إلى الجملـة الحزينة «الأمر يعتمد على ما يعنيه فعل /يكون/» والدعامة التي ارتكز عليها تهجـم المحافظين علـى الأكاديميين الليبراليـين، قساوسة الصوابيـة السياسية، كما قيـل، الذين رفضوا الاعتراف بأي حقائق أبدية مطلقة أو تراتبيات للمعرفة، وغرسوا في الجيل الشاب عقيدة النسبوية الأخلاقية المحفوفة بالخطر.

وكانا في صميم الهجوم الذي شنه المحافظون على المحاكم الاتحادية.

السيطرة على المحاكم عموما والمحكمة العليا على وجه الخصوص أصبحت الكأس المقدسة التي سعى إليها جيل من المحافظين الناشطين – لا بسبب أنهم يعدون المحاكم المعقـل الأخير لإباحة الإجهاض، ومنح النسـاء والأقليات الحقوق والفرص المتساوية، وإجـازة العلاقات المثلية، واللين تجاه الجريمة، وتشديـد الأنظمة والقيود، ومناهضة النخبويـة الليبرالية فقط. فوفقا لهؤلاء الناشطين، وضع القضاة الليبراليون أنفسهم فـوق القانون، ولم يؤسسوا آراءهم على الدستور بل علـى نزواتهم وأهوائهم والنتائج المرغويـة، ووجدوا حقوقا تبيح الإجهاض أو اللواط لا توجد في النص، وخربوا العملية الديمقراطية، وحرفوا المقصد الأصلي للآباء المؤسسين. أما إعادة المحاكم إلى دورها الصحيح فيتطلب برأيهم تعيين قضاة اتحاديين «متزمتين في تفسيرهم للنص»، رجال ونساء يفهمـون الفارق المميز بين تفسير القانون وصياغتـه، ويلتزمون المعنى الأصلي لكلمات الآباء المؤسسين ويتبعون القواعد والأنظمة.

اليساريون نظروا إلى الوضع من زاوية مختلفة تماما. فمع المكاسب التي حققها الجمهوريون المحافظون في الانتخابات التشريعية والرئاسية، عد الكثير من الليبراليين المحاكم المعقل الوحيد لمواجهة المسعى المتطرف للتراجع عن الحقوق المدنية، وحقوق المرأة، والحريات المدنية، وحماية البيئة، وفصل الكنيسة عن الدولة، والميراث الكامل للبرنامج الجديد. وخلال ترشيح بورك، نظمت جماعات الضغط والزعماء الديمقراطيون معارضتهم بطريقة معقدة ومتطورة لم يشهد مثلها التصويت على تعيين قاض من قبل. وحين رفض الترشيح، أدرك المحافظون أن عليهم بناء قاعدتهم الشعبية.

منذ ذلك الحين، زعم كل طرف تحقيق مكاسب إضافية (سكاليا وتوماس للمحافظين، وغينزبرغ وبراير لليبراليين)، والتعرض للنكسات (بالنسبة للمحافظين: الانجراف نحو الوسط على يد اوكونر وكنيدي، وسوتر على وجه الخصوص؛ وبالنسبة لليبراليين، حشد المحاكم الابتدائية بقضاة عينوا في ولايتي ريغان وبوش الأب). جأر الديمقراطيون بالشكوى حين استخدم الجمهوريون سيطرتهم على اللجنة القضائية لوقف تعيين واحد وستين قاضيا اختارهم كلينتون لمحاكم الاستئناف ومحاكم المناطق، وخلال المدة القصيرة التي تمتع الديمقراطيون خلالها بالأغلبية، حاولوا استخدام الأساليب التكتيكية ذاتها إزاء مرشحي جورج بوش الابن.

لكن حين خسر الديمقراطيون الأغلبية في مجلس الشيوخ عام 2002، لم يجدوا في جعبتهم سوى سهم واحد، إستراتيجية يمكن إيجازها بجملة واحدة، صيحة الحرب التي يحتشد حولها الديمقراطيون المخلصون الآن:

إعاقة مشروعات القوانين بالتسويف والمماطلة عبر الخطب المطولة.

لم يأت الدستور على ذكر إعاقة القوانين؛ فهي قاعدة من قواعد مجلس الشيوخ، تعود إلى أول كونغرس ينتخب. أما الفكرة الأساسية فهي بسيطة: لأن عمل المجلس يعتمد على الإجماع العام، يمكن لأي عضو عرقلة الإجراءات عبر ممارسة حقه في الجدل غير المحدود ورفض الانتقال إلى القرار التالي. بكلمات أخرى، بمقدوره أن

يتكلم المدة التي يريدها. ويتناول مادة وجوهر المشروع المقترح، أو الدعوة إليه. ويمكن أن يختار قراءة مشروع قانون الحق في الدفاع المكون من سبعمائة صفحة، سطرا سطرا، وتسجيلها، أو وصل بعض مقومات وملامح القانون المقترح مع نهوض وسقوط الإمبراطورية الرومانية، أو طيران العصفور الطنان، أو دليل هاتف أطلنطا! وما دام هو أو أمثاله من الزملاء مستعدين للبقاء في القاعة والتحدث، على كل شيء آخر الانتظار ـ وهذا يعطي كل عضو قوة مساعدة هائلة، والأقلية المصممة قوة «فيتو» مؤثرة في أي تشريع.

السبيل الوحيد لتجنب الإعاقة والعرقلة إجماع ثلاثة أخماس الأعضاء على إغلاق باب المناقشة. وهذا يعني فعليا أن كل عمل معروض على مجلس الشيوخ ـ كل مشروع قانون، أو قرار، أو ترشيح ـ بحاجة إلى دعم وتأييد ستين عضوا بدلا من الأغلبية البسيطة. ارتقت سلسلة من القواعد المعقدة التي سمحت بتجنب الخطابات التسويفية المطولة والتصويت على إغلاق باب المناقشة دون استعراضات صداحة: مجرد التهديد بخطبة عصماء مطولة يكفي في كثير من الأحيان لإثارة انتباه زعيم الأغلبية، فينظم التصويت على إغلاق باب المناقشة دون أن يضطر أحد إلى قضاء الأمسيات نائما في مقعده. لكن أسلوب المماطلة والتسويف بقي طوال تاريخ المجلس الحديث امتيازا ثمينا حظي بالحماية، وإحدى السمات ــ إلى جانب مدة السنوات الست وتخصيص عضوين لكل ولاية بغض النظر عن عدد السكان ـ التي تميز مجلس الشيوخ عن مجلس النواب وتخدم كحاجز وقائي من أخطار توسع وامتداد الأغلبية.

لكن هناك تاريخا أقل بريقا لأسلوب المماطلة والتسويف وإعاقة القوانين، له علاقة خاصة بي. فطوال قرن من الزمان تقريبا، جسد الأسلوب سلاحا بيد الجنوب في مساعيه لحماية سياسة الفصل العنصري من التدخل الاتحادي، والعقبة القانونية التي عرقلت فعليا التعديلين الرابع عشر والخامس عشر. عقدا بعد عقد، استخدم رجال يتمتعون باللطف والحنكة وسعة الإطلاع، مثل السيناتور ريتشارد رسل (جورجيا) (الذي أطلق اسمه على أفخم جناح من المكاتب في مجلس الشيوخ)، أسلوب المماطلة والتسويف لإعاقة وعرقلة كل تشريع للحقوق المدنية يعرض أمام المجلس، بغض

النظر هل تعلق بمشروعات قوانين حقوق التصويت، أو الاستخدام العادل والنزيه، أو معارضة عمليات الإعدام التي ينفذها الغوغاء. ونجح الأعضاء الجنوبيون، بالكلمات والقواعد والأنظمة والإجراءات ـ بالقانون ـــ في تأبيد إخضاع السود بأسلوب ما كان بمقدور العنف المجرد أن يؤيده. ولم تكتف طريقة التأجيل والمماطلة والإعاقة في وقف مشروعات القوانين، بل قضت على الأمل لدى العديد من السود في الجنوب.

استخدم الديمقراطيون الأسلوب من حين لآخر في ولاية بوش الأولى: من بين القضاة الذين رشحهم الرئيس وتجاوز عددهم المئتين، منع التصويت على عشرة منهم. ومع ذلك، كان العشرة من المرشحين للمحاكم الاستئنافية؛ وكانوا من الدعاة المعياريين لقضية المحافظين؛ ولو حافظ الديمقراطيون على استخدام الأسلوب ضد القضاة العشرة، كما حاجج الجمهوريون، فلا يوجد ما يمنعهم من استخدامه في المستقبل مع مرشحي المحكمة العليا.

ولذلك قرر جورج بوش ـ وقد شجعته زيادة الأغلبية الجمهورية في مجلس الشيوخ والتفويض الذي زعمه لنفسه ـ ترشيح سبعة قضاة في الأسابيع القليلة الأولى من ولايته الثانية، مع أنهم رفضوا قبلا عبر أسلوب المماطلة والتسويف والإعاقة. أفرز الترشيح الرد المطلوب، باعتباره مخرزا في عين الديمقراطيين. فقد دعاه الزعيم الديمقراطي هاري ريد «قبلة حارة على خد اليمين المتطرف»، وجدد التهديد باتباع أسلوب التسويف والتأجيل والإعاقة. واندفعت جماعات الضغط من اليسار واليمين إلى مواقعها وأصدرت التنبيهات في كل مكان، حيث بعثت برسائل بالبريد الإلكتروني والبريد المباشر تستجدي المتبرعين لتمويل الحروب القادمة. وحين استشعر الجمهوريون أن الوقت قد حان لتوجيه الضربة القاتلة، أعلنوا أن سبيلهم الوحيد سيكون، في حالة استمرار الديمقراطيين في اتباع طرقهم المعيقة، اللجوء إلى «الخيار النووي» المخيف، وهو مناورة إجرائية جديدة تشمل قيام المسؤول الذي يترأس على المجلس (ربما نائب الرئيس ديك تشيني نفسه) بتجاهل رأي المجلس والخروج على تقليد امتد طوال مئتي سنة، وتقرير، بضربة مطرقة واحدة، أن استخدام أسلوب المماطلة والتسويف لم يعد مسموحا به وفقا لقوانين المجلس ـــ على الأقل حين يتعلق الأمر بالترشيحات القضائية.

برأيي، جسد التهديد بإلغاء أسلوب المماطلة والتسويف في الترشيحات القضائية مجرد مثال آخر على تغيير الجمهوريين للقواعد في خضم اللعبة. فضلا عن ذلك، يمكن تقديم حجة دامغة على أن التصويت على الترشيحات القضائية هو الحالة التي يحمل فيها أسلوب التسويف والمماطلة والإعاقة معنى منطقيا: لأن القضاة الاتحاديين يشغلون مناصبهم طوال حياتهم وكثيرا ما يخدمون في إدارات عدد من الرؤساء، فإن من الضروري للرئيس، والمفيد لديمقراطيتنا، العثور على مرشحين معتدلين يمكن أن يضمنوا قدرا من التأييد من الحزبين كليهما. قلة من مرشحي جورج بوش يمكن وضعهم في خانة «المعتدلين»، بل أظهر غالبيتهم نمطا من العداء للحقوق المدنية، والخصوصية، والكوابح الضرورية للسلطة التنفيذية، بحيث أصبحوا على يمين حتى معظم القضاة الجمهوريين (أحد المرشحين المثيرين للقلق دعا الضمان الاجتماعي وغيره من خطط البرنامج الجديد «انتصارا لثورتنا الاشتراكية!»).

ومع ذلك، أذكر أنني كتمت ضحكة حين سمعت تعبير «الخيار النووي» أول مرة. فقد بدا أنه معبر تماما عن غياب المنظور الواقعي والعلاقات الحقيقية بين الأشياء، وأصبح سمة مميزة للموافقة على التعيينات القضائية، وجزءا من توجه جماعي متحيز سمح للجماعات على اليسار بنشر إعلانات دعائية تصور مشاهد من فيلم جيمي ستيوارت «السيد سميث يذهب إلى واشنطن»، دون ذكر أن ستروم ثورموند وجيم ايستلاند لعبا دور السيد سميث في الحياة الواقعية؛ الأسطورة الوقحة التي سمحت للجمهوريين الجنوبيين بالوقوف في قاعة المجلس والتحدث بنبرة رزينة عن لاأخلاقية أساليب التسويف والمماطلة، دون أدنى اعتراف بأن السياسيين من ولاياتهم ـ أسلافهم السياسيين الذين تحدروا من نسلهم مباشرة ـ هم الذين جعلوا هذا «الفن» مثاليا للدفاع عن قضيتهم بكل ما يسمها من حقد ولؤم.

لم يقدر العديد من زملائي الديمقراطيين المفارقة الساخرة. وحين حمي وطيس معركة الموافقة على الترشيحات القضائية، تبادلت مع صديقة لي حديثا اعترفت فيه بقلقي من بعض الإستراتيجيات التي كنا نستخدمها لتشويه سمعة المرشحين وإعاقة ترشيحهم. لم يكن لدي شك بالضرر الذي قد يحدثه بعض المرشحين الذين سماهم

بوش؛ وكنت أؤيد أسلوب المماطلة والتسويف لإعاقة الموافقة على بعضهم، على الأقل لإرسال إشارة إلى البيت الأبيض تبين الحاجة إلى اختيار مرشحين أكثر اعتدالا في المرات القادمة. لكن الانتخابات تعني شيئا في نهاية المطاف، كما قلت للصديقة. وبدلا من الاعتماد على إجراءات مجلس الشيوخ، هنالك سبيل لضمان أن يعبر القضاة في المحاكم عن قيمنا، وهو الفوز في الانتخابات.

هزت صديقتي رأسها، وسألت: «هل تظن فعلا لو انقلب الوضع رأسا على عقب، سوف يتحرج الجمهوريون من استخدام أسلوب المماطلة والتسويف؟»

لم أكن أظن ذلك، لكن كنت أشك في أن استخدامنا لهذا الأسلوب سوف يبدد صورة الديمقراطيين التي تظهرهم في موقف الدفاع دوما ـ إدراك بأننا استخدمنا المحاكم والمحامين والخدع الإجرائية لتجنب ضرورة كسب الرأي العام إلى صفنا. الإدراك لم يكن عادلا كلية: فالجمهوريون، مثل الديمقراطيين، كثيرا ما طلبوا من المحاكم نقض القرارات الديمقراطية (مثل قوانين تمويل الحملات الانتخابية) التي لم تعجبهم. ومع ذلك، تساءلت متعجبا: هل فقد التقدميون إيمانهم بالديمقراطية، عبر اعتمادهم على المحاكم لا لتبرئة حقوقنا فقط، بل قيمنا أيضا.

مثلما فقد المحافظون على ما يبدو أي شعور بأن الديمقراطية يجب أن تتجاوز ما تلح عليه الأغلبية، تذكرت أصيل يوم قبل عدة سنين، حين قدمت الحجة، كعضو في مجلس شيوخ ولاية الينوي، لصالح تعديل يشمل استثناء صحة الأم في مشروع قانون الجمهوريين لحظر إجهاض الولادة الجزئي. فشل التعديل في التصويت، ودخلت فيما بعد إلى القاعة مع أحد زملائي الجمهوريين. قلت له: إن القانون دون تعديل سوف تعرقله المحاكم بوصفه غير دستوري. التفت إلي وقال إنه بغض النظر عن التعديل سوف يفعل القضاة ما يريدونه على أي حال.

وأردف وهو يستعد للمغادرة: «إنها السياسة. والآن لدينا الأصوات».

هل تعد هذه الصراعات مهمة؟ في نظر العديد منا، تبدو الحجج والمجادلات فيما يتعلق بالإجراءات، وفصل السلطات، والترشيحات القضائية، وقواعد التفسير

الدستــوري غريبة ودخيلة، وبعيدة عن اهتماماتنا اليوميــة ـ مثالا آخر على التطاعن بالرماح بين الحزبين.

في الحقيقــة، تعد مهمة فعلا. لا لمجــرد أن القواعد الإجرائية لحكومتنا تساعد في تحديــد النتائج ـ فيما يتعلق بالأسئلة كلها: بدءا بقــدرة الحكومة على ضبط الملوثات وانتهــاء بجــواز تنصتها على المكالمات الهاتفية ـ بل لأنهــا تحدد وتعرف ديمقراطيتنا مثلها مثل الانتخابات. فنظامنا القائم على الحكم الذاتي نظام معقد؛ وبواسطة ذلك النظام، وباحترامه، نعطي شكلا متعينا لقيمنا والتزاماتنا المشتركة.

أنــا متحيز بالطبع. فطوال عشر سنوات قبل القدوم إلى واشنطن، درست القانون الدستــوري في جامعــة شيكاغــو، وأغرمت بصفــوف وقاعات كلية الحقــوق: طبيعتها الجوهرية الأساسية، الوقوف على منصة مرتفعة أمام الطلاب في كل حصة متسلحا بالطباشــير واللوح فقط، والطلاب يثبتون أنظارهم علــي، بعضهم منتبه أو متوجس، وغيرهــم يظهــر أمارات الملــل والسأم، إلى أن يبــدد سؤالي الأول التوتــر المخيم: «ما موضــوع هذه القضية؟»، ثم ترتفع الأيدي بتردد.. وتأتــي الإجابات الأولية.. وأبدأ أنا بمعارضــة الحجج التي ظهرت.. إلى أن تعلــن الكلمات المحملة بالمعاني ويمتلئ ما بدا جافــا وميتا قبل بضع دقائق بالحيوية فجــأة، فيحدق الطلاب بانتباه، ويصبح النص في نظرهم جزءا لا من الماضي فقط بل من حاضرهم ومستقبلهم.

أتخيــل أحيانــا أن عملي لا يختلف كثيرا عن أساتــذة اللاهوت في الجامعة ـ لأنني وجــدت، كما وجد حسب ظنــي مدرسو الكتاب المقدس، أن طلابــي كثيرا ما يشعرون بأنهــم يعرفون الدستــور دون أن يقرؤوه فعلا. فقد تعودوا اقتطــاف عبارات سمعوها واستخدموها لدعم حججهم وأدلتهم، أو تجاهل فقرات بدت مناقضة لآرائهم.

لكــن أكثر مــا قدرته في تدريس القانون الدستــوري، وأردت طلابي أن يقدروه، هو إمكانيــة فهــم الوثائــق ذات الصلة حتى بعد قرنــين من كتابتها. فلربمــا استخدمني طلابــي كمرشــد ودليل، لكنهم ليســوا بحاجة إلى وسيــط، لأن الوثائــق التأسيسية ـ إعلان الاستقلال، والأوراق الفيدرالية، والدستور ـ تعرض كنتاج للبشر، وذلك خلافا

لإنجيل تيموثي أو لوقا مثلا. لدينا سجل مكتوب لمقاصد ونيات الآباء المؤسسين، كما كنت أقول لطلابي، وحججهم وبراهينهم وخططهم السرية. فإذا لم نتمكن دوما من التنبؤ بما كان يعتمل في صدورهم، يمكننا على الأقل اختراق ضباب الزمن وفهم المثل الجوهرية التي حركت عملهم.

إذن، كيف يجب علينا أن نفهم دستورنا، وماذا نقول عن المجادلات الخلافية المحيطة حاليا بالمحاكم؟ في البداية، تذكرنا القراءة المتأنية لوثائقنا التأسيسية بمدى تأثر مواقفنا وتشكلها بها. لنأخذ مثلا فكرة الحقوق التي لا يمكن التصرف بها. فبعد أكثر من مئتي سنة على كتابة إعلان الاستقلال وتصديق وثيقة الحقوق (إعلان حقوق المواطنين)، نستمر في المجادلة حول معنى البحث «المعقول»، أو هل يحرم التعديل الثاني تنظيم وضبط السلاح، أو هل يعد تدنيس العلم من حرية الكلام. نحن نتجادل حول حقوق قانونية أساسية، مثل الحق في الزواج أو الحفاظ على سلامة الجسم، وهل يقرها الدستور ضمنا أو صراحة، وهل تشمل القرارات الشخصية فيما يتعلق بالإجهاض، أو القتل الرحيم، أو العلاقات المثلية.

ولكن على الرغم من اختلافاتنا كلها، نتعرض لضغط شديد للعثور في أمريكا اليوم على محافظ أو ليبرالي، جمهوري أو ديمقراطي، أكاديمي أو مواطن عادي، لا يوافق على مجموعة أساسية من الحريات الفردية التي عرفها وحددها الآباء المؤسسون وأصبحت جزءا من دستورنا وقانوننا العام: الحق في التعبير عن أفكارنا؛ الحق في حرية العبادة؛ الحق في التجمع السلمي لمطالبة حكومتنا بما نريد؛ الحق في امتلاك وشراء وبيع الأملاك وعدم الاستيلاء عليها دون تعويض عادل؛ الحق في التحرر من عمليات التفتيش والاستيلاء دون سبب معقول؛ الحق في عدم التعرض للاعتقال من الدولة دون إجراءات قانونية مناسبة؛ الحق في الحصول على محاكمة نزيهة وسريعة؛ الحق في اتخاذ القرار، بأقل قيود ممكنة، فيما يتعلق بالحياة الأسرية وطريقة تربية وتنشئة الأطفال.

نحن نعد هذه الحقوق عالمية وشاملة، وتقنينا لمعنى الحرية، وكابحا يقيد مستويات الحكم كلها، وقابلة للتطبيق على جميع الناس ضمن حدود مجتمعنا السياسي. فضلا

عـن أننا ندرك أن فكرة هـذه الحقوق الشمولية ذاتها تفترض قيمة وجدارة كل فرد دون تفريق. وبهذا المعنى، نوافق ونتفق جميعا على تعاليم الآباء المؤسسين بغض النظر عن موقعنا على الطيف السياسي.

نحن نفهم أيضا أن الإعلان ليس حكومة؛ والعقيدة ليست كافية. فقد أدرك الآباء المؤسسـون أن هناك بذورا للفوضى في فكرة الحرية الفردية، وخطرا مسكرا في فكرة المساواة، فإذا كان كل فرد حرا حقا، دون قيود الولادة أو المرتبة، أو النظام الاجتماعي المتوارث ـ إذا كانت فكرتي عن الدين ليست أفضل ولا أسوأ من فكرتك، وأفكاري عن الحقيقـة والخير والصلاح والجمال صادقة وصالحة وطيبـة كأفكارك ـ فكيف نأمل بتشكيـل مجتمع متلاحـم ومتماسك؟ مفكرو عصر الأنوار، مثـل هوبز ولوك، أشاروا إلى أن البشـر الأحرار يمكن أن يشكلـوا حكومات تساوم لضمان ألا تصبح حرية فرد طغيانـا على آخـر؛ ويضحوا ببعض الحقـوق الفردية من أجل الحفـاظ على حريتهم بصورة أفضل. وبناء على هذا المفهوم، استنتج المنظرون السياسيون الذين كتبوا قبل الثورة الأمريكية أن الديمقراطية وحدها قادرة على تلبية الحاجة إلى الحرية والنظام في آن ـــ شكل من الحكم يمنح فيه المحكومـون موافقتهم، وتكون فيه القوانين المقيدة للحرية موحدة ومتوقعة وشفافة، وتطبق بالتساوي على الحاكمين والمحكومين.

الآباء المؤسسون تشبعوا بهذه النظريات، ومع ذلك واجهوا حقيقة محبطة: لم توجد في تاريـخ العـالم حتى ذلك الحين سوى أمثلة نادرة علـى ديمقراطيات عملت بنجاح، ولم يتجـاوز حجـم أي منها المدن ـ الدول في اليونـان القديمة. فمع ثلاث عشرة ولاية متباعـدة وتشكيلة متنوعة من السكان الذين تراوح عددهم بين ثلاثة وأربعة ملايين، بدا النموذج الأثيني من الديمقراطية مستحيلا، والديمقراطية المباشرة القائمة على اجتمـاع البلـدات في نيوانفلند صعبة ويتعـذر السيطرة عليها. أمـا الشكل الجمهوري للحكـم، حيث ينتخب الشعب ممثليه، فبدا واعـدا، لكن حتى أكثر الجمهوريين تفاؤلا افترضـوا أن مثل هذا النظـام لا ينجح إلا في مجتمع سياسي متجانس سكانيا ومدمج جغرافيـا ـ مجتمع تستطيع فيه الثقافة والديـن والفضائل المدنية المتطورة والمشتركة بين المواطنين جميعا أن تحد من النزاع والصراع.

الحل الذي توصل إليه الآباء المؤسسون، بعد جدل خلافي طويل ومسودات عديدة، ثبت أنه يمثل مساهمتهم الجديدة في العالم. فالخطوط الرئيسة لتصميم ماديسون الدستوري مألوفة إلى حد أن تلاميذ المدارس يستطيعون ترديدها: لا فيما يتعلق بحكم القانون والحكومة التمثيلية، ولا وثيقة الحقوق فقط، بل فصل الحكومة الوطنية إلى ثلاثة فروع متساوية، وكونغرس من مجلسين تشريعيين، ومفهوم للفيدرالية حافظ على السلطة في أيدي حكومات الولايات، وكلها مصممة لفصل السلطات، وضبط الانقسامات الفئوية، وموازنة المصالح، ومنع طغيان الأقلية أو الأكثرية. فضلا عن ذلك، أثبت تاريخنا صحة إحدى الرؤى المركزية للآباء المؤسسين: الحكم الذاتي الجمهوري يعمل بصورة أفضل في المجتمع الواسع والمتنوع، حيث يمكن لـ «تصادم الأحزاب» واختلافات الرأي أن «تشجع التداول والتشاور والحرص والحذر»، على حد تعبير ألكسندر هاميلتون. ومثلما هي الحال مع فهمنا لإعلان الاستقلال، نحن نتجادل على تفاصيل البنية الدستورية؛ وقد نعترض على انتهاك الكونغرس لفقرة السلطات التجارية الموسعة بحيث يلحق الضرر بالولايات، أو تآكل سلطة الكونغرس فيما يتعلق بإعلان الحرب. لكننا نثق بسلامة وصوابية مخططات الآباء المؤسسين الجوهرية والبيت الديمقراطي الذي نشأ عنها. نحن دستوريون، بغض النظر هل كنا محافظين أم ليبراليين؟!

إذن، إذا كنا جميعا نؤمن بالحرية الفردية وبهذه القواعد المؤسسة للديمقراطية، فعلى ماذا يدور الجدل حاليا بين المحافظين والليبراليين؟ إذا كنا صادقين مع أنفسنا، سوف نعترف بأننا نتجادل معظم الوقت على النتائج ـ القرارات الفعلية التي تصدرها المحاكم والسلطة التشريعية فيما يتعلق بالقضايا العميقة والصعبة التي تساعد على تشكيل حياتنا. هل نسمح للمدرسين أن يؤموا أطفالنا في الصلاة ونفسح المجال لأديان الأقليات التي يعتنقها بعض الأطفال بالاضمحلال والتراجع؟ أم نحظر هذه الصلاة ونجبر الآباء المتدينين على تسليم أطفالهم إلى عالم علماني ثماني ساعات في اليوم؟ هل تعدل الجامعة حين تأخذ بالاعتبار تاريخ التمييز العنصري والإقصاء والتهميش عند ملء عدد من الشواغر في كلية الطب التابعة لها؟ أم هل يتطلب العدل أن تعامل

الجامعات كل مرشح بأسلوب لا يميز على أساس اللون؟ في كثير من الأحيان، إذا قدمت قاعدة إجرائية معنية ـ مثلا: الحق في المماطلة والتسويف في مجلس الشيوخ، أو مقاربة المحكمة العليا للتفسير الدستوري ـ العون والمساعدة للفوز بالحجة وغلت النتيجة التي نريدها، فإننا في تلك اللحظة على الأقل نعدها قاعدة جيدة ومفيدة. أما إذا لم تساعدنا فإننا نميل إلى عدم الإعجاب بها.

بهذا المعنى، كان زميلي في مجلس شيوخ ولاية الينوي على صواب حين قال: إن المجادلات الدستورية الراهنة لا يمكن فصلها عن السياسة. لكن ليست النتائج وحدها على المحك في مجادلاتنا الحالية على الدستور والدور المناسب والصحيح للمحاكم. نحن نتجادل أيضاً حول أسلوب الجدل ـ الوسائل الكفيلة بحل مجادلاتنا الخلافية سلميا في ديمقراطية كبيرة وحاشدة وصاخبة. نريد العثور على سبيل، لكن معظمنا يدركون الحاجة إلى التساوق والانسجام والتلاحم والتماسك والقابلية للتنبؤ. نريد القواعد الناظمة لديمقراطيتنا أن تكون نزيهة وعادلة.

وهكذا، حين نتجادل بحدة حول الإجهاض أو حرق العلم، نلجأ إلى سلطة عليا ـ متمثلة في الآباء المؤسسين ومصدقي الدستور ـ لإرشادنا وتوجيهنا. بعضهم، مثل القاضي سكاليا، يستنتج أن من الضروري اتباع الفهم الأصلي ويجب علينا طاعة هذه القاعدة طاعة تامة، وبذلك تحظى الديمقراطية بالاحترام.

وغيرهم، مثل القاضي براير، لا يجادلون في أهمية المعنى الأصلي للمواد والنصوص الدستورية. لكنهم يصرون على أن الفهم الأصلي يظل محدودا ـ في القضايا الصعبة فعلا، والمجادلات العميقة حقا، يجب أن نأخذ في الحسبان السياق والتاريخ والنتائج العملية لأي قرار نتخذه. ووفقا لهذا الرأي، أخبرنا الآباء المؤسسون والمصدقون الأصليون على الدستور كيف نفكر لكنهم ليسوا معنا ليخبرونا عن ماذا نفكر. نحن وحدنا، وليس لدينا سوى العقل والحكم الحصيف ركيزة نعتمد عليها.

من المصيب ومن المخطئ؟ لست معارضا لموقف القاضي سكاليا، فعلى الرغم من كل شيء، فإن لغة الدستور في حالات كثيرة واضحة لا لبس فيها ويمكن تطبيقها

حرفيا. ويجب ألا نفسر مثلا كم مرة نجري انتخابات، أو الفقرة المتعلقة بعمر الرئيس، ويجب على القضاة التزام المعنى الواضح للنص كلما كان ذلك ممكنا.

إضافة إلى ذلك كله، أتفهم إجلال واحترام أنصار الالتزام الحرفي بنص الدستور للآباء المؤسسين؛ وفي الحقيقة، تساءلت دوماً: هل أدرك الآباء المؤسسون آنذاك مدى وحجم الإنجاز الذي حققوه؟ إذ لم يكتفوا بصياغة الدستور في أعقاب ثورة؛ بل كتبوا الأوراق الفيدرالية لدعمه، وحافظوا عليها حتى تصديقها، وعدلوها بإعلان حقوق المواطنين ـ أنجزوا ذلك كله في بحر بضع سنوات. حين نقرأ هذه الوثائق، تبدو صحيحة وصائبة إلى حد غير معقول بحيث يسهل الاعتقاد بأنها نتيجة للقانون الطبيعي إن لم تكن وحيا إلهيا. لذلك، أقدر حجم الإغراء الذي يتعرض له القاضي سكاليا وسواه حين يفترضون ضرورة التعامل مع ديمقراطيتنا بوصفها ثابتة وراسخة البنيان؛ فالإيمان الأصولي بأن اتباع الفهم الأصيل للدستور دون مساءلة أو زيغ، والالتزام الأمين والصادق بالقواعد التي وضعها الآباء المؤسسون، وبمقاصدهم ونواياهم، سوف يعودان علينا بالفائدة وسيعم الخير الجميع.

لكن في نهاية المطاف، علي الانضمام إلى صف القاضي براير واعتناق رأيه المتعلق بالدستور: نفي صفة الجمود والسكون عنه واعتباره وثيقة حية يجب قراءتها في سياق عالم دائم التغير والتبدل.

كيف يمكن للدستور أن يكون غير ذلك؟ النص الدستوري يزودنا بالمبدأ العام: يجب ألا نخضع لعمليات تفتيش غير معقولة تقوم بها الحكومة. لكنه لا يخبرنا بآراء الآباء المؤسسين المحددة فيما يتعلق بمعقولية استخلاص المعلومات من بيانات حواسيب وكالة الأمن الوطني. الدستور يؤكد وجوب حماية حرية الكلام، لكنه لا يخبرنا ما الذي تعنيه هذه الحرية في سياق الإنترنت.

فضلا عن ذلك كله، ارتقى فهمنا للعديد من مواده وبنوده المهمة ـــ مثل فقرة الإجراءات المناسبة وفقرة الحماية المتساوية ـ ارتقاء كبيرا بمرور الزمن، مع أن معظم لغة الدستور واضحة ويمكن تطبيقها بدقة. على سبيل المثال، يسمح الفهم

الأصلـي للتعديـل الرابـع عشر بالتمييز علـى أساس الجنس وقد يجيـز حتى الفصل العنصري ـ وهو فهم للمساواة لا تريد سوى قلة منا عودته.

أخـيرا، يواجـه كل من يتطلع إلى حـل نزاعاتنا الدستوريـة الحديثة عبر الالتزام الحرفي بالنص مشكلـة إضافية: الآباء المؤسسون والمصدقـون على الدستور اختلفوا اختلافـا عميقا وشديدا حول معنـى الوثيقة/ التحفة التي أنجزوهـا. فقبل أن يجف الحـبر على ورقة الدستـور، احتدم الجدل الخلافي لا على المواد والبنود الثانوية فقط بل حول المبادئ الأولى، لا بين الشخصيات الهامشية فقط، بل الشخصيات الأساسية والمؤثـرة في الثـورة. فقد اختلفوا على حجم السلطة التـي يجب أن تتمتع بها الحكومة الوطنية- لتنظيم الاقتصاد، أو تجاوز قوانين الولاية، أو تشكيل جيش نظامي، أو تحمل الديون. وعلى دور الرئيس في عقد المعاهدات مع القوى الأجنبية، ودور المحكمة العليا في تقريـر القانـون. وعلى معنى حقوق أساسية مثل حريـة الكلام، وحرية التجمع. في عدة مناسبات حين بدت الدولة الهشة مهددة، لم يترددوا في تجاهل هذه الحقوق كلها. ونظرا لما نعرفه عن حقبة التصارع والتعارك هذه، بكل ما فيها من تبدل في التحالفات ومكـر في التكتيكات، فإن من غـير الواقعي الاعتقاد أن بمقـدور قاض بعد مئتي سنة تمييز وإدراك المقصد الأصلي للآباء المؤسسين أو المصدقين على الدستور.

بعض المؤرخين والمنظرين القانونيين يأخذون الحجة ضد الالتزام الحرفي بالنص الدستوري خطوة أبعد، فهم يستنتجون أن الدستور نفسه ليس سوى مصادفة سعيدة، وثيقة جمعت أجزاؤها معا لا نتيجة لمبدأ معين، بل كانت نتاجا للسلطة والقوة والعاطفة الحماسية؛ وأن من المتعذر علينا أن نأمل بمعرفة «المقاصد الأصلية»للآباء المؤسسين، نظـرا لأن مقاصد جيفرسون مختلفة عن نيات هاميلتـون، وهذه تختلف اختلافا بينا عـن مقاصد أدامـز؛ ولأن «قواعـد» الدستور اعتمـدت على زمان ومـكان وطموحات الرجـال الذين وضعـوا المسودات، فإن تفسيرنـا للقواعد سوف يعـبر بالضرورة عن الحالـة ذاتها، والمنافسة ذاتها، والضرورات ذاتها ـ المغلفة بتعابير المبادئ الأخلاقية العليا ـ للفصائل والفئات والطبقات المهيمنة. ومثلما أدركُ مدى الارتياح الناجم عن التفسـير النصي الصارم، أرى بعض الجاذبية المغريـة بتحطيم الأسطورة والاعتقاد

أن النص الدستوري لا يقيدنا أبدا، ولذلك فنحن أحرار في توكيد قيمنا دون أن يقيدنا الولاء والإخلاص لتقاليد الماضي البعيد المتزمتة. إنها حرية النسبوي، محطم القواعد الجامدة، المراهق الذي اكتشف عدم كمال والديه وتعلم استغلال تناقضاتهما لمصلحته ـ حرية المرتد والمنشق.

ومع ذلك، لا تشبع هذه الردة حاجتي في نهاية المطاف. لربما أنا مبالغ في التشرب بأسطورة التأسيس إلى حد يمنعني من رفضها كلية. وربما أفضل، مثل الذين يرفضون داروين لمصلحة التصميم الذكي والعاقل للكون والحياة، الافتراض بوجود موجّه للدفة. في النهاية، يظل السؤال الذي أعيد طرحه على نفسي هو: لماذا لم يكتف نظامنا الجمهوري بالبقاء فقط، بل جسد نموذجا يحتذي مثاله العديد من المجتمعات الناجحة في العالم، إذا كان الدستور يتعلق بالقوة والسلطة لا بالحق والمبدأ، وإذا كان ما نفعله كله ينحصر في تعديله وموازنته؟

الجواب الذي اخترته ــ ولم يكن أصيلا ابتكرته بنفسي ـ يتطلب تغييرا في الاستعارات التشبيهية، ويرى ديمقراطيتنا لا كبيت يجب بناؤه، بل حوار يجب إجراؤه. ووفقا لهذا المفهوم، لا يتمثل نبوغ تصميم ماديسون في أنه يزودنا بخطة ثابتة للعمل، كما يضع المساح خطة لتشييد البناء. بل بإطار مستند إلى قواعد وركائز، لكن الولاء والإخلاص لها لن يضمنا قيام مجتمع أو التوصل إلى اتفاق على ما هو حق وصواب. لن نعلم منها هل الإجهاض صواب أم خطأ؟ وهل هو قرار تتخذه المرأة بنفسها أم يترك للمشرع؟ ولن نعرف هل إقامة الصلاة في المدارس أفضل من إلغائها؟.

ما يمكن لإطار دستورنا أن يفعله هو تنظيم أسلوب الجدل حول مستقبلنا. فآلياته التفصيلية كلها ـ فصل السلطات وضبط وموازنة المبادئ الاتحادية وإعلان حقوق المواطنين ـ مصممة لإجبارنا على الحوار والنقاش، إنها «ديمقراطية تداولية وتشاورية» يطلب فيها من جميع المواطنين الانخراط في عملية اختبار أفكارهم إزاء الواقع الخارجي، وإقناع الآخرين بوجهات نظرهم، وبناء تحالفات متغيرة من أجل نيل الموافقة والقبول. ولأن السلطة في حكومتنا موزعة، فإن عملية صياغة القانون في أمريكا تجبرنا على قبول احتمال أننا لن نكون على صواب دوما وعلى تغيير مواقفنا

وأفكارنا أحيانا؛ وتتحدانا وتدفعنا إلى تفحص دوافعنا واهتماماتنا باستمرار، وتشير إلى أن أحكامنا الفردية والجمعية مشروعة وغير معصومة من الزلل في آن معا.

يدعم السجل التاريخي هذا الرأي. فعلى الرغم من كل شيء، هنالك دافع تقاسمه جميع الآباء المؤسسين، وهو رفض أشكال السلطة المطلقة كلها، بغض النظر هل تجسدت في ملك، أو زعيم ديني، أو جنرال، أو حكم القلة، أو ديكتاتور، أو أغلبية، أو أي شخص يزعم صنع الخيارات لنا. لقد رفض جورج واشنطن تاج قيصر بسبب هذا الدافع، وتخلى عن السلطة بعد ولايتين اثنتين. وتعثرت خطط هاملتون بقيادة الجيش الجديد، وتضررت سمعة أدامز بعد قوانين الأجانب والتحريض بسبب فشله في التزام هذا الدافع. جيفرسون، وليس أحد القضاة الليبراليين في الستينيات، هو الذي دعا إلى إقامة جدار بين الكنيسة والدولة ـ وإذا لم نتبع نصيحة جيفرسون للانخراط في ثورة تتفجر كل جيلين أو ثلاثة، فلأن الدستور نفسه أثبت أنه يمثل دفاعا كافيا في وجه الطغيان والاستبداد.

ليست السلطة المطلقة وحدها التي سعى الآباء المؤسسون إلى منعها. فقد كمن في فكرة وبنية الحرية المنظمة رفض للحقيقة المطلقة، ولعصمة أي فكرة أو أيديولوجيا أو لاهوت أو مذهب، ولأي نظام استبدادي يمكن أن يسد أفق أجيال المستقبل ويحوله إلى مسار أحادي لا يتغير ولا يتبدل، أو يدفع الأغلبية والأقلية إلى فظاعات محاكم التفتيش، أو المذابح المدبرة، أو معسكرات العمل الإجباري، أو الجهاد. لربما وضع الآباء المؤسسون ثقتهم بالله، لكنهم أخلصوا الولاء لروح عصر التنوير، ووثقوا أيضا بالعقول التي وهبها الله لهم. ارتابوا بالتجريد النظري وأعجبوا بطرح الأسئلة، وهذا ما جعل النظرية في كل منعطف من تاريخنا المبكر تذعن للحقيقة والضرورة. ساعد جيفرسون في تعزيز سلطة الحكومة الوطنية حتى عند استهجانه ورفضه لهذه السلطة. ومثال آدامز عن السياسة المؤسسة على المصلحة العامة فقط ـ سياسة دون سياسة ـــ ثبت قدمه وبطلانه لحظة تخلي واشنطن عن السلطة. لربما تكون رؤية الآباء المؤسسين هي التي ألهمتنا، لكن واقعيتهم، وقدراتهم العملية ومرونتهم وفضولهم، هي التي ضمنت بقاء واستمرارية الاتحاد.

اعترف بأن هناك نوعا من التذلل في هذه القراءة للدستور وللعملية الديمقراطية. وتبدو وكأنها تدعو إلى التسوية والاعتدال والقبول بالحد الأدنى؛ وتبرير المحسوبية، وعقد الصفقات، والمصلحة الذاتية، وتمويل الحكومة للمشروعات المحلية بغرض إرضاء الناخبين أو المشرعين، والشلل والعجز وغياب الكفاءة ـــ العمليات الخفية كلها التي لا يرغب أحد برؤيتها، وأشار إليها كتاب الافتتاحيات طوال تاريخنا باسم الفساد. ومع ذلك أظن أننا نرتكب خطأ عند الافتراض بأن التداول الديمقراطي يتطلب التخلي عن مثلنا العليا، أو التزام الصالح العام. فعلى الرغم من كل شيء، يضمن الدستور لنا حرية الكلام لا من أجل تبادل الصراخ والزعيق، وصم الأذنين عما يقوله الآخرون (مع أننا نتمتع بهذا الحق) فقط، بل يعرض علينا إمكانية وجود مجال حقيقي للأفكار المتنافسة، حيث «تصادم الأحزاب» يشتغل نيابة عن «التأمل والتداول والحذر»؛ مجال يمكننا فيه، عبر الجدل والنقاش والتنافس، توسيع منظورنا، وتغيير آرائنا، والتوصل في نهاية المطاف لا إلى الاتفاق فقط بل إلى اتفاق سليم وصحيح ونزيه.

صحيح أن النظام الدستوري القائم على الكوابح والضوابط والتوازنات، وفصل السلطات، والفيدرالية، قد يؤدي في أحوال كثيرة إلى تشكل جماعات لها مصالح ثابتة ووجهات نظر معينة تتنازع على المكاسب الضيقة، لكن ليس في جميع الأحوال بالضرورة. فمثل هذا التوزيع للسلطات قد يجبر أيضا الجماعات على أخذ مصالح الآخرين بالحسبان، بل قد يغير بمرور الزمن طريقة تفكير وشعور هذه الجماعات فيما يتعلق بمصالحها الخاصة.

رفض الاستبداد والحكم المطلق الكامن ضمنا في بنيتنا الدستورية قد يجعل سياستنا تبدو أحيانا مجردة من المبادئ. لكن طوال معظم تاريخنا، شجع الرفض عملية جمع المعلومات والتحليل والجدل، وهذا ما أتاح لنا اتخاذ خيارات أفضل، وإن لم تكن مثالية، لا فيما يتعلق بالوسائل المؤدية إلى الغايات فقط، بل بالغايات نفسها. هل نحن مع أو ضد إعطاء الحقوق العادلة للنساء والأقليات، أو الصلاة في المدارس؟ يجب أن نختبر آراءنا ورؤانا وقيمنا إزاء وقائع الحياة المشتركة، بحيث يمكن بمرور

الوقت صقلهــا وتحسينها، أو رفضها ونبذها، أو استبدالها بأفكار جديدة، ورؤى أكثر حدة، وقيم أشد عمقا. وفي الحقيقة، فإن هذه العملية، وفقا لماديسون، هي التي أنتجت الدستور ذاته، عبر تقليد متبع «لا يشعر فيه إنسان بأنه ملزم بالاحتفاظ بآرائه إلا بعد أن يرضى على ملاءمتها وصدقها، وينفتح على قوة الحجة والبرهان»

باختصار، يضع الدستور خريطة طريق يمكن بواسطتها أن نقرن العاطفة بالعقل، ومثــال الحرية الفردية بمطالب الجماعة والمجتمــع. الأمر المدهش أنه نجح في ذلك. فطــوال الأيــام المبكرة للاتحــاد، والانكماش والركــود والحروب العالميــة، والتحولات المتعــددة للاقتصــاد، والتوسع الغربــي، ووصول ملايين المهاجريــن إلى شواطئنا، لم تتمكن ديمقراطيتنا من البقاء فقط بل ازدهرت ونشطت. لقد اختبرت بالطبع خلال أوقات الحروب والخوف، ولسوف تختبر دون شك في المستقبل مرة أخرى.

لكن الحــوار انقطع تماما مرة واحدة، حول موضوع واحــد رفض الآباء المؤسسون التطرق إليه.

ربمــا كان إعــلان الاستقلال «لحظة تحول في تاريخ العــالم، حين كنست إلى الأبد جميــع القوانين والعلاقات البشرية القائمة على الإجبار والإكراه»، حسب تعبير المؤرخ جوزيف اليس. لكن روح التحرر تلك لم تمتد لتشمل، في أذهان الآباء المؤسسين، العبيدَ الذين كانوا يعملون في حقولهم ويرتبون أسرتهم، ويرعون أطفالهم.

ســوف تضمن آلية الدستور الفذة حقــوق المواطنين، أولئك الذين عُدُّوا أعضاء في المجتمــع السياسي الأمريكي. لكنها لم توفــر أي حماية لأولئك القابعين خارج الدائرة الدستوريــة ــــ الأمريكيين الأصليــين الذين ثبت أن المعاهدات معهــم لا قيمة لها أمام محكمة الفاتحين، أو الســود الذين كانوا يدخلون إلى المحكمة أحرارا ويخرجون منها عبيدا، مثل دريد سكوت* .

ربمــا كان التداول الديمقراطي كافيا لتوسيع حق الانتخاب ليشمل الرجال البيض المحرومــين مــن الأمــلاك، ومن ثــم النســاء في نهاية المطــاف؛ وربما خفــف المنطق

* عبد أسود (1795 - 1858) رفضت المحكمة العليا الدعوى التي رفعها طلبا للحرية. على أساس أن العبد ليس مواطنا ومن ثم لا يحق له رفع دعوى أمام محكمة اتحادية! (م).

والعقل والحجة والبراغماتية الأمريكية آلام النمو الاقتصادي لأمة عظيمة وساعد في تقليص حدة التوترات الدينية والطبقية التي تصيب بآفتها الأمم الأخرى. لكن المداولة التشاورية وحدها لا يمكن أن تهب للعبد حريته أو تخلص أمريكا من خطيئتها الأصلية. في النهاية، السيف هو الذي حطم قيوده.

ما الذي يعنيه ذلك كله فيما يتعلق بديمقراطيتنا؟ هنالك مذهب فكري يرى الآباء المؤسسين عصبة من المنافقين ويعد الدستور خيانة للمثل العظيمة التي وضعها إعلان الاستقلال؛ ويتفق مع أنصار إلغاء الرق الأوائل على أن التسوية بين الشمال والجنوب ليست سوى حلف مع الشيطان. ويصر آخرون، ممن يمثلون الحكمة التقليدية الآمنة، على أن التسوية الدستورية حول الرق - إسقاط الإشارة إلى مشاعر أنصار إلغاء الرق من المسودة الأصلية للإعلان، فقرة الثلاثة أخماس، وفقرة العبد الهارب، وفقرة استيراد العبيد، وقانون كم الأفواه المفروض ذاتيا الذي سيطبقه الكونفرس الرابع والعشرون على جميع المجادلات والمناقشات المتعلقة بمسألة الرق، وبنية الفيدرالية ومجلس الشيوخ - مطلب ضروري وإن كان مؤسفا، لتشكيل الاتحاد؛ وأن الآباء المؤسسين، في صمتهم، سعوا فقط لتأجيل إلغاء الرق الذي أيقنوا بحتميته في نهاية المطاف؛ وأن هذه الزلة الوحيدة لا يمكن أن تنقص عبقرية الدستور، الذي أفسح المجال لأنصار إلغاء الرق للتجمع والاحتشاد، واستمرار الجدل والحوار حوله، ووفر إطارا لتمرير التعديلات (الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) بعد خوض الحرب الأهلية، ليصل الاتحاد إلى صيغته الكاملة.

كيف يمكن لي، أنا الأمريكي الذي يجري في عروقه الدم الأفريقي، اختيار الجانب الذي أنحاز إليه في هذا الجدل الخلافي؟ لا أستطيع. فأنا أحب أمريكا كثيرا، ومهتم بما وصلت إليه، وملتزم مؤسساتها، ومعجب بجمالها وحتى بشاعتها، إلى حد يمنعني من التركيز على ظروف ولادتها، لكنني لا أستطيع تجاهل ما وقع من ظلم فادح أو إبعاد أشباح أجيال الماضي، أو التعامي عن الجرح المفتوح، الروح المعذبة التي ما زالت تزعج وتمرض هذا البلد.

أفضـل ما يمكن أن أفعله أمام تاريخنا هـو تذكير نفسي بأن البراغماتية أو صوت العقل أو قوة التسوية لم توجد على الدوام الظروف اللازمة للحرية والتحرر. وتذكرني الحقائـق الصارخـة أن المثاليين العنيديـن، من أمثال وليام لويـد غاريسون، هم أول مـن أطلقوا نفير الدعـوة للعدالة؛ وأن العبيـد والعبيد السابقين، مـن أمثال دنمارك فيسي وفريدريـك دوغلاس وهارييت توبمان، هم الذين أدركوا أن السلطة لن تتنازل عـن شيء دون قتال وأن الحرية تؤخذ ولا تعطـى. إن نبوءات جون براون الراديكالية، واستعداده لإراقة الدم وعدم الاكتفاء بالأقوال دفاعا عن رؤاه، هي التي ساعدت على إثـارة قضية الأمة المقسمـة إلى عبيد وأحرار. تذكرت أن المداولـة والتشاور والنظام الدستـوري قد تكون جميعا ترفا للأقوياء أحيانا، وأن المهوّسين والمتطرفين والمتزمتين والأنبيـاء والمهيجين والمتهورين ـ أي المؤمنين بالحقائق والمبـادئ المطلقة ـ هم الذين خاضوا المعركة أحيانا في سبيل نظام جديد. ولأنني أعرف ذلك كله، لا يمكن أن أرفض اليوم باستعجال أولئك المهوسين بيقين مشابه اليوم ـ الناشطين المناهضين للإجهاض الذيـن يحرضـون على الإضـراب عند اجتماعي مـع الأهالي المحليـين، أو الناشطين المدافعـين عن حقوق الحيوان الذين يهاجمون المخابـر ـ مهما بلغ عمق الاختلاف مع آرائهـم. لقد تخليت حتى عن يقـين عدم اليقين، لأن الحقائق المطلقة قد تكون أحيانا مطلقة ونهائية.

أصل الآن إلى لينكولن، الذي لا نجد سياسيا قبله ولا بعده فهم الوظيفة التداولية والتشاورية لديمقراطيتنا والحدود المقيدة لها. نتذكره بسبب ثبات قناعاته وعمقها ـ معارضتـه التي لا تلين للرق وتشبثه العنيـد بالمبدأ القائل إن البيت المقسم لا يمكن أن يصمد. لكن رئاسته استهدت ببراغماتية قد تقلقنا اليوم، براغماتية قادته إلى اختبار مساومات وصفقات متنوعة مع الجنوب للحفاظ على الاتحاد دون حرب؛ وتعيين وطرد جنرال إثر جنرال، وتبني إستراتيجية بعد إستراتيجية، حالما اندلعت الحرب؛ وتوسيع ومـد الدستور إلى الحد الأقصى في سبيل الانتصار فيهـا. أحب الاعتقاد أن لينكولن لم يتخل عن إيمانه الراسخ لمصلحة التساهل واللين ولا استبدل الغايات بالوسائل. بل حافظ في داخله على التوازن بين فكرتين متناقضتين: يجب علينا التحاور والتوصل إلى

فهم مشترك، لأننا جميعا نفتقد الكمال ولا يمكن أن نتيقن أن الله يقف في صفنا؛ ومع ذلك يجب أن نعمل كأننا على يقين تام بأن العناية الإلهية تقينا من الخطأ والزلل.

ذلك الوعي بالذات، والتواضع، دفعا لينكولن إلى تقديم وتعزيز مبادئه عبر إطار ديمقراطيتنا، بواسطة الخطب والمناظرات والمجادلات، والحجج المنطقية التي تستهوي الجوانب الملائكية الطيبة في طبيعتنا. هذا التواضع نفسه هو الذي أتاح له، حالما انقطع الحوار بين الشمال والجنوب وأصبحت الحرب أمرا حتميا يتعذر تجنبه، مقاومة إغراء أبلسة الآباء والأبناء الذي قاتلوا في المعسكر الآخر، أو تقليل فظائع الحرب، مهما بلغت عدالتها وضرورتها. يذكرني دم العبيد بأن البراغماتية التي نتبناها يمكن أن تتحول أحيانا إلى جبن أخلاقي. إذ يذكرنا لينكولن، والقتلى الذين دفنوا في غيتيسبرغ، بأن علينا السعي نحو حقائقنا المطلقة إذا اعترفنا بأن علينا أن ندفع ثمنا باهظا من أجلها.

ثبت أن هذه التأملات في الهزيع الأخير من الليل غير ضرورية لقراري الراهن فيما يتعلق بمرشحي جورج بوش لمحكمة الاستئناف الاتحادية. ففي نهاية المطاف، جرى تجنب الأزمة في مجلس الشيوخ، أو أجلت على الأقل: وافق سبعة من الأعضاء الديمقراطيين على عدم اللجوء إلى أسلوب التسويف والمماطلة ضد ثلاثة من مرشحي جورج بوش الخمسة المثيرين للجدل، وتعهدوا بأن يدخروا هذا الأسلوب في المستقبل لـ «ظروف استثنائية» وفي مقابل ذلك، وافق الجمهوريون على التصويت ضد «الخيار النووي» الذي يلغي نهائيا أسلوب التسويف والمماطلة ـ مرة أخرى مع إنذار تحذيري بأنهم قد يغيرون رأيهم في حالة ظهور «ظروف استثنائية» لا أحد يعرف ما الذي يؤدي إلى «الظروف الاستثنائية»، واشتكى الناشطون الديمقراطيون والجمهوريون على حد سواء، وقد تشوقوا إلى القتال، شكوى مريرة مما عدوه إذعانا واستسلاما من جانب معسكرهم.

رفضت أن أكون جزءا مما سمي «عصابة الأربعة عشر»؛ وحين نأخذ بالاعتبار السيرة المهنية لبعض القضاة المعنيين، يصعب علينا تصور ترشيح قضائي أسوأ يشكل «ظروفا استثنائية» تستحق اللجوء إلى أسلوب المماطلة والتسويف. ومع ذلك،

لم أستطـع انتقاد زملائي على مساعيهم. فقد اتخذ الأعضاء الديمقراطيون المعنيون قرارا عمليا ـ فلولا الصفقة لنجح الجمهوريون في تمرير «الخيار النووي»

لم تبهـج نتيجـة الأحداث أحدا مثـل السيناتور بيرد. ففي اليوم الـذي أعلنت فيه الصفقـة، مشى متباهيـا وأمارات النصـر بادية عليه في قاعات مبنـى الكابيتول مع الجمهـوري جـون وارنر (فيرجينيـا): أصغر أعضـاء «العصابة»يسـير خلف الأسود الهرمة. أعلن بيرد أمام ثلة من المراسلين: «لقد حافظنا على الجمهورية!» ابتسمت في سري، وفكرت بالزيارة التي تمكنا نحن الاثنان من ترتيبها أخيرا قبل بضعة شهور.

عقـد اللقاء في معتزل السيناتور بيرد في الـدور الأول من مبنى الكابيتول، المندس بين سلسلة من الغرف الصغيرة الجميلة الطلاء، حيث تجتمع لجان المجلس بانتظام. قادتني سكرتيرته إلى مكتبه الخاص، المحتشد بالكتب وما بدا أنه مخطوطات أثرية، واصطفـت على الجـدران صور قديمة وتـذكارات الحملات الانتخابيـة. سألني. هل أمانع في التقـاط بعض الصور التي تجمعنا معاً؟ وتصافحنا وابتسمنا للمصور. وبعد أن غـادر هو والسكرتيرة، جلسنا على مقعديـن عتيقين. سألته عن صحة زوجته التي سمعت أنها تسوء، وعن بعض الشخصيات الظاهرة في الصور. في النهاية، سألته عن النصيحة التي يقدمها لي كعضو جديد في مجلس الشيوخ.

قال: «تعلم القواعد. والسوابق أيضا» وأشار إلى عدد من المجلدات السميكة خلفه، وقـد ثبت على كل منها لصاقة كتـب عليها بخط اليد. «لا يتحمل الكثيرون هذه الأيام عـبء تعلمها. الكل علـى عجلة من أمره، ولا يجد عضو مجلـس الشيوخ الوقت الكافي فالمطالـب عديدة والمهمات كثيرة. لكن هذه القواعد تكشف قوة وسلطة المجلس. فهي مفاتيح المملكة».

تحدثنا عن ماضـي المجلس، والرؤساء الذين عرفهـم، ومشروعات القوانين التي قدمهـا. قـال لي: إننـي سأبلي بلاء حسنا في المجلـس، لكن علي ألا أتسـرع وأتعجل ـ لأن العديد من الأعضاء اليـوم يشخصون بأبصارهم إلى البيت الأبيض، ولا يفهمون حقيقة أن للمجلس اليد الطولى، فهو روح الجمهورية وقلبها النـابض.

قـال السيناتور بيرد وهو يخـرج نسخة الدستور من جيبه: «قلـة من الناس قرؤوا الدسـتـور اليـوم. قلت: دوما إن هـذه الوثيقة والكتـاب المقدس همـا المرشد والهادي اللذان أحتاجهما».

قبـل أن أغـادر ألح علي أن تحضـر لي سكرتيرته مجموعة تاريـخ مجلس الشيوخ الـذي كتبه. وحـين كان يضع ببطء مجموعـة الكتب بأغلفتها الجميلـة على الطاولة، بحث عن قلم، وأخبرته كم كان رائعا أن يجد الوقت الكافي للكتابة.

قـال وهو يومئ رأسه: «لقـد كنت محظوظا. وأعبر عن الشكـر والامتنان. لا أندم علـى شيء» توقف فجـأة ونظر في عيني مباشـرة: «أندم على شـيء واحد فقط. أنت تعرف حمق وطيش الشباب..»

جلسنا هناك هنيهة، نفكر بفجوة السنين وفارق الخبرة بيننا.

قلـت أخيرا: «كلنا يندم على شيء فعله. ويطلب المغفرة في النهاية، فليغفر الله لنا ويتم نعمته علينا».

أمعـن النظر في وجهي لحظة، وأومأ رأسه وعلـت محياه ابتسامة واهية وفتح أحد الكتب. قال وهو يكتب بصعوبة وبطء اسمه على الهدية: «نعمة الله علينا. أجل. دعني أوقع هذه الكتب».

- 4 -

السياسة

إحدى مهماتي المفضلة في عملي كعضو في مجلس الشيوخ استضافة لقاءات الأهالي المحليين. عقدت تسعة وثلاثين اجتماعا خلال عامي الأول في الكونغرس، في مختلف أرجاء الينوي، بدءا بالبلدات الصغيرة، مثل آنا، والضواحي المزدهرة، مثل نابرفيل، وانتهاء بالكنائس المخصصة للسود في ساوث سايد والجامعة في روك ايلند. ليس ثمة استعراضات احتفالية هنا. إذ يتصل الموظفون العاملون معي بالمدرسة الثانوية المحلية، أو بالمكتبة، أو الكلية المتوسطة ليأخذوا الموافقة على استضافة اللقاء. وقبل أسبوع أو نحوه، نعلن عن المناسبة في الصحيفة المحلية، وفي نشرات الكنيسة، وفي الإذاعة. وفي اليوم الموعود أحضر قبل نصف ساعة لأتبادل الحديث مع زعماء البلدة ومن ثم نناقش القضايا المحلية، مثل طريق بحاجة إلى تعبيد أو التخطيط لإقامة مركز جديد للمسنين. وبعد التقاط بعض الصور، ندخل القاعة حيث ينتظر الأهالي. أصافح الأيدي في الطريق إلى المنصة، المكونة عادة من منبر وميكرفون وزجاجة ماء وعلم أمريكي على حامل. ثم أجيب طوال ساعة من الزمن تقريبا عن الأسئلة التي أرسلت إلي في واشنطن.

يتفاوت حجم الحضور في هذه اللقاءات بين خمسين وألفين. لكن بغض النظر عن العدد أشعر بالامتنان لمرأى هؤلاء الناس. فهم عينة نموذجية تمثل المقاطعات والمناطق التي نزورها: جمهوريون وديمقراطيون، شيب وشبان، سمان ونحاف، سائقو شاحنات وأساتذة جامعات، وربات بيوت، ومحاربون قدماء، ومدرسون، ووكلاء تأمين، ومحاسبون قانونيون، وسكرتيرات، وأطباء، وعاملون في الخدمة الاجتماعية. وهم عموما مهذبون ويصغون بانتباه، حتى حين يختلفون في الرأي معي (أو مع بعضهم بعضا). أما أسئلتهم فتتعلق بوصفات الأدوية، والعجز في الميزانية، وحقوق الإنسان في ميانمار، والإيثانول، وأنفلونزا الطيور، وتمويل المدارس، وبرنامج الفضاء. وكثيرا

مـا تدهشني وتفاجئني أسئلتهم: شابة شقراء من قلب الريف تناشد بأسلوب عاطفي مؤثر الحكومة التدخل في دارفور، أو عجوز أسود من سكان الأحياء الداخلية يختبرني في مجال الحفاظ على التربة.

حـين أنظـر إلى المحتشديـن، أشعر بنوع مـن التشجيـع. أرى في ملامحهم الجد والاجتهـاد في العمـل. والأمـل في طريقة تعاملهم مـع أولادهم. الوقـت الذي أقضيه معهـم يشبه غطسة في نبع منعش. فأحس بعد ذلك أنني تطهرت، وأرضى عن العمل الذي اخترته.

في نهايـة اللقـاء، يأتـي الحاضرون عـادة لمصافحتـي أو التقاط الصـور، أو دفع أولادهـم ليطلبوا توقيعـي على دفاتر مذكراتهـم. يدسون أوراقا في يـدي - مقالات، بطاقـات النشاط التجاري، ملاحظات مكتوبة بخط اليـد، أوسمة الخدمة في القوات المسلحـة، أيقونات دينية، تعاويـذ تجلب الحظ السعيد. أحيانـا يمسك أحدهم بيدي ويخـبرني أن آماله عظيمـة فيّ، لكنه قلق من أن واشنطن سوف تغيرني وسأصبح مثل الباقين في السلطة.

كانوا يقولون لي: نرجو أن تبقى كما أنت.

نرجوك لا تخيب رجاءنا.

مـن تقاليدنا الأمريكيـة أن نعزو المشكلـة في سياستنا إلى نوعيـة السياسيين. في بعضـ الأحيان يعبر عن ذلك بلغة خاصـة: الرئيس مأفون، السينـاتور الفلاني متشرد ومتسـول. في أحيان أخرى، تصدر إدانـة أوسع نطاقا: «جميعهم مهتمون بمصالحهم الخاصـة» ويستنتج معظـم الناخبين أن الجميـع في واشنطن «يلعبـون السياسة»، أي أن التصويـت أو المواقـف تتخـذ على النقيض مـن الضمير، وتعتمد علـى مساهمات الحمـلات الانتخابيـة أو الاستطلاعات أو الـولاء للحزب، لا علـى محاولة فعل ما هو صائـب وصحيح. وفي كثير من الأحيان، توجه أقسـى الانتقادات من صفوف المعسكر الـذي ينتمي إليه السياسي، الديمقراطي الـذي «لا يمثل شيئا» أو «الجمهوري بالاسم فقـط» وكلها تؤدي إلى نتيجة واحـدة: إذا أردنا إحداث تغيير في واشنطن فعلينا طرد الأنذال والأشرار.

ومـع ذلك، نبقي الأنذال والأشرار حيث هم، فمعدل إعادة انتخاب أعضاء مجلس النواب يبلغ زهاء 96%.

يمكـن للمختصـين في العلوم السياسيـة تقديم عدد من الأسبـاب لهذه الظاهرة. ففـي عالم اليوم الذي تتصل أجـزاؤه بعضها ببعض، يصعب اخـتراق وعي الناخبين الذيـن تشغلهم أمور الحياة وتشتت انتباههم. ونتيجة لذلك، ينحصر الفوز في ميدان السياسـة في مجرد شهرة الأسماء، ولهذا السبب يقضي معظم المرشحين وقتا طويلا بـين الانتخابات للتأكد مـن أن أسماءهم تتكرر مرارا، في قص الشرائط الحريرية أو مواكـب الرابع من تموز/ يوليو أو في برامج أحاديث الصباح يوم الأحد. هنالك ميزة معروفة يتمتع بها المرشح و تجلب التمويل والتبرعات، لأن مجموعات الضغط التمثيلية ــ على اليمين أو اليسـار ـ تميل إلى التأييد حين يتعلق الأمـر بالمساهمات السياسية. وهنالك دور لإعادة رسم حدود الدوائر الانتخابية في عزل وحماية مجلس النواب من التحديـات المهمة: في هذه الأيـام، يرسم الحزب الحاكم حـدود كل منطقة انتخابية للكونغرس بدقة الكمبيوتر لضمان وجود أغلبية واضحة للديمقراطيين أو الجمهوريين داخـل تخومهـا. وفي الحقيقة، ليس مـن المبالغة القول إن معظـم الناخبين لم يعودوا يختارون ممثليهم؛ بل على العكس، الممثلون هم الذين يختارون ناخبيهم.

هنالك عامل آخر يؤثر في هذا السياق، نادرا ما ذكر لكنه يساعد في تفسير السبب الذي يجعل استطلاعات الرأي تظهر باستمرار كراهية الناخبين للكونغرس ومحبتهم لأعضائـه. وربما يصعب تصديـق حقيقة أن معظم السياسيـين يتمتعون بشخصيات محببة إلى النفس.

مـن المؤكد أنني وجـدت ذلك يصدق علـى زملائي الأعضاء. فـكل منهم يجسد صحبـة رائعة في اللقاءات الثنائية ـ إذ يصعب علي العثور على «راوية»أفضل من تيد كنيـدي أو ترينـت لوت، أو أسرع بديهة وأذكى وأظرف مـن كينت كونراد أو ريتشارد شيلبـي، أو أكـثر دفئا وودا من ديبي ستابينو أو ميل مارتينيز. كقاعدة عامة، ثبت أن هـؤلاء أذكياء ومجدون يتمتعـون بعمق التفكير والاستعداد لتكريـس ساعات طويلة، وانتبـاه مركـز على القضايـا المؤثرة في ولاياتهم. أجـل، هنالك أيضـا أولئك الذين

يشبهــون النمــط المعروف، الذين يتكلمــون دون توقف أو يستأســدون على موظفيهم ومساعديهم؛ كلما طالت المدة التي أقضيها في قاعة المجلس، تزداد قدرتي على تحديد العيــوب والمثالب التي نعاني منهــا جميعا كأعضاء بدرجات متفاوتة ـ طبع سيئ هنا، عناد أو تيه وخيلاء هناك. لكن على الأغلب، يبدو أن حاصل هذه السمات والصفات في المجلــس لا يزيد عــن ذلك الذي نجده في أي شريحة عشوائية من السكان عموما. وحتى عندما أتحدث مع أولئك الزملاء الذين أختلف معهم اختلافا عميقا، يفاجئني فيهــم إخلاصهــم وصدقهم ـ رغبتهــم في عمل الصواب وجعل بلادهــم أفضل حالا وأكــثر قــوة؛ وفي تمثيل ناخبيهم وتجسيد قيمهم بأقصـــى درجة من الإخلاص تسمح بها الظروف.

إذن، مــا الذي جعل هــؤلاء الرجال والنساء يبدون شخصيــات متجهمة ومتشددة وعنيــدة وغــادرة، ووضيعــة ودنيئة أحيانــا، في نشــرات الأخبار المسائيــة؟ ما الخطأ في العمليــة الذي منع الأشخاص العقلانيين والمنطقيين وأصحـاب الضمير من أداء المهمات الضرورية للأمة؟ كلما طالت خدمتي في واشنطن، زاد عدد الأصدقاء الذين أراهــم يبحثون في وجهي عن ملامح التغيير وعن أمارات التباهي والتفاخر الجديدة، وعــن علامات تلمح لأي ولع بالجــدل أو الحذر والاحتراس والتحفــظ. بدأت تفحص ذاتــي بطريقتــي الخاصة؛ فوجدت بعض السمات التــي أتقاسمها مع زملائي الجدد، وتساءلــت: ما الذي يحول دون تحــولي إلى سياسي نمطي من النوع الشائع في الأفلام التلفزيونية الرديئة؟.

تمثلت إحدى نقاط الانطلاق لاستقصائي في فهم طبيعة الطموح، ففي هذا المجال علــى الأقل يتبايــن أعضاء مجلس الشيوخ. قلة من النــاس ينتهي بهم المطاف أعضاء في مجلــس شيوخ الولايــات المتحدة صدفة؛ فعند الحد الأدنـــى، يتطلب ذلك قدرا من جنــون العظمة، اعتقادا بأنك من بين جميع الموهوبين في ولايتك، مؤهل بدرجة فريدة للتحــدث باسمهم؛ اعتقــادا قويــا بأنك على استعداد لتحمــل العملية التي ترفع الروح المعنوية حينا، وتسبب الحزن والكدر أحيانا، والسخيفة إلى حد ما دوما، التي ندعوها الحملات الانتخابية.

فضلاً عن أن الطموح وحده لا يكفي. فمهما كان تشابك البواعث، المقدسة والمدنسة، التي تدفعنا نحو هدف عضوية مجلس الشيوخ، لا بد أن يظهر أولئك الذين نجحوا في تحقيقه تصميما عنيدا ومتزمتا، مع تجاهل صحتهم وعلاقاتهم وتوازنهم الذهني والنفسي، وكرامتهم غالبا. بعد انتهاء حملتي الانتخابية الأولية، أتذكر أنني نظرت إلى الروزنامة وأدركت أنني طوال سنة ونصف السنة، لم آخذ سوى سبعة أيام استراحة. في حين عملت في العادة مدة تراوحت بين اثنتي عشرة وست عشرة ساعة في اليوم. ولم يكن ذلك من الأمور التي أفتخر بها. فقد أشارت ميشيل مرارا خلال الحملة الانتخابية إلى أن ذلك ليس أمرا عاديا.

لكن لا الطموح ولا التصميم على هدف وحيد يفسران سلوك السياسيين. هنالك عاطفة انفعالية مرافقة، ربما تكون أكثر عمقا وبالتأكيد أشد تدميرا، عاطفة تمسك بخناقك بعد الدوار الناجم عن إعلان ترشيحك رسميا، ولا تفك أسرك إلا بعد يوم الانتخابات. هذه العاطفة هي الخوف. الخوف لا من الخسارة فقط، على الرغم من تأثيرها السيئ، بل من التعرض لإذلال كامل ساحق.

على سبيل المثال، ما زالت تعذبني ذكرى خسارتي الوحيدة في السياسة، تلك الهزيمة النكراء عام 2000 على يد المرشح الديمقراطي السيناتور بوبي روش. كان سباقا حدث فيه فعلا كل شيء سيئ يخطر على البال، حيث تضاعفت أخطائي بالمآسي وتضخمت بالملاهي. فبعد أسبوعين اثنين من إعلان ترشيحي، وليس معي من المال سوى بضعة آلاف من الدولارات، فوضت مؤسسة مهمة إجراء أول استطلاع للرأي واكتشفت أن اسم منافسي معروف بنسبة 90% في حين لم يتجاوز اسمي نسبة 11%. أما معدل الموافقة عليه فبلغ زهاء 70% - ولم يتجاوز المعدل بالنسبة لي 8%. وبتلك الطريقة تعلمت واحدة من أهم القواعد المؤسسة للسياسة الحديثة: قم بإجراء استطلاع للرأي قبل أن تعلن ترشيحك.

ساءت الأمور بسرعة منذ تلك النقطة. في تشرين الأول/ أكتوبر حين كنت في طريقي إلى اجتماع بهدف تأمين موافقة بعض مسؤولي الحزب الذين لم يؤيدوا منافسي بعد، سمعت خبرا في الإذاعة يقول إن ابن السيناتور روش قتل على يد اثنين

مـن تجار المخدرات خارج منزله. صدمت وحزنت وشعـرت بالتعاطف مع السيناتور، وأوقفت حملتي الانتخابية مدة شهر.

وخـلال عطلة أعيـاد الميلاد، بعـد أن سافرت إلى هاواي في رحلـة قصيرة مدتها خمسـة أيام لزيارة جدتي وتجديد علاقتي مع ميشيل وابنتي ماليا (التي بلغت ثمانية عشـر شهرا آنـذاك)، دعي مجلـس شيوخ الولايـة إلى جلسة خاصـة للتصويت على تشريـع لضبط السلاح. ولأن ماليا كانت مريضة وتعذر عليها السفر بالطائرة، تغيبت عـن التصويـت فسقط مشروع القانـون. وبعد يومين، نزلت مـن الطائرة في الصباح (بعـد رحلـة ليلية) في مطار اوهارا، لأجد طفلة تبكـي، وزوجة لا تكلمني، وقصة على الصفحـة الأولى في «شيكاغو تريبيون» تقول: إن مشـروع قانون ضبط الأسلحة الذي فشـل كان بحاجة إلى بضعة أصوات، أما سيناتور الولاية والمرشح لعضوية الكونغرس أوبامـا فقد «قرر البقاء في إجازة» في هاواي. اتصل بي مدير حملتي الانتخابية وذكر أن الدعاية المحتملة لمنافسي سوف تظهر قريبا: أشجار نخيل، ورجل يجلس مسترخيا علـى مقعد الشاطـئ ويرشف من قـدح الكوكتيل المثلوج، ونغمات حالمـة لغيتار يعزف في الخلفيـة، وفجـأة يصرخ صوت مجلجـل: «في حين تعاني شيكاغو مـن أعلى معدل للجريمة في تاريخها، هاهو باراك أوباما..».

قاطعته هنا بعد أن فهمت مقصده.

وهكـذا، في منتصـف الحملـة الانتخابية عرفت في داخلـي أنني سأخسر. ومنذ ذلـك الحين كنت أستيقظ كل صباح وقد غمرني شعور غامض بالهلع، مدركا أن علي قضـاء النهار مبتسما ومصافحـا الأيدي ومتظاهرا بأن كل شـيء يسير وفقا للخطة المرسومـة. في الأسابيع القليلة السابقة على الانتخابـات التمهيدية، استعادت حملتي بعض الزخم: أبليـت بلاء حسنا في المناظـرات التي غطتها وسائـل الإعلام أحيانا، حيـث تابعت بطريقة إيجابيـة اقتراحاتي فيما يتعلق بالرعايـة الصحية والتعليم، بل تلقيـت تأييدا من «شيكاغو تريبيون» لكنه جاء ضعيفا جدا ومتأخرا جدا. ثم اكتشفت أن السباق قد بدأ وخسرت بفارق واحد وثلاثين نقطة.

لا أقصــد أن السياسيــين وحدهم يعانون مثل هذه الخيبــات. لكنهم خلافا لمعظم النــاس الذين يستطيعون لعق جراحهم في السر، يخسرون علنا وعلى رؤوس الأشهاد. يجــب عليــك إلقاء خطبة تعــترف فيها بالهزيمــة في قاعة غادرها نصــف الحضور، وأمــارات الشجاعــة يجب أن تعلو وجهك وأنــت تواسي المساعديــن والأنصار، وتوجه عبارات الشكر إلى كل من قدم المساعدة، وتقدم الطلبات المحرجة لمزيد من العون في ســداد الديــون. أنت تؤدي هذه المهمات على أفضل وجــه، لكن بغض النظر عما تقوله لنفســك ـ مدى اقتناعك بأن سبب الخسارة يعود إلى التوقيت السيئ أو الحظ العاثر أو نقصــ المال ـ فإن من المستحيل ألا تشعر على أحــد المستويات وكأن المجتمع بأسره رفضك شخصيا، وأنك لا تملك المؤهلات والسمات الضرورية للنجاح، وتظن أن كلمة (فاشل) تومض في أذهان الناس كلما شاهدوك في أي مكان تذهب إليه. هذه المشاعر لم يختبرها معظم الناس منذ مرحلة المدرسة الثانوية، حين رفضتك صديقتك هازئة أمــام صاحباتها، أو أخطأت خطأ ذريعا في إحدى المباريات ـ تلك الأنواع من المشاعر التي ينظم البالغون الراشدون حياتهم بحكمة وحصافة لتجنبها.

تخيل إذن تأثير هذه العواطف الانفعالية ذاتها على سياسي مشهور، نادرا ما فشل (خلافــا لي) في حياتــه ـ كان لاعبــا أساسيا وموهوبــا في المدرســة الثانوية، ونال في صفه أعلى الدرجات (وألقى الخطبة الوداعية عند التخرج)، في حين كان أبوه عضوا في مجلســ الشيــوخ أو أدميرالا، وكرر على مسامعه منــذ الطفولة أن مستقبلا عظيما ينتظره. أتذكر حديثا مع مدير تنفيذي في إحدى الشركات كان نصيرا متحمسا لنائب الرئيس آل غور خلال السباق الرئاسي عام 2000. كنا نجلس في مكتبه الفخم، المطل علــى منهاتــن، حين أخذ يصــف لي لقاء معه بعد زهــاء ستة أشهر مــن الانتخابات، عندما سعى وراء المستثمرين لتمويل مشروعه التلفزيوني الذي كان في مهده آنذاك.

قــال لي المدير: «بدا الأمر غريبا. فها هو هنا، نائب رئيس سابق، وكان قبل بضعة أشهر على وشك أن يصبح أقوى رجل على الكوكب الأرضي. خلال الحملة الانتخابية، كنت أتلقى اتصالاته في أي وقت، وأعيد ترتيب جدول مواعيدي كلما أراد الاجتماع بي. لكــن فجأة، بعد الانتخابات، لم أستطع منع نفسي حــين يدخل مكتبي من الشعور بأن

اللقـاء معه عبء ثقيل. كرهت الاعتراف بذلـك، لأنني أحبه فعلا. لكنه، على مستوى من المستويات، لم يكن آل غور، نائب الرئيس. بل مجرد واحد من مئات الأفراد الذين يأتـون لمقابلتي كل يـوم سعيا وراء المال، وهذا ما جعلنـي أدرك مدى المنحدر الشاهق الذي تقفون أنتم السياسيون على حافته»

منحـدر شاهق، وهاوية سحيقـة. خلال السنوات الخمس الماضيـة، أظهر آل غور حجم الرضى والقناعة والتأثير الذي تقدمه الحياة بعد الخروج من معترك السياسة، وأظن أن المدير التنفيذي لا يزال يتلقى اتصالات وزيارات نائب الرئيس السابق بتشوق. ومـع ذلـك أتخيل أن آل غور استشعر حتما بعد خسـارة انتخابات عام 2000، التغيير الـذي أصاب صديقه. فعندمـا جلس هناك، وطرح فكرته عـن مشروعه التلفزيوني، وحـاول تحسين الوضـع السيـئ إلى أقصى حد، فكـر بالتأكيد بمـدى سخف وعبثية الظـروف التي وجد نفسه فيها؛ كيف خسر كل شيء بعد حياة حافلة بالعمل والنشاط بسبب تذبذب في التصويت لم يأت لمصلحته، في حين جلس قبالته صديقه المدير وعلى وجهـه ابتسامة استعـلاء، مع أن شركته ربمـا لم تحقق نجاحا تجاريـا باهرا، وربما تراجعـت أسعار أسهمها أو اتخذ قرارا استثماريا متهورا، ومع ذلك يفخر بإنجازاته، ويتمتـع بتعويض مالي كبـير، ويمارس سلطته ونفوذه. العدالـة غائبة، لكن غيابها لن يغـير الحقائق فيما يتعلق بنائب الرئيسـ السابق. وعلى شاكلة معظم الذين عملوا في المجـال العام، عرف آل غور ما الذي ينتظره عندما قرر الترشح. ففي السياسة يمكن أن تكرر العمل مرة ثانية لكن ليس فيها مكان إلا للأوائل.



معظـم خطايـا السياسة مشتـق من هذه الخطيئـة الكبرى ـ الحاجـة الماسة إلى الفـوز، وضـرورة عدم الخسـارة. من المؤكد أن ذلـك هو جوهر المسعـى لجمع المال. قبـل القوانين الناظمة لتمويل الحملات الانتخابيـة والمراسلين المتطفلين الفضوليين، كان المـال هو الذي يصنع السياسـة بواسطة الرشى السافرة؛ وكان بمقدور السياسي التعامـل مع مال حملته كأنه حسابه المصرفي الخاص ويقبل الدعوات للولائم المترفة؛ وشاعت المكافآت الضخمة المقدمة من الساعين للنفوذ، واستطاع من يقدم أعلى سعر

صياغـة القانون والتشريع. وإذا صدقت التقاريـر الصحفية التي ظهرت حديثا، فإن هذه الأشكال الفاحشة من الفساد لم تختف عن الساحة كليا؛ وعلى ما يبدو، ما يزال في واشنطن من يعدون السياسة وسيلة للغنى وسلما للثراء، وفي حين لا يصل غباؤهم عمومـا إلى حـد قبول مبالـغ مالية صغـيرة، إلا أنهم علـى أتم الاستعـداد للاهتمام بالمساهمـين وتملقهم ومحاباتهم إلى أن يأزف الوقـت المناسب أخيرا للانضمام إلى جماعات الضغط المربحة وتمثيل مصالحها.

لكـن في معظم الأحيان، لا يمارس المال نفوذه علـى السياسة بهذه الطريقة. فقلة مـن جماعات الضغط تعرض مالا أو تقدم رشى بشكل سافر إلى المسؤولين المنتخبين. فهـي ليست مضطـرة لذلك. لأن نفوذها يأتـي ببساطة من صلتها التـي تفوق بقوتها صلـة الناخبين العاديين بهم، وامتلاكها معلومـات لا يعرفونها، وتمتعها بقوة التحمل والجلـد والدأب حين يتعلـق الأمر بترويج بند غامض في قانون الضرائب يغل مليارات الدولارات على عملائها ولا يأبه له الآخرون.

فيما يتعلق بالسياسيين، لا يمثل المال الهدف المقصود دوما. فمعظم أعضاء مجلس الشيـوخ، علـى الأقل، من الأثريـاء أصلا. بل يعنـي المحافظة على المكانـة والسلطة؛ وترهيـب المنافسـين والمتحدين وإبعاد شبح الخوف. لا يمكـن للمال أن يضمن الفوز - فهو لا يستطيع شراء العاطفة، أو الشخصية الكاريزمية الآسرة، أو القدرة على رواية قصة بأسلوب ممتع. لكن في حالة الافتقار إلى المال، والإعلانات الدعائية التلفزيونية التي تستهلكه كله، سوف تخسر الانتخابات حتما.

حجم المبالغ المالية المستخدمة يحبس الأنفاس، خصوصا في السباقات التي تجري في الولايـات الكبرى التي تتعدد فيهـا الأسواق الإعلامية. فحين كنت في مجلس شيوخ الينوي، لم أضطر إلى إنفاق أكثر من مئة ألف دولار على السباق؛ وفي الحقيقة، اشتهرت بالاعتدال واتباع الأساليب القديمة حين يتعلق الأمر بجمع التبرعات، وشاركت في تمرير أول تشريع لتنظيم تمويل الحمـلات الانتخابية طوال خمسة وعشرين عاما، ورفضت الولائـم من جماعات الضغط، والشيكات من الجماعات المؤيدة للصيد والمدافعة عن مصالح شركات التبغ. وحين قررت الترشح لعضوية مجلس الشيوخ، اضطر مستشاري

الإعلامـي، ديفيد اكسلرود، أن يشـرح لي حقائق الحياة. واعتمدت خطة حملتنا على ميزانيـة هزيلـة أتى معظمها مـن الأنصار والمؤيديـن على مستوى القاعـدة الشعبية و«الإعـلام المكتسب» - أي القدرة على صنع أخبارنا بأنفسنا. ومع ذلك، أبلغني ديفيد أن أسبوعـا من الإعلانـات الدعائية التلفزيونية في سوق وسائـل الإعلام في شيكاغو سيكلف زهاء نصف مليون دولار. أما الدعاية للحملة في بقية أرجاء الولاية مدة أسبوع فتكلف حوالي ربع مليون دولار. وبذلك، تبلغ الميزانية النهائية للانتخابات التمهيدية، بعد حساب تكلفة أربعـة أسابيع من الدعاية التلفزيونية، والمصروفات العامة ورواتب الموظفين والمساعدين في حملة تشمل الولاية بأسرها، زهاء خمسة ملايين دولار. وعلى افتراض أنني سأفوز في الانتخابات التمهيدية، سوف أحتاج بعد ذلك إلى جمع عشرة أو خمسة عشر مليونا إضافية للانتخابات العامة.

عـدت إلى البيت تلـك الليلة لأكتب قائمـة بأسماء جميع الأشخاص الذين يمكن أن يساهمـوا في الحملـة. ووضعـت جانب اسم كل منهم الحد الأعلـى من المبلغ الذي أستطيع دون حرج طلبه منه.

إجمالي المبلغ وصل إلى خمسمائة ألف.

في غيـاب الثروة الشخصية، هنالك سبيل واحد لجمع المال المطلوب لخوض سباق الترشـح للكونغرسـ الأمريكي: يجـب أن تطلبه مـن الأثرياء والموسريـن. في الأشهر الثلاثـة الأولى مـن الحملـة، كنت أغلـق باب الغرفـة وأجلـس مع مساعـدي لشؤون التبرعـات وأتصل بالمتبرعـين الديمقراطيـين السابقين. لم يكن الأمـر ممتعا أبدا. بعضهم كان يغلق الخـط في وجهي. وفي أحيان كثيرة كانت السكرتيرة تتسلم رسالتي وتعـدني بالاتصـال لاحقا، لكنها لا تفعل، فأتصل أنا مرتين أو ثلاثا إلى أن أتخلى عن المحاولـة أو يجيبنـي الشخص المعني ويرفضـ بأسلوب مهذب. بـدأت أختلق الأعذار لتجنـب اللقاءات خلال هـذه الاتصالات ـــ الدخول إلى الحمـام، الاستراحة لشرب القهـوة، تنقيـح خطبة التعليم للمـرة الثالثة أو الرابعة. في بعضـ الأحيان خلال هذه الجلسـات فكرت بجـدي، الذي عمل في منتصـف العمر في بيع بوالصـ التأمين على الحياة لكنه لم يكن يصيب نجاحا فيه. وتذكرت تبريحه كلما حاول ترتيب مواعيد مع

أشخاص يفضلون قلع أضراسهم على التحدث مع مندوب التأمين، إضافة إلى نظرات الاستهجـان التي يتلقاها من جدتي، التي كسبـت قدرا أكبر من المال مقارنة به طوال حياتهما الزوجية.

عرفت أكثر من أي وقت آخر ما شعر به جدي آنذاك.

عنـد نهاية الشهور الثلاثة، لم يـزد المبلغ الذي جمعته الحملة عن ربع مليون دولار ـــ أي أقـل بكثير من الحد الأدنـى. وما زاد الطين بلة أن السبـاق أبرز ما يعده الكثير مـن السياسين أسوأ كوابيسهم: خصم ذاتي التمويـل متخم الجيوب كان اسمه بلير هـول، باع نشاطه التجاري المـالي إلى غولدمان ساكس قبل بضـع سنوات بمبلغ 531 مليون دولار. ومما لا شك فيه أنه امتلك رغبة حقيقية، وإن لم تكن محددة، في خدمة وطنـه، وكان وفقا لجميع المعايير رجلا لامعـا ذكيا. لكنه عانى خجلا مؤلما في الحملة الانتخابيـة، وبـدا من أسلوبه الغريب الجواني وكأنه أمضـى معظم عمره وحيدا أمام شاشة الكمبيوتر. وأحسب أنه مثل الكثيرين، ظن أن السياسي ـ خلافا للطبيب أو قائد الطائـرة أو السبـاك ـ لا يتطلب خبرة خاصة في أي شـيء نافع، وأن رجل أعمال مثله قـادر علـى الأداء والإنجاز على الأقل بمستوى، وربما أفضـل من أي سياسي محترف شاهده على شاشة التلفزيون. في الحقيقة، عد السيد هول تضلعه من الأرقام مصدر نفع وقوة لا يقدر بثمن: في إحدى مراحل الحملة كشف أمام أحد المراسلين عن معادلة رياضية وضعها للفوز في الحملات الانتخابية، خوارزمية تبدأ على النحو التالي:

الاحتمـال = 1/ (1+ المصروفات (-1× (- 3,9659056 + (ثقل الانتخابات العامة × 1,92380219)...

وتنتهي بعدد من العوامل التي يتعذر فك شيفرتها.

جعـل ذلك كلـه من السهل إلحاق الهزيمـة بمنافسي السيد هول ـــ لكن في صباح أحـد أيـام شهر أبريـل أو مايو، حين خرجت مـن المرأب الدائـري في المجمع السكني حيـث أقيم وتوجهـت نحو المكتب، استقبلني صف خلف صف مـن اللافتات القماشية الكبـيرة الملونة بالأحمر والأبيض والأزرق، كتـب عليها: بلير هول إلى مجلس الشيوخ.

شاهـدت اللافتات على امتداد خمسـة أميال في كل شارع وكل طريق سريع وكل اتجاه وركـن، على واجهات محلات الحلاقة وعلى الأبنية المهجورة وأمام مواقف الحافلات وخلف طاولات متاجر البقالة ـ لافتات هول انتشرت في كل مكان، مثل زهور الربيع في حقل أخضر.

هنالـك قول شائع في ميدان السياسة في الينوي: «اللافتات لا تدلي بأصواتها»، أي أنـك لا تستطيـع الحكم على نتيجة السباق الانتخابي من عدد لافتات المرشح. لكن لم يشاهد أحـد في الينوي خلال مسار الحملات الانتخابية مثل هذا العدد من اللافتات واللوحـات الإعلانية التي وضعها السيد هول في يوم واحد، أو الكفاءة المرعبة لطاقمه من العمال المأجورين في وضع ورفع لافتات هول في حدائق جميع البيوت خلال أمسية واحـدة. بدأنا نقرأ عن زعمـاء بعض أحياء السود الذين قرروا فجـأة أن السيد هول هـو المدافع عن الأحيـاء الداخلية في المدن، وبعض الزعمـاء في أقاصي الولاية الذين امتدحوا دعم السيد هول للمزارع العائلية. ثم هناك الإعلانات الدعائية التلفزيونية، التـي استمـرت ستة أشهر كاملة حتى يـوم الانتخابات، على كل محطـة في كل أرجاء الولاية على مدار الساعة ـ بلير هول مع المسنين، بلير هول مع الأطفال، بلير هول على استعـداد لإنقاذ واشنطن من هيمنة المصالح الخاصـة. وبحلول كانون الثاني/ يناير 2004، احتـل المركز الأول في استطلاعات الرأي، وبدأ أنصاري يتصلون بي مطالبين بإلحاح أن أفعل شيئا، وأن أظهر على شاشة التلفزيون فورا وإلا سيضيع كل شيء.

مـاذا كان بمقدوري أن أفعل؟ قلت مفسرا: إن صافي الموجودات لدي سلبي، وذلك خلافا للسيد هول. وفي حالة حدوث أفضل السيناريوهات، فإن حملتنا لديها ما يكفي مـن المال للاستمـرار أربعة أسابيع بالضبط من الإعلانـات التلفزيونية، وبسبب هذه الحقيقـة، فإن من غير المنطقي أن ننفق ميزانية الحملة كلها في شهر آب/ أغسطس. كنـت أقول للأنصار والمؤيديـن: عليكم التحلي بالصبر. تشبثوا بالثقة. لا تدعوا الهلع يسيطر عليكم، ثم أقفل خط الهاتف، وأنظر عبر النافذة، فأشاهد عربة الدعاية التي يتجـول بها هول في أرجاء الولاية، كبيرة كالباخرة التـي تمخر عباب المحيط، وأسأل نفسي هل حان الوقت للهلع.

كنت أكثر حظا من معظم المرشحين في مثل هذه الظروف. فلسبب من الأسباب بدأت حملتي تولد تلك السمة الغامضة المراوغة المميزة للزخم والأزيز؛ وأصبح من الدارج أن يروج المتبرعون الأثرياء قضيتي، في حين بدأ المتبرعون الأقل ثراء يرسلون «شيكاتهم» عبر الإنترنت بوتيرة لم نتوقعها أبدا. والمفارقة أن الحصان الأسود الذي مثلته وفر لي الحماية من أخطر الشراك والمآزق المصاحبة لجمع التبرعات: معظم لجان العمل السياسي في الشركات تجنبتني، ولم أكن مدينا لها بشيء؛ والقلة التي عبرت فعلا عن دعمها، مثل عصبة الناخبين المحافظين، كانت تمثل نمطيا القضايا التي آمنت بها وناضلنا من أجلها طويلا. ما زال السيد هول يتفوق علي في مجال الإنفاق بنسبة ستة إلى واحد. لكن يعود إليه فضل عدم عرض أي إعلان دعائي سلبي ضدي (وربما شعر بالندم لذلك). النقاط التي حصلت عليها في استطلاعات الرأي ظلت ضمن مسافة قريبة من نقاطه، وفي الأسابيع الأخيرة من الحملة، حين بدأت دعايتي التلفزيونية ونقاطي بالارتفاع، تفجرت حملته عندما ظهرت مزاعم تشير إلى شجار عنيف مع زوجته السابقة.

وهكذا، لم يمثل الافتقار إلى الثروة أو دعم وتأييد الشركات المهمة حاجزا حال بيني وبين النصر. ومع ذلك، لا أستطيع الافتراض أن السعي إلى المال لم يغيرني بطريقة ما. من المؤكد أنه استأصل أي إحساس بالخجل عانيته ذات مرة عند الطلب من الغرباء التبرع بمبالغ مالية كبيرة. وبحلول نهاية الحملة، غابت المضايقة والهذر اللذان صاحبا ذات مرة اتصالاتي الهاتفية التوسلية. دخلت المعمعة وحاولت رفض الإجابة بلا.

لكن ما أقلقني تغيير آخر. فقد وجدت نفسي أقضي وقتا متزايدا مع الأغنياء والنافذين ـ وشركاء في المؤسسات القانونية، ومسؤولي بنوك الاستثمار، ومديري صناديق التحوط، ورأسماليين من أصحاب المشروعات التجارية. على وجه العموم كانوا أذكياء وبارعين ومثيرين للاهتمام، ومتضلعين من السياسة العامة، وليبراليين في سياستهم، ولا ينتظرون أكثر من أن تسمع آراؤهم مقابل أموالهم. لكنهم عبروا، بطريقة موحدة تقريبا، عن وجهات نظر طبقتهم: نسبة الواحد

بالمائــة من أصحاب أعلى دخـل، القادرين على دفع ألفي دولار إلى مرشح سياسي. كانــوا يؤمنون بالسوق الحر والنظام التعليمي القائم على الكفاءة والأهلية والقدرة (لا علــى المزايا الطبقية أو المالية)؛ وصعــب عليهم تخيل وجود أي آفة اجتماعية لا يمكــن معالجتها بالدرجات العاليــة في اختبار دخول الجامعــة. وعيل صبرهم من السياسة الحمائيــة، وعدوا النقابات متعبة ومسببة للمشكلات، وتعاطفوا على نحو خاص مع الذين تأثرت حياتهم تأثرا جذريــا بحركة رأس المال العالمية. ومعظمهم من المؤيدين العنيدين لإباحة الإجهاض وضبط السلاح، وتراودهم شكوك غامضة حول العاطفة الدينية العميقة.

وعلى الرغم من تلاقي وجهات نظرنا تجاه العالم بطرق عديدة ـ درسنا في المدارس ذاتها، وقرأنا الكتب نفسها، وشعرنا بالقلق نفسه على أولادنا ـ إلا أنني وجدت نفسي أتجنب بعض الموضوعات خلال الحوار معهم، محاولا إخفاء الخلافات المحتملة، وتوقع آمالهــم وطموحاتهم. في القضايــا الجوهرية كنت صريحا ومباشرا؛ لم أواجه مشكلة في إبلاغهــم بــأن التخفيضات الضريبيــة التي تلقوها من جورج بوش يجب عكسها. وكنت أحاول بقدر ما أستطيع أن أتقاسم معهم وجهات النظر التي سمعتها من شرائح أخرى من الناخبين: الدور المشروع للدين في السياسة، مثلا، أو المدلول الثقافي العميق للسلاح في المناطق الريفية من الولاية.

ومــع ذلك، أعرف أنني أصبحت، كعاقبة لجمــع التبرعات، أكثر شبها بالمتبرعين الأثريــاء الذين التقيت بهم، بمعنى أنني قضيت مزيدا مــن الوقت بعيدا عن الكفاح، خــارج عالم الجوع والإحباط والخوف والتهور واللاعقلانية، عالم المشقة التي يعانيها 99% مــن الســكان الآخريــن ـ أي عالم النــاس الذين دخلت الحيــاة العامة من أجل خدمتهــم. وبطريقــة أو بأخــرى، أظــن أن هذا يصدق علــى أعضاء مجلــس الشيوخ جميعــا: كلمــا طال عهدك بالعضويــة، ضاق مدى تفاعلاتك. لربمــا تحاول منع ذلك عبر الاجتماعات مع الأهالي المحليين وجولات الإصغاء والاستماع للمواطنين والتوقف في الأحياء القديمة. لكن جدول مواعيدك يملي عليك أن تتحرك في مدار مختلف عن معظم الناس الذين تمثلهم.

ومع اقتراب السباق التالي، ربما يدعوك صوت جواني قائلا: ليس من الضروري أن تعاني مرة أخرى كل شقاء وعذاب جمع المبالغ الصغيرة من المال. وتدرك أنك فقدت السمة التي ميزتك في البداية؛ الوجه الجديد؛ وأنك لم تغير شيئا في واشنطن، وجلبت التعاسة للعديد من الناس بالتصويت في المجلس. السبيل السهل القليل العقبات - عملية جمع التبرعات التي تنظمها المصالح الخاصة، ولجان العمل السياسي في الشركات، وجماعات الضغط النافذة - يلوح لك مغويا ومغريا إلى أبعد حد، وإذا تعارضت آراء هؤلاء الخبراء والمطلعين على بواطن الأمور مع الآراء التي تبنيتها ذات مرة، تتعلم عقلنة وترشيد التغيرات بوصفها أمرا يتعلق بالواقعية والتسوية وفهم الإجراءات الروتينية المتبعة. أما مشكلات الناس العاديين، وأصوات بلدات المناطق الصناعية أو المناطق الداخلية التي تعاني الانحسار والانحطاط، فتغدو صدى بعيدا لا واقعا ملموسا، تجريدات نظرية يجب إدارتها لا معارك يجب خوض غمارها.

هناك قوى أخرى تؤثر في عضو الشيوخ. فعلى الرغم من أهمية المال في الحملات الانتخابية، إلا أن جمع التبرعات وحده لا يضع المرشح على القمة. فإذا أردت أن تربح في السياسة — أو إذا لم ترد أن تخسر - فإن للجماعات المنظمة أهمية النقد السائل، خصوصا في الانتخابات التمهيدية التي لم تحقق النجاح المطلوب، في عالم يعاد رسم خريطته السياسية ويقسم ناخبوه، لأنها تعد أهم سباق يواجه أي مرشح. قلة من الناس يملكون الوقت الكافي هذه الأيام أو الميل للتطوع في حملة سياسية، خصوصا وأن المهمات اليومية للعمل في الحملة الانتخابية تشمل لعق مغلفات الرسائل ودق الأبواب، لا كتابة مسودات الخطب أو ابتكار أفكار عظيمة. ولذلك، إذا كنت مرشحا بحاجة إلى مساعدين سياسيين أو قوائم بالناخبين، عليك أن تذهب إلى الجماعات المنظمة. يعني ذلك للديمقراطيين النقابات والجماعات البيئية والمؤيدة لإباحة الإجهاض. وللجمهوريين اليمين الديني، وغرف التجارة المحلية، وجمعيات الأسلحة الوطنية، والمنظمات المناهضة لزيادة الضرائب.

لم أشعر بالارتياح قط لتعبير «المصالح الخاصة» الذي يجمع معا شركة «اكسون موبيل»، وصناع الآجر، وجماعات الضغط المدافعة عن شركات الأدوية، وآباء الأطفال

مـن ذوي الاحتياجـات التعليميـة الخاصة. لن يتفـق معي معظم العلمـاء المختصين بالعلـوم السياسية على الأرجح، لكن ثمة فارق، برأيـي، بين جماعات الضغط المؤيدة للشـركات التي يعتمد نفوذها على المال وحده، وجماعـات مشابهة من الأفراد ـ بدءا بعمـال النسيج وهـواة الأسلحة وانتهاء بالمحاربين القدمـاء وأصحاب المزارع العائلية ـــ التـي ترصـ الصفوف معـا للدفاع عـن مصالحها؛ بـين الذين يستخدمـون القوة الاقتصاديـة لتضخيم نفوذهم السياسـي إلى درجة تتجاوز عددهـم، وأولئك الذين يكتفـون بالسعي لتجميع أصواتهم بهدف ترجيح كفة ممثليهم. المجموعة الأولى تدمر فكرة الديمقراطية ذاتها. والثانية تقبع في صميمها.

ومـع ذلك، لا يكون تأثير جماعات الضغط التمثيلية على المرشحين للمجلس كبيرا علـى الـدوام. إذ لا يمكـن الاعتماد عليهـا وحدها للحفـاظ على العضويـة الفاعلة، والإبقـاء على تدفق التبرعات، وسماع صوتك وسـط الضجيج. فهذه الجماعات التي تمارسـ تأثـيرا في السياسة ليست مصممة لترويج وتشجيـع المصلحة العامة. وهي لا تبحث عن أكثر المرشحين عمقا في التفكير أو كفاءة وأهلية أو اتساعا في الأفق لدعمه وتأييـده، بل تركز على مجموعة ضيقة من الاهتمامـات ـ المعاشات التقاعدية، مثلا، أو دعـم منتجاتها، أو تأييد قضيتهـا. وبتعبير أبسط لديها دوافع شخصية أو مصالح أنانية وتريد منك، أنت المسؤول المنتخب، أن تحرص عليها بمساعدتها.

على سبيل المثال، خلال حملتي الانتخابية التمهيدية، لا بد أنني أجبت عن خمسين استبيانا على أقل تقدير. لم يكن أي منها غامضا أو مراوغا، فقد كانت تحتوي، نمطيا، لائحـة من عشرة أسئلـة أو اثني عشر سؤالا، تتبع الخطـوط التالية: إذا انتخبت، هل تتعهد بإبطال القانون الذي أدى إلى طرد الأرامل والأيتام إلى الشارع؟.

أملـى علي ضيق الوقت الاكتفاء بالإجابة عـن الاستبيانات التي أرسلتها المنظمات القادرة فعلا على دعمي وتأييدي والموافقة على برنامجي (وفقا لسجلي في التصويت، لم أحـظ بدعـم وتأييد جمعية الأسلحـة الوطنية ولا جمعية الحـق في الحياة، مثلا)، ولذلـك أمكنني الإجابة بنعم عن معظم الأسئلة دون الشعور بالانزعاج. لكن كثيرا ما كنت أصـادف سؤالا يدعوني إلى التوقف والتأمل. فقد أوافق مع إحدى النقابات على

الحاجة إلى فرض معايير العمل والبيئة على قوانيننا التجارية، لكن هل أعتقد أن من الضروري إلغاء اتفاقية «نافتا»؟ ربما أوافق على ضرورة أن تحتل الرعاية الصحية الشاملة قمة أولويات الأمة، لكن هل يستلزم ذلك أن يمثل التعديل الدستوري أفضل طريقة لتحقيق ذلك الهدف؟ وجدت نفسي أتجنب إعطاء إجابة حاسمة عن مثل هذه الأسئلة وأشرح في الهوامش الصعوبة التي تشملها الخيارات السياسية. وكان أفراد طاقمي يهزون رؤوسهم استياء. فإعطاء إجابة خاطئة واحدة برأيهم سوف تجعل الموافقة، والعمال، واللوائح تذهب كلها إلى المنافس. وفكرت بأن إرضاءهم سيؤدي إلى وضعي في إسار نمط التطاعن الحزبي الانعكاسي الذي وعدت الناخبين بالمساعدة على إنهائه.

قل شيئا خلال الحملة الانتخابية وافعل نقيضه بعد الفوز، وستصبح سياسيا نمطيا بوجهين ولسانين.

فقدت بعض المؤيدين بسبب عدم تقديم الإجابة المرغوبة. لكن في بعض الأحيان، فاجأتنا إحدى المجموعات وأعطت موافقتها وتأييدها على الرغم من الإجابة المنفرة.

وفي أحيان أخرى لم يكن من المهم كيف تجيب عن أسئلة الاستبيان. فإضافة إلى السيد هول، كان أقوى منافس لي في الانتخابات التمهيدية لمجلس الشيوخ الأمريكي المفتش المالي لولاية الينوي، دان هاينز، وهو رجل طيب وموظف كفء كان والده رئيسا لمجلس شيوخ الولاية، ومستشارا لمقاطعة كوك، وعضوا ورئيسا للجنة الوصاية، وعضوا في اللجنة الوطنية الديمقراطية، وواحدا من أكثر الشخصيات السياسية نفوذا وصلات في الولاية. حتى قبل أن يدخل السباق، نال دان تأييد 85 من الزعماء الديمقراطيين في المقاطعات (من أصل 102)، وأغلبية زملائي في مجلس شيوخ الولاية، ومايك ماديغان الذي كان رئيسا لمجلس النواب وزعيما للحزب الديمقراطي في ولاية الينوي. أما مراجعة قائمة المؤيدين على موقع دان على الشبكة الإلكترونية فتشبه مشاهدة لائحة الأسماء التي يقدم لها المخرج الشكر في نهاية فيلمه السينمائي ـ طويلة إلى حد أنك تمل، فتغادر الصالة قبل أن تنتهي!

علـى الرغم من ذلك كله، تشبثـت بأمل الحصول على بعضـ التأييد والمناصرة، خصوصا من المنظمات العمالية. فقد بقيت طوال سبع سنين حليفها في مجلس شيوخ الولاية، ورعيت العديد من مشروعات قوانينها ودافعت عن قضيتها في المجلس. عرفت أن اتحـاد العمـال الأمريكي ومجلـس المنظمـات الصناعية أيد أولئـك الذين تمتعوا بسجـل مؤثر من التصويـت لصالحهما. لكن مع استمرار الحملـة بدأت تحدث أمور غريبـة وغير عادية. فقد عقـد سائقو الشاحنات جلسة التأييد والمصادقة في شيكاغو في اليـوم الذي كان علي الذهـاب إلى سبرينغفيلد للتصويـت؛ ورفضوا تغيير الموعد، فحصل السيد هاينز علـى تأييدهم وموافقتهم حتى دون الاستماع إلي. وعند حضور حفل عمالي خلال معرض ولاية الينوي، أبلغنا بحظر لافتات الحملات الانتخابية؛ وما إن وصلنا أنا وطاقم المساعدين، حتى اكتشفنا أن صور وملصقات هاينز تملأ القاعة. وفي أمسيـة جلسـة اتحاد العمال الأمريكي ومجلس المنظمـات الصناعية، لاحظت أن عـددا من أصدقائي العماليين يتجنبون النظـر إلي عندما دخلنا القاعة. فتقدم رجل عجوز يرأس واحدا من أكبر فروع الاتحاد المحلية وربت ظهري.

قال وعلى وجهه ابتسامة آسفة: «ليس في الأمر شيء شخصي. فالعلاقة بيني وبين تـوم هاينز تعود إلى خمسين عامـا. نشأنا في الحي ذاته وننتمي إلى الأبرشية نفسها. لقد شاهدت بعيني داني ينمو ويكبر».

قلت له: إنني أتفهم موقفه.

«ربما يمكنك أن تحل محل داني حين ينتقل إلى المجلس، ما رأيك؟ ستكون مراقبا ماليا ممتازا»

ذهبـت إلى مساعـدي وأخبرتهم بأننا لن نحظى بموافقـة وتأييد الاتحاد العمالي ومجلس المنظمات الصناعية.

مـرة أخرى تحسنت الأمور. فقـد انشق زعماء عدد من أكـبر نقابات العاملين في الخدمـات ـ اتحـاد الينوي للمدرسين والنقابات الممثلة للعاملـين في النسيج والفنادق وخدمـات الأطعمة الجاهزة ـ واختاروا تأييـدي بدلا من هاينز، وثبت أن دعمهم كان

حاسما في إعطاء حملتي بعض الثقل والأهمية. كانت مخاطرة من جانبهم؛ فلو خسرت، فستدفع هذه النقابات الثمن وتفقد مصداقيتها وتأييد أعضائها.

ولذلك أدين بالفضل لهذه النقابات. حين يتصل بي زعماؤها أبذل قصارى جهدي للاتصال بهم فورا. ولا أعد ذلك أمرا مفسدا بأي حال؛ فلا مانع عندي من الشعور بالالتزام تجاه العاملين في الرعاية الصحية المنزلية الذين ينظفون مبولات المرضى كل يوم مقابل أجر لا يتجاوز الحد الأدنى كثيرا، أو تجاه المدرسين في بعض من أصعب وأقسى المدارس في البلاد، وبعضهم يضطر لشراء الأقلام والدفاتر لطلابهم من جيبهم الخاص في بداية كل عام دراسي. لقد دخلت معترك السياسة دفاعا عن هؤلاء المواطنين ويسرني أن تذكرني النقابة بكفاحهم ومعاناتهم.

لكنني أعرف أيضا أن هذه الالتزامات والواجبات سوف تتصادم يوما ما مع التزامات وواجبات أخرى ـ تجاه أطفال الأحياء الداخلية غير القادرين على القراءة مثلا، والأطفال الذين لم يولدوا بعد ومع ذلك تثقلهم الديون، وبدأت تظهر آثارها ــ اقترحت مثلا دفع علاوات إضافية للمدرسين، وطالبت برفع كفاءة معايير إنتاج الطاقة إلى أفضل معدل فيما يتعلق بحجم الوقود المستهلك، على الرغم من معارضة أصدقائي في اتحاد العاملين في صناعة السيارات. أحب أن أقول لنفسي إنني سأستمر في موازنة القضايا وفقا لجدارتها ـ مثلما آمل أن يوازن منافسي الجمهوري التعهد بعدم فرض ضرائب جديدة أو معارضة أبحاث الخلايا الجذعية الذي أطلقه قبل الانتخابات في ضوء ما هو أفضل للوطن ككل، بغض النظر عما يطلبه أنصاره ومؤيدوه. آمل أن أستطيع دوما مقابلة أصدقائي النقابيين وشرح السبب المنطقي وراء موقفي، وكيف يتسق وينسجم مع قيمي ومبادئي ومصالحهم على المدى الطويل.

لكن أظن أن الزعماء النقابيين لن يروا الأمور دوما بهذه الطريقة. فلربما يأتي زمن يعدون موقفي خيانة. وينبهون الأعضاء إلى أنني بعت قضيتهم. وقد أتلقى رسائل حانقة واتصالات هاتفية غاضبة. وربما لن يؤيدوا ترشيحي في المرة القادمة.

إذا تكرر حدوث ذلك فربما تخسر السباق لأنك أغضبت ناخبين مهمين، أو تجد أنك تدافع عن نفسك أمام هجوم يشنه عليك متحد جديد يتهمك بالخيانة،

فتبـدأ بخسارة شجاعتك على المواجهة. فتسـأل نفسك ما الذي يمليه الضمير الحي بالضبـط: أن تتجنب السقوط في شـرك «المصالح الخاصة»أم تتفـادى الإساءة إلى أصدقائك؟ الجواب ليس واضحا. ولذلك تبدأ التصويت كما لو كنت تجيب عن أسئلة استبيـان. ولا تفكـر بمواقفك بشكل متعمق قبـل اتخاذ القرار. بل تضـع إشارة على مربع نعم وتتابع العملية.

السياسيـون يقعون في أسر المتبرعين الأثرياء أو يخضعون لنفوذ جماعات الضغط التمثيليـة ـ تلك هـي العبارة الثابتـة في التقارير المتعلقة بالسياسـة المعاصرة، حبكة الروايـة المتأصلة في كل تحليل يتناول ما أصاب ديمقراطيتنا وأين مكمن الخطأ فيها. لكن بالنسبة للسياسي الذي يقلقه أمر الحفاظ على منصبه، هنالك قوة ثالثة تدفعه وتجذبه، وتشكل طبيعة الجدل السياسي وتحدد مدى ومجال ما يستطيع وما لا يستطيع أن يفعلـه، والمواقف التي يمكنه ولا يمكنه اتخاذها. قبل أربعين أو خمسين سنة، كانت هـذه القوة مكونة من جهاز الحزب: زعماء المدن الكبرى، المختصون بتنظيم وترتيب الأمـور وتذليـل العقبات أمـام السياسيين، سماسرة السلطـة في واشنطن الذين كان بمقدورهم تحطيم الحيـاة المهنية لأي سياسي أو مسؤول بمخابرة هاتفية. هذه القوة تتجسد اليوم في وسائل الإعلام.

ثمة اعتراض هنا: طوال مدة ثلاث سنوات، منذ أعلنت ترشيحي لمجلس الشيوخ حتى انتهـاء عامي الأول كعضو فيه، استفدت من متابعـة صحفية إيجابية غير عادية، وغير مستحقة في بعض الأحيان. ومما لا شك فيه أن جزءا من ذلك يعود إلى استبعاد فوزي في الانتخابات التمهيدية، إضافة إلى كوني مرشحا أسود له خلفية غريبة. ولربما لذلك علاقـة بأسلوبي الاتصالي، الذي يمكن أن يصبح استطراديا ومترددا ومسهبا (وكثيرا ما ذكرني المساعدون وميشيل بذلك)، لكن ربما استقطب تعاطف الطبقة المثقفة.

فضـلا عـن ذلك، حتى حـين أظهر في نهايـة القصص السلبية، تميـز المراسلون السياسيـون الذين تعاملت معهم بالصراحة والصدق والاستقامة في السلوك عموما. فقـد كانوا يسجلون أحاديثنـا، ويحاولون تقديم سياق العبـارات والبيانات التي أدلي بها، ويتصلون بي للحصول على رد كلما تعرضت للانتقاد.

إذن، علــى الصعيد الشخصي على الأقل، ليس لدي سبب للشكوى أو التذمر. لكن ذلك لا يعني أنني قادر على تجاهل الصحافة. لأنني شاهدت بأم عيني كيف وضعتني في قالــب يصعــب الارتقاء إلى مستــواه، وأدركت مدى السرعة التــي يمكن فيها لهذه العملية أن تشتغل بالاتجاه المعاكس.

الحســاب البسيط يفسر كل شيء. في الاجتماعــات التسعة والثلاثين التي عقدتها مــع الأهالي المحليين خلال عامي الأول في الكونغرس، تــراوح معدل عدد الحضور في كل اجتماع بين 400 ـ 500 شخص، وهذا يعني أنني تمكنت من الالتقاء بزهاء خمسة عشــر ألفا أو عشرين ألف شخص. وإذا حافظت على هذه الوتيرة خلال المدة الباقية لي في المجلس، فسوف أقابل بشكل مباشر وشخصي قرابة خمسة وتسعين ألفا أو مائة ألف شخص من الناخبين بحلول موعد الانتخابات.

وبالمقابل، يمكن لإعلان مدته ثلاث دقائق على أرخص محطة إخبارية محلية في شيكاغــو أن يصل إلى مئتي ألف شخص. بكلمات أخرى، أعتمد اعتمادا كليا تقريبا، مثــل كل سياسي على المستــوى الاتحادي، على وسائل الإعلام للوصول إلى الناخبين. فهــي المصفاة المرشحــة التي تفسر عبرها الأصوات التــي أدلي بها، وتحلل العبارات والبيانــات التي أعلنها، وتفحصــص المعتقدات التي أؤمن بها. فمــا يتعلق بعامة الناس علــى الأقل، أنــا أكون على الصورة التي ترسمها وسائــل الإعلام لي. وأقول ما تقوله عني.

يأتي تأثير وسائل الإعلام في سياستنا بصيغ وأشكال شتى. أما ما يحظى بالاهتمام الأكــبر في هــذه الأيام فهو نمــو الصحافة الحزبيــة التي لا تعرف الخجــل أو التردد: الأحاديث الإذاعية، «فوكس نيوز»، افتتاحيات الصحف، برامج المقابلات مع الضيوف في المحطــات الكبليــة، وأخــيرا مواقع المدونــات (blogger) على الإنترنــت، وجميعها تتبــادل الشتائم والسباب والاتهامات والشائعات طوال أربع وعشرين ساعة في اليوم، وسبعــة أيام في الأسبوع. ومثلما لاحظ الكثيرون، فإن هذا الأسلوب من صحافة الرأي ليس جديدا فعلا؛ فهو يعلّم بطرق عديدة على عودة إلى التقليد المهيمن في الصحافة الأمريكية، مقاربة للأخبار رعاها وغذاها ناشرون من أمثال وليام راندولف هيرست

والكولونيل مكورميك، قبل ظهور فكرة الصحافة الموضوعية «المعقمة» بعد الحرب العالمية الثانية.

ومع ذلك، يصعب إنكار حقيقة أن الغضب والصخب، وتضخمهما عبر التلفزيون والإنترنت، يزيدان خشونة وفظاظة وابتذال الثقافة السياسية، ويهيجان المشاعر ويساعدان على تنامي الشك والريبة. ويمكن للنقد اللاذع القارس المتواصل أن ينهك الروح ويرهق النفس، بغض النظر هل نعترف نحن السياسيون بذلك أم لا. ومن الغريب أن التهجم الوقح والفظ لا يثير القلق كثيرا؛ فإذا استمتع مستمعو روش لامبرت حين يدعوني «أسامة أوباما»، فإن موقفي هو: دعهم يستمتعون. لكن المنتقدين الأكثر تعقيدا وتطورا هم القادرون على اللسع والإيذاء، لأن لديهم مصداقية أكبر أمام الرأي العام من ناحية، وبسبب مهارتهم في الرد على كلماتك وجعلك تبدو كالمغفل، من ناحية أخرى.

على سبيل المثال، ألقيت خطبة مدتها خمس دقائق في نيسان/ أبريل 2005، في برنامج بمناسبة افتتاح مكتبة لينكولن الرئاسية الجديدة في سبرينغفيلد، قلت فيها إن إنسانية ابراهام لينكولن، ولا عصمته، هما من السمات والخصال التي جعلته مقنعا ومفحما إلى هذه الدرجة. وأضفت في جزء من ملاحظاتي إن «في نهوض لينكولن من الفقر، ودراسته الخاصة خارج المدارس والجامعات، وتضلعه في نهاية المطاف من اللغة والقانون، وفي قدرته على مغالبة الخسارة الشخصية والحفاظ على التصميم والإرادة في مواجهة الهزائم المتكررة ـ في ذلك كله، نرى عنصرا جوهريا للشخصية الأمريكية، إيمانا بأننا قادرون باستمرار على إعادة صنع أنفسنا لتناسب أحلامنا الكبرى»

بعد بضعة شهور، سألني محرر مجلة «تايم»إن كنت مهتما بكتابة مقالة في عددها الخاص عن لينكولن. لم يكن لدي وقت لكتابة شيء جديد، لذلك سألت محرري المجلة هل يقبلون نشر خطبتي. وافقوا لكن مع إضافة بعض اللمسات الشخصية ـ التطرق مثلا إلى تأثير لينكولن في حياتي. وتمكنت بين اللقاءات والاجتماعات من إضافة بعض التغييرات على عجل. الفقرة السابقة مثلا أصبحت: «في نهوض لينكولن من الفقر،

وتضلعه في نهاية المطاف من اللغة والقانون، وقدرته على مغالبة الخسارة الشخصية، والحفاظ على التصميم والإرادة في مواجهة الهزائم المتكررة ـ في ذلك كله، لم يكتف بتذكيري بنضالي وكفاحي فقط..».

ما إن ظهرت المقالة، حتى جاء الرد من بيغي نونان، كاتبة خطب رونالد ريغان، والصحفية في «وول ستريت جورنال» ففي مقالة بعنوان «غرور وتباهي الحكومة»، كتبت تقول: «في هذا الأسبوع يأتي السيناتور الحذر سابقا، باراك أوباما، ليرفرف بجناحيه في مجلة تايم ويؤكد أنه يشبه كثيرا ابراهام لينكولن، بل أفضل منه» ثم أضافت: «لا عيب في سيرة باراك أوباما، لكنها منطقة حرة من الأكواخ الخشبية*. وهي حتى الآن منطقة حرة من العظمة أيضا. ولو استمر في الحديث عن نفسه على هذا النحو فسوف تكون كذلك على الدوام».

أوه!

بالطبع، يصعب معرفة هل ظنت السيدة نونان فعلا أنني أقارن نفسي بلينكولن، أم هل استمتعت بمهاجمتي بهذا الأسلوب الرشيق البليغ. ووفقا لمعايير الانتقادات الصحفية، كانت المقالة معتدلة ـ ولم تكن دون وجه حق كليا.

ومع ذلك، تذكرت ما يعرفه المتمرسون من زملائي ـ كل عبارة أقولها تخضع للفحص والسبر والتدقيق والتشريح والتحليل من الخبراء والمطلعين والعارفين، وتفسر بأساليب خارجة عن سيطرتي، وتمشط بحثا عن الأخطاء المحتملة أو العبارات المغلوطة أو الحذف والإغفال أو التناقضات التي يسجلها الحزب المعارض لتظهر في إعلان تلفزيوني كريه فيما بعد. في بيئة يمكن فيها لملاحظة طائشة واحدة أن تولد سمعة سيئة لا تمحوها سنوات من السياسات الحصيفة والمتروية، يجب ألا يفاجئني أن تستقصى الدعابات والنكات في «كابيتول هيل»، ويشتبه بالسخرية والمفارقة، وترفض التلقائية والعفوية، وتعد العاطفة الجياشة انفعالا محفوفا بالخطر. بدأت أتساءل عن المدة التي يحتاجها السياسي لجعل ذلك كله جزءا من ذاته؛ قبل أن تسكن لجنة

* سبعة من الرؤساء الأمريكيين (بينهم لينكولن) ولدوا في أكواخ خشبية. ثم تحول الكوخ الخشبي إلى رمز يمثل الارتباط بالشعب، بل أطلق الجمهوريون على أنفسهم اسم «جمهوريي الأكواخ الخشبية». (م)

الكتـاب والمحررين والرقباء في جمجمته؛ قبل أن تـدون اللحظات «الخفية»، بحيث لا يغص أو يكح أو يعبر عن غضبه إلا في اللحظة المناسبة.

كم سأحتاج من وقت كي أبدو كالسياسي؟

هنالـك درسـ آخر يجب تعلمـه: حالما ضربت السيـدة نونان ضربتهـا، انتشرت مقالتهـا عبر الإنترنت كالنـار في الهشيم، وظهرت على كل موقـع يميني على الويب كدليـل يثبت كم أنـا متغطرس ومغفـل وسطحي (ظهر على هذه المواقـع الاستشهاد الذي انتقته السيـدة نونان فقط، لا المقالة ذاتها). وبهذا المعنى، ألمحت الحادثة إلى جانـب أكثر مكرا وضـررا في وسائل الإعلام الحديثة ـ كيـف يمكن لحكاية سردية، تتكـرر مـرارا وتلقـى في الفضاء الإلكـتروني لتنطلـق بسرعة الضـوء، أن تصبح في نهايـة المطاف حقيقة راسخة لا شـك في صحتها؛ وكيف تستقر الصور الكاريكاتورية السياسيـة وشـذرات الحكمة التقليديـة في أدمغتنا دون أن نجد حتـى الوقت الكافي لتفحصها.

علـى سبيل المثـال، يصعب العثور على أي إشـارة إلى الديمقراطيين هذه الأيام لا تلمـح إلى أننـا «ضعفاء» و«لا نمثل شيئـا» في حين أن الجمهوريين، مـن ناحية أخرى، «أقويـاء» (وإن اتصفوا بشيء من الوضاعـة)، وبوش «حاسم ولا يعرف التردد» بغض النظـر عن عدد المرات التـي غير فيها رأيه. وأي تصويـت أو خطبة لهيلاري كلينتون تخـرج على النمـط المعياري تصنف فـورا في خانـة التكتيكات المحسوبـة والمراوغة؛ في حـين أن أي خطوة مماثلة مـن جانب جون مكين تلمع وتصقـل مؤهلاته المستقلة. ووفقـا لأحد المراقبين المشهورين بتهكمهـم اللاذع، يجب أن يسبق اسمي في أي مقالة عبـارة «النجم البازغ»، وكأن ذلك أصبح «قانونا ساريـا» ـ مع أن مقالة نونان وضعت الأرضيـة لحبكة روائية مختلفة وإن تكن مألوفة أيضـا: حكاية محذرة من شاب يأتي إلى واشنطـن، ويفقد صوابـه بسبب الشهرة والدعاية، ويصبـح في نهاية المطاف إما داهية يضع الخطط المحسوبة لينال بغيته أو حزبيا متشددا (إلا إذا تدبر أمر الانتقال بصورة حاسمة إلى معسكر المستقلين).

تساعد بالطبع آلة العلاقات العامة للسياسيين وحزبهم على تغذية هذه السرديات، وخلال الدورات الانتخابية الأخيرة على أقل تقدير، تفوق الجمهوريون تفوقا كبيرا على الديمقراطيين في «نظام إرسال الرسائل» هذا (وتلك كليشيه مبتذلة لكنها تنطبق علينا نحن الديمقراطيون للأسف). تلفيق الحكايات ينجح، لأن وسائل الإعلام ترحب به. فكل مراسل في واشنطن يعمل تحت ضغوط يمارسها عليه المحررون والمنتجون، الذين يتعرضون بدورهم لضغوط الناشرين أو مديري الشبكة الإعلامية، الذين تشغلهم تقويمات وتقديرات الأسبوع الماضي أو أرقام التوزيع في السنة الأخيرة، ويحاولون البقاء في ميدان يفضل فيه الناس ألعاب الكمبيوتر ومشاهدة التلفزيون. وفي سبيل صنع عناوين الأخبار والحفاظ على حصة السوق وتغذية المحطات الإخبارية الكبلية، يبدأ المراسلون التحرك على شكل جماعات، ويشتغلون على النشرات الإخبارية ذاتها، والمقالات والأرقام نفسها. وفي هذه الأثناء، لا يرفض مستهلكو الأخبار الذين تشغلهم شؤون حياتهم اليومية الروايات المبتذلة والأخبار المكررة. فهي لا تتطلب تفكيرا عميقا أو وقتا طويلا؛ لكنها سريعة وسهلة الهضم. وقبولها أمر يسير على الجميع.

يساعد عنصر السهولة والتيسير هذا أيضا في تفسير السبب الذي يجعل الموضوعية، حتى بين أشد المراسلين دقة وتمحيصا وأمانة، تعني غالبا نشر وجهات نظر الأطراف المختلفة في الجدل دون تمييز المخطئ من المصيب. القصة النمطية تبدأ عادة كما يلي: «ذكر البيت الأبيض اليوم أن من المتوقع انخفاض العجز بمقدار النصف بحلول عام 2010، على الرغم من التخفيضات الأخيرة على الضرائب» تتبع هذا التمهيد بعدئذ شواهد تقتبس من محلل ليبرالي ينتقد الأرقام التي ينشرها البيت الأبيض، ومحلل محافظ يدافع عنها. هل أحدهما أكثر مصداقية من الآخر؟ هل هناك محلل مستقل يدلنا على حقيقة الأرقام؟ من يعرف ومن يعلم؟ نادرا ما يجد المراسل الوقت الكافي لمثل هذه التفاصيل؛ القصة لا تدور فعلا حول مزايا تخفيض الضرائب أو أخطار العجز في الميزانية، بل عن الجدل الخلافي بين الحزبين. وبعد بضع فقرات، يمكن للقارئ استنتاج أن الجمهوريين والديمقراطيين يتشاجرون على التوافه مرة أخرى، فيتحول إلى صفحة الرياضة، حيث الحبكة أقل توقعا ويمكن تعرّف الرابح من الخاسر في سجل النتائج.

في الحقيقة، فإن جزءا مما يجعل تجاور وتغاير النشرات الإخبارية المتنافسة على هـذه الدرجة من الإغراء للمراسلين أنهما يغذيان ذلك الاستعداد الصحفي القديم ـ الصـراع الشخصي. فمن الصعب إنكار حقيقة أن التهذيب السياسي شهد انحطاطا وتراجعـا في العقد الماضـي، وأن الحزبين يختلفان اختلافا حادا على قضايا السياسة الكـبرى. لكن جزءا من التراجع والانحطاط على الأقل يعـود إلى حقيقة أن التهذيب يثـير الملل والسأم من وجهة نظـر الصحافة. فشاهدك لا يثير ولا ينفع إذا قلت: «أرى وجهـة نظر الآخـر» أو «القضية معقدة فعلا» لكن حاول شـن الهجوم ولن تبتعد عنك الكامـيرات. في كثـير من الأحيـان، يبذل الصحفيون مـا بوسعهم للتهييـج والإثارة، ويطرحـون أسئلـة بطريقة تستفز جوابا يثـير الغضب ويهيج المشاعـر. أحد مراسلي التلفزيـون في شيكاغو اشتهر بتلقيم محاوره الشاهـد الذي يريده بحيث تبدو المقابلة كأفلام بوت وكوستيلو التهريجية.

كان يسألني مثلا: «هل تشعر بأن قرار الحاكم أمس قد غدر بك؟».

«لا. لقد تحدثت معه، وأنا واثق من قدرتنا على حل خلافاتنا قبل نهاية الجلسات»

«طبعا.. لكن هل تشعر بأنه غدر بك؟».

«لا أحب استخدام هذه الكلمة. فوفقا لرأيه..».

«لكن ألا يعد ذلك غدرا من جانبه؟».

التلفيق، وتضخيم الخلاف، والبحث العشوائي عن الفضائح والأخطاء والعثرات ـ التأثير المتراكم لذلك كله يؤدي إلى تآكل أي معايير متفق عليها للحكم على الحقيقة. هنالـك قصة مدهشة، وربما منحولة، يتداولها النـاس عن دانييل باتريك موينيهان، السيناتور (الراحل) اللامع واللاذع والخارج على التقاليد السائدة والأعراف السائرة (من نيويورك). انخرط موينيهان على ما يبدو في جدل محتدم مع أحد زملائه حول قضيـة، فقـال الزميل دون تفكير بعـد أن استشعر أن حجة خصمـه مفحمة: «حسنا، ربمـا لا توافقنـي، لكنني ملتزم رأيي»،فـرد عليه موينيهان ببرود «أنـت ملتزم رأيك، لكنك لا تلتزم حقائقك».

لم يعد توكيد موينيهان ساري المفعول. لم يعد لدينا مثل هذه الشخصيات المرجعية، لا والتر كرونكايت ولا إدوارد مورو، نستمع جميعا إليهما ونثق بقدرتهما على فرز الدعاوى المتناقضة والمزاعم المتضاربة. بدلا من ذلك، هنالك وسائل الإعلام المتشظية إلى ألف قطعة، لكل منها نسختها الخاصة عن الحقيقة والواقع، وكل منها يزعم الولاء والإخلاص لأمة منقسمة ومتشظية. فاعتمادا على منظورك المفضل يعد تسارع تغير المناخ العالمي خطرا أو غير محفوف بالخطر؛ والعجز في الميزانية يتضخم أو يتقلص.

والظاهرة ليست مقصورة على التقارير الإعلامية المتعلقة بالقضايا والمسائل المعقدة. ففي أوائل عام 2005، نشرت مجلة «نيوزويك» مزاعم تقول إن السجانين والمحققين الأمريكيين في معسكر غوانتانامو استفزوا المعتقلين وأساؤوا معاملتهم بطرق عديدة، منها رمي المصحف في المرحاض. البيت الأبيض أصر بعناد على أن القصة لا أساس لها من الصحة. وفي غياب الأدلة الدامغة وفي أعقاب الاحتجاجات العنيفة في باكستان على ما نشر، اضطرت المجلة إلى تكذيب نفسها بنفسها والتراجع عن الخبر. لكن بعد عدة شهور، أصدر البنتاغون تقريرا أشار إلى أن بعض السجانين والمحققين الأمريكيين في غوانتانامو مارسوا في عدد من الحالات نشاطا غير لائق ـــ شمل قيام إحدى المجندات الأمريكيات بتلطيخ وجوه المعتقلين بدم الحيض كما زعمت خلال الاستجواب، وفي إحدى المناسبات على الأقل تبول أحد الحراس على القرآن وعلى أحد الأسرى. فانبرت «فوكس نيوز» للدفاع في أصيل ذلك اليوم: «لم يجد البنتاغون دليلا يثبت رمي القرآن في المرحاض».

أعرف أن الحقائق وحدها لا يمكن حل نزاعاتنا وخلافاتنا السياسية. فآراؤنا فيما يتعلق بالإجهاض مثلا لا يقررها علم تطور الأجنة، وحكمنا فيما يتصل بهل/ ومتى نسحب جنودنا من العراق مؤسس بالضرورة على الاحتمالات. لكن في بعض الأحيان هنالك أجوبة أكثر أو أقل دقة؛ وأحيانا هنالك حقائق لا يمكن تلفيقها أو تحريفها، فإثبات الحجة على أن المطر يهطل لا يحتاج إلا إلى الخروج إلى الهواء الطلق. أما غياب حتى شبه الاتفاق على الحقائق فيساوي بين الآراء، ويلغي بذلك

أسس التسويات الحصيفة. ولا يكافئ المصيبين، بل أولئك الذين يجعلون حجتهم أكثر صخبا وضجيجا وتكرارا وعنادا، مع أفضل ستارة في الخلفية (مثل العاملين في المكتب الصحفي للبيت الأبيض).

يفهم السياسي اليوم ذلك كله. لربما لا يكذب متعمدا، لكنه يعرف أن الصادقين لا ينالون مكافآت عظيمة على صدقهم، خصوصا حين تكون الحقيقة معقدة أو جارحة. فقد تسبب الحقيقة الفزع والانزعاج؛ وتستفز الهجوم والانتقاد؛ ولن تتحلى وسائل الإعلام بالصبر لفرز الحقائق كلها، ولذلك لن يعرف عامة الناس الفارق المميز بين الحقيقة والكذب. ما يهم آنئذ هو الموقف ـ البيان المعلن حول قضية بحيث يتجنب الجدل الخلافي أو يولد الدعاية المطلوبة، الموقف الذي يناسب الصورة المرسومة للسياسي التي روجها مسؤولو المكتب الصحفي ويلائم إحدى الروايات التي ابتكرتها وسائل الإعلام للسياسية عموما. قد يصر السياسي، بسبب استقامته ونزاهته، على قول الحقيقة كما يراها. لكنه يعرف أن إيمانه الفعلي بمواقفه أقل أهمية من الصورة الظاهرية لإيمانه أمام الملأ؛ وأن الكلام الصريح المباشر أقل أهمية من الصورة التي يبدو عليها على شاشة التلفزيون.

أعرف من مشاهداتي أن هنالك عددا لا يحصى من السياسيين الذين تجاوزوا هذه العقبات وحافظوا على استقامتهم ونزاهتهم وصدقهم، رجال ونساء جمعوا مساهمات وتبرعات الحملات الانتخابية دون أن يصيبهم الفساد بآفته، وحصلوا على الدعم والتأييد دون أن تأسرهم المصالح الخاصة، وتعاملوا مع وسائل الإعلام دون خسارة إحساسهم بالذات. لكن ثمة عقبة أخيرة، لا يمكنك تجنبها كلية ما أن تستقر في واشنطن، عقبة تجعل قسما كبيرا على الأقل من ناخبيك يسيؤون الظن بك ـ ألا وهي الطبيعة غير المرضية تماما للعملية التشريعية.

لا أعرف عضوا واحدا في المجلس لا يعاني باستمرار قلقا من التصويت على القرارات ومشروعات القوانين. هنالك أوقات يشعر فيها أن تشريعا معينا يعد صائبا بوضوح لا لبس فيه ولا يحتاج إلى جدل كبير (يخطر على البال هنا تعديل جون مكين الذي يحظر التعذيب بواسطة الحكومة الأمريكية). في أوقات أخرى، يبدو

مشـروع قانون معين في قاعة المجلس أحـادي الجانب بشكل سافر، أو هزيل الصياغة والتصميم إلى حد يتساءل عنده المرء كيف يمكن لمن يقدمه ويرعاه أن يخفي أمارات التأثر وحتى الابتسام خلال الجدل حوله.

لكـن في معظـم الأوقـات، يكـون التشريع خلطـة عكرة، نتـاج مئة مـن التسويات والتنـازلات الصغيرة والكبـيرة، توليفة تجمع أهداف السياسـة المشروعة، والمساعي لجذب التأييد والاهتمام، والخطط التنظيمية المتعجلة والمرتجلة، والأساليب القديمة القائمـة على استمالة الأعضاء وإغراء الناخبين والحصول على تأييدهم. في كثير من الأحيـان، حين كنت أقرأ مشروعات القوانين المعروضة على المجلس في الأشهر القليلة الأولى مـن انتخابي، واجهتني حقيقة أن الأمـور المبدأية والأخلاقية أقل وضوحا مما حسبـت؛ وأن التصويـت بنعم أو لا سيخلـف شيئا من الندم والأسـف في نفسي. فهل أصوت لمصلحة مشروع قانون الطاقة الذي يشمل الشرط الذي وضعته لدعم وتشجيع إنتـاج الوقـود البديل وتحسين الوضع القائم حالياً، مـع أن ذلك ليس كافيا أبدا لمهمة تقليـل اعتمـاد أمريكا على النفـط المستورد؟ هل أصوت ضد إحـداث تغيير في قانون الهـواء النظيـف الذي سيضعـف الأنظمة والقواعد في بعض المناطـق لكن يعززها في أخـرى، ويوجد نظامـا أكثر قدرة على التوقـع لمراقبة امتثال الشـركات؟ ماذا لو زاد مشـروع القانـون التلوثَ لكن مـول تقانة الفحـم النظيف ووفر الوظائـف في المناطق الفقيرة من الينوي؟

مرة بعد أخرى أجد نفسي أدرس الأدلة وأمحص البينات، وأقارن المزايا والمثالب، بأقصـى مـا أستطيع ضمـن الوقت المحدد المتـاح. وسيبلغنـي طاقـم المساعدين أن الرسائـل البريدية والمكالمات الهاتفية منقسمة الرأي بالتساوي وأن جماعات الضغط التمثيليـة على الجانبين تسجل النقاط. ومع اقتراب ساعة التصويت، كثيرا ما أتذكر فقرة كتبها جون كنيدي قبل خمسين سنة في كتابه «سير في الشجاعة»:

> لا يوجد سوى قلة من الأشخاص (أو لا يوجد أحد على الإطلاق) يواجهون لحظة الحسـم النهائي المرعبة للقـرار كتلك التي يواجههـا عضو مجلس الشيـوخ عندمـا يجري تفقـد أسماء الأعضـاء الحاضريـن. فلربما يريد

مزيدا مـن الوقت لقـراره ـ يعتقـد أن من الضـروري قول شـيء لصالح الطرفين ـ أو أن إجراء تعديل بسيط يمكن أن يزيل جميع الصعوبات، لكنه لحظة الحسم لا يستطيع أن يختبئ أو يراوغ أو يماطل، بل يشعر أن ناخبيه يربضون، كالغراب في قصيدة آلان بو، فوق منبره ويصيحون بصوت أجش «لا تكررها أبدا» حين يدلي بالصوت الذي يغامر بمستقبله السياسي.

قد يبدو ذلك دراميا قليلا. ومع ذلك لا يوجد عضو في مجلس الشيوخ، على مستوى الولايـة أو المستـوى الاتحادي، محصن من مثـل هذه اللحظات الصعبة ــ وهي أسوأ وأشـد صعوبة حين يكـون الحزب في المعارضة. فحين تكون عضوا في الأغلبية، سيكون بحوزتـك بعض المدخلات فيمـا يتعلق بأي مشروع قانون مهم قبـل الوصول إلى قاعة المجلس. يمكنك أن تطلب من رئيس اللجنة إضافـة العبارات التي ترضي ناخبيك أو حـذف تلـك التي تغضبهم. بل تستطيـع أن تطلب من زعيم الأغلبيـة أو مقدم وراعي المشروع أن يؤجل التصويت إلى ما بعد التوصل إلى تسوية تعجبك وترضيك.

أمـا إن كنت في حـزب الأقلية، فلا تحظـى بمثل هذه الحمايـة. وعليك التصويت بنعـم أو لا كلما عرض مشروع قانون، مع معرفتك أن من المستبعد التوصل إلى تسوية تعدهـا أنت أو أنصارك نزيهة أو عادلة. وفي حقبة تبادل الدعم والمكاسب والمحسوبية العشوائيـة ومشروعات قوانين الإنفـاق الهائلة المتزامنة، يتأكد لك أيضا حتمية وجود شـيء ما ـ تمويل الستر الواقية لجنودنا مثـلا، أو زيادة متواضعة في معاشات قدامى المحاربـين ـ يجعل من الصعب والمؤلم معارضـة القانون، وذلك بغض النظر عن عدد البنود أو الشروط السيئة فيه.

في الولايـة الأولى على أقل تقدير، تضلع البيت الأبيض في ظل جورج بوش من مثل هـذا الفن التشريعي القائم على استهداف الربح وزعزعة ثقة الخصوم والمعارضين. ثمـة قصـة مفيـدة فيما يتعلـق بالمفاوضـات المحيطـة بأول جولـة مـن التخفيضات الضريبيـة التـي أعلنها بوشـ، حين دعـا كارل روف سيناتورا ديمقراطيـا إلى البيت الأبيضـ لمناقشة دعمه المحتمل لمضمومة مشروعات قوانين الرئيس. كان بوش قد فاز في ولايـة السينـاتـور في الانتخابات السابقة ـ نتيجة عوامل عديـدة منها التخفيضات

الضريبيـة ـــ وأيد السيناتور عموما المعـدلات الهامشية المنخفضـة. ومع ذلك أقلقته الدرجـة التي انحرفت فيها التخفيضـات الضريبية المعروضة وجهة الأغنياء، واقترح إجراء بعض التغييرات التي تعدل وتلطف تأثر المضمومة.

قـال السيناتور لـروف: «إذا أجريت هذه التغييرات لا أضمـن لك صوتي فقط بل أصوات سبعين عضوا في مجلس الشيوخ».

أجاب روف: «لا نريد سبعين صوتا، بل واحدا وخمسين».

ربما حسب روف، أو لم يحسب، أن مشروع قانون البيت الأبيض سياسة جيدة، لكنه ميـز العضو المفيد حين رآه. فإما أن يصوت السيناتور بنعم ويساعد في تمرير برنامج الرئيس، أو يصوت بلا ويصبح هدفا مباشرا ومكشوفا في الانتخابات القادمة.

في النهايـة، صـوت السيناتور بنعم ـــ مثل العديد مـن الديمقراطيين في الولايات الحمـراء ـ وعبر هذا دون شك عن المشاعر السائـدة تجاه التخفيضات الضريبية في ولايتـه. ومع ذلك، توضح قصص كهذه بعضا مـن الصعوبات التي يواجهها أي حزب أقليـة عنـد الاتفاق بين الحزبين. الجميع يحبون فكرة الاتفـاق بين الحزبين. ووسائل الإعـلام على وجه الخصوصـ مغرمة بالتعبير، نظرا لأنه يغايـر بإتقان «المشاجرات الحزبية» التي تشكل الحبكة المهيمنة في القصص المتعلقة بـ «كابيتول هيل».

لكـن الاتفاق الحزبـي الحقيقي يفترض وجـود عملية نزيهة مـن الأخذ والعطاء، وقياسـ نوعية وجـودة التسويات وفقا لمدى خدمتها للهدف المتفـق عليه، بغض النظر هل يتمثل في تحسين حال المدارس أو تخفيض العجز في الميزانية. وهذا بدوره يفترض تقييـد الأغلبية ـ بواسطة صحافة كثـيرة المطالب وناخبين عارفين ومطلعين ـ ودفعها للتفاوضـ بنية صافية وسليمة. فـإذا لم تتوفر هذه الظروف ـ إذا لم يركز أحد خارج واشنطـن انتباهـا حقيقيـا علـى جوهر ومـادة مشروع القانـون، وحجبـت التكاليف الحقيقيـة للتخفيضات الضريبيـة خلف حسابات مزورة وقللـت قيمتها بمبلغ ترليون دولار أو نحـوه ـــ يمكن لحـزب الأغلبية أن يبـدأ المفاوضات بإلحاح علـى تلبية نسبة 100% مـن مطالبه، ثم يتراجع بنسبة 10%، وبعدئذ يتهم أي عضو من حزب الأقلية

يمتنـع عـن دعم وتأييد هذه «التسويـة والتنـازل» بأنه «معرقل» أمـا فيما يتعلق بحزب الأقليـة في هذه الظروف، فإن «الاتفاق الحزبي» يعني التعرض بشكل مزمن للضغوط والإجبـار والإكراه، مـع أن بعض الأعضاء ربما يحظون بمكاسـب سياسية معينة عبر مسايرة الأغلبية واكتساب سمعة «الاعتدال» و«الوسطية»

ليس من المفاجئ وجود ناشطين يلحون بإصرار على وقوف الأعضاء الديمقراطيين بثبـات في مواجهـة أي مبادرة جمهورية هذه الأيام حتى تلـك التي تشمل بعض المزايا ـــ كمبدأ وقاعدة. ومن العـدل القول إن هؤلاء لم يصلوا قط إلى أي منصب عام رفيع كديمقراطيين في ولاية يهيمن عليها الجمهوريون، ولم تستهدفهم الدعاية التلفزيونية السلبيـة التي تكلف عدة ملايين من الدولارات. وما يفهمه كل سينـاتور هو أنه في حين يسهـل جعل التصويت على تشريع معقد يبدو شريرا وفاسدا في دعاية تلفزيونية تمتد ثلاثين ثانية، إلا أن من الصعوبة بمكان شرح الحكمة الكامنة وراء التصويت ذاته في أقـل من عشرين دقيقة. وما يعرفه كل سينـاتور أيضـا أنه خلال مسار فصل تشريعي واحـد، عليـه أن يـدلي بصوته آلاف المـرات. وعليه تقديم عدد كبير مـن التفسيرات المحتملة وقت الانتخابات.

ربمـا تجسـد أكبر جزء من حظـي السعيد خـلال حملتي الانتخابيـة للوصول إلى الكونغرس في عـدم استهـدافي بالدعايـة التلفزيونيـة السلبية. ولهـذا علاقة وثيقة بالظـروف الغريبـة للسبـاق الذي خضته، لا بغيـاب الموضوعات التـي تصلح كذريعة لمهاجمتـي. فعلى الرغم من كل شـيء، قضيت في مجلس شيوخ الولاية سبع سنين قبل الترشح إلى الكونغرس، وبقيت في الأقلية ستا من هذه السنوات السبع، وأدليت بآلاف مـن الأصوات التي كانت صعبة أحيانـا. وكممارسة معيارية هذه الأيام، أعدت اللجنة الوطنيـة الجمهورية المختصـة بمجلس الشيوخ ملفا سميكا مـن الأبحاث والدراسات المعارضة لي قبل حتى أن أترشح، وأمضى فريقي البحثي ساعات طويلة يدرس ويمحص سجلي في مسعى منه لتوقع الدعايات السلبية التي قد يطلقها الجمهوريون ضدي.

لم يجد الكثير، لكنه عثر على ما يكفي لما يحتاجونه ـ عشرة أو نحوها من الأصوات التي أدليت بها ويمكن إذا ما انتزعت من السياق أن تبدو مفزعة فعلا. وحين اختبرها

مستشاري الإعلامي، ديفيد اكسيلرود، في استطلاع للرأي، تراجع معدل التأييد عشر نقاط على الفور. هنالك مشروع قانون جنائي قصد منه اتخاذ إجراءات صارمة بحق ترويج المخدرات في المدارس لكن صياغة مسودته كانت هزيلة إلى حد أنني استنتجت أنه غير فعال وغير دستوري - «أوباما صوت لصالح إضعاف العقوبات الجزائية على عصابات الشوارع العنيفة التي تروج المخدرات في المدارس»، حسب وصف الاستطلاع. هنالك أيضا مشروع قانون قدم برعاية الناشطين المناهضين للإجهاض وبدا في الظاهر معقولا إلى حد كاف - حيث أجاز الإجراءات التي تنقذ حياة الخدج (لم يذكر مشروع القانون أن هذه الإجراءات قانونية أصلا) - لكن وسع «حالة الفرد الإنسانية» لتشمل الأجنة التي لم تكتمل بعد، ومن ثم عكس قرار «رو ضد ويد»* ؛ في الاستطلاع، قمت كما قيل «بالتصويت لحرمان الأطفال الذين يولدون أحياء من المعالجة التي تنقذ حياتهم» وبعد مراجعة القائمة، عثرت على زعم يقول إنني حين كنت عضوا في مجلس شيوخ الولاية عارضت مشروع قرار «لحماية أطفالنا من الانتهاك الجنسي»

قلت وأنا أخطف الصفحة من يد ديفيد: «رويدك. لقد ضغطت صدفة على الزر الخطأ عند التصويت على مشروع القانون هذا. كنت أنوي التصويت بنعم، وصححت الخطأ على الفور في السجل الرسمي»

ابتسم ديفيد وقال: «لا أظن أن هذا الجزء من السجل الرسمي سيظهر في الإعلان الدعائي الجمهوري» ثم استرد بلطف الصفحة من يدي، وأضاف وهو يربت كتفي: «على أي حال لا تكتئب. أنا متيقن أن ذلك سيساعدك في مسألة التصويت على الانتهاك الجنسي»

أتساءل أحيانا ما الذي كان سيحدث لو عرضت تلك الدعايات فعلا. لا من ناحية تأثيرها في فوزي أو خسارتي - بحلول الوقت الذي انتهت فيه الانتخابات التمهيدية كنت أسبق المنافس الجمهوري بعشرين نقطة — بل من ناحية رأي الناخبين بي، وكم ستقل وتتقلص المشاعر الصادقة والنيات الحسنة عند دخولي إلى مجلس الشيوخ.

* قرار مثير للجدل أصدرته المحكمة الأمريكية العليا عام 1973، قضى بأن المرأة، وفقا للحق في الخصوصية، تمتلك حقا غير مقيد في الإجهاض خلال الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل. لقي القرار قبولا واسعا من القوى المؤيدة للإجهاض ورفضا عنيدا من الحركات المناهضة للإجهاض. (م)

فهكـذا دخل معظم زملائي، جمهوريين وديمقراطيين، مجلس الشيوخ، حيث ضخمت أخطاؤهـم، وحرفـت كلماتهم، ووضعـت دوافعهم موضـع المساءلـة والتشكيك. لقد تعمـدوا في تلك النـار؛ والشبح يطاردهم كلما صوتوا على قانـون أو قرار، أو أصدروا بيانـا صحفيا، أو أدلوا بتصريح، شبح الخـوف لا من خسارة سباق سياسي فقط، بل من خسارة تأييد وتعاطف أولئك الذين أرسلوهم إلى واشنطن ـ كل أولئك الذين قالوا لهم يوما ما: «لدينا أمل كبير بكم. أرجوكم لا تخذلونا»

بالطبـع، هنالك طـرق تقنية في ديمقراطيتنا ربما تخفف شـدة هذا الضغط على السياسيين، تغييرات بنيوية تقوي وتعزز الرابطة بين الناخبين وممثليهم. توزيع المناطق على أساس غير حزبي، والتسجيل في اليوم ذاته، والانتخابات في عطلة نهاية الأسبوع، تزيد جميعا تنافسية السباقات وتحفز مزيدا من المشاركة من جانب الناخبين ـ وكلما زاد انتباههـم واهتمامهـم، زادت مكافـأة الاستقامة والنزاهة والأمانـة. إن التمويل العـام للحملات الانتخابية أو تخصيص وقت مجاني لها في التلفزيون والإذاعة يمكن أن يقلصـ إلى حد بعيد الاستجداء الملح للمال وتأثير المصالح الخاصة. التغييرات في القواعد والأنظمة في مجلسي النواب والشيوخ قادرة على تمكين الأعضاء المشرعين في الأقلية، وزيادة الشفافية في العملية، وتشجيع مزيد من التقارير الفاحصة المتعمقة.

لكـن يتعـذر حدوث أي من هـذه التغييرات من تلقـاء نفسهـا. إذ يتطلب كل منها تغيـيرا في الموقف والرأي لـدى أولئك القابعـين في السلطة. وأن يتحـدى السياسيون النظام القائم؛ ويخففوا تشبثهم بالمنصب؛ ويكافحوا مع أصدقائهم وأعدائهم دفاعا عـن الأفكار النظريـة المجردة التي يبدو أن عامة النـاس لا يهتمون بها كثيرا. يتطلب أيضا استعدادا للمخاطرة بما يملكونه ويتمتعون به الآن.

وهكـذا نعـود في النهايـة إلى تلك السجية التـي سعى جون كنيـدي إلى تحديدها وتعريفها في وقت مبكر من حياته السياسية وهو في طور النقاهة بعد العملية الجراحية التي أجراهـا، واعيا ببطولته في الحرب لكن مفكرا بالتحديات المبهمة التي تنتظره ـ سجيـة الشجاعة. فكلما طالت مدة بقائك في معـترك السياسة يجب أن يسهل عليك التمكـن مـن هذه الشجاعـة، لأن التحرر يأتي حتمـا من إدراك حقيقـة أنك لا بد أن

تغضب بعض الناس مهما فعلت، وأن الهجمات السياسية ستشن عليك مهما كنت حذرا في التصويت، وأن الحكم الحصيف المتروي قد يعد جبنا وتعد الشجاعة نفسها خطة أنانية محسوبة للحصول على المكاسب والمغانم. وجدت راحة البال في حقيقة أنني كلما طال عهدي بالسياسة تقلصت أهمية الشهرة في نظري، وأن السعي إلى السلطة والرتبة والشهرة يبدو وكأنه يفضح فقرا في الطموح، وأنني مسؤول أمام ضميري ونظراته المحدقة.

وأمام الناخبين أيضا. فبعد لقاء مع الأهالي المحليين في غودفري، أتى إلي عجوز وعبر عن غضبه على عدم دعوتي حتى الآن إلى الانسحاب الكامل من العراق، على الرغم من معارضتي للحرب. تبادلنا نقاشا وجيزا وممتعا، عبرت فيه عن قلقي من أن انسحابا متعجلا من العراق سوف يؤدي إلى نشوب حرب أهلية طاحنة في البلد مع احتمال امتداد الصراع ليشمل الشرق الأوسط برمته. في نهاية حديثنا صافحني وقال:

«مازلت أعتقد أنك مخطئ. لكن يبدو على الأقل أنك فكرت في الأمر. كنت ستخيب ظني لو وافقتني الرأي على طول الخط».

قلت وهو يبتعد: «شكرا لك» وتذكرت عبارة قالها القاضي لويس برانديز ذات مرة: أهم منصب في الديمقراطية هو منصب المواطن.

ـ 5 ـ

الفرصة

هنالك شيء واحد يلازم عضو مجلس الشيوخ الأمريكي ـ سفره المتكرر بالطائرة. فهو يقوم برحلة ذهابا وإيابا من وإلى واشنطن مرة واحدة في الأسبوع على الأقل. إضافة إلى رحلات إلى الولايات الأخرى لإلقاء الخطب، أو جمع التبرعات، أو المشاركة في الحملات لصالح الزملاء. فإذا كنت ممثلا لولاية كبيرة مثل الينوي، عليك القيام برحلات إلى مختلف أرجائها، لحضور اجتماعات الأهالي المحليين، أو قص الشرائط الحريرية، والتأكد من أن الناس لا يظنون أنك نسيتهم.

في معظم الأحيان أسافر على الرحلات التجارية وأجلس في الدرجة السياحية، وآمل بالحصول على مقعد يحاذي النافذة أو الممر، وألا يدفع الراكب الجالس أمامي مسند مقعده باتجاهي.

لكن في بعض الأحيان أسافر بنفاثة خاصة، لأنني سأتوقف في عدة محطات على الساحل الغربي مثلا، أو أحتاج إلى الوصول إلى مدينة أخرى بعد مغادرة آخر رحلة تجارية. لم أكن أعرف هذا الخيار في البداية، على افتراض أن التكلفة المرتفعة ستجعله متعذرا. لكن خلال الحملة، شرح الموظفون العاملون معي أن بإمكان السيناتور أو المرشح، وفقا لقواعد وأنظمة مجلس الشيوخ، السفر على طائرة خاصة ودفع أجرة مماثلة للسفر بالدرجة الأولى. وبعد دراسة جدول مواعيد حملتي الانتخابية والتفكير بالوقت الذي يمكن أن أوفره، قررت أن أجرب السفر على طائرة خاصة.

تبين أن تجربة الطيران مختلفة اختلافا كبيرا في الطائرة الخاصة. فهي تقلع من محطات ومبان يملكها ويديرها القطاع الخاص، وفيها صالات تضم أرائك وثيرة وشاشة تلفزيون كبيرة وصور عن تاريخ الطيران معلقة على الجدران. أما غرف الاستراحة فخالية ونظيفة، وهنالك آلات لتلميع الأحذية وغسولات معقمة للفم. ولا

يسود هذه المحطـات إحساس بالاستعجال؛ فالطائرة تنتظرك إذا تأخرت، وتقلع قبل الموعـد إذا بكرت. في أحيان كثيرة، يمكنك تفادي الصالة برمتها والوصول بسيارتك إلى المهبـط فـورا. أو سيرحـب بك الطيـارون في مبنى المطـار، ويأخـذون حقائبك، وينقلونك إلى الطائرة.

والطائـرات بديعة مريحة. في المرة الأولى، ركبت طائرة من طراز سيتيشن اكس، وهـي طائرة صغيرة ولامعـة، هيكلها الداخلـي مغطى بألواح مزخرفـة من الخشب، ويمكـن جمـع مقاعدها الجلدية لتشكل سريرا تأخذ عليه غفـوة متى شئت. في المقعد الخلفـي وضعت أطباق سلطة القريدس والجبنـة، في حين امتلأ البار الصغير أمامي بجميـع المشروبـات. أحد أفراد الطاقـم أخذ معطفي ليعلقه، وعرض علي عددا من الصحف لأختار منها، وسألني هل أشعر بالراحة. كنت مرتاحا تماما.

ثـم أقلعت الطائـرة، ونهبت محركاتهـا «الرولز رويس»الهواء كمـا تنهب سيارات السبـاق الأرض. وحين اخترقـت السحاب فتحت جهـاز التلفزيـون الصغير أمامي، فظهـرت علـى الشاشـة خريطـة الولايات المتحـدة، مع صـورة لطائرتنـا وهي تتجه غربـا، إلى جانب أرقام تظهر السرعـة والارتفاع والوقت اللازم للوصول إلى وجهتنا، والحـرارة خارج الطائـرة. على ارتفاع أربعـين ألف قدم، استـوت الطائرة، فنظرت إلى الأفـق المحـدب والغيوم المبعثرة، وامتدت جغرافية الأرض أمامي ـ أولا، الحقول المنبسطة على شكل مربعات رقعة الشطرنج في غرب الينوي، ثم نهر المسيسيبي الذي يتلوى كأفعى البايثون، ثم مزيد من المزارع، وأخيرا جبال روكي المثلمة وقممها المغطاة بالثلج، إلى أن غربت الشمس فضاقت السماء البرتقالية إلى خط رفيع أحمر اجتاحته عتمة الليل والنجوم والقمر.

أمكنني رؤية كيف يعتاد الناس ذلك.

الغرض مـن تلك الرحلة بالـذات كان جمع التبرعـات على الأغلب ـــ فاستعدادا لحملتـي الانتخابيـة العامـة، نظم عدد مـن الأصدقـاء والأنصار عـدة مناسبات في لوس أنجلوس وسان دييغو وسان فرانسيسكو. لكـن الجزء الذي لا ينسى من الرحلة

كان زيــارة قمت بها إلى بلدة ماونتن فيــو (في كاليفورنيا)، على بعد بضعة أميال إلى الجنوب من جامعة ستانفورد وبالو اتو، في قلب وادي السيليكون، حيث يقع مقر شركة محرك البحث غوغل.

بلغت غوغل مكانة أسطورية في منتصف عام 2004، فقد كانت رمزا لا يمثل مجرد القــوة النامية للإنترنت بل التحول السريع الذي أصاب الاقتصاد العالمي. في الطريق مــن ســان فرنسيسكو، راجعــت تاريــخ الشركة: كيف تعــاون باحثــان مرشحان لنيل الدكتوراه في علوم الحاسب من جامعة ستانفورد، لاري بيج وسيرغي برين، في مهجع النــوم لتطوير طريقة أفضل للبحث في الويب؛ وكيف أنشــأ الاثنان غوغل عام 1998، بمليــون دولار جمعاه من معارفهما وأصدقائهما، ولم يكن لديهما سوى ثلاثة موظفين يشتغلــون في «كراج»؛ وكيف أصبحت غوغل نموذجــا للدعاية والإعلان ـ اعتمادا على الإعلانات النصية التي كانت غير اقتحامية ووثيقة الصلة ببحث المستخدم ـ وهذا ما جعلها شركة رابحة حتى مع إفلاس شركات التكنولوجيا (دوت. كوم)؛ وكيف أشهرت الشركة بعد ستة أعوام من تأسيسها فجعلت أسعار أسهمها السيدين بيج وبرين اثنين من أغنى الأغنياء على وجه الأرض.

بــدت بلــدة ماونتن فيو مثــل أي مجتمع نمطي يسكــن ضواحي مــدن كاليفورنيا ـ شــوارع هادئــة، مواقف حديثــة للسيارات، بيوت عاديــة، قد يبلغ ثمــن بعضها مليون دولار، بسبــب القوة الشرائية الفريدة لســكان وادي السيليكون. توقفنا أمام مجموعة مــن المباني العصرية المستقلة، فقابلنا المستشار العام لشركة غوغل، ديفيد دورموند، وهو أمريكي أفريقي في مثل عمري كان أعد الترتيبات لزيارتنا.

قــال ديفيد: «حــين أتــى إلي لاري وسيرغي سعيــا لتأسيس شركــة، حسبت أنهما مجــرد شخصين ذكيين لديهما فكرة لإقامة مشروع جيد مثل غيرهما من المغامرين. لا يمكنني القول إنني توقعت هذا كله»

أخــذني في جولة في المبنى الرئيس، الذي بدا كأنه مركز لطلاب الجامعة لا مكتب لشركــة ــــ هنالك مقهــى في الطابــق الأرضي، حيث يشــرف الطاهــي السابق لمطعم

غريتفل ديد على تحضير وجبات الطعام للموظفين كلهم؛ وألعاب الفيديو وطاولة بينغ بونغ وغرفة لياقة بدنية مجهزة بالكامل (الموظفون يمضون أوقاتا طويلة هنا، لذلك نريدهم أن يكونوا سعداء). في الطابق الثاني، مررنا بمجموعات من الرجال والنساء بسراويل الجينز والقمصان القطنية الخفيفة، كلهم في العشرينيات من العمر، يعملون بانتباه أمام شاشات الكومبيوتر، أو يستلقون على أرائك وكرات جلدية كبيرة، وينخرطون في مناقشات حيوية.

في نهاية المطاف وجدنا لاري بيج يتحدث إلى مهندس عن مشكلة في البرمجيات. كان يرتدي ثيابا مشابهة لثياب موظفيه، لكن خط الشيب رأسه قليلا مع أنه لم يبد أكبر عمرا منهم. تحدثنا عن رسالة غوغل ـ تنظيم المعلومات في شكل حر ومفيد وسهل الاستخدام ومتاح عالميا ــ ودليل (فهرس) موقع غوغل، الذي يشمل أكثر من ستة مليارات صفحة ويب. أطلقت الشركة منذ مدة قريبة نظاما جديدا للبريد الإلكتروني مرتكزا على الويب يتمتع بوظيفة بحث مدمجة؛ وكانت تشتغل على تقانة تتيح البدء ببحث صوتي عبر الهاتف، وشرعت في «مشروع الكتاب»، بهدف مسح كل الكتب المنشورة وتحويلها إلى نسق يسهل الوصول إليه على الويب، وإنشاء مكتبة افتراضية تخزن المعارف الإنسانية برمتها.

قرب نهاية الجولة، قادني لاري إلى غرفة تدور فيها صورة ثلاثية الأبعاد للكرة الأرضية على شاشة مسطحة كبيرة. وطلب من مهندس أمريكي شاب هندي الأصل شرح الصورة.

قال المهندس: «تمثل هذه الأضواء جميع عمليات البحث التي تجري الآن. ويجسد كل لون لغة مختلفة. فإذا حركت المحولة الثنائية إلى هذه الوجهة ـ وغير الصورة على الشاشة ـ تستطيع رؤية أنماط حركة المرور في نظام الإنترنت برمته»

الصورة أخاذة ومذهلة وتستحوذ على الانتباه، وتبدو حيوية/ عضوية أكثر منها ميكانيكية، كأنما ألمح المراحل المبكرة لعملية ارتقاء نشوئي متسارع حيث الحدود بين البشر ـ القائمة على الجنسية والعرق والدين والثروة ـ تختفي وتصبح غير

ذات صلــة، فينخرط العالم الفيزيائي في كيمــبردج، والمتاجر بالأسهم والسندات في طوكيــو، والطالب في إحدى القرى الهندية النائيــة، والمدير في متجر متعدد الأقسام في مدينة المكسيك، في محادثة واحدة ومستمرة تصدر صوتا رتيبا، ويتراجع الزمان والمكان أمام عالم يغمره الضوء. ثم لاحظت المساحات الواسعة من الظلمة حين تدور الأرض على محورها ـ معظم أفريقيا، ومناطق من جنــوب آسيا، حتى بعض أجزاء الولايات المتحدة، حيث تتضاءل الخطوط المضيئة السميكة وتتحول إلى بضع خطوط رفيعة واهية.

قطــع ظهــور سيرغي أحلام اليقظة. بــدا رجلا قوي البنية أصغــر عمرا من لاري ببضــع سنين. واقــترح أن أذهب معهم إلى اجتماع «الحمــد لله إنه يوم الجمعة»، وهو تقليــد حافظت عليه الشركة منذ بدايتها، حيــث يجتمع موظفو غوغل كلهم ويتناولون الطعــام ويشربــون البــيرة ويناقشون مــا في أذهانهم من أفكار. وحــين دخلنا القاعة الكبــيرة، وجدنا جماعات مــن الشبان والشابات جالســين، بعضهم يشرب، وبعضهم يضحــك، وغيرهــم يشتغــل على المساعــد الرقمي الشخصــي أو الحاســب المحمول، وكانــت الإثــارة تملأ المــكان. بدت مجموعة مكونــة من خمسين شخصــا تقريبا أكثر انتباهــا من البقية، وأشار ديفيد إلى أنهم من الموظفين الجدد الذين تخرجوا حديثا؛ واليــوم مخصص لدمجهم في فريق عمل غوغل. قــدم الموظفون الجدد أنفسهم فردا فــردا، وومضت وجوههــم على شاشة عرض كبيرة، مرفقــة بمعلومات عن درجاتهم، وهواياتهــم، واهتماماتهــم. كان نصفهم على الأقل من الآسيويــين؛ ونسبة كبيرة من البيضــ حملوا أسماء أوروبية شرقية. وبقدر ما استطعت أن أرى، لم يكن بينهم أسود أو مــن أصــل لاتيني. فيما بعد، حين كنت أسير باتجــاه سيارتي، ذكرت ذلك لديفيد، فأومأ رأسه، وقال:

«نعلم إنها مشكلة»، وذكر الجهود التي تبذلها غوغل في مجال تقديم المنح الدراسية لزيــادة طــلاب الرياضيات والعلــوم من الأقليــات والنساء. وفي الوقــت ذاته، تحتاج الشركــة إلى الحفاظ علــى قدرتها التنافسيــة، وهذا يعني توظيــف أوائل الخريجين في الرياضيــات والهندسة وعلوم الحاسب في أفضل جامعــات ومعاهد البلاد ـ معهد

ماساتشوستس للتكنولوجيا وكالتيك وستانفورد وبيركلي. أبلغني ديفيد أن عدد الطلاب السود واللاتين في هذه الجامعات والمعاهد لا يتجاوز أصابع اليدين.

في الحقيقة، ووفقا لديفيد، أصبح العثور على مهندسين مولودين في أمريكا، مهما كان عرقهم، أمرا يزداد صعوبة باطراد ــ ولذلك أخذت كل شركة في وادي السيليكون تعتمد اعتمادا شديدا على الطلاب الأجانب. وظهرت أسباب جديدة تدعو لقلق شركات التقانة المتقدمة: منذ الحادي عشر من سبتمبر، زاد تردد عدد كبير من الطلاب الأجانب في الدراسة في الولايات المتحدة نتيجة الصعوبات في الحصول على تأشيرة الدخول. ولم يعد ألمع المهندسين أو مصممي البرمجيات بحاجة إلى القدوم إلى وادي السيليكون للعثور على عمل أو الحصول على تمويل للبدء بمشروعاتهم. فقد بدأت شركات التقانة المتقدمة تنقل عملياتها التشغيلية إلى الهند والصين بوتيرة متسارعة، وغدا تمويل المشروعات التجارية عالميا؛ ورؤوس الأموال التي تستثمر في مومباي وشنغهاي مماثلة لتلك المستثمرة في كاليفورنيا. وعلى المدى الطويل، كما شرح ديفيد، يمكن أن يسبب ذلك مشكلة للاقتصاد الأمريكي.

قال: «سوف نتمكن من الحفاظ على المواهب، لأننا أسماء تجارية شهيرة وراسخة. لكن من يعلم ماذا يحدث فيما يتعلق بالمشروعات الجديدة والشركات الأقل رسوخا وشهرة، غوغل الجديدة مثلا؟ آمل أن يفهم أحد في واشنطن مدى التنافسية في الميدان. من المؤكد أن هيمنتنا [على السوق] ليست محتومة»

في الوقت الذي برزت فيه غوغل تقريبا، قمت برحلة أخرى جعلتني أفكر بالاقتصاد وما يحدث له. استخدمت هذه المرة السيارة، لا النفاثة، على طريق سريعة خالية تمتد أميالا، للوصول إلى بلدة تدعى غيلزبرغ، على بعد خمسة وأربعين دقيقة من حدود ايوا إلى الغرب من الينوي.

أسست البلدة عام 1836 كبلدة جامعية حين قرر مجموعة من قساوسة الكنيستين المشيخيانية والأبرشانية في نيويورك نقل توليفتهم الجامعة للإصلاح الاجتماعي والتعليم العملي إلى الحدود الغربية. وأصبحت كلية نوكس التي أسسوها

مرتعـا لدعـاة إلغاء الرق قبل اندلاع الحرب الأهلية ـ كان فرع من سكة حديد الأنفاق يصل إلى غيلزبرغ، وانتسب هيرام ريفلز، أول سيناتور أسود في الولايات المتحدة إلى الكلية قبل العودة إلى المسيسيبي. في عام 1854، اكتمل العمل على سكة حديد شيكاغو بيرلنغتون وكوينسي عبر غيلزبرغ، فازدهرت تجارة المنطقة. وبعد أربع سنين، احتشد زهاء عشرة آلاف شخص لسماع المناظرة الخامسة بين لينكولن ودوغلاس، التي أطر فيها لينكولن أول مرة معارضته للرق باعتبارها قضية أخلاقية.

لم يكـن هـذا التاريخ الغني هو الذي دفعنـي إلى زيارة غيلزبرغ. بـل ذهبت للقاء جماعـة من الزعماء النقابيين في مصنع مايتاغ، حيث أعلنت الشركة خططا لتسريح 1600 مـن العاملين ونقـل عملياتها التشغيلية إلى المكسيك. وعلـى شاكلة البلدات في وسـط وغرب الينوي، تأثرت غليزبرغ تأثـرا بالغا بنقل عمليات التصنيع إلى الخارج. ففـي السنوات القليلـة الماضية، خسرت البلدة شركات تصنيـع قطع الغيار والأنابيب المطاطية؛ وهي تشهد الآن إغلاق مصنع الفولاذ «بتلر مانيوفاكتشرينغ»، الذي اشتراه منذ مـدة قريبة الأستراليون. وارتفع معدل البطالة في البلدة بنسبة 8%. ومع إغلاق مصنـع مايتاغ، سـوف تخسر البلدة نسبـة إضافية تتراوح بين 5 ــ 10% من قاعدة الاستخدام الكلية.

داخـل قاعة نقابة الميكانيكيـين، اجتمع سبعة أو ثمانية رجـال وثلاث نساء، حيث جلسوا على كراسي معدنية قابلة للطي، وتحدثوا بأصوات خافتة، في حين كان بعضهم يدخـن، وكانـوا جميعا في أواخـر الأربعينيـات أو أوائل الخمسينيات مـن العمر، وقد لبسـوا سراويل الجينـز أو الكاكي وقمصانـا قطنية خفيفة، أو ملابسـ العمل. شرح رئيسـ النقابة، ديـف بيفارد، وكان رجـلا ضخم الجثة عريض الصـدر في منتصف الخمسينيـات من العمر، له لحية دكناء ويضـع نظارة ملونة، ويعتمر قبعة جعلته يبدو وكأنـه عضـو في فرقة «زد زد توب»، أن النقابة جربـت كل أسلوب ممكن لإقناع شركة مايتاغ بتغيير قرارها ـ تحدثت إلى الصحافة، واتصلت بالمساهمين والمعنيين، وطلبت الدعم والتأييد من المسؤولين على المستوى المحلي ومستوى الولاية. لكن إدارة الشركة لم تتراجع عن قرارها.

قـال لي ديـف: «لا يتمثـل السبب في أن المصنـع لا يحقق ربحا. فهـو أكبر مصانع الشركـة مـن حيث الإنتاجية. وهو علـى مستوى رفيع من المهـارة والحرفية والجودة. ومعدلات أخطـاء التصنيع منخفضة. لقد خفضت رواتبنا، ثـم علاواتنا، ثم سرحنا مـن العمل. قدمت الولاية والمدينـة إلى مايتاغ تخفيضات ضريبية خاصة بلغت عشرة ملايين دولار خلال السنوات الثماني الماضية، اعتمادا على وعد الشركة بالبقاء هنا. لكن ذلك لم يكن كافيا. إذ قرر كبير المديرين التنفيذيين الذي يجني ملايين الدولارات أنه بحاجة إلى تعزيز وتدعيم سعر سهم الشركة، بحيث يستفيد هو شخصيا، وأسهل طريقـة لذلك هي نقل العمل إلى المكسيك، وتوظيف عمال برواتب لا تتجاوز سدس ما نتقاضاه هنا»

سألتهـم عن الخطوات الإجرائية المتخذة على مستوى الولاية أو المستوى الاتحادي لإعـادة تدريـب العمال، فضحـك الجميـع باستهزاء. قـال نائب رئيـس النقابة دوغ دينيسـون: «إعادة التدريب والتأهيل دعاية، فما فائـدة إعادة التأهيل والتدريب حين لا تتوفـر الوظائف؟» وشرح كيف اقترح مستشـار التوظيف أن يعمل مساعد ممرض، براتـب لا يتجـاوز ما تدفعه وال ـ مارت إلى عمالهـا في المتجر. وروى أحد الحاضرين الشبـاب قصة فظة وفظيعة على نحو خاص: فقد قـرر التدرب على صيانة الحاسب، لكـن بعد أسبـوع من الدورة، استدعتـه شركة مايتاغ. فالعمل فيهـا مؤقت، لكن وفقا للأنظمـة المرعيـة، إذا رفض العامل عرض الشركة لا يحق له الحصـول على راتب إعـادة التدريـب. فإذا عـاد إلى العمـل في الشركة وترك الـدورة التدريبيـة، ستعده المؤسسة الاتحادية المعنية أنه استنفد فرصته التدريبية في المستقبل.

أبلغت الحاضرين إنني سأروي حكايتهم خلال الحملة، وعرضت بضعة اقتراحات وضعها الموظفون العاملون معي ـ تعديل النظام الضريبي لإلغاء التخفيضات الضريبية الخاصة عن الشركات التي تنقل عملياتها التشغيلية إلى خارج البلاد؛ ترميم وإصلاح وزيـادة تمويل برامج إعادة التأهيل والتدريب. وحين تهيأت لمغادرة القاعة، تكلم رجل ضخـم يعتمر قبعـة لاعبي البيسبول. قال إن اسمه تيم ويلـر، وكان رئيس نقابة عمال مصنع بتلر للفولاذ القريب. وأكد أن العمال تلقوا إنذارات بتسريحهم من العمل، وأنه

يجمع تأمين البطالة، ويحاول معرفة الخطوة التالية التي يجب عليه اتخاذها. أما همه المقلق الآن فينصب على تأمين وضمان الرعاية الصحية.

قال متجهما: «ابني مارك بحاجة إلى عملية زرع كبد. نحن على قائمة انتظار متبرع، لكن مع استنفاد تعويض الرعاية الصحية، لا نعرف هل يغطي برنامج الضمان الحكومي [الممول على المستوى الاتحادي والمحلي وعلى مستوى الولاية] النفقات. لا يوجد من يعطيني جوابا واضحا، وسوف أبيع كل ما أملك من أجل ابني وأستدين، لكن..»، تحشرج صوت تيم، وغطت زوجته الجالسة بجانبه وجهها بيديها. حاولت طمأنة الزوجين بأننا سنعرف بالضبط ماذا يغطي برنامج الضمان الصحي. أومأ تيم رأسه ووضع ذراعه على كتف زوجته.

في طريق العودة إلى شيكاغو تصورت حجم اليأس الذي أصاب تيم: عاطل عن العمل، وابن مريض، ومدخرات تستنفد.

هذه هي القصص التي تفوتك حين تسافر بالطائرة على ارتفاع أربعين ألف قدم.

لا يختلف الكثيرون هذه الأيام، من اليسار ومن اليمين، على فكرة أننا نمر بمرحلة تحول اقتصادي جوهري. فالتقدم الذي تحقق في التقانة الرقمية، والألياف البصرية، والإنترنت، والبث الفضائي، والنقل، أزال عمليا الحواجز الاقتصادية بين البلدان والقارات. ورؤوس الأموال تجول الأرض بحثا عن أفضل العائدات، حيث تعبر تريليونات الدولارات الحدود ببضع نقرات على لوحة المفاتيح. أما انهيار الاتحاد السوفييتي وبدء الإصلاحات المرتكزة على السوق في الهند والصين، وتقلص الحواجز التجارية، وظهور شركات التجزئة العملاقة مثل وال ـ مارت، فقد وضعت عدة مليارات من البشر في تنافس مباشر مع الشركات الأمريكية والعمال الأمريكيين. وبغض النظر هل العالم مسطح أم لا، مثلما قال الصحفي والمؤلف توماس فريدمان، فمن المؤكد أنه يزداد تسطحا كل يوم.

لا شك في أن العولمة قد جلبت منافع مهمة للمستهلكين الأمريكيين. فقد خفضت أسعار السلع التي كانت تعد يوما من الكماليات، بدءا بشاشات التلفزيون الضخمة إلى

الدراق في الشتاء، إلى تنامي القوة الشرائية للأمريكيين ذوي الدخل المحدود. إضافة إلى أنهـا ساعدت على ضبط معدلات التضخـم، وزادت العائدات لملايين الأمريكيين الذيـن يستثمـرون الآن في البورصـة، ووفـرت أسواقـا جديـدة للبضائـع والخدمات الأمريكية، وأتاحت لبلدان مثل الصين والهند تقليل حدة الفقر بصورة جذرية، وهذا يؤدي على المدى البعيد إلى مزيد من الاستقرار في العالم.

لكن لا يوجد من ينكر حقيقة أن العولمة فاقمت حالة من عدم الاستقرار الاقتصادي لملايـين الأمريكيين العاديين. فالإبقاء على القـدرة التنافسية وإرضاء المستثمرين في السـوق العالمي دفعا الشـركات الأمريكيـة إلى الأتمتة وتقليص الحجـم والتعاقد مع الموردين من خارج الشركة ونقل العمليـات الإنتاجية إلى البلاد الأجنبية. ولم ترضخ للضغوط من أجل زيادة الأجور، واستبدلت بخطط وبرامج الرعاية الصحية والمعونات التقاعدية خطـط الادخار (401K)* وحسابات الادخار الصحية، التي حملت العمال مزيدا من التكاليف وعرضتهم لمزيد من الخطر.

تمثلت النتيجة في ظهور ما دعاه بعضهم اقتصاد «الرابح يأخذ كل شيء»، حيث المد المرتفع لا يحمل بالضرورة القوارب كلها. وشهدنا خلال العقد الماضي نموا اقتصاديا قويا لكن نموا هزيلا في عدد الوظائف؛ قفزات كبيرة في الإنتاجية مع بقاء الأجور على حالها؛ أرباحا ضخمة للشركات وتقلصا في حصة العمال منها. وبالنسبة لأمثال لاري بيـج وسيرغي برين، والذين يملكون مهـارات ومواهب فريدة، والمهنيين المتخصصين ــ المهندسين والمحامين والمستشارين والمسوقين ـ الذين يسهلون العمل والإنتاج، كانت المكافآت الناجمة عن السوق المعولم غير مسبوقة. لكن فيما يتعلق بالعاملين في مايتاغ، الذين يمكن أتمتة أو رقمنة أو نقل مهاراتهم إلى بلدان تتميز بانخفاض الأجور، يمكن للتأثـير أن يكون مرعبـا ـ العمل في وظائف خدمية منخفضـة الأجر في المستقبل، مع القليـل مـن العلاوات والمنافـع، والتعرض لاختطـار الخراب المـالي في حالة المرض، والعجز عن الادخار من أجل التقاعد أو تعليم الأبناء في الجامعات.

* خطة ادخارية تسمح للموظف بالمساهمة بمبلغ محدد من دخله في حساب تقاعدي مع تأجيل دفع الضرائب عليه. (م)

السؤال هو: ما الذي نستطيع فعله إزاء ذلك كله؟ منذ أوائل التسعينيات، حين بدأت تظهر هذه النزعات والاتجاهات، تبنى جناح من الحزب الديمقراطي، بقيادة بيل كلينتون، الاقتصاد الجديد، وروج التجارة الحرة، والانضباط المالي، والاصلاحات في قطاعي التعليم والتدريب التي تساعد العمال على المنافسة في الحصول على وظائف أعلى قيمة وأجرا في المستقبل. لكن شريحة كبيرة من القاعدة الديمقراطية - خصوصا العمال النقابيين (أصحاب الياقات الزرقاء) من أمثال ديف بيفارد - عارضت هذه الأجندة. فبرأي هؤلاء، خدمت التجارة الحرة مصالح شارع المال، لكنها لم تفعل شيئا يذكر لوقف نزيف الوظائف الأمريكية المرتفعة الأجر.

الحزب الجمهوري ليس منيعا أمام هذه التوترات. فمع الضجة الصاخبة التي ارتفعت منذ مدة قريبة حول الهجرة غير الشرعية، مثلا، قد يشهد نموذج بات بوكنان المحافظ عن «أمريكا أولا» انبعاثا داخل الحزب الجمهوري، ويمثل تحديا لسياسات التجارة الحرة التي تنتهجها إدارة بوش. ففي حملته عام 2000 وفي وقت مبكر من ولايته الأولى، اقترح بوش دورا مشروعا للحكومة، «نزعة محافظة متعاطفة وتراحمية»، عبرت عن نفسها كما يحاجج البيت الأبيض، في خطة وصفات الدواء (في برنامج الرعاية الصحية) والجهد المبذول في مجال الإصلاح التعليمي المعروف باسم «لن نترك طفلا» - وهذا ما أصاب المحافظين المؤيدين لعدم تدخل الحكومة بالصدمة والقلق.

لكن كرس الجزء الأكبر من الأجندة الاقتصادية للحزب الجمهوري تحت زعامة الرئيس بوش للتخفيضات الضريبية، وتقليص الأنظمة والقوانين، وخصخصة الخدمات الحكومية - ولمزيد من التخفيضات على الضرائب. صحيح أن مسؤولي الإدارة يسمون ذلك «مجتمع الملكية»، لكن معظم قواعده وأركانه كانت من ثوابت اقتصاد حرية العمل منذ ثلاثينيات القرن العشرين على أقل تقدير: اعتقاد أن إجراء تخفيضات حادة على - أو في بعض الحالات إلغاء - ضرائب الدخل، والعقارات الكبيرة، وأرباح رأس المال، وأرباح الأسهم، سوف تشجع تشكل رأس المال، وارتفاع معدلات الادخار، وزيادة الاستثمار التجاري، والنمو الاقتصادي؛ اعتقاد أن الأنظمة

والقواعـد الحكوميــة تكبح وتشـوه الآلية الكفـأة لعمل السـوق؛ اعتقـاد أن البرامج الحكوميـة يتأصل فيها العجز وانعـدام الكفاءة، وتولد الاتكاليـة، وتقلص المسؤولية والمبادرة والخيار الفردي.

أو كمـا عبر رونالـد ريغان بأسلوبـه البليغ: «الحكومة ليست حـلا لمشكلتنا؛ بل هي المشكلة»

حتـى الآن، لم تحقق إدارة بوش سوى نصف المعادلة؛ فالكونغرس الخاضع لهيمنة الجمهوريـين مرر تخفيضـات ضريبية متلاحقـة، لكنه رفض اتخاذ خيـارات صعبة فيمـا يتعلق بالسيطرة على الإنفاق ـ ارتفـع تخصيص المصالح الخاصة بنسبة 64% منذ وصل بوش إلى البيت الأبيض. في هذه الأثناء، عارض المشرعون الديمقراطيون (وعامة الديمقراطيين) إجراء تخفيضات حادة على الاستثمارات الحيوية ـ ورفضوا رفضـا قاطعا اقـتراح الإدارة خصخصة الضمان الاجتماعـي. ومن غير الواضح هل تعتقـد الإدارة فعلا أن العجز في الميزانية الاتحادية وتضخم حجم الدين الوطني أمر لا يهم. لكن الواضح الجلي أن العجز المالي الهائل يجعل من الأصعب على الإدارات في المستقبل البدء بأي استثمارات جديدة للتصدي للتحديات الاقتصادية التي تفرضها العولمة، أو تقوية وتمتين شبكة الأمان الاجتماعي في أمريكا.

لا أريـد المبالغة في تضخيم عواقب هذا الفشل. فاستراتيجية الامتناع عن فعل أي شـيء وترك العولـة تأخذ مجراها لن تؤدي إلى الانهيـار الحتمي الوشيك للاقتصاد الأمريكـي. فمـا يزال النـاتج المحلـي الإجمالي لأمريـكا متفوقا على الصـين والهند مجتمعتين. وما زالت الشركات الأمريكية حتى الآن تتفوق على المنافسين في القطاعات المرتكـزة على المعرفـة مثل تصميـم البرمجيات والأبحـاث الدوائيـة والصيدلانية، وشبكتنا من الجامعات والكليات يحسدنا عليها العالم.

لكـن علـى المدى الطويل، يرجـح أن يعني الامتناع عن فعل شـيء ظهور نسخة من أمريـكا مختلفـة تمام الاختلاف عـن تلك التي نشـأ معظمنا فيها. سيعنـي أمة أكثر انقسامـا طبقيا على الصعيديـن الاقتصادي والاجتماعي مما هـو عليه الحال الآن:

أمـة ستتمكن فيها طبقة مثقفة ومزدهرة باطراد، تعيش في جيوب منعزلة، من شراء مـا تريد وتشتهـي من السوق ـــ مدارس خاصـة، رعاية صحية خاصـة، أمن خاص، طائـرات خاصة ـ في حـين يحاصر عدد متعاظم من المواطنـين في وظائف منخفضة الأجر، ويتعرضون لخطر الطرد، والضغط للعمل ساعات طويلة، والاعتماد على قطاع عـام يعاني من نقص التمويل والأعباء الثقيلة المفرطـة والأداء الهزيل للحصول على الرعاية الصحية والمعونات التقاعدية والمال اللازم لتعليم أبنائهم.

وسوف يعني أن نواصل العيش في بلد نرهن فيه أصولنا للمقرضين الأجانب ونعرض أنفسنا لنزوات منتجي النفط؛ وينخفض فيه الاستثمار في الأبحاث العلمية الأساسية وتدريـب القوة العاملة الـذي سيقرر إمكاناتنا الاقتصادية علـى المدى البعيد، ونهمل الأزمـات البيئية المحتملة. وسيعني أيضا نسخة مـن أمريكا أكثر استقطابا وبعدا عن الاستقـرار علـى الصعيد السياسي، وذلك مع تفاقم حالـة الإحباط الاقتصادي التي تدفع الناس إلى معاداة بعضهم بعضا.

وأسـوأ مـن ذلك كله أنه سيعني تقلص الفرص المتاحـة للشباب، وتراجع الحراك الصاعد الذي كمن في صميم الوعد الذي قدمه هذا البلد منذ تأسيسه.

ليسـت هـذه أمريكا التي نريدها لأنفسنا أو لأطفالنـا. وأنا على ثقة من أننا نملك المواهب والموارد اللازمـة لخلق مستقبل أفضل، مستقبل ينمو فيه الاقتصاد ويتقاسم المواطنون ثمار الازدهار. أما ما يمنعنا من تشكيل وصياغة ذلك المستقبل فليس غياب الأفـكار الخلاقـة، بل غياب الالتـزام الوطني باتخـاذ الخطـوات الإجرائية الصعبة والضروريـة لجعـل أمريكا أكثر قدرة على المنافسة ـ وغيـاب إجماع جديد على الدور المناسب للحكومة في السوق.

في سبيـل بنـاء ذلك الإجماع، نحتـاج إلى معاينة كيف ارتقى نظـام السوق عندنا على مر السنين. قال كالفين كوليدج ذات مرة: «إن النشاط الرئيس للشعب الأمريكي هـو الأعمال التجاريـة»، وفي الحقيقة، سيكون من الصعب العثـور على بلد في الأرض يتفـوق على أمريكا في حسن ضيافته لمنطق السـوق. إذ يضع دستورنا الملكية الخاصة في صميـم نظـام الحرية الذي نتبناه. وتقاليدنا التراثيـة الدينية تحتفي بقيمة العمل

الجدي الدؤوب وتعبر عن الإيمان بأن حياة التقى والفضيلة تؤدي إلى المكافآت المادية. وبدلا من أبلسة الأغنياء، نعدهم نماذج يحتذى مثالها، وأساطيرنا متخمة بقصص الرجال المصممين على الفوز والربح والنجاح ـ المهاجرين الذين أتوا إلى هذا البلد لا يملكون شروى نقير فأثروا واغتنوا، والشباب الذين اتجهوا غربا بحثا الثروة. ومثلما قال تيد تيرنر: في أمريكا المال يعني كيف نسجل النقاط.

النتيجة اللزومية لهذه الثقافة التجارية كانت ازدهارا ورخاء ليس لهما نظير في تاريخ البشر. ولا يتطلب الأمر سوى رحلة إلى الخارج لتقدير ما تنعم به أمريكا من مزايا؛ بل إن فقراءنا يأخذون السلع والخدمات كقضايا مسلم بها ـ الكهرباء والماء النظيف، والتمديدات الصحية داخل البيوت، وأجهزة الهاتف والتلفزيون، والأدوات المنزلية ـ مع أن معظم سكان العالم لا يحصلون عليها. لربما تمتعت أمريكا بنعمة أفضل العقارات على الأرض، لكن من الواضح أن مواردنا الطبيعية لم تمثل السبب الوحيد الكامن وراء نجاحنا الاقتصادي، فأعظم مواطن قوتنا كمنت في التنظيم الاجتماعي الذي نتبناه، نظام ظل على مدى الأجيال يشجع الابتكار المستمر، والمبادرة الفردية، والتخصيص الكفء والفعال للموارد.

إذن، ليس من المفاجئ أن يكون لدينا ميل إلى اعتبار نظامنا القائم على السوق الحر نعمة مباركة وحقيقية واقعية راسخة، وافتراض أنه ينبع طبيعيا من قوانين العرض والطلب واليد الخفية التي تحدث عنها آدم سميث. وانطلاقا من هذا الافتراض، ليس من المبالغة القول: إن أي تدخل حكومي في الآليات السحرية لعمل السوق ـ عبر فرض الضرائب، أو وضع القواعد والقوانين التنظيمية، أو الدعاوى القضائية، أو التعريفات الجمركية، أو وسائل حماية العمل والعمال، أو الاتفاق على البرامج الحكومية فيما يتعلق مثلا بالضمان الاجتماعي أو تعويض البطالة ـ يضعف بالضرورة المشروعات الفردية ويكبح النمو الاقتصادي. إن إفلاس الشيوعية والاشتراكية كوسائل بديلة للتنظيم الاقتصادي عزز وقوى هذه الفكرة. ووفقا لمراجعنا الاقتصادية المعيارية، وجدالنا السياسي الحديث، تعد حرية العمل قاعدة افتراضية أساسية؛ وكل من يتحداها يسبح عكس التيار السائد.

إذن، مـن المفيد أن نذكر أنفسنا بأن نظامنا القائم على حرية السوق لم يكن نتاج القانـون الطبيعـي ولا العناية الإلهيـة، بل برز عبر عملية مؤلمة مـن التجربة والخطأ، وسلسلة من الخيارات الصعبة بين الكفاءة والعدالة، والثبات والتغيير. ومع أن غالبية فوائد ومنافع نظامنا القائم على السوق الحر مستمدة من الجهود الفردية لأجيال من الرجال والنساء الذين سعوا لتحقيق رؤيتهم الخاصة عن السعادة، إلا أننا اعتمدنا في كل حقبة من الاضطراب الاقتصـادي الكاسح والمراحل الانتقالية على عمل الحكومة لتوفير الفرص، وتشجيع المنافسة، وتحسين آلية عمل السوق.

علـى وجه الإجمال، اتخذ عمـل الحكومة ثلاثة أشـكال. أولا، دعيت عبر تاريخنا لتشييـد البنيـة التحتيـة، وتدريب القـوة العاملـة، ووضـع الركائز الضروريـة للنمو الاقتصـادي. وأدرك جميـع الآبـاء المؤسسـين الصلـة الجامعة بين الملكيـة الخاصة والحرية، لكن ألكسندر هاملتون* هو الذي ميز الإمكانية الهائلة للاقتصاد الوطني ـ اقتصـاد لا يعتمد على ماضـي أمريكا الزراعي بل على مستقبل تجاري وصناعي. وفي سبيل تحقيق هذا الإمكان تحتاج أمريكا، كما حاجج هاملتون، إلى حكومة وطنية قوية وفاعلـة، وبوصفـه أول وزير للخزانة في أمريكا شرع في وضـع أفكاره موضع التطبيق. فـأمم ديـون الحرب الثورية، وهي خطـوة لم تربط معا اقتصـادات الولايات فقط بل ساعـدت في تحفيز نظام وطنـي قائم على أسواق الائتمان ورأس المال المتحرك. وروج اتبـاع سياسـات ـ مثـل قوانين الترخيصـ وفرض تعرفـة جمركية مرتفعـة ـ تشجع التصنيع والاستثمار في الطرق والجسور الضرورية لنقل المنتجات إلى السوق.

واجـه هاملتون مقاومة ضارية من توماس جيفرسون**، الذي خشي أن تضعف الحكومـة الوطنيـة القوية المرتبطـة بالمصالح التجاريـة الغنية رؤيتـه عن النظام الديمقراطـي المساواتي والعادل والمرتبط بالأرض. لكـن هاملتون عرف أن تحرير رأسـ المال من إسـار المصالح المحلية المرتبطـة بالأرض هو السبيـل الوحيد الذي

* (1757 - 1804): رجل دولة وكاتب أمريكي تناول شؤون الحكم، وكان أول وزير للخزانة (1789 - 1797). (م)

** (1743 - 1826): رجل دولة وديبلوماسي ومهندس وكاتب أمريكي، والرئيس الثالث للولايات المتحدة (1801 - 1809). (م)

يمكـن أمريكا من استغـلال أقوى مواردها ــ أي طاقة ومبــادرة الشعب الأمريكي ومشروعاتـه الحـرة. لقد كونت فكرة الحـراك الاجتماعي هذه واحـدة من أعظم المساومـات المبكرة للرأسمالية الأمريكيـة؛ فالرأسمالية الصناعيـة والتجارية قد تؤدي إلى حالة كاسحة من عدم الاستقرار، لكنها ستكون نظاما ديناميكيا يستطيع فيـه كل من يملك ما يكفي من الطاقة والموهبة الارتقاء إلى القمة. وافق جيفرسون على هذه النقطة على الأقل ـ اعتمادا على إيمانه بالجدارة والأهلية والكفاءة، بدلا مـن الأرستقراطية الموروثة، وأيد إنشاء جامعة وطنية تمولها الحكومة تعلم وتدرب المواهب في مختلف أرجاء الدولة الجديدة، وعد تأسيس جامعة فرجينيا واحدا من أعظم منجزاته.

هذا التقليد التراثي من الاستثمار الحكومي في البنية التحتية لأمريكا وفي شعبها، اعتنقه بصورة شاملة ابراهام لينكولن والحزب الجمهوري في مرحلته المبكرة. وبنظر لينكولـن، فإن جوهـر أمريكا هو الفرصـة المتاحة، قدرة «العامـل الحر» على تحقيق التقـدم في الحياة. لقد عد لينكولن الرأسمالية أفضل وسيلة لخلق مثل هذه الفرصة، لكنـه رأى أيضـا كيـف أوقعت المرحلـة الانتقالية مـن المجتمع الزراعـي إلى المجتمع الصناعي الفوضى والارتباك في حياة الناس ودمرت مجتمعاتهم المحلية.

وهكذا شرع لينكولن في خضم الحرب الأهلية في تطبيق سلسلة من السياسات التي لم تضع الركيزة المؤسسة لاقتصاد وطني متكامل فقط، بل وسعت مجال الفرص لتتاح لمزيـد من الناس. ومارس الضغط من أجـل تشييد أول سكة حديد عبر القارة، وأنشأ الأكاديميـة الوطنية للعلوم لتحفيـز البحث المعرفي والاكتشـاف العلمي بحيث يؤديان إلى تقانـة جديـدة وتطبيقـات تجارية حديثة. وتجـاوز حد قانون الإقامـة في المزارع لعـام 1862، الذي منح مساحات شاسعة مـن الأراضي العامة غرب الولايات المتحدة للمستوطنين القادمين من الشرق والمهاجرين من شتى أنحاء العالم، بحيث يساهمون هم أيضا في اقتصاد الأمة المتنامي. وبدلا من ترك أصحاب المزارع هؤلاء دون معين، أقـام نظام كليات تعلم المزارعـين وتدربهم على آخر التقانـات الزراعية، وتوفر لهم التعليم الحر الذي يتيح لهم حلم تجاوز تخوم وحدود الحياة في المزرعة.

ظلت الرؤية الأساسية لهاملتون ولينكولن ــ القائمة على قدرة موارد وسلطة الحكومة الوطنية على تسهيل، لا الحلول محل، السوق الحر النشط ـ تشكل إحدى دعامات سياسات الجمهوريين والديمقراطيين في كل مرحلة من مراحل تطور أمريكا. سد هوفر (سد بولدر)، وسلطة وادي تينيسي، ونظام الطرق عبر الولايات، والإنترنت، ومشروع المجين البشري: مرة بعد أخرى، ساعد استثمار الحكومة على تعبيد الطريق أمام ازدهار النشاط الاقتصادي للقطاع الخاص. وعبر إقامة نظام من المدارس العامة ومؤسسات التعليم العالي، إضافة إلى برامج مثل «إعلان حقوق قدماء المحاربين»، التي جعلت التعليم الجامعي متاحا لملايين الأمريكيين، ساعدت الحكومة في تزويد الأفراد بالأدوات والوسائل اللازمة للتكيف والابتكار في مناخ من التغير التقاني المستمر.

وبغض النظر عن توظيف الاستثمارات الضرورية التي لا يستطيع، أولا يريد، القطاع الخاص توظيفها وحده، قامت الحكومة الوطنية بدور أساس لا غنى عنه في التصدي لإخفاقات السوق ـ تلك العقبات الخفية والعراقيل المفاجئة التي تتكرر في أي نظام رأسمالي وتكبح الآليات الفعالة للسوق أو تلحق الضرر بعامة الناس. لقد أدرك تيدي روزفلت أن احتكار السلطة والقوة قد يقيد المنافسة، وجعل «مكافحة الاحتكار» بؤرة اهتمام إدارته. أما ودرو ولسون فقد أنشأ مصرف الاحتياط الفيدرالي لإدارة توريد النقد وتقليص حالات الهلع الدورية في الأسواق المالية. وأصدرت الحكومات على الصعيد الاتحادي وعلى مستوى الولاية أول قوانين لحماية المستهلك ـ قانون الغذاء والدواء الصحي وقانون التفتيش على اللحوم ــ وحماية الأمريكيين من المنتجات الضارة.

لكن خلال انهيار البورصة عام 1929 وحقبة الكساد الكبير الذي أعقبه تبدى دور الحكومة الحيوي في تنظيم السوق بجلاء لا لبس فيه. فمع تحطم ثقة المستثمر، وخطر انهيار النظام المالي، والتراجع الحاد في طلب المستهلك والاستثمار في قطاع الأعمال، خطط فرانكلين روزفلت لسلسلة من التدخلات الحكومية التي كبحت مزيدا من الانكماش الاقتصادي. وطوال السنوات الثماني التالية، اختبرت إدارة «البرنامج

الجديد»عددا من السياسات لإعادة إطلاق الاقتصاد، ومع أن هذه التدخلات لم تفرز كلها النتائج المقصودة، إلا أنها خلفت فعلا بنية تنظيمية تساعد على الحد من اختطار الأزمات الاقتصادية: هيئة للأوراق المالية والصرف لضمان الشفافية في الأسواق المالية وحماية صغار المستثمرين من الغش والتزوير والتلاعب؛ هيئة تأمين الودائع الفيدرالية لمنح الثقة للمودعين في المصارف؛ سياسات مالية ونقدية لوقف الدورات التجارية أو الاقتصادية، أخذت شكل تخفيضات ضريبية أو زيادة السيولة أو توجيه الإنفاق الحكومي، لتحفيز الطلب حين يتراجع النشاط التجاري ويبتعد المستهلكون عن السوق.

أخيرا ـ والأكثر إثارة للجدل الخلافي ـ ساعدت الحكومة في إقامة اندماج اجتماعي بين الأعمال التجارية والعمال الأمريكيين. فخلال السنوات المئة والخمسين الأولى من عمر أمريكا، ومع زيادة تركز رأس المال في الائتلافات الاحتكارية والشركات المحدودة المسؤولية، منع العمال بالقانون وبالعنف من تشكيل نقابات تزيد قوتهم ونفوذهم. إذ لم يحظوا تقريبا بأي حماية من ظروف العمل غير الآمنة أو غير الإنسانية، في المعامل المستغلة أو في منشآت ذبح الحيوانات وتحضير اللحوم. ولم تشهد الثقافة الأمريكية السائدة تعاطفا مع العمال المفقرين نتيجة رياح «التدمير الخلاق» التي تعصف بالرأسمالية من حين لآخر ـ الوصفة المناسبة للنجاح الفردي كانت بذل مزيد من الجهد والعرق، لا انتظار «الدلال» من الدولة. وأي شبكة أمان وجدت أتت من المصادر الهزيلة وغير المتكافئة للأعمال الخيرية الخاصة.

مرة أخرى، تطلب الأمر صدمة الكساد الكبير، حيث وجد واحد من بين كل ثلاثة أمريكيين نفسه عاطلا عن العمل، ويعاني من سوء المأكل والملبس والمسكن، حتى تصحح الحكومة حالة عدم التوازن تلك. فبعد سنتين من وصول فرانكلين روزفلت إلى سدة الرئاسة، تمكن من تمرير قانون الضمان الاجتماعي في الكونغرس (1935)، بؤرة تركيز دولة الرعاية الاجتماعية الجديدة، وشبكة الأمان التي تنتشل نصف المواطنين المسنين من وهدة الفقر، وتوفر تعويض البطالة للذين فقدوا وظائفهم، وتقدم إعانات مالية متواضعة للعاجزين والفقراء الذين تقدم بهم العمر. وضع روزفلت أيضا قوانين

غيرت تغييرا جوهريا العلاقة بين رأس المال والعامل: أربعون ساعة عمل أسبوعيا، قوانين لمنع تشغيل الأطفال، قوانين الحد الأدنى من الأجور؛ قانون علاقات العمل الوطنية الذي جعل من الممكن تنظيم نقابات صناعية عريضة القاعدة وأجبر أرباب العمل على التفاوض بنية صافية.

أتى جزء من الأس المنطقي لروزفلت في إصدار وإجازة هذه القوانين من الاقتصاد الكينزي مباشرة: أحد علاجات الكساد الاقتصادي وضع مزيد من الدخل المتاح في جيوب العمال الأمريكيين. لكن روزفلت عرف أيضا أن الرأسمالية في النظام الديمقراطي تتطلب موافقة المواطنين، وأن إصلاحاته، عبر إعطاء العمال حصة أكبر من الكعكة الاقتصادية، سوف تضعف جاذبية الأنظمة القائمة على الإدارة والتحكم والسيطرة الحكومية، فاشية أم اشتراكية أم شيوعية، التي كانت تكتسب الدعم والأنصار في شتى أنحاء أوروبا. ومثلما سيشرح عام 1944، فإن «الجائعين والعاطلين هم المادة التي تصنع منها الديكتاتوريات»

بدا لوهلة أن القصة ستنتهي هنا ـ مع إنقاذ روزفلت للرأسمالية من نفسها عبر حكومة اتحادية فاعلة ونشيطة تستثمر في مواطنيها وفي البنية التحتية، وتنظم السوق، وتحمي العمال من الحرمان المزمن. وفي الحقيقة، حظي نموذج دولة الرعاية الاجتماعية الأمريكية هذا بإجماع عريض طوال السنوات الخمس والعشرين التالية عبر الإدارات الجمهورية والديمقراطية. فمن كانوا على اليمين اشتكوا من الاشتراكية الزاحفة، ومن وقفوا على اليسار اعتقدوا أن خطوات روزفلت لم تكن كافية. لكن النمو الهائل لاقتصاد أمريكا القائم على الإنتاج بالجملة، والفجوة الواسعة في الطاقة الإنتاجية بين الولايات المتحدة واقتصادات أوروبا وآسيا التي مزقتها الحروب، نجحا في إنهاء وحسم معظم المعارك الأيديولوجية. وفي غياب أي منافسين جديين، تمكنت الشركات الأمريكية بشكل روتيني من نقل تكاليف العمل والنفقات التنظيمية إلى زبائنها. الوظيفة بدوام كامل مكنت عمال المصانع النقابيين من الانتقال إلى صفوف الطبقة الوسطى، وإعالة عائلاتهم من دخل واحد، والتمتع باستقرار الضمان الصحي والتقاعدي. وفي هذه البيئة من أرباح الشركات الثابتة وارتفاع الأجور، لم يواجه

صنـاع السياسـة سوى معارضة سياسيـة متواضعة لرفع الضرائـب ووضع مزيد من القوانين والقواعد التنظيمية للتصدي للمشكلات الاجتماعية الملحة – ومن ثم إنشاء برامـج المجتمع العظيـم، التي تشمل برامج الرعاية الصحيـة لمن هم فوق الخامسة والستين وبعض العجزة تحت سن الخامسة والستين (Medicare) وأخرى للمواطنين مـن جميع الأعمار ضمن حدود دخل معينـة (Medicaid)، والرعاية الاجتماعية، في عهد إدارة جونسـون؛ وإنشاء وكالة حماية البيئة وإدارة السلامة والصحة المهنية في عهد نيكسون.

بقيـت مشكلة واحدة أمام هـذا الانتصار الليبرالي: الرأسماليـة لا تقف جامدة. فبحلـول السبعينيـات، بدأ نمـو الإنتاجيـة، محرك اقتصـاد حقبة ما بعـد الحرب، بالتقاعـس. في حين سمح تزايد ثقة «أوبك» بالنفسـ لمنتجي النفط الأجانب باقتطاع حصـة أكبر مـن الاقتصـاد العالمي، وهذا مـا فضح ضعـف أمريكا أمـام اضطراب وانقطـاع واردات الطاقة. وبـدأت الشـركات الأمريكية تعاني المنافسـة من المنتجين الذيـن يتمتعون بمزايـا انخفاض التكلفة في آسيا، وبحلـول الثمانينيات، بدأ وابل من الـواردات الرخيصة ـــ تشمل الأنسجة والأحذيـة والإلكترونيات، وحتـى السيارات ـ يقتنصـ أجـزاء كبيرة من السوق المحلية. في هذه الأثناء، بـدأت الشركات الأمريكية المتعـددة الجنسيات تنقل بعضا من مرافقها الإنتاجية إلى الخارج ـ من أجل الوصول إلى الأسواق الأجنبية من جهة، وللاستفادة من العمالة الرخيصة من جهة أخرى.

في هـذه البيئـة العالميـة التي هي أكـثر تنافسيـة، لم تعد تنجح الصيغـة القديمة للأربـاح الثابتة والإدارة الثقيلـة الحركة للشركات الأمريكية. ومع تراجع القدرة على نقـل التكاليف المرتفعـة أو المنتجات الرديئة إلى المستهلكـين تقلصت أرباح الشركات والحصـة السوقية، وأخذ المساهمون في الشركات يطالبـون بمزيد من القيمة. بعض الشـركات وجـدت طرقـا لتحسين الإنتاجيـة عبر الابتـكار والأتمتـة. في حين اعتمد غيرها على تسريح العمال بأسلوب وحشي، ومقاومة النقابات، وزيادة نقل الإنتاج إلى الخـارج. مديرو الشركات الذين لم يتمكنوا من التكيـف تعرضوا للغزو من الشركات الأخـرى، فباعوا حصة كبيرة من أسهمها إلى أشخاص تضلعوا من الخدع والمراوغة،

لإحداث التغيير المطلوب، دون أي اعتبار للموظفين والعمال الذين تأثرت حياتهم تأثرا بالغا، أو للمجتمعات التي يمكن أن تدمر وتتمزق. وبطريقة أو بأخرى، زادت الشركات الأمريكية هزالا وضعفا ـ وتحمل وطأة هذا التحول عمال التصنيع على خطوط الإنتاج القديمة وبلدات مثل غيلزبرغ.

لم يكن القطاع الخاص وحده مضطرا للتكيف مع هذه البيئة الجديدة. ومثلما أوضح انتخاب رونالد ريغان، أراد الأمريكيون من الحكومة أن تتغير أيضا.

نزع ريغان في خطابه إلى المغالاة في الحجم الذي بلغته دولة الرعاية الاجتماعية خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية. ففي ذروتها، بقيت الميزانية الاتحادية كحصة إجمالية من الاقتصاد الأمريكي أدنى كثيرا بالمقارنة مع أوروبا الغربية، حتى حين تؤخذ بالاعتبار ميزانية الدفاع الهائلة في الولايات المتحدة. ومع ذلك، فإن الثورة المحافظة التي ساعد ريغان في إطلاقها اكتسبت زخما لأن رؤية ريغان المركزية ـ دولة الرعاية الاجتماعية الليبرالية أفرطت في الرضا والإرضاء وأصبحت بيروقراطية أكثر من اللازم، حيث صناع السياسة الديمقراطيون أشد هوسا بتقسيم الكعكة الاقتصادية من تنميتها وتكبيرها ـ تحوي قدرا كبيرا من الصدق والحقيقة. ومثلما توقف العديد من مديري الشركات، المحميين من المنافسة، عن تقديم القيمة، توقف العديد من البيروقراطيات الحكومية عن سؤال المعنيين وأصحاب المصلحة (دافعي الضرائب الأمريكيين) والمستهلكين (مستخدمي الخدمات الحكومية) هل تحصل نقودهم على قيمتها.

لم يشتغل كل برنامج حكومي حسب الطريقة التي أعلنت الدعاية عنها. بعض الوظائف كان من الأفضل تنفيذها بواسطة القطاع الخاص، مثلما كان بالمستطاع في بعض الحالات أن تحقق الحوافز المرتكزة على السوق النتائج نفسها بتكلفة أقل ومرونة أكبر، تماما كالقواعد التنظيمية المعتمدة على أسلوب التحكم والسيطرة. معدلات الضريبة الهامشية المرتفعة التي كانت سائدة حين استلم ريغان الرئاسة ربما لم تكبح الحوافز للعمل أو الاستثمار، لكن حرفت وشوهت القرارات الاستثمارية ـ وأدت فعلا إلى صناعة مبذرة قائمة على إنشاء الملاجئ الضريبية. وفي حين وفرت

الرعايــة الاجتماعية بالتأكيد العون للعديد مــن المفقرين الأمريكيين، إلا أنها أوجدت بعض الحوافز العكسية فيما يتعلق بأخلاقيات العمل والاستقرار الأسري.

ونظــرا لاضطرار ريغــان إلى سلوك سبيــل التسوية مع كونغرســ خاضع لسيطرة الديمقراطيين، فإنه لن يحقق العديد من أكثر خططه طموحا لتقليص دور الحكومة. لكنــه غير تغييرا جوهريا تعابير ومفردات الجدل السياسي. إذ أصبحت ثورة الطبقة الوسطى الضريبية ثابتةً دائما في السياسة الوطنية ووضعت سقفا لمدى توسع التدخل الحكومي. وبالنسبة للعديد من الجمهوريين، تحول عدم التدخل في السوق إلى منظومة اعتقادية محددة لتفكيرهم.

وبالطبــع، استمــر العديد من الناخبين في التطلــع إلى الحكومة طلبا للعون خلال حقب الانكماش الاقتصادي، ودعوة بيل كلينتون إلى مزيد من العمل الحكومي الجريء والتدخلــي في الاقتصــاد ساعدته في الوصــول إلى البيت الأبيضــ. لكن بعد الهزيمة السياسية الكارثية لخطــة الرعاية الصحية وانتخاب كونغرس جمهوري عام 1994، اضطر كلينتون إلى قصقصة طموحاته، برغم تمكنه من إضافة منظور تقدمي جديد إلى بعض من أهداف ريغان. ومع نهاية حقبة الحكومة التدخلية، وقع كلينتون مشروع إصلاح نظام الرعاية الاجتماعية ليصبح قانونا، وضغط من أجل تخفيض الضرائب علــى الطبقة الوسطى والعمال الفقراء، وعمــل على تقليص البيروقراطية والروتين. كلينتــون هــو الذي سينجز ما عجــز عنه ريغان، حين رتب شؤون بيــت مال الأمة، مع تقليل الفقــر وتوظيف استثمارات جديدة (متواضعــة) في التعليم وتدريب العاملين. وبحلــول الوقت الذي غــادر فيه البيت الأبيض، بدا وكأن نوعــا من التوازن قد تحقق ـ حكومة أقــل تدخلا، لكنها احتفظت بشبكة الأمان الاجتماعي التي نصبها روزفلت أول مرة.

لكــن الرأسمالية لا تقف جامدة ساكنة. لربما نجحت سياسات ريغان وكلينتون في إزالــة بعض الترهل من جســم دولة الرعاية الاجتماعية الليبراليــة، لكنها لم تستطع تغيــير الوقائع والحقائق الأساسية للمنافســة العالمية والثورة التكنولوجية. فالوظائف ما زالت تنتقل إلى الخارج ـ لا في مجال التصنيع فقط، بل على نحو متزايد في قطاع

الخدمـات التي يمكـن بثها رقميا، مثل برمجة الحاسب. ومـا زالت الأعمال التجارية تعاني تكاليف الرعايـة الصحية المرتفعة. وما زالت أمريكا تستورد أكثر مما تصدر، وتقترض أكثر مما تقرض.

في غياب أي فلسفة حكومية واضحة، ردت إدارة بوش وحلفاؤها في الكونغرس عبر دفع الثورة المحافظة إلى خاتمتها المنطقية ـ مزيد من التخفيضات الضريبية، ومزيد من إلغاء القواعد التنظيمية، وتصغير شبكة الأمان. لكن الجمهوريين باتخاذهم هذه المقاربة يخوضـون المعركة الأخيرة في الحرب التي شنوهـا وكسبوها في الثمانينيات، في حين يجبر الديمقراطيون على اتخاذ موقف الدفاع، والمنافحةعن خطط البرنامج الجديد الذي أطلق في الثلاثينيات.

لم تعـد أي من الإستراتيجيتين تعمل. إذ لا تستطيع أمريكا منافسة الصين والهند بمجرد تخفيض النفقات وتقليص التدخل الحكومي ـ إلا إذا كنا على استعداد لتحمل تراجـع حاد في مستويـات المعيشة، مع مدن تختنق بدخـان المصانع ومتسولين يملؤون الشـوارع. لا تستطيع أمريكا المنافسـة بمجرد إقامة حواجز تجارية ورفع الحد الأدنى من الأجور ـ إلا إذا كنا على استعداد لمصادرة جميع أجهزة الكمبيوتر في العالم.

لكـن يجب أن يمنحنـا تاريخنا الثقة. فليس علينا الاختيار بين نظـام اقتصادي قمعي تقـوده الحكومة وبين نظام رأسمالي فوضوي يفتقـر إلى التسامح. فهو يخبرنا أن بمقدورنا الخروج من أعظم وأخطر الاضطرابات الاقتصادية أقوى وأصلب عودا. وعلـى شاكلـة أولئك الذين سبقونا، يجب أن نسأل أنفسنا مـا الخلطة السياسية التي تفضـي إلى سوق حـر دينامي وأمن اقتصــادي واسع النطـاق، وروح ابتكارية مبادرة ومغامرة، وحراك اجتماعي صاعد؟. يمكننا أن نهتدي دوما بحكمة لينكولن البسيطة: لن ننجز جماعيا، عبر حكومتنا، إلا تلك المهمات التي لا نستطيع إنجازها على المستوى ذاته (أو لا نستطيع إنجازها على الإطلاق) بصورة فردية وخاصة.

بكلمات أخرى، يجب أن نستهدي بما ينجح.

كيـف يبـدو هذا الإجماع الاقتصــادي الجديد؟ لن أدعي امتـلاك جميع الأجوبة، فمناقشة السياسة الاقتصادية للولايات المتحدة بالتفصيل سوف تملأ عدة مجلدات.

لكن أستطيع تقديم بضعة أمثلة على كيفية التحرر من إسار ورطتنا السياسية الراهنة؛ حيث نستطيع وفقا لتراث هاميلتون ولنكولن، الاستثمار في بنيتنا التحتية وشعبنا؛ بطرائق نتمكن عبرها من تحديث وإعادة بناء العقد الاجتماعي الذي جمع روزفلت أجزاءه معا أول مرة في منتصف القرن الماضي.

لنبدأ بتلك الاستثمارات التي يمكن أن تجعل أمريكا أكثر قدرة على المنافسة في الاقتصاد العالمي: الاستثمارات في التعليم والعلوم والتقانة واستقلالية الطاقة.

احتل التعليم طوال تاريخنا جوهر الاتفاق الذي عقدته هذه الدولة مع مواطنيها: إذا عملت بجد ودأب وتحملت المسؤولية، سوف تتاح لك فرصة حياة أفضل. وفي عالم تحدد فيه المعرفة القيمة في سوق العمل، حيث يجب على الطفل في لوس أنجلوس التنافس لا مع الطفل في بوسطن فقط، بل مع ملايين الأطفال في بنغالور وبكين، والعديد من مدارس أمريكا لا تلتزم بدورها في الاتفاق.

في عام 2005، قمت بزيارة إلى مدرسة ثورنتون تاونشيب الثانوية، التي تقع في الضواحي الجنوبية من شيكاغو ومعظم طلابها من السود. كان العاملون معي قد تعاونوا مع المدرسين لتنظيم لقاء مع الشباب المحليين ـــ أمضى ممثلون عن كل صف أسابيع في إجراء مسوح لاكتشاف القضايا التي تهم وتشغل زملاءهم الطلاب، ثم تقديم النتائج عبر سلسلة من الأسئلة التي توجه إلي. تحدثوا في الاجتماع عن العنف في الأحياء ونقص أجهزة الكمبيوتر في صفوفهم. لكن قضيتهم الأولى كانت كما يلي: لأن المدارس العامة لا تستطيع تحمل عمل المدرسين طوال اليوم، فإن الدوام في مدرسة ثورنتون ينتهي في الواحدة والنصف ظهرا. ونتيجة اختصار البرنامج، لا يجد الطلاب وقتا كافيا للعمل في المخبر أو حضور دروس اللغة الأجنبية.

سألني الطلاب لماذا لا نحصل على حقنا الكامل؟ إذ لا يتوقع أحد منا على ما يبدو دخول الجامعة، كما قالوا.

يريدون مزيدا من المدارس.

تعودنـا مثل هذه القصص، عن أطفال فقـراء من السود واللاتين يعانون ويضعف نشاطهـم في مدارس عاجـزة عن إعدادهـم للاقتصـاد الصناعي القـديم، فضلا عـن عصر المعلومـات. لكن مشـكلات نظامنا التعليمـي لا تنحصر في أحيـاء مدننا الداخلية. فأمريكا تشهـد الآن واحدا من أعلى معدلات التسرب من المدارس الثانوية في العالم الصناعي. فعند وصول طلاب المدارس الثانوية إلى سنتهم الأخيرة تنخفض درجاتهـم في اختبارات الرياضيات والعلوم عن معظم أترابهم من الطلاب الأجانب. ونصـف المراهقين لا يفهمون مبـادئ الكسور الأساسية، ونصف مـن هم في التاسعة مـن العمـر لا يستطيعون إجـراء عمليات الضـرب أو القسمة البسيطـة. ومع أن عدد الطـلاب الأمريكيين الذين يجرون امتحانات الدخـول إلى الجامعة أكثر من أي وقت مضـى، إلا أن نسبة 22% منهم فقط مستعدون ومهيئون لتلقي دروس اللغة الإنكليزية والرياضيات والعلوم على مستوى الجامعة.

لا أعتقد أن الحكومة وحدها قادرة على قلب هذه الإحصائيات رأسا على عقب. إذ يتحمـل الآباء المسؤولية الرئيسة عن غرس أخلاقيات العمل الدؤوب والجد والاجتهاد والإنجاز التعليمي في نفوس أبنائهم. لكن الآباء على حق حين ينتظرون من حكومتهم، عـبر المدارس العامة، لعب دور الشريك الكامل في العمليـة التعليمية ـ كحال الأجيال السابقة من الأمريكيين.

لسـوء الحظ، فإن ما شهدناه من الحكومة طوال عقدين من السنين مجرد محاولات ترقيعيـة تفتقـد الإتقان، وتساهلا مـع النوعية المتوسطـة من الإنجاز، بـدلا من ابتكار إصلاحـات جريئـة لمدارسنـا ـ إصلاحـات تتيح للطـلاب في مدرسة ثورنتـون المنافسة للحصول على وظائف في غوغل. يعود جزء من السبب إلى المعارك الأيديولوجية المتوقعة بقـدر ما هي عتيقة تجاوزها الزمن. إذ يقدم العديد من المحافظين الحجة على أن المال عامل غير مهم في رفع مستوى الإنجاز التعليمي؛ وأن المشكلات في المدارس العامة ناجمة عن البيروقراطيات المنكودة ونقابات المعلمين العنيدة؛ وأن الحل الوحيد هو كسر احتكار الحكومة لقطاع التعليم عبر نظام القسائم (حيث يتسلم كل طفل في سن المدرسة مبلغا معينـا من المال يمكـن لأبويه وفقا له اختيـار مدرسة عامة أو خاصـة لتعليمه). في هذه

الأثناء، كثيرا ما يجد اليساريون أنفسهم يدافعون عن وضع قائم يتعذر الدفاع عنه، حين يصرون بإلحاح على أن مزيدا من الإنفاق سوف يحسن وحده النتائج التعليمية.

كلا الافتراضين خاطئ. المال عامل مهم فعلا في التعليم ـ وإلا فلماذا يدفع الآباء هذه التكاليف الباهظة للعيش في الضواحي التي تضم مدارس ممولة تمويلا جيدا؟ ـ ما زالت مدارس عديدة في المناطق الحضرية والريفية تعاني مشكلة الصفوف الدراسية المكتظة، والكتب العتيقة التي تجاوزها الزمن، والمعدات والتجهيزات القديمة، والمعلمين الذين يضطرون لشراء التجهيزات الأساسية من جيوبهم. لكن يتعذر إنكار حقيقة أن أسلوب إدارة العديد من المدارس العامة يمثل مشكلة كبيرة تعادل على الأقل مشكلة التمويل.

مهمتنا إذن هي تحديد تلك الإصلاحات التي كان لها أبلغ الأثر في إنجاز الطلاب، وتمويلها بدرجة كافية، وإلغاء تلك البرامج التي لم تعط النتائج المتوخاة. وفي الحقيقة، لدينا دليل دامغ على الإصلاحات التي نجحت: منهاج مدرسي أكثر تحديا وحيوية وصرامة يشدد على الرياضيات والعلوم ومهارات التعلم؛ ساعات أطول وأيام أكثر لمنح الأطفال ما يحتاجونه من وقت وانتباه مستمر للتعلم؛ التعليم المبكر (في مرحلة الطفولة) لكل طفل، بحيث لا يتخلف عن الركب عند التحاقه بالمدرسة؛ تقويمات هادفة ومرتكزة على الأداء يمكن أن توفر صورة كاملة لعمل الطالب؛ توظيف وتدريب مديرين قادرين على إحداث التغيير ومدرسين مؤهلين وفاعلين وأكفاء.

النقطة الأخيرة ـ الحاجة إلى مدرسين أكفاء ـ تستحق التوكيد. فقد أظهرت الدراسات التي أجريت حديثا أن أهم عامل في تحديد إنجاز الطالب ليس لون بشرته أو من أين أتى، بل مَنْ مدرسه. ولسوء الحظ فإن العديد من مدارسنا تعتمد على مدرسين يفتقرون إلى الخبرة والتدريب في المواد التي يدرسونها، وكثيرا ما يتركز هؤلاء في المدارس التي تعاني المشكلات. فضلا عن ذلك، تزداد الحالة سوءا: ففي كل سنة تعاني المدارس نزيفا من المدرسين المؤهلين وذلك مع وصول جيل حقبة ارتفاع معدل المواليد (1946 ـ 1965) إلى سن التقاعد، ولا بد من توظيف مليوني مدرس في العقد القادم لتلبية حاجات زيادة معدلات الالتحاق بالمدارس.

لا تتمثل المشكلة في عدم الرغبة في دخول سلك التدريس؛ فأنا أقابل باستمرار شبابا تخرجوا للتو في أفضل الجامعات ووقعوا عقود العمل مدة سنتين، عبر برامج مثل «التدريس من أجل أمريكا»، في أصعب وأقسى المدارس العامة مقابل رواتب زهيدة. فهم يجدون العمل مفيدا إلى حد استثنائي؛ والتلاميذ الذين يدرسونهم يستفيدون من قدراتهم الإبداعية وحماستهم. لكن بحلول نهاية السنتين، يغير معظمهم المهنة أو ينتقلون إلى مدارس الضواحي - وذلك كعاقبة للرواتب المتدنية، وغياب الدعم من البيروقراطية التعليمية، والشعور السائد بالعزلة.

إذا كنا جادين في بناء نظام القرن الحادي والعشرين للمدارس، علينا أخذ مهنة التدريس على محمل الجد. وهذا يعني تغيير عملية منح الشهادات للسماح للمتخصص في الكيمياء الذي يريد التدريس بتجنب الدورة الإضافية المكلفة؛ وجمع المدرسين الجدد مع المخضرمين والمتمرسين لكسر جدار العزلة حولهم؛ ومنح المدرسين الذين ثبتت كفاءتهم وأهليتهم مزيدا من التحكم فيما يجري في صفوفهم المدرسية.

ويعني أيضا منح المدرسين ما يستحقونه من أجر. فليس ثمة سبب يدعو إلى تحديد سقف الراتب الذي يتقاضاه المدرس الخبير والكفء والمؤهل والفاعل بمئة ألف دولار سنويا خلال ذروة عطائه. فالمدرسون الذين يتمتعون بدرجة عالية من الخبرة والكفاءة في مجالات حاسمة الأهمية مثل الرياضيات والعلوم - إضافة إلى أولئك الراغبين في التدريس في مدارس المدن التي تعاني أقسى الظروف - يجب أن ينالوا رواتب أعلى.

هنالك مشكلة واحدة خفية. فمقابل مزيد من المال، على المدرسين أن يتحملوا مزيدا من مسؤولية أدائهم - والمدارس العامة بحاجة إلى التمتع بقدرة أكبر على التخلص من المدرسين الذين يفتقدون الكفاءة والأهلية.

حتى الآن، عارضت نقابات المعلمين فكرة ربط الأجر بالأداء، لأن ذلك سيعتمد على رأي ونزوة المدير. وهي تقدم الحجة، الصائبة باعتقادي، على أن معظم المدارس تعتمد حصرا على درجات الاختبار لقياس أداء المدرسين، وقد تعتمد هذه الدرجات

اعتمـادا كبيرا على عوامل خارجة عـن سيطرتهم، مثل عدد الطلاب من ذوي الدخل المحدود أو ذوي الاحتياجات الخاصة في الصف.

لكـن هـذه لا تعد مشـكلات مستعصيـة. فعند العمل مـع نقابـات المعلمين، يمكن للولايـات والمدارس وضع معايـير أفضل للأداء، تجمع بيانـات ومعطيات الاختبار مع نظام قائـم على مراجعة الأنداد (يمكن لمعظم المدرسـين أن يحددوا بدرجة مدهشة مـن الاتساق المدرسـين الأكفاء فعلا في مدارسهم وأولئك الذيـن يفتقدون الكفاءة). ونستطيـع تيقن أن المدرسين غير الأكفاء لم يعـودوا يمثلون عقبة تعيق الطلاب الذين يريدون التعلم.

في الحقيقـة، إذا أردنـا توظيف الاستثمارات المطلوبة لترميـم وإصلاح مدارسنا، فإننـا سنحتـاج إلى إعـادة اكتشـاف إيماننا بـأن كل طفل قادر علـى التعلم. حظيت منـذ مدة قريبة بفرصـة زيارة مدرسـة دودج الابتدائية، في منطقـة ويست سايد في شيكاغو، وهي مدرسة كانت متخلفة وفقا لكل معيار ومقياس، لكنها الآن تمر بمرحلة تغـير وتحول. وحين كنت أتحـدث مع بعض المدرسين عن التحديـات التي يواجهونها، ذكرت مدرسة شابة ما دعته «متلازمة هؤلاء الأطفال» ـ استعداد المجتمع للعثور على مليون عذر وذريعة لما يلي: لماذا «لا يستطيع هؤلاء الأطفال التعلم؟»؛ وكيف «أتى هؤلاء الأطفال من خلفيات تتسم بالقسوة»؟؛ أو «هؤلاء الأطفال متخلفون جدا»

قالـت لي المدرسـة: «عندمـا أسمع هذا التعبـير يجن جنوني. فهـم ليسوا «هؤلاء الأطفال بل هم أطفالنا»

إن أداء اقتصاد أمريكا في السنوات القادمة ربما يعتمد غالبا على مدى إخلاصنا في اعتناق هذه الحكمة.

لا يمكـن لاستثمارنا في التعليم أن ينتهي مع تحسن حال نظام مدارسنا الابتدائية والثانويـة. ففي ظـل اقتصاد مرتكز علـى المعرفة، حيث تتطلب ثمان مـن أسرع تسع مهـن نموا في هـذا العقد مهارات علميـة أو تقانية، ومعظم العمـال سيحتاجون نوعا من التعليـم العالي لملء الوظائف في المستقبل. ومثلما أسست حكومتنا مدارس ثانوية

عامة، مجانية وإلزامية، في بداية القرن العشرين لتزويد العمال بالمهارات المطلوبة للعصر الصناعي، يجب على حكومتنا اليوم مساعدة القوة العاملة على التكيف مع وقائع وحقائق القرن الحادي والعشرين.

من جوانب عديدة، يجب أن تكون مهمتنا أسهل مما كانت عليه بالنسبة لصناع السياسة قبل مئة سنة. لسبب واحد هو وجود شبكة من الجامعات والكليات المتوسطة معدة بشكل جيد لاستيعاب مزيد من الطلاب. والأمريكيون بالتأكيد لا يحتاجون إلى من يقنعهم بقيمة التعليم العالي ـ نسبة الشباب البالغين الذين حصلوا على شهادة الليسانس ارتفعت ارتفاعا ثابتا كل عقد من السنين، من زهاء 16% عام 1980 إلى قرابة 33% اليوم.

ما يحتاج إليه الأمريكيون على الفور هو التصدي لمشكلة ارتفاع تكلفة التعليم الجامعي ـ وهذا أمر مألوف لنا، أنا وميشيل (طوال السنوات العشر الأولى من زواجنا زاد ما دفعناه معا من أقساط لسداد دين رسوم الدراسة في الجامعة وكلية الحقوق على أقساط البيت بهامش كبير). وخلال السنوات الخمس الماضية، ارتفعت رسوم الدراسة في كليات السنوات الأربع العامة، بعد حساب معدل التضخم، بنسبة 40%. ومن أجل امتصاص هذه التكاليف، يلجأ الطلاب على نحو متزايد إلى الاستدانة، وهذا يحبط العديد منهم ويمنعهم من العمل في مهن أقل مردودا مثل التدريس. ويقدر عدد الطلاب الذين يختارون كل سنة عدم الالتحاق بالجامعة رغم أهليتهم بسبب عدم قدرتهم على دفع الرسوم بمئتي ألف.

هنالك عدد من الخطوات التي يمكن أن نتخذها للسيطرة على التكاليف وتحسين قدرة الطلاب على الوصول إلى مرحلة التعليم العالي. إذ تستطيع الولايات وضع حد لزيادة الرسوم الدراسية السنوية في الجامعات العامة. وفيما يتعلق بالعديد من الطلاب غير التقليديين، ربما توفر الكليات المهنية والدورات التعليمية على الإنترنت خيارا عالي المردود لإعادة الإعداد والتأهيل في اقتصاد دائم التغير. ويمكن للطلاب الإصرار على أن تركز مؤسساتهم التعليمية جهودها في جمع التبرعات على تحسين نوعية وجودة التدريس بدلا من بناء ملاعب رياضية جديدة لكرة القدم.

لكن بغض النظر عن مدى نجاحنا في السيطرة على التكاليف المتزايدة للتعليم، ما زلنا بحاجة إلى تقديم معونات مباشرة للعديد من الطلاب والآباء لدفع نفقات الدراسة الجامعية، عبر المنح أو القروض الميسرة، أو حسابات الادخار التعليمية المعفاة من الضرائب، أو السماح بطرح الضريبة كاملة من رسوم التعليم والدراسة. حتى الآن، ما يزال الكونغرس يتحرك في الاتجاه المعاكس، عبر رفع معدلات الفائدة على قروض الطلاب المكفولة اتحاديا، وعدم زيادة حجم المنح المقدمة للطلاب من ذوي الدخل المحدود لمسايرة التضخم. لا يوجد مبرر لمثل هذه السياسات - خصوصا إذا أردنا الحفاظ على الفرص والحراك الاجتماعي الارتقائي بوصفهما معلما مميزا للاقتصاد الأمريكي.

هنالك جانب آخر لنظامنا التعليمي يستحق الذكر - جانب يقبع في صميم قدرة أمريكا التنافسية. فمنذ أن وقع لينكولن قانون موريل* وأنشأ نظاما يمنح الأراضي لتأسيس الجامعات والكليات، أصبحت مؤسسات التعليم العالي أهم مختبرات البحث والتطوير في أمريكا. ومن خلال هذه المؤسسات استطعنا تدريب المبتكرين والمخترعين وإعدادهم للمستقبل، حيث وفرت الحكومة الاتحادية دعما حاسم الأهمية للبنية التحتية — من مختبرات الكيمياء إلى أجهزة تحريك الجسيمات المشحونة بسرعة عالية - والمال الضروري للأبحاث العلمية التي ليست لها تطبيقات تجارية مباشرة، لكن يمكن أن تؤدي في نهاية المطاف إلى تحقيق اختراقات علمية كبرى.

هنا أيضا تحركت سياساتنا في الاتجاه الخاطئ. ففي حفل تخرج أقامته جامعة نورث ويسترن عام 2006، تحدثت مع الدكتور روبرت لانغر، أستاذ الهندسة الكيميائية في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا وأحد أبرز العلماء الأمريكيين. لانغر ليس مجرد أكاديمي يعيش في برج عاجي - فهو يملك أكثر من خمسمئة براءة اختراع، وأبحاثه أدت إلى تحسين كل شيء: من تطوير ضمادة النيكوتين إلى معالجة سرطان الدماغ. وحين كنا في انتظار بدء المراسم، سألته عن عمله الحالي، فذكر أبحاثه في

* قانون أجازه الكونغرس عام 1862 منح بموجبه 12000 هكتار من الأرض لكل عضو من الأعضاء الممثلين للولايات، يخصص 90% منها لتأسيس الكليات والجامعات التي تدرس العلوم الزراعية والميكانيكية. (م)

مجال هندسة الأنسجة، التي تعد بأساليب جديدة وأكثر فاعلية في امتصاص الجسم للدواء. وعندما تذكرت الجدل الخلافي الذي احتدم منذ مدة قريبة حول أبحاث الخلايا الجذعية، سألته: هل شكل تحديد إدارة بوش لعدد خطوط الخلايا الجذعية أكبر عقبة أمام التقدم الذي يمكن تحقيقه في مجاله؟ هز رأسه.

قال لانغر: «مزيد من خطوط الخلايا الجذعية سيكون مفيدا بالتأكيد، لكن المشكلة الحقيقية التي نراها هي تخفيض المنح الاتحادية بدرجة كبيرة» وأضاف مفسرا إن نسبة تراوحت بين 20 ـ 30% من جميع اقتراحات الأبحاث تلقت دعما اتحاديا مهما قبل خمسة عشر عاما. لكن النسبة انخفضت الآن إلى 10%. وفيما يتعلق بالعلماء والباحثين، فإن ذلك يعني قضاء مزيد من الوقت في جمع التبرعات، وتخصيص وقت أقل لإجراء الأبحاث. ويعني أيضاً قطع مزيد من القنوات البحثية الواعدة كل سنة ـ خصوصا الأبحاث المحفوفة بالخطر التي قد تغل أعظم المكافآت في نهاية المطاف.

لم يكن الدكتور لانغر فريدا في ملاحظاته. ففي كل شهر يزور العلماء والمهندسون مكتبي لمناقشة تضاؤل التزام الحكومة الاتحادية تمويل البحث العلمي الأساس. فخلال العقود الثلاثة الأخيرة انخفض تمويل العلوم الفيزيائية والرياضية والهندسية كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي ـ في الوقت الذي زادت فيه البلدان الأخرى الميزانيات المخصصة للبحث والتطوير لديها. ومثلما أشار الدكتور لانغر، كان لتراجع دعمنا للأبحاث العلمية الأساسية تأثير مباشر على عدد الشباب الذين يلتحقون بكليات الرياضيات والعلوم والهندسة ـ وهذا يساعد في تفسير السبب الذي يجعل الصين تخرج ثمانية أضعاف عدد المهندسين في الولايات المتحدة كل سنة.

إذا أردنا اقتصادا ابتكاريا خلاقا، يولد مزيدا من الشركات الشبيهة بغوغل كل سنة، علينا أن نستثمر في مبدعي ومبتكري المستقبل لدينا ـ عبر مضاعفة التمويل الاتحادي للأبحاث العلمية الأساسية خلال السنوات الخمس القادمة، وتدريب مئة ألف من المهندسين والعلماء الإضافيين خلال السنوات الأربع القادمة، أو تقديم منح بحثية جديدة لأبرز الباحثين الشباب في مستهل حياتهم المهنية. أما السعر

الإجمالي للحفاظ علـى تفوقنا العلمي والتقاني فيناهز 42 مليار دولار خلال خمس سنـين - وهـو مبلغ ضخم فعلا، لكنـه لا يتجاوز نسبة 15% مـن الفاتورة الاتحادية المخصصة حديثا للطرقات.

بكلمـات أخرى، بمقدورنا فعل ما يجب فعلـه. فما نفتقده ليس المال، بل الإحساس الوطني بالحاجات الملحة.

آخـر استثمـار حاسم الأهميـة وضروري لجعل أمريـكا أكثر قدرة علـى المنافسة يجـب توجيهه إلى البنيـة التحتية للطاقة بحيـث نتحرك باتجـاه استقلالية الطاقة. في الماضـي، هـزت الحرب أو تهديد الأمن القومي المباشـر أمريكا فخرجت من حالة القناعـة والرضى ووظفـت استثمارات كبيرة في التعليم والعلـم، وعينها على تقليص نقـاط الضعـف والانكشاف. هذا ما حدث في ذروة الحرب البـاردة، حين أدى إطلاق القمـر الصناعي السوفييتـي سبوتنيك إلى الخوف من أن يسبقنـا السوفييت تقانيا. وردا علـى ذلك، ضاعـف الرئيس ايزنهاور العـون الاتحـادي إلى التعليم ووفر لجيل كامل من العلمـاء والمهندسين التدريب الذي يحتاجونه لتحقيق تقدم ثوري. في السنة ذاتهـا، أسست وكالة مشروعات أبحاث الدفـاع المتقدمة، وقدمت مليارات الدولارات إلى الأبحـاث العلميـة الأساسيـة التـي ستساعد في نهايـة المطاف علـى إنشاء شبكة الإنترنـت، والكود القضيبي، والتصميم بواسطـة الكمبيوتر. وفي عام 1961، سيطلق الرئيس كنيدي برنامج أبوللـو الفضائي، ليلهم جيل الشباب في مختلف أرجاء البلاد دخول الحدود الجديدة للعلم.

حالتنا الراهنة تتطلب اتخاذ المقاربة ذاتها فيما يتعلق بالطاقة. فليس من المبالغة القـول إن الدرجـة التي يبلغهـا اعتمادنا علـى النفط تقـرر مستقبلنـا. ووفقا للجنة الوطنيـة المعنية بسياسة الطاقـة، سيقفز طلب الولايات المتحدة علـى النفط، إذا لم تحـدث أي تغيـيرات على سياستها النفطيـة، بنسبة 40% خلال السنـوات العشرين القادمـة. وخلال المدة ذاتهـا، يتوقع أن يقفز الطلب العالمي علـى الأقل بنسبة 30%، وذلك مع توسيـع البلدان المتطورة بسرعة، مثل الصين والهنـد، طاقاتها الصناعية، وإضافة 140 مليون سيارة إلى شوارعها.

اعتمادنـا على النفط لا يؤثر في اقتصادنا فقط لكـن يضعف أمننا القومي أيضا. فهنالـك جزء كبير من مبلـغ الثمانمئة مليون دولار الذي ننفقـه على النفط المستورد كل يوم يذهب إلى أنظمة متقلبة وغير مستقرة، مثل نيجيريا وفنزويلا، وإيران بشكل غـير مباشـر على الأقل. وبغض النظر هل هي أنظمـة استبدادية تخفي نوايا نووية أو توفـر ملاذا آمنا للمدارس الدينيـة التي تزرع بذور الإرهاب في أذهان الشباب ـ فهي تحصل على أموالنا لأننا نحتاج إلى نفطها.

والأسوأ أن احتمـال انقطاع واردات النفط يظل احتمالا قويا. ففي الخليج العربي، حاولـت «القاعدة» مهاجمة مصافي النفط غير المحمية حماية جيدة طوال سنين؛ وأي هجـوم ناجح على إحـدى المنشآت النفطيـة في الخليج يمكن أن يسبـب إرباكا شديدا للاقتصاد الأمريكي. وأسامة بن لادن نفسه نصح أتباعه بتركيز عملياتهم على النفط، خصوصا في العراق ومنطقة الخليج، لأن ذلك سيصيب (الأمريكيين) في مقتل.

وهنالك العواقب البيئية لاقتصادنا المعتمد على الوقود الأحفوري. فكل عالم تقريبا، خـارج البيت الأبيض، يعتقـد أن التغير المناخي يمثل تهديدا حقيقيا وجديا ومتسارعا نتيجـة انبعـاث غاز ثـاني أكسيد الكربون. فـإذا لم يشكل احتمال ذوبـان القلنسوات الجليديـة، وارتفـاع مستويات البحار، وتغيـير أنماط المناخ، وازديـاد عدد الأعاصير وتصاعـد عنفها، وتتابع العواصف الرملية، وموت الغابات والشعب المرجانية، وتزايد انتشار الأمراض التنفسية والأمراض الناجمة عن الحشرات ـ إذا لم يشكل ذلك كله خطرا جديا وداهما فما الخطر إذن؟

حتـى الآن، تركزت سياسـة الطاقة التـي تنتهجها إدارة بوش علـى دعم شركات النفـط الكبرى وتوسيع أعمال التنقيب والحفر - بالاقـتران مع استثمارات رمزية في تطوير وقود بديل. ولربما تعد هذه المقاربة منطقية من الناحية الاقتصادية لو تمتعت أمريكا بموارد نفطية وفيرة ومخزونات لم تستغل بعد يمكن أن تلبي احتياجاتها (وإذا لم تسجـل شركات النفط أرباحا قياسيـة). لكن مثل هذه الموارد لا توجد. إذ لا تملك الولايـات المتحـدة سوى 3% من مخزون النفـط العالمي. في حـين تستهلك 25% من الاستهلاك العالمي. ولا يمكننا تفادي المشكلة.

ما يمكننا فعله هو إيجاد مصادر للطاقة تكون نظيفة وقابلة للتجدد للقرن الحادي والعشرين. وبدلا من دعم صناعة النفط، يجب أن نوقف كل إعفاء ضريبي خاص تتلقاه الصناعة حاليا ونطالب بنسبة 1% من عائدات شركات النفط التي تتجاوز أرباحها مليار دولار كل ثلاثة أشهر لتمويل أبحاث الطاقة البديلة والبنية التحتية الضرورية. ولن تقتصر فوائد ومكاسب مثل هذا المشروع على المنافع الاقتصادية الضخمة، والسياسة الخارجية، والبيئة فقط ـ بل يمكن أن تجسد أداة ووسيلة لتدريب جيل كامل من العلماء والمهندسين الأمريكيين، ومصدرا لصناعات تصديرية جديدة ووظائف مرتفعة الأجر.

هنالك بلدان، مثل البرازيل، أنجزت هذه المهمة. فخلال السنوات الثلاثين الماضية، استخدمت البرازيل مزيجا من القواعد التنظيمية والاستثمار الحكومي المباشر لتطوير صناعة وقود حيوي على درجة عالية من الكفاءة والفاعلية؛ وسبعون بالمئة من السيارات الجديدة تسير بواسطة الإيثانول المستخرج من قصب السكر بدلا من البنزين. ودون تركيز الانتباه الحكومي ذاته، لن تلحق صناعة الإيثانول الأمريكية بالركب. إذ يقدم أنصار السوق الحر الحجة على أن المقاربة الخرقاء التي اتبعتها الحكومة البرازيلية لا مكان لها في الاقتصاد الأمريكي الأكثر ارتكازا على السوق. لكن القواعد التنظيمية، إذا طبقت بمرونة وحساسية تجاه قوى السوق، يمكن فعلا أن تحفز القدرة الابتكارية للقطاع الخاص وتزيد الاستثمار في قطاع الطاقة.

لنأخذ قضية معايير نجاعة وكفاءة وترشيد استهلاك الوقود. فلو رفعنا مستوى هذه المعايير خلال العقدين الأخيرين، حين كان الوقود رخيصا، لاستثمرت شركات السيارات الأمريكية في نماذج جديدة توفر استهلاك الوقود بدلا من السيارات الرباعية الدفع المفرطة في استهلاكه ـ لنجعلها أكثر قدرة على المنافسة حين ارتفعت الأسعار. نحن نرى المنافسين اليابانيين يركزون اهتمامهم على ديترويت. وتخطط تويوتا لبيع مئة ألف من سياراتها الشعبية بريوسيس عام 2006، في حين لن تنافس سيارات جنرال موتورز المهجنة قبل عام 2007. ويمكننا أن نتوقع تفوق شركات مثل تويوتا في منافسة مصنعي السيارات الأمريكيين في سوق الصين البازغة لأن الصين تتبنى معايير أعلى كفاءة في توفير استهلاك الوقود مقارنة بنا.

أهم حقيقة في الوضع الراهن أن السيارات التي تقتصد في استهلاك الوقود وتلك التي تسير على الوقود البديل، مثل (E85) وهو وقود مكون من الإيثانول بنسبة 85%، تمثل مستقبل صناعة السيارات. مستقبل يمكن لشركات السيارات الأمريكية فيه أن تتفوق على منافسيها إذا بدأنا نتخذ بعض الخيارات الصعبة منذ الآن. فقد عارضت شركات السيارات الأمريكية وعمال شركات السيارات المتحدة على مدى السنين وضع معايير مرتفعة لكفاءة استهلاك الوقود لأن إعادة التصميم تكلف مالا، وتعاني ديترويت منذ الآن تكاليف الرعاية الصحية الضخمة للعمال المتقاعدين والمنافسة الحادة. ولذلك، اقترحت خلال عامي الأول في الكونغرس تشريعا سميته «الرعاية الصحية مقابل السيارات المهجنة» مشروع القانون يقترح صفقة مع الشركات الأمريكية المصنعة للسيارات: في مقابل المعونة المالية الاتحادية لتغطية تكاليف الرعاية الصحية للعمال المتقاعدين، تعيد الشركات الثلاث الكبرى استثمار هذه المدخرات في تطوير مزيد من السيارات التي توفر في استهلاك الوقود.

يمكن للاستثمار الجريء في مصادر الوقود البديل أن يؤدي أيضا إلى إيجاد آلاف فرص العمل. وبخلال عشر أو عشرين سنة، يمكن للمصنع القديم في غليزبرغ أن يعيد فتح أبوابه كمصفاة للإيثانول السليلوزي. ويمكن للعلماء في أثناء ذلك العمل في مختبرات الأبحاث على تطوير خلية هيدروجينية جديدة. ويمكن لشركات تصنيع السيارات إنتاج سيارات هجينة. ويمكن للعمال الأمريكيين المدربين على المهارات الجديدة والمتمتعين بتعليم على مستوى عالمي من المدرسة الابتدائية إلى الجامعة، أن يشغلوا هذه الوظائف.

لكن لا نستطيع تحمل التردد مدة أطول. عرفت لمحة في صيف عام 2005 عما يمكن لاتكال الأمة على الطاقة الأجنبية أن يفعله، حين قمت أنا والسيناتور ديك لوغار بزيارة أوكرانيا والتقينا بالرئيس المنتخب حديثا فيكتور يوشينكو. فقد احتلت قصة انتخاب يوشينكو عناوين الأخبار في شتى أرجاء العالم: حيث خاض الانتخابات ضد حزب حاكم ظل أعواما يلبي رغبات روسيا المجاورة، ونجا من محاولة اغتيال، وتزوير الانتخابات، وتهديدات من موسكو، قبل أن ينتفض الشعب الأوكراني أخيرا في «ثورة

برتقاليـة» كاسحـة ـ تمثلت في سلسلة من المظاهـرات السلمية الحاشدة التي أدت في نهاية المطاف إلى تنصيب يوشينكو رئيسا للبلاد.

لا بد أنها كانت مرحلة مؤثرة ومثيرة في الدولة السوفييتية السابقة، فأينما ذهبنا سمعنـا حديثا عن التحرير الديمقراطي والإصـلاح الاقتصادي. لكن في حواراتنا مع يوشينكـو وحكومته، سرعان ما اكتشفنا أن أوكرانيا تواجـه مشكلة عويصة ـ فهي ما زالت معتمدة اعتمادا كليا على روسيا للحصول على ما تحتاجه من نفط وغاز. وكانت روسيـا قـد أشارت إلى أنهـا ستوقف بيع هذه الطاقـة إلى أوكرانيـا بأسعار أدنى من أسعـار السـوق العالمية، وهي خطوة تـؤدي إلى مضاعفة أسعار وقـود التدفئة المنزلية ثـلاث مرات خـلال أشهر الشتاء السابقـة على الانتخابات البرلمانيـة. القوى المؤيدة لروسيـا داخل البـلاد انتظرت الفرصة السانحـة، مدركة أنه علـى الرغم من جميع الخطابـات البلاغية المنمقـة، والرايات البرتقالية الخفاقـة، والمظاهرات الحاشدة، وشجاعة يوشينكو، ما زالت أوكرانيا تحت رحمة سيدها السابق.

الأمة التي لا تستطيع السيطرة على مصادر طاقتها لا يمكن أن تتحكم في مستقبلها. ولربما لا تملك أوكرانيا خيارا واسعا متاحا لها، لكن ذلك لا ينطبق بالتأكيد على أغنى وأقوى دولة على الأرض.

التعليم، والعلـم والتقانة، والطاقة. الاستثمار في هذه القطاعات المفتاحية الثلاثة سيقـوي إلى حـد بعيد قدرة أمريكا التنافسية. وبالطبع، لـن يغل الاستثمار في أي من هذه المجالات نتائج بين عشية وضحاهـا. وكلها خاضعة للجدل والنقاش. فالاستثمار في البحث والتطوير والتعليم يكلف مالا في وقت تعاني فيه ميزانيتنا الاتحادية ضغوطا شديدة. وزيادة كفاءة استهلاك الوقود في السيارات الأمريكية أو البدء بدفع مكافآت الأداء لمعلمـي المدارسـ العامة سيشمل مغالبـة شكوك العاملـين المستعدين منذ الآن للمعركـة. والمجادلات حـول فائدة وحكمة قسائم التعليـم في المدارس أو قابلية خلايا وقود الهيدروجين للتطبيق والنجاح لن تهدأ أو تنحسر قريبا.

لكـن في حين أن الوسائل التي نستخدمها لتحقيق هذه الغايات يمكن أن تخضع للنقاشـ الجاد والحوار المفتوح، يجب أن تخـرج الغايات ذاتها عن نطاق الخلاف

والنزاع. فـإذا عجزنا عن التحرك، سوف يتراجع موقعنا التنافسي في العالم. أما إذا تحركنا بجرأة وشجاعة، فإن اقتصادنا سيكون أقل عرضة لأخطار الاضطراب والفوضى، وميزاننا التجاري سوف يتحسن، وتتسارع وتيرة الابتكارات التكنولوجية الأمريكية، ويقوى موقف العامل الأمريكي وتزداد قدرته على التكيف مع الاقتصاد العالمي.

لكـن هـل يعد ذلـك كله كافيـا؟ لنفترض أننا قـادرون على حل بعض خلافاتنا الأيديولوجيـة والحفاظ على نمو الاقتصاد الأمريكي، فهل أستطيع النظر مباشرة في عيون عمال غيلزبرغ وأخبرهم أن العولمة يمكن أن تفيدهم وتنفع أطفالهم؟

فكـرت في هذا السؤال خلال الجدل الذي احتدم عام 2005 حول اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الوسطى. فحين نأخذ بالاعتبار الاتفاقية بمعزل عن الجوانب الأخرى، نجـد أنها لا تمثل تهديـدا كبيرا للعمال الأمريكيين - إذ لا يزيد حجم اقتصادات دول أمريـكا الوسطى مجتمعة عن حجم اقتصاد نيوهافـن بولاية كنيكتيكوت. لكنها تفتح أسواقـا جديدة للمنتجين الزراعيـين الأمريكيين، وتعد بالاستثمـار الأجنبي المطلوب والضروري في البلدان الفقيرة مثـل هندوراس وجمهورية الدومينيكان. هنالك بعض المشكلات في الاتفاقية، لكنها مفيدة على وجه الإجمال للاقتصاد الأمريكي.

حـين التقيـت بممثلين عن العمـال المنظمـين والنقابيين سمعـت اعتراضهم على الاتفاقية. فبرأيهم، كانت اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية كارثة على العمال الأمريكيـين، والاتفاقيـة الجديـدة لا تختلف عنها. فمـا نحتاج إليه، كمـا قالوا، ليس مجـرد التجارة الحرة بل التجارة النزيهة: وسائل حماية أقوى للعمال في البلدان التي تتاجـر مـع الولايات المتحدة، تشمل الحـق في تشكيل النقابات وحظـر عمل الأطفال؛ ومعايـير محسنة لحماية البيئة في هـذه البلدان ذاتها؛ وإنهـاء الدعم الحكومي غير العـادل للمصدرين وإلغـاء التعريفات الجمركية على الصـادرات الأمريكية؛ وتعزيز حمايـة الملكية الفكرية للولايات المتحدة؛ وفي حالة الصين على وجه الخصوص، إلغاء تخفيضات العملة المتعمدة التي تجعل الشركات الأمريكية في وضع غير مؤات للمنافسة على الدوام.

علـى شاكلـة معظم الديمقراطيـين، أؤيد بقوة هـذه الإجراءات كلهـا. ومع ذلك، شعـرت بأن من واجبي القول لممثلي النقابات إن هذه الإجراءات كلها لن تغير الوقائع والحقائـق الأساسيـة للعولمة. إذ يمكـن لقانون تجاري ينص علـى تقوية وضع العمال وحمايـة البيئة أن يمارس الضغط على البلدان الأخرى لتحسين أوضاع العمال، مثلما تستطيـع الجهـود المبذولة للحصول علـى موافقة تجار التجزئـة الأمريكيين على بيع سلعهـم المنتجـة بأجر عـادل. لكنها لن تلغى الفجـوة الهائلة في الأجـور الساعيّة بين العمال الأمريكيين والعمال في هندوراس أو إندونيسيا أو موزامبيق أو بنغلادش، حيث يعد العمل في مصنع قذر أو منشأة مستغلة خطوة ارتقائية على السلم الاقتصادي.

وعلـى نحو مشابه، فـإن استعداد الصين لرفع قيمة عملتها قـد ترفع قليلا أسعار البضائـع المصنعة هناك، ومن ثم تجعل السلع الأمريكية أكثر منافسة. لكن حتى بعد أن تجـرب الوسائـل كافة، سوف تظل الصـين تتفوق بفائض العمـال في أريافها على نصـف سكان الولايات المتحـدة، وهذا يعني أن وال -مـارت سيبقي مورديه هناك في شغل متواصل زمنا طويلا جدا.

نحتاج إلى مقاربة جديدة للمسألة التجارية، تعترف بهذه الحقائق.

ولسوف إخواني وأخواتي مـن النقابيين رؤوسهم ويقولون: إنهم مهتمون بالحديث معـي حول أفكاري ـ لكن في الوقت ذاته، هل يريـدون مني التصويت بلا على اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الوسطى؟

في الحقيقـة، لم يتغـير الجدل الأساسـ المحيط بالتجارة الحرة كثـيرا منذ أوائل ثمانينيات القرن العشرين، حيـث يخسر العمال وحلفاؤهم المعركة على وجه العموم. فالحكمـة التقليديـة السائـدة هذه الأيـام بين صنـاع السياسـة، والصحافة، وقطاع الأعمـال تقـول أن التجارة الحـرة تحسن حال الكل. وفي أي وقـت، كما تؤكد الحجة، قـد نفقد بعضـ الوظائف ويعـاني السكان المحليـون الألم والمشقة ـ لكـن كلما فقدنا ألـف وظيفة بسبب إغلاق أحد المصانـع، سيتوفر عدد أكبر من الوظائف في قطاعات الخدمات الجديدة والمتوسعة من الاقتصاد.

لكـن مع تسارع خطـى العولمـة، لا تعاني النقابـات وحدها القلق مـن الاحتمالات الضـارة بالعمـال الأمريكيين على المـدى الطويل. فقد لاحظ الاقتصاديـون أن الأمر يتطلـب مزيدا من النمو الاقتصـادي في العالم بأسره كل سنـة، خصوصا في الصين والهنـد، لتوفـير العدد ذاته من الوظائـف، وتلك عاقبة للأتمتة المتزايـدة والإنتاجية المرتفعـة علـى الدوام. بعض المحللـين يتساءلون هل يمكن للاقتصـاد الأمريكي حين يخضـع للمزيد من سيطرة قطاع الخدمات أن يتوقع النمو ذاته في الإنتاجية، ومن ثم ارتفاع مستويـات المعيشة، مثلما حدث في الماضي. في الحقيقة، أظهرت الإحصائيات باستمرار طوال السنوات الخمس الماضية أن أجور الوظائف الأمريكية التي تلغى أعلى من أجور الوظائف التي تنشأ.

وفي حـين أن رفـع مستويات التعليم للعمال الأمريكيين سـوف يحسن قدرتهم على التكيـف مع الاقتصاد العالمي، إلا أن تحسـين التعليم وحده لن يحميهم بالضرورة من المنافسـة المتنامية. وحتى إذا أنتجت الولايات المتحدة ضعف عدد مبرمجي الكمبيوتر لـكل فرد من السكان مقارنة بالصين أو الهند أو بلـدان أوروبا الشرقية، فإن البلدان الأجنبية ستتفوق على الولايات المتحدة في العدد الإجمالي للمبرمجين الذين يدخلون سوق العمل العالمي ـ ويعملون بخمس أجر الموظفين في شركات التقنية.

بكلمات أخرى، صحيح أن التجارة الحرة تضخم الكعكة الاقتصادية العالمية، لكن لا يوجـد قانون يقول إن العمال في الولايات المتحدة سوف يستمرون في اقتناص قطعة أكبر منها.

حين نأخذ هذه الحقائق بعين الاعتبار، يسهل علينا فهم السبب الذي يجعل بعضهم يؤيد وقف العولمة ـ تجميد الوضع الراهن وعزل أنفسنا عن الاضطرابات الاقتصادية. عندما توقفت في نيويورك خلال الجدل حول اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الوسطى، ذكرتُ بعض الدراسات التـي كنت أقرأها أمام روبرت روبن، وزير الخزانة الأمريكي السابـق (في عهد كلينتـون) الذي عرفته خلال حملتي الانتخابيـة. قد يصعب العثور علـى ديمقراطي أكثر ارتباطـا بالعولمة من روبن ـ لم يقتصر الأمـر على كونه واحدا من أكثر المصرفيين نفوذا في وول ستريت طوال عقود فقط، بل ساعد في التسعينيات

في رسم مسار قطاع المال العالمي. وصادف أيضا أنه واحد من أكثر الأشخاص الذين عرفتهم تواضعا وعمقا في التفكير. لذلك سألته هل لبعض المخاوف، التي سمعتها على الأقل من عمال مايتاغ في غيلزبرغ، أساس من الصحة: ليس ثمة سبيل لتجنب انخفاض مستويات المعيشة في الولايات المتحدة على المدى البعيد إذا فتحنا اقتصادنا كلية أمام المنافسة مع العمالة الرخيصة في شتى أرجاء العالم. قال روبن: «هذه مسألة معقدة. فمعظم الاقتصاديين سيؤكدون عدم وجود حد متأصل وثابت لعدد الوظائف الجديدة التي يمكن للاقتصاد الأمريكي توفيرها، إذ لا يوجد حد للإبداع البشري. فهنالك دوما صناعات جديدة، وحاجات جديدة، ورغبات جديدة. أعتقد أن الاقتصاديين على حق. فهذه هي الحالة التي سادت تاريخيا. وبالطبع لا يوجد ضمان بثبات هذا النمط هذه المرة. فمع سرعة التغييرات المتلاحقة في التقانة، وحجم البلدان التي ننافسها، وفروقات التكلفة بين أمريكا وهذه البلدان، قد نشهد ظهور دينامية مختلفة. لذلك أفترض أننا حتى لو اتخذنا جميع الخطوات الصائبة فمن المحتمل أن نظل نواجه بعض التحديات».

قلت: إن العمال في غليزبرغ ربما لا يجدون هذا الجواب مطمئنا.

«قلت إن ذلك محتمل لا مرجح. أميل إلى التفاؤل الحذر بأننا إذا قمنا بترتيب بيتنا وتحسين نظامنا التعليمي، فإن أطفالهم سيكونون بخير. على أي حال، هنالك أمر مؤكد أريد أن أطلع عليه أهالي غيلزبرغ: أي مسعى باتجاه الحمائية سيفرز نتائج عكسية ـ وسيجعل أطفالهم أسوأ حالا»

قدرت اعتراف روبن بأن لدى العمال الأمريكيين سببا مشروعا يدعو للقلق حين يتعلق الأمر بالعولمة؛ وعلى حد علمي فكر القادة العماليون تفكيرا عميقا بالقضية ولا يمكن تجاهلهم بوصفهم يؤيدون السياسة الحمائية كردة فعل انعكاسية.

ومع ذلك، كان من الصعب إنكار رؤية روبن الأساسية: يمكننا محاولة إبطاء العولمة، لكن يتعذر علينا وقفها. الاقتصاد الأمريكي مندمج الآن بالاقتصاد العالمي، والتجارة الرقمية منتشرة إلى حد يصعب عنده حتى تخيل، فضلا عن فرض، نظام حمائي فعال. والتعرفة الجمركية على الفولاذ المستورد قد توفر شيئا من الارتياح

المؤقت لمنتجي الفولاذ الأمريكيين، لكنها ستجعل كل مصنع أمريكي يستخدم الفولاذ في منتجاته أقل قدرة على المنافسة في السوق العالمي. فمن الصعب شراء منتج أمريكي حين تكون لعبة الفيديو التي تبيعها شركة أمريكية قد طورها مهندس برمجيات ياباني وجمعت وغلفت في المكسيك. ولا يمكن لحرس الحدود الأمريكيين حظر مركز لخدمة الزبائن في الهند، أو منع مهندس كهربائي في براغ من إرسال عمله عبر البريد الإلكتروني إلى شركة فيدبيوك*. فيما يتعلق بالتجارة، لم يعد هناك سوى القليل من الحدود الباقية لعرقلتها.

لكن ذلك لا يعني أن علينا أن نرفع أيدينا ونبلغ العمال أن يتدبروا أمرهم بأنفسهم دون عون من جانبنا. سوف أثير هذه النقطة مع الرئيس بوش قرب نهاية الجدل حول اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الوسطى، حين تلقيت أنا ومجموعة من أعضاء الكونغرس دعوة البيت الأبيض لمناقشتها. قلت للرئيس: إنني أؤمن بمنافع وفوائد التجارة، وليس لدي شك بأن البيت الأبيض يستطيع الحصول على الأصوات اللازمة للموافقة على هذه الاتفاقية بالذات. لكنني أكدت أن معارضة الاتفاقية لا علاقة لها بمواصفاتها وشروطها بقدر ما تتعلق بالشعور المتعاظم بعدم الأمان لدى العامل الأمريكي. وإلى أن نجد إستراتيجيات تمكننا من تهدئة مخاوفه، وإرسال إشارة قوية تؤكد وقوف الحكومة الاتحادية إلى جانبه، فإن الإحساس بضرورة اتخاذ سياسة حمائية سوف ينمو ويتعاظم.

أصغى الرئيس بتهذيب ودماثة وقال: إنه مهتم بسماع أفكاري. وفي الوقت ذاته قال إنه يعتمد على صوتي.

لكنني صوت ضد الاتفاقية، التي أجازها الكونغرس بخمسة وخمسين صوتا مقابل خمسة وأربعين. لم أشعر بالارتياح والرضى، لكنني رأيت أنها الطريقة الوحيدة لتسجيل احتجاجي على ما عددته عدم انتباه البيت الأبيض للخاسرين من التجارة الحرة. ومثل بوب روبن، أنا متفائل بإمكانات واحتمالات الاقتصاد الأمريكي على المدى البعيد، وقدرة العمال الأمريكيين على المنافسة في بيئة تسودها

* مدينة في شرق ولاية ايوا على نهر المسيسبي. (م)

التجـارة الحرة ـ لكن بشرط أن نـوزع تكاليف ومكاسب العولمة بأسلوب أكثر عدالة على السكان جميعا.

في آخـر مرة واجهنـا تحولا اقتصاديا على القدر نفسه مـن الاضطراب والخطر، قـاد فرانكلين روزفلت الأمـة إلى عقد اجتماعي جديد ـ عقد بـين الحكومة والأعمال التجاريـة والعمال أدى إلى ازدهار واسع النطـاق وأمان اقتصادي استمرا طوال أكثر من خمسين عاما. وفيما يتعلق بالعامل الأمريكي، اعتمد هذا الأمان على ثلاث ركائز: القـدرة على العثور على عمـل بأجر يكفي لإعالة الأسرة والادخـار للحالات الطارئة؛ مضمومة من المنافع الصحية والمكاسب التقاعدية من رب العمل؛ شبكة أمان حكومية ـــ ضمـان اجتماعي، رعاية صحية للمسنـين وغيرهم، تعويض بطالـة، وبدرجة أقل، حماية من الإفلاس الاتحادي، ومعاش تقاعدي ـ يمكن أن تخفف الصدمة على أولئك الذين يصابون بالنكسات في حياتهم.

مـن المؤكـد أن الدافع وراء عقـد البرنامج الجديد هـذا شمل شعـورا بالتضامن الاجتماعـي: فكرة أن من حق أرباب العمل أن يتلقـوا معاملة نزيهة من عمالهم، وإذا سبـب القـدر أو سوء التقدير تعـثر أي منا، يجب على المجتمـع الأمريكي المبادرة إلى انتشاله من عثرته.

لكـن هذا العقـد مؤسس أيضا على فهم مفاده أن بمقـدور نظام تقاسم المخاطرة والمكافأة تحسين آليات عمل السوق فعلا. لقد فهم فرانكلين روزفلت أن الأجور المناسبة والمكاسـب المقدمـة للعمال يمكن أن توجد قاعدة مـن المستهلكين المنتمين إلى الطبقة الوسطـى قادرة على منح الاستقرار للاقتصاد الأمريكي وتكوين قوة محركة لتوسيعه وتنميتـه. وأدرك أننا جميعا نميل إلى ركوب المخاطـرة في حياتنا ـ لتغيير الوظيفة أو البـدء بمشروع جديد أو الترحيب بالمنافسة من البلدان الأخرى ـ إذا عرفنا أن هناك نوعا من الحماية المتوفرة في حالة الفشل.

هـذا ما وفره الضمان الاجتماعي، واسطة عقد تشريـع البرنامج الجديد ـ شكل من الأمان الاجتماعـي يحمينا من المخاطرة والخطر. نحن نشتري الأمان والضمان

لنـا في السوق علـى الدوام، لأننا بقدر اعتمادنا على الذات نـدرك أن الأمور لا تسير دومـا كمـا هو مخطط لها ــ قد يمرضـ أطفالنا، أو تغلـق الشركة التـي نعمل فيها أبوابهـا، أو يصـاب الأب بالشلل، أو تخسر حقيبة الأسهـم وتهبط قيمتها. وكلما زاد عدد المتمتعين بالضمان والأمان، تعاظمت المخاطرة وامتد الغطاء وتقلصت التكلفة. لكننـا في بعض الأحيـان لا نستطيع شراء الأمان والضمان مـن بعض المخاطرات في السـوق ـ لأن الشركات عادة تجد ذلك غير مربـح. وفي أحيان أخرى، يكون الضمان الـذي نحصل عليه من الوظيفة غـير كاف، ولا يمكننـا شراء المزيد منه دون عون. أو ربما تحل بنا نائبة غير متوقعة فيتبين لنا أننا لا نملك الضمان الكافي. لهذه الأسباب كلهـا، نطلب من الحكومـة التدخل وإنشاء شبكة أمان مشتركـة ـ شبكة تشمل جميع أفراد الشعب الأمريكي.

اليـوم، بـدأ العقد الاجتماعـي الذي ساعد فرانكلـين روزفلـت في إقامته يتداعى وينهـار. وردا على تزايـد المنافسة الأجنبية والضغوط الملحـة التي تمارسها البورصة لزيادة الربحية كل ثلاثة أشهر، يلجأ أرباب العمل إلى الأتمتة وتصغير حجم الشركات ونقـل عمليات الإنتاج إلى خـارج البلاد، وكلها تعرض العمـال لمزيد من خطر فقدان وظائفهم وتضعف قدرتهم على المطالبة برفع الأجور أو زيادة المنافع. ومع أن الحكومة الاتحادية تعرض إعفاءات ضريبية سخية على الشركات التي توفر الضمان الصحي، إلا أن هـذه الشـركات حملـت موظفيها التكاليـف المرتفعة على شـكل رسوم تدريب، ومشاركـة العامـل في دفع أقساط الرعايـة الصحية، وخصم الإعفـاءات الضريبية؛ في الوقـت ذاتـه، لا تقدم نصـف الشركات والمنشـآت التجارية الصغـيرة التي يعمل فيها ملايين الأمريكيـين أي ضمان للموظفين. وبأسلوب مشابه، تتخلى الشركات عن البرنامـج التقاعدي التقليدي لتتبنى الخطط الادخارية (401K)، وفي بعض الحالات تستخدم محكمة الإفلاس للتهرب من الالتزامات التقاعدية القائمة.

التأثير المتراكم على الأسرة حاد ودمر. فأجر العامل الأمريكي في المعدل الوسطي لا يـكاد يساير معدل التضخم خلال العقديـن السابقين. ومنذ عام 1988، تضاعفت تكاليـف الضمان الصحي للأسرة أربع مرات في المعـدل الوسطي. في حين انخفضت

معـدلات الادخـار إلى أدنى حد لها. ولم ترتفـع معدلات الديـون الشخصية إلى هذا القدر من قبل.

وبـدلا من استخـدام الحكومـة لتقليص تأثـير هـذه العوامل والنزعـات، تمثلت استجابة إدارة بوش في مضاعفة هذا التأثير وزيادة حدته. هذه هي الفكرة الأساسية خلف «مجتمع الملكية»: إذا حررنا أرباب العمل من التزاماتهم وواجباتهم تجاه عمالهم وفككنـا ما بقي من «البرنامج الجديد» ـ أي برامـج الضمان الاجتماعي التي تديرها الحكومـة ـــ فإن سحـر السوق سيتولى القيام بـكل شيء. وإذا أمكـن وصف الفلسفة الهادية وراء النظـام التقليدي للضمان الاجتماعي بعبارة «نحن نتمتع بحمايته»، فإن الفلسفة الكامنة وراء مجتمع الملكية هي: «أنت وحدك دون معين»

إنهـا فكرة مغرية، أنيقة في بساطتها، وتحررنا مـن أي التزام تجاه بعضنا بعضا. لكـن ثمة مشكلة واحدة تكمن فيها: لن تنجح ـ على الأقل بالنسبة لمن تخلف عن ركب الاقتصاد العالمي.

لنأخذ مثلا محاولة الإدارة خصخصة الضمان الاجتماعي. فهي تقدم الحجة على أن بمقدور سوق الأوراق المالية (البورصة) تقديم عائد أفضل على الاستثمار للأفراد. الحجـة تبدو صحيحة وصائبـة حين تؤخذ بالإجمال على الأقـل؛ فقد تفوق السوق في الأداء، تاريخيـا، على تعديلات تكاليف غلاء المعيشة علـى الضمان الاجتماعي. لكن القـرارات الاستثماريـة الفردية سوف تفـرز على الدوام رابحـين وخاسرين ـ أولئك الذيـن اشتروا أسهم «مايكروسوفت» في وقت مبكر، والذين اشتروا أسهم «انرون» في وقـت متأخر. فما الـذي يفعله مجتمع الملكية مع الخاسرين؟ إذا أردنا ألا نشاهد كبار السـن يجوعون ويتسولـون في الشوارع، علينـا أن نغطي نفقات تقاعدهـم بطريقة أو بأخرى ـ ولأننا لا نعلم مقدما من الخاسر بيننا، فمن المنطقي أن نعمل جميعا لإنشاء شبكة أمان تضمن حصولنا على دخل كاف في أرذل العمر. هذا لا يعني أن علينا منع الأفراد من تبني إستراتيجيات استثمارية ترتفع فيها نسبة المخاطرة والعائد الربحي. فمـن حقهم تبني مثـل هذه الإستراتيجيات. لكـن يعني أن عليهـم استخدام الأموال المدخرة لا أموال الضمان الاجتماعي.

المبـادئ ذاتها تصح حين يتعلق الأمر بمساعي الإدارة لتشجيع الانتقال من خطط وبرامج الرعاية الصحية المرتكزة على رب العمل أو الحكومة إلى حسابات المدخرات الصحية الفردية. قد تبدو الفكرة منطقية إذا كان المبلغ الإجمالي الذي يتلقاه كل فرد كافيـا لشـراء خطة لائقة للرعاية الصحية عبر رب عملـه، وإذا ساير المبلغ الإجمالي تضخم تكاليف الرعاية الصحية. لكن ماذا يحدث حين تعمل في شركة لا تعرض عليك خطـة للرعاية الصحية؟ وماذا يحدث لو تبين خطأ نظرية الإدارة فيما يتعلق بتضخم تكاليـف الرعاية الصحية ـ إذا تبين أن هذه التكاليف ليست ناجمة عن موقف الناس المتعجـرف تجاه أمورهم الصحية أو عـن رغبة طائشة في شراء أكثر مما يحتاجونه؟ عندئـذ، ستعنـي «حرية الاختيـار» أن يحمـل الموظفون عـبء الزيـادة المستقبلية في تكاليـف الرعاية الصحية، وستتقلص قـدرة أموالهم في حسابات المدخرات الصحية على التغطية سنة بعد أخرى.

بكلمـات أخرى، لا يحاول مجتمع الملكية حتى نشـر مبدأ المخاطرة والمكافأة المميز للاقتصاد الجديد بـين جميع الأمريكيين. بل يكتفي بتضخيـم المخاطرات والمكافآت غـير المتكافئـة في اقتصاد هذه الأيام القائـم على مبدأ الرابح يأخـذ كل شيء. فإذا تمتعـت بالصحة أو الثروة أو كنـت محظوظا، فسوف تصبح أكثر صحة وثروة وحظا. أما إن كنت مريضا أو فقيرا أو عاندك حظك العاثر، فلن تجد أحدا يمد لك يد العون. هـذه ليست وصفة للنمـو الاقتصادي المستدام أو للحفاظ علـى طبقة وسطى قوية في أمريـكا. ومن المؤكد أنها ليست مناسبـة لتمتين اللحمة الاجتماعية. فهي تناقض تلك القيم التي نعول عليها كشعب في نجاح بعضنا بعضا.

لحسـن الحظ، هنالـك مقاربة بديلة، تعيد قولبة العقـد الاجتماعي (الذي وضعه فرانكلين روزفلت) لتلبية احتياجات قرن جديد. ففي كل مجال يعرض العمال الخطر ـــ الأجور، خسارة الوظيفة، التقاعد، الرعاية الصحية ـ هنالك أفكار جيدة ومفيدة، بعضها قديم وبعضها جديد، تستهدف جعل الأمريكيين أكثر أمانا.

لنبـدأ بالأجـور. يؤمـن الأمريكيون بالعمـل ـ لا كمجـرد وسيلة لكسـب الرزق بل كوسيلـة لإعطاء حياتهـم هدفا ووجهة، ونظامـا وكرامة. نظام الرعايـة الاجتماعية

القـديم، «العون للأسرة المعيلة للأطفال»، فشـل غالبا في احترام والتزام هذه القيمة الجوهريـة، وهذا يساعد في تفسير ليس عدم شعبيته لدى عامة الأمريكيين فقط، بل لماذا عزل الذين كان يفترض به أن يساعدهم.

مـن ناحية أخـرى، يؤمن الأمريكيـون أيضا بـأن العمل بدوام كامـل يمكنهم من إعالة أنفسهم وأولادهـم. لكن بالنسبة للعديد من القابعين في قاع السلم الاقتصادي ـــ خصوصا العمال غير المهـرة في قطاع الخدمات المتنامي بسرعـة ـ لم يتحقق هذا الوعد الأساس.

يمكـن للسياسات الحكومية أن تساعد هـؤلاء العمال، دون أن تأثر تأثيرا كبيرا في كفـاءة السـوق. في البداية، يمكننا رفع الحـد الأدنى من الأجور. وقـد يصح القول ـ مثلمـا يؤكد بعض الاقتصاديين ـــ إن أي قفزات عريضة في الحد الأدنى للأجور تمنع أربـاب العمـل من توظيف مزيد من العمال. لكن حين لا يتغير الحد الأدنى خلال تسع سنين، وتكون قوته الشرائية أقل منها عام 1955 بالأسعار الحقيقية للدولار، بحيث لا يكسـب من يعمل بدوام كامل في وظائف الحـد الأدنى للأجور اليوم ما يكفي من المال لانتشالـه من وهـدة الفقر، فإن مثل هـذه الحجج لا تحمل ما يكفي مـن قوة الإقناع. برنامـج ائتمـان ضريبة الدخل المكتسب الذي نادى به رونالـد ريغان ووفر للعمال من شريحـة الحد الأدنى للأجـور دخلا إضافيا عـبر القانون الضريبـي، يجب تحسينه وتوسيعه أيضا، بحيث يمكن لمزيد من الأسر الاستفادة منه.

في سبيـل مساعدة العمال كلهم على التكيف مع اقتصاد سريع التغير، حان الوقت لتحديث نظام تعويض البطالة ومساعدة التعديل التجاري القائم حالياً. وفي الحقيقة، هنالـك عـدد كبير مـن الأفكار الجيـدة المتعلقـة بكيفية إيجـاد نظام أكـثر شمولية للمساعـدة على التعديـل الهيكلي. يمكننا توسيـع مثل هذه المساعـدة لتشمل صناعة الخدمـات، ونوجد حسابـات تعليمية مرنة يمكن للعمـال استخدامها لإعادة التدريب والتأهيـل، أو توفير المساعدة في مجال إعادة التدريـب للعمال في قطاعات الاقتصاد المعرضة لأخطار نقل عمليات الإنتاج قبل أن يخسروا وظائفهم. في اقتصاد يفوق فيه أجر الوظيفة التي تخسرها أجر تلك التي تجدها، يمكننا أيضا تجريب مفهوم ضمان

الأجر، الذي يوفر 50% من الفارق بين أجر الوظيفة القديمة وأجر الوظيفة الجديدة مدة عام أو اثنين.

أخيرا، في سبيل مساعدة العمال على الحصول على أجور مرتفعة ومكاسب ومنافع كافية، نحتاج مرة أخرى إلى تسوية أرض الملعب بين العمال المنظمين وأرباب العمل. ومنذ أوائل الثمانينيات، ظلت النقابات في حالة تراجع مستمر، لا بسبب التغييرات في الاقتصاد فقط، بل لأن قوانين العمل الحالية - وتكوين مجلس إدارة علاقات العمل الوطني - لم توفر للعمال حماية كافية. ففي كل سنة، يتعرض أكثر من عشرين ألف عامل للطرد أو يخسرون أجورهم لمجرد محاولة تنظيم أنفسهم والانضمام إلى النقابات. هذا كله بحاجة إلى تغيير. يجب أن نفرض عقوبات أشد لمنع أرباب العمل من طرد العمال أو التمييز ضدهم بسبب انخراطهم في جهود تنظيمية. وعلى أرباب العمل أن يعترفوا بالنقابة إذا وقعت غالبية الموظفين تفويضا يختارها لتمثيلهم. ويجب أن تكون الوساطة الاتحادية جاهزة لمساعدة رب العمل والنقابة الجديدة على التوصل إلى اتفاق على عقد بينهما ضمن مدة زمنية معقولة.

يمكن للمجموعات التجارية تقديم الحجة على أن تعاظم القوة العاملة النقابية سوف يجرد الاقتصاد الأمريكي من المرونة ومن تفوقه في المنافسة. لكن بسبب تنامي البيئة العالمية التنافسية بالتحديد يمكننا توقع أن يرغب العمال النقابيون بالتعاون مع أرباب العمل - طالما يأخذون نصيبهم العادل من مردود الإنتاجية المرتفعة.

ومثلما يمكن لسياسات الحكومة دعم أجور العمال دون الإضرار بقدرة الشركات الأمريكية على المنافسة، يمكننا تعزيز مقدرتهم على التقاعد بكرامة. يجب أن نبدأ بالتزام الحفاظ على الطبيعة الجوهرية للضمان الاجتماعي وتدعيم قدرته على الوفاء بتعهداته. المشكلات التي يعانيها صندوق الضمان الاجتماعي حقيقية وجدية لكن قابلة للحل. في عام 1983، حين واجه رونالد ريغان ورئيس مجلس النواب تيب أونيل مشكلة مماثلة، اجتمعا معا وصاغا خطة دعمها الحزبان وأدت إلى استقرار النظام طوال السنوات الثلاثين التالية. ولا يوجد سبب يمنعنا من تكرار ذلك الآن.

فيمــا يتعلق بنظام التقاعد في القطاع الخاص، يجــب أن نعترف بتراجع وانحسار خطط المعاشات التقاعدية ذات الفوائد المحددة، لكن مع الإصرار على وفاء الشركات بأي وعود قدمتها لعمالها ومتقاعديها. ويجب تعديل قوانين الإفلاس لدفع المستفيدين مــن المعاشات التقاعدية إلى واجهة خط الدائنــين بحيث لا تستطيع الشركات اللجوء إلى الفصــل 11 لممارســة الغش وحرمان العمال مــن حقوقهم. فضلا عن ذلك، يجب أن تجبر القواعد الجديدة الشركات على تمويل صناديقها التقاعدية، بحيث لا يحمل عبء الفاتورة دافعو الضرائب في نهاية المطاف.

وإذا كان الأمريكيــون سيعتمــدون علــى خطــط المساهمة المحــددة (مثل 401K) لاستكمــال الضمــان الاجتماعي، فــإن على الحكومــة التدخل لجعلهــا متاحة لجميع الأمريكيين وفعالة في تشجيع الادخار. كان المستشار الاقتصادي السابق لبيل كلينتون، جين سبيرلنغ، قد اقترح إنشاء برنامج شامل للخطة (401K)، تقوم بموجبه الحكومة بدفع ما يعادل المساهمات التي تقدمها الأسر المحدودة والمتوسطة الدخل في الحسابات التقاعديــة الجديــدة. في حين اقترح خبراء آخرون خطوة بسيطــة (ومجانية) قائمة علــى إلحاق أرباب العمل بشــكل آلي لموظفيهم في خطط برنامــج (401K) على أدنى مستوى مسموح به؛ ويمكن للموظفين الاختيار بين المساهمة بمبلغ أقل من الحد الأعلى أو عــدم المشاركة على الإطــلاق، لكن الأدلة تظهر ارتفاع معــدلات مشاركة الموظفين ارتفاعــا ملحوظا عند تغيير قاعــدة المشاركة. وبوصف هذه الأفكار استكمالا للضمان الاجتماعــي، يجب أن نأخــذ أفضلها وأيسرهــا ونبدأ التحرك باتجــاه نظام تقاعدي متاح للجميع ومدعم ومعزز ولا يكتفي بتشجيع الادخار فقط بل يمنح الأمريكيين كلهم حصة أكبر من ثمار العولمة.

بقــدر أهمية رفع أجور العمال الأمريكيين وتحسين ضمانهم التقاعدي، ربما تتمثل مهمتنا الملحة في ترميم نظام الرعاية الصحية المتداعي. فخلافا للضمان الاجتماعي، يعــاني البرنامجان الرئيسيان اللذان تمولهما الحكومة للرعاية الصحية (Medicare & Medicaid) انهيــارا حقيقيــا؛ وفي حالة عدم إحــداث أي تغيير، يمكن أن يستهلك البرنامجــان، إلى جانب الضمان الصحــي، قسما كبيرا من اقتصادنا الوطني بحلول

عـام 2050، كما تفعـل الميزانية الاتحادية اليـوم. أما إضافة منافـع الوصفة الطبية الباهظة التكلفة التي لم توفر سوى تغطية محدودة ولم تفعل شيئا للسيطرة على تكلفة الأدوية، فقد زادت الطين بلة. وتحول النظام الخاص إلى عمل ترقيعي يفتقد التنسيق تؤديـه بيروقراطيات عاجـزة وعديمة الكفـاءة، وأعمال كتابية روتينيـة لا نهاية لها، وإنهاك لموفري الخدمة، واستياء المرضى.

في عـام 1993، حـاول الرئيس كلينتـون إنشاء نظام تغطيـة شاملة، لكن محاولته أحبطـت. ومنـذ ذلك الحين، توقف الحـوار العام، مـع أن بعض اليمينيـين يطالبون بجرعـة أقوى من ضبـط السوق عبر حسابات المدخرات الصحية، في حين يؤيد بعض اليساريين خطة للرعاية الصحية الوطنية تشبه تلك القائمة في أوروبا وكندا، ويوصي المختصـون من مختلـف المشـارب السياسية بسلسلة مـن الإصلاحـات المعقولة لكن المتزايدة للنظام الحالي.

لقد حان الوقت لتجاوز هذه الورطة المأزقية والاعتراف ببضع حقائق بسيطة.

نظرا لحجم المبالغ المالية التي ننفقها على الرعاية الصحية (تتجاوز ما تنفقه أي دولـة أخرى)، يجـب أن نتمكن من توفير الرعاية الأساسية لكل فرد أمريكي. لكننا لا نستطيـع مواجهة معدلات التضخم الحالية للرعايـة الصحية كل سنة؛ ويجب احتواء تكاليف النظام برمته، خصوصا برنامجي (Medicare & Medicaid).

مع زيـادة وتيرة تغيير الأمريكيـين لوظائفهم، وتنامي أخطـار تعرضهم للبطالة، والعمـل بدوام جزئي أو العمل لحسابهم الخاص، لا يمكن حصر الضمان الصحي في أرباب العمل وحدهم. ولذلك يجب جعله متحركا ومتنقلا.

يتعـذر على السوق وحده حـل مشاكلنا المتعلقة بالرعايـة الصحية، فقد ثبت، من جهـة، أن السوق عاجز عـن إنشاء شبكات حمايـة كافية لإبقـاء التكاليف في متناول الأفـراد، ولأن الرعاية الصحية مـن جهة ثانية لا تشبه المنتجات أو الخدمات الأخرى (حين يمرض طفلك لا تساوم ولا تبحث عن أفضل صفقة).

أخـيرا، يجب علـى أي إصلاحات نجريهـا أن توفر حوافز قويـة لتحسين الجودة والوقاية ومزيد من الكفاءة في إيتاء الرعاية.

بعد أن نتذكر هذه المبادئ، دعوني أقدم مثالا واحدا على خطة جدية لإصلاح برنامج الرعاية الصحية وكيف تبدو. يمكن البدء بتأسيس هيئة غير حزبية، مثل الأكاديمية الوطنية لمعاهد العلوم الطبية، لوضع خطة أساسية عالية المستوى للرعاية الصحية وتقرير شكلها وكم تكلف. وعند تصميم الخطة النموذجية هذه، تفحص الأكاديمية برامج الرعاية الصحية القائمة وأفضلها إيتاء للرعاية وأعلاها مردودا. على وجه الخصوص، يمكن للخطة النموذجية توكيد الرعاية الأولية وشموليتها، والوقاية، والرعاية بعد الكوارث، والتعامل مع الأمراض المزمنة مثل الربو والسكري. وعلى وجه الإجمال، فإن 80% من الرعاية تتركز على 20% من جميع المرضى، وإذا استطعنا توقي الإصابة بالأمراض أو التصدي لتأثيراتها عبر تدخلات بسيطة مثل تيقن محافظة المرضى على نظامهم الغذائي (الحمية) أو تناول أدويتهم بانتظام، يمكننا تحسين صحة المرضى إلى حد بعيد وتوفير مبالغ كبيرة على النظام.

ومن ثم نسمح للجميع بشراء خطة الرعاية الصحية النموذجية هذه إما عبر شبكة الضمان القائمة حاليا، كتلك التي وضعت للموظفين الاتحاديين، أو بواسطة سلسلة من الشبكات الجديدة التي توضع في كل ولاية. يمكن لشركات التأمين الخاصة (مثل: Blue Cross Blue Shield أو: Aetna) أن تتنافس في توفير الضمان للمشاركين في هذه الشبكات، لكن أي خطة تعرضها يجب أن تستوفي معايير الجودة والتكاليف التي وضعتها الأكاديمية.

ومن أجل تخفيض التكاليف بدرجة أكبر، يجب مطالبة هيئات التأمين وموفري الخدمة الذين يشاركون في برنامجي (Medicare & Medicaid)، أو خطط الرعاية الصحية الجديدة امتلاك سجلات إلكترونية وخدمات إليكترونية وأنظمة حديثة للكشف عن الأخطاء فورا ـ وكلها ستخفض التكاليف الإدارية، وعدد الأخطاء الطبية، والحوادث الضارة إلى حد بعيد (وهذا بدوره سيخفض تكاليف الدعاوى القضائية على سوء الممارسة الطبية). هذه الخطوة البسيطة وحدها يمكن أن تخفض التكاليف الإجمالية للرعاية الطبية بنسبة تبلغ 10%، وتضاعف الادخار كما يؤكد بعض المختصين.

بالمال الذي وفرناه عبر زيادة الرعاية الوقائية وتخفيض النفقات الإدارية وسوء الممارسة، يمكننا أن نقدم المعونة للأسر المحدودة الدخل التي تريد شراء الخطة النموذجية عبر شبكة الولاية، وتفويضها تغطية جميع الأطفال الذين لا يشملهم الضمان الصحي. وإذا دعت الضرورة، نستطيع دفع هذه المعونات عبر إعادة بناء نظام الإعفاء الضريبي الخاص الذي يستخدمه أرباب العمال لتوفير الرعاية الصحية لعمالهم: سيبقون متمتعين بالإعفاء الضريبي على الخطط والبرامج المقدمة للعمال، لكن يمكن تفحص الإعفاء الضريبي فيما يتعلق بخطط الرعاية الصحية المخصصة لكبار المديرين التي لا تقدم أي منافع صحية إضافية.

الهدف من هذا المثال ليس الإشارة إلى وجود صيغة سهلة لإصلاح نظام الرعاية الصحية ـ إذ لا توجد مثل هذه الصيغة. بل يجب معالجة العديد من التفاصيل قبل أن نتحرك قدما نحو خطة كتلك التي أوجزناها آنفا؛ وعلى وجه الخصوص، يجب أن نستوثق من أن إنشاء شبكة أمان جديدة على مستوى الولاية لا تؤدي إلى تخلي أرباب العمل عن خطط الرعاية الصحية التي يوفرونها حاليا لعمالهم. ولربما توجد طرق أخرى أكثر سهولة وأعلى مردودا لتحسين نظام الرعاية الصحية.

يتمثل الهدف في إلزام أنفسنا تيقن شمولية الرعاية الصحية الكافية واللائقة بحيث تغطي جميع الأمريكيين، وهنالك سبل متاحة لتحقيق ذلك دون إنهاك الخزانة الاتحادية أو اللجوء إلى أسلوب التقنين.

إذا أردنا من الأمريكيين مواجهة صعوبات ومشكلات العولمة، سوف نحتاج إلى هذا الالتزام. في إحدى الليالي قبل خمس سنوات، استيقظنا، أنا وميشيل، على صوت بكاء ابنتنا ساشا. كان عمرها لا يتجاوز ثلاثة أشهر، ولذلك لم يكن من غير المعتاد أن تستيقظ في منتصف الليل. لكن كان في بكائها شيء غير عادي، وأقلقني استمراره رغم كل محاولتنا لتهدئتها. في نهاية المطاف اتصلنا بالطبيب، الذي وافق على لقائنا فجرا. وبعد فحص حالتها، قال إنها ربما تعاني التهاب السحايا، وأرسلنا على الفور إلى المستشفى.

تبين أن الطفلة مصابة فعلا بالتهاب السحايا، لكنه من نوع يستجيب للمضادات الحيوية عبر الوريد. ولو لم تشخص حالتها بشكل صحيح وفي الوقت المناسب، لفقدت ربما السمع أو تعرضت حتى لخطر الموت. وهكذا، قضينا أنا وزوجتي ثلاثة أيام مع طفلتنا في المستشفى، نراقب الممرضات يحملنها في حين يعالجها الأطباء بواسطة البزل القطني (إدخال إبرة أسفل النخاع لحقن العقار)، ونستمع لزعيقها، ونصلي كي لا تسوء حالتها.

ساشا سعيدة وبصحة جيدة الآن وقد بلغت الخامسة من العمر. لكن مازلت أرتجف عندما أتذكر تلك الأيام الثلاثة؛ كيف ضاق العالم أمامي وانحصر في نقطة واحدة، وكيف فقدت الاهتمام بكل شيء وكل شخص خارج الجدران الأربعة لغرفة المستشفى — عملي ومواعيدي وحتى مستقبلي. فخلافا لتيم ويلر، عامل مصنع الفولاذ الذي التقيته في غيلزبرغ، وابنه الذي يحتاج إلى عملية زرع كبد، وخلافا لملايين الأمريكيين الذين عانوا محنة قاسية مشابهة، كان لدي عمل وضمان صحي آنذاك.

الأمريكيون على استعداد لمنافسة العالم. نحن نعمل بدأب وجد واجتهاد ونتفوق في ذلك على شعوب العديد من الدول الغنية الأخرى. نحن مستعدون لتحمل مزيد من الاضطراب الاقتصادي وركوب مزيد من المخاطرات الشخصية لنتقدم إلى الأمام. لكن لا نستطيع المنافسة إلا إذا وظفت حكومتنا الاستثمارات اللازمة لمنحنا فرصة الفوز في المواجهة ـ وإذا عرفنا أن عائلاتنا تتمتع بشبكة حماية تمنعها من السقوط على الأرض الصلبة.

هذا اتفاق يجب عقده مع الشعب الأمريكي.

الاستثمار الهادف لجعل أمريكا أكثر قدرة على المنافسة، وإقامة عقد اجتماعي أمريكي جديد — إذا جرى السعي إليه بأسلوب متسق ومتناغم، فإن هذه المفاهيم والأفكار العريضة تشير إلى السبيل الذي يجعل المستقبل أفضل لأطفالنا وأحفادنا. لكن هناك قطعة أخيرة لاستكمال لغز الصورة المقطعة، سؤالا مستعصيا يقتحم كل جدل سياسي في واشنطن.

كيف نؤمن التكاليف؟

في نهاية ولاية كلينتون، كان لدينا جواب. فلأول مرة بخلال ثلاثين سنة تقريبا تمتعنا بفائض ضخم في الميزانية، وتراجع سريع في حجم الدين الوطني. وفي الحقيقة، عبر رئيس مجلس إدارة الاحتياط الفيدرالي، الان غرينسبان، عن القلق من ضرورة التعجل في سداد الديون، ومن ثم الحد من قدرة النظام الاحتياطي على إدارة السياسة المالية. وحتى بعد انفجار فقاعة شركات الـ «دوت كوم» واضطرار الاقتصاد لامتصاص صدمة الحادي عشر من سبتمبر، كان بمقدورنا تعزيز النمو الاقتصادي المستدام وتوفير فرصة أوسع لجميع الأمريكيين.

لكن ذلك لم يكن السبيل الذي اخترناه. فقد قال لنا رئيسنا بدلا من ذلك إن بمقدورنا خوض حربين اثنتين في آن معا، وزيادة ميزانيتنا العسكرية بنسبة 74%، وحماية وطننا، وإنفاق المزيد على التعليم، وصياغة خطة جديدة لوصفات الدواء لكبار السن، والبدء بجولات متلاحقة من التخفيضات الضريبية الضخمة، في وقت واحد. وقال لنا زعماء الكونغرس إن بمقدورهم تعويض العائد الضائع عبر تقليص الهدر الحكومي والتزوير والغش، حتى مع زيادة مشروعات إرضاء وإغراء الناخبين بنسبة مذهلة بلغت 64%.

تمثلت نتيجة هذا الإنكار الجماعي للحقائق في أخطر وضع عانته الميزانية منذ سنين. فالعجز السنوي الآن يناهز 300 مليار دولار، دون حساب مبلغ 180 مليار دولار نقترضه كل سنة من صندوق الضمان الاجتماعي، وهذا كله يزيد بشكل مباشر حجم الدين الوطني. الدين يبلغ الآن تسعة تريليونات دولار — أي زهاء 30 ألف دولار لكل رجل وامرأة وطفل في أمريكا.

القلق لا ينجم عن الدين بحد ذاته. فبعضه قد يكون مبررا إذا أنفقنا المال على الاستثمار في تلك القطاعات التي تجعلنا أكثر قدرة على المنافسة - إصلاح مدارسنا، أو زيادة قدرة نظام الموجة العريضة على الوصول إلى الناس، أو وضع مضخات (E85) في محطات الوقود في مختلف أرجاء البلاد. كان بمقدورنا استخدام الفائض في دعم الضمان الاجتماعي أو إعادة بناء نظام الرعاية الصحية. لكن بدلا من ذلك، كان معظم حجم الدين ناجما عن التخفيضات الضريبية التي أعلنها الرئيس، حيث

ذهبـت نسبـة 47.4% منهـا إلى الشريحة التي تتمتـع بأعلى نسبـة 5% من الدخل، و36.7% إلى أعلـى 1% من الدخـل و15% إلى أعلى عُشر 1%، أي أولئك الذين يبلغ دخلهم السنوي 1.6 مليون دولار، أو أكثر.

بكلمات أخرى، استنفدنا بطاقة الائتمان الوطنية بحيث يستطيع أكبر المستفيدين من الاقتصاد العالمي الاحتفاظ بحصة أكبر من الكعكة.

حتـى الآن، تمكنا من النجاة من جبل الدين هذا لأن المصارف المركزية الأجنبية، خصوصـا المصرف المركزي الصيني، تريد منا الاستمـرار في شراء صادراتها. لكن هـذا الائتمـان الميسر لن يستمـر إلى الأبد. ففـي مرحلة من المراحـل، سوف يتوقف الأجانب عن إقراضنا المـال، فترتفع أسعار الفائدة، وننفق معظم مخرجات أمتنا في سداد الدين.

إذا كنـا جادين في تفادي مثل هذا المستقبل، فـإن علينا البدء بإخراج أنفسنا من هـذه الحفـرة. نظريا علـى الأقل، نعرف ما يجـب أن نفعل. إذ يمكننـا وقف البرامج غـير الجوهرية. وكبح جماح الإنفاق على تكاليف الرعاية الصحية. وإلغاء الائتمانات الضريبيـة التي لم تعـد مفيدة، وإغلاق الفجـوات التي أتاحت للشـركات تفادي دفع الضرائـب. ويمكننـا استعـادة القانـون الذي طبق خـلال ولاية كلينتـون وحظر على الخزانـة الاتحادية صـرف المال على شكل إنفـاق جديد أو تخفيضـات ضريبية دون تعويض العائد الضائع.

حتـى إذا اتخذنـا هـذه الخطـوات الإجرائية كلهـا، سيظل من الصعـب الخروج مـن هذا الوضع المـالي المأزوم. ربما علينا تأجيل بعض الاستثمـارات التي نعرف أننا بحاجة إليها لتحسين موقفنا التنافسي في العالم، وإعطاء الأولوية إلى مساعدة الأسر الأمريكية التي تعاني المصاعب.

لكـن حتـى حين نتخذ هـذه الخيـارات الصعبة، يجـب أن نفكـر بالدروس والعبر المستخلصـة مـن السنـوات الماضية ونسـأل أنفسنـا هل تعـبر ميزانيتنـا وسياستنا الضريبية فعلا عن القيم التي نعلن تبنيها.

«إذا كانت هناك حرب طبقية تجري في أمريكا، فإن طبقتي تربحها»

كنت أجلس في مكتب وارن بوفيت، رئيس شركة بيركشر هاثاواي، وثاني أغنى رجل في العالم. سمعت سابقا عن بساطة بوفيت الشهيرة ـ فهو ما يزال يعيش في البيت المتواضع نفسه الذي اشتراه سنة 1967، وأرسل أولاده كلهم إلى مدارس أوماها العامة.

ومع ذلك، فوجئت قليلا حين دخلت مبنى عاديا في أوماها، لأجد نفسي في مكتب خال بدا وكأنه وكالة تأمين، وقد زخرفت جدرانه بخشب صناعي، وبضع صور معلقة. سمعت صوتا يقول: «تعال»، فالتفت إلى الركن لأرى عرّاف أوماها نفسه، يتحدث في أمر مع ابنته سوزي، ومساعدته ديبي، ببذته المجعدة، وحاجبيه الكثين وكأنهما يتهدلان على نظارتيه.

كان بوفيت قد دعاني إلى أوهاما لمناقشة السياسة الضريبية. وأراد على وجه الخصوص معرفة سبب استمرار واشنطن في خفض الضرائب على أشخاص يتمتعون بمثل دخله في حين أن البلد على حافة الإفلاس.

قال ونحن نجلس في مكتبه: «أجريت حسبة قبل بضعة أيام. ومع أنني لم أستخدم أبدا الملاذ الضريبي وليس لدي موظف مسؤول عن التخطيط الضريبي، إلا أنني بعد إضافة الضرائب على الرواتب التي ندفعها، تبين لي أن معدل الضريبة الفعلية التي سأدفعها هذه السنة يقل عن معدل الضريبة التي ستدفعها موظفة الاستقبال عندي. في الحقيقة، أنا واثق من أن معدل الضريبة التي أدفعها يقل عن معدل الأمريكي العادي. وإذا استمر الرئيس في هذا النهج، سوف تنخفض ضرائبي أكثر»

معدلات الضريبة المنخفضة على بوفيت هي عاقبة لحقيقة أن دخله كله تقريبا، مثل معظم الأثرياء الأمريكيين، أتى من أرباح الأسهم ورأس المال، والضريبة المفروضة على دخل الاستثمار ظلت منذ عام 2003 تقف عند نسبة 15%. أما معدل الضريبة على موظفة الاستقبال فهو ضعف ذلك المعدل تقريبا حالما نقتطع منه مبلغ الضمان الاجتماعي. هذا التناقض ظالم وفاحش ولا يستند إلى أي مبادئ أخلاقية من وجهة نظر بوفيت.

قال لي: «السوق الحر هو أفضل آلية ابتكرت لاستخدام الموارد بأكثر الأساليب نجاعة وكفاءة وإنتاجية. والحكومة لا تتميز في هذا السياق على وجه الخصوص. لكن السوق لا يضمن توزيع الثروة بطريقة عادلة أو حكيمة. يجب توظيف جزء من تلك الثروة في التعليم، بحيث تتاح للجيل التالي فرصة عادلة، إضافة إلى صيانة البنية التحتية، وتوفير نوع من شبكة الأمان لأولئك الذين يخسرون في السوق الاقتصادي. ومن المنطقي أن يدفع الذين استفادوا من السوق جزءا أكبر من مكسبهم»

قضينا الساعة التالية نتحدث عن العولمة، وتعويض المديرين التنفيذيين، وتفاقم العجز التجاري، والدين الوطني. أقلقه وأدهشه على وجه الخصوص اقتراح بوش إلغاء الضريبة العقارية، وهي خطوة يعتقد أنها ستشجع أرستقراطية الثروة بدل الجدارة والكفاءة والأهلية.

قال: «حين تلغى ضريبة الأملاك العقارية، فأنت تسلم زمام السيطرة على موارد البلد إلى أشخاص لم يكسبوها. كأنما تختار الفريق الأولمبي لدورة عام 2020 من أطفال جميع الفائزين في دورة عام 2000»

قبل أن أغادر، سألت بوفيت عن عدد زملائه المليارديرات الذين يشاركونه آراءه. فضحك وقال:

«ليس كبيرا. فهم يتبنون فكرة أن ـ المال مالهم ـ، وهم يستحقون الاحتفاظ بكل قرش منه. لكن ما يغيب عن بالهم هو أن الاستثمار العام هو الذي يتيح لنا العيش بالأسلوب الذي نتبعه. خذني أنا على سبيل المثال. فقد تصادف أنني امتلكت موهبة في تخصيص رأس المال. لكن قدرتي على استخدام تلك الموهبة تعتمد اعتمادا كليا على المجتمع الذي ولدت فيه. فلو ولدت في قبيلة من الصيادين، فإن هذه الموهبة لا قيمة لها. فأنا لا أستطيع العدو بسرعة. ولست مفتول العضلات. والمرجح أن أصبح وجبة لأحد الحيوانات البرية»

«لكن حالفني الحظ لأنني ولدت في زمان ومكان قدر فيهما المجتمع موهبتي، ومنحني فرصة التعليم الجيد لتطوير وتنمية تلك الموهبة، ووضع القوانين والنظام

المـالي ليتيـح لي أن أفعل ما أحب فعله ـ وجني أموال طائلة. أقل ما يجب علي فعله هو رد جزء من الدين»

قد يكون من المفاجئ لبعض الناس أن يتحدث أبرز رأسماليي العالم بهذه الطريقة، لكـن آراء بوفيـت لا تمثل بالضـرورة علامة علـى الطيبة أو رقة القلـب. بل تعبر عن فهـم لحقيقة أن مدى نجاحنا في الاستجابة للعولمة لن يقتصر على تحديد السياسات الصائبـة فقـط. بـل إن للأمر علاقـة بتغيير الموقـف، والاستعداد لوضـع مصالحنا المشتركة ومصالح أجيال المستقبل قبل مكاسبنا على المدى القريب.

على وجه الخصوص، علينا التوقف عن الادعاء بأن جميع التخفيضات في الإنفاق متكافئـة، أو أن زيـادات الضرائب متماثلـة. إن إلغاء الدعم للشـركات التي لا تخدم غرضـا اقتصاديا مميـزا وملموسا شـيء؛ وتقليص فوائد ومنافـع الرعاية الصحية للأطفـال الفقراء شيء آخر مختلف كليا. ففـي وقت تتعرض فيه العائلات الأمريكية العاديـة للضربات من كل حدب وصـوب، يصبح الباعث لإبقـاء الضرائب المفروضة عليهـا عند الحد الأدنى باعثا كريما وشريفا وصائبا. أمـا الباعث الأقل كرما وأمانة وصوابا فهو الذي يحث الأغنياء والأقوياء على ركوب موجة المشاعر المعادية للضرائب لأغراضهـم الخاصة، أو الطريقة التي نجح عبرهـا الرئيس والكونغرس ومجموعات الضغـط والمعلقين المحافظين في خلط الأعباء الضريبيـة الحقيقية التي تنوء بحملها الطبقـة الوسطى مع الأعبـاء الضريبية التي يستطيع الأغنيـاء تحملها دون عناء، في أذهان الناخبين.

لم يتبد هذا الخلط المشوش بأوضح صورة منه في الجدل الدائر حول اقتراح إلغاء ضريبـة الأملاك العقارية. فوفقا للصيغة الحاليـة، يمكن لرجل وزوجته توريث عقار ثمنـه أربعة ملايـين دولار دون دفع ضريبة الأملاك العقاريـة؛ وتبعا للقانون الحالي، يرتفـع الرقـم إلى سبعة ملايين عام 2009. لهـذا السبب لا تؤثـر الضريبة حاليا إلا علـى أغنى نسبة نصف مـن 1% من السكان، وأغنى ثلث مـن نسبة 1% من السكان عام 2009. ولأن إلغاء ضريبة الأملاك العقارية سيكلف الخزانة زهاء تريليون دولار، سيكـون من الصعـب العثور على تخفيضـ ضريبي أقل استجابـة لحاجات المواطنين الأمريكيين العاديين، أو مصالح البلد على المدى البعيد.

ومـع ذلك، وبعد عملية ترويج اتسمت بالدهـاء والمكر من جانب الرئيس وحلفائه، تعارضـ نسبة 70% من الأمريكيـين «ضريبة الموت» مجموعات مـن أصحاب المزارع أتـوا لزيارتي، وألحوا بإصرار على أن ضريبـة الأملاك العقارية ستعني نهاية المزارع العائليـة، على الرغم من عجز مكتـب المزارع عن الإشارة إلى مزرعة واحدة تضررت نتيجـة «ضريبـة الموت» في هـذه الأثناء، شرح لي بعض المديريـن التنفيذيين أن من السهـل علـى وارن بوفيت تأييد ضريبـة الأملاك العقارية ـ فحتـى إن بلغت الضريبة علـى أملاكه 90%، سيبقـى لديه بضعة مليارات لتوريثهـا إلى أبنائه ـ لكن الضريبة ظالمة لأولئك الذين تتراوح قيمة أملاكهم العقارية بين 10 ـ 15 مليون دولار «فقط!»

إذن دعـوني أوضـح. ليس لـدى الأغنياء في أمريـكا ما يشتكون منـه. فبين عامي 1971 ـ 2001، ارتفع دخل أغنى شريحة (واحد بالمئة من نسبة 1% من الأمريكيين) زهاء 500%، في حين بقـي الأجر الوسطي وراتب العامل العادي على حالهما تقريبا. توزيـع الثروة كان أقل عدالة، ومستويات الظلم وعـدم المساواة هي الآن أعلى مقارنة بـأي حقبة منذ العصر المذهّب*. تبدت هذه الاتجاهات والنزعات طوال التسعينيات. وتمكنـت سياسـات كلينتون الضريبية مـن إبطائها قليلا. لكـن فاقمتها التخفيضات الضريبية في عهد بوش.

أشـير إلى هـذه الحقائق لا لأهيج الحقـد الطبقي ـ كما تقـول حجج الجمهوريين المتحيـزة. فأنا معجـب بالعديد من الأمريكيين الأثريـاء ولا أحسدهم على نجاحهم. وأعـرف أن غالبيتهم قـد كسبوا ثروتهم بعرق الجبين، عـبر تأسيس شركات وأعمال تجاريـة، وتوفـير الوظائف وتزويـد زبائنهم بالقيمـة. لكن أعتقد ببساطـة أن أولئك الذيـن استفادوا أكثر من غيرهم من هـذا الاقتصاد الجديد قادرون على حمل عبء ضمان أن يمنح كل طفل أمريكي الفرصة لتحقيق النجاح ذاته. ولربما أعاني بعضا من الحساسيـة المميزة لأهالي الغرب الأوسط ورثتها من أمي وأبويها، حساسية يشاركني فيها وارن بوفيت على ما يبدو: في مرحلة ما، تكتفي بما لديك وما حققت، ويمكنك أن

* حقبة في التاريخ الأمريكي (1870-1898) تميزت بتأثير الأثرياء من أصحاب النفوذ في الحكومة والمجتمع. (م)

تستمد القدر ذاته من المتعة من لوحة لبيكاسو معلقة في متحف أو في بيتك، ويمكنك تناول وجبة شهية في مطعم بأقل من عشرين دولارا، وحين تكلف الستائر في بيتك مبلغا يتجاوز راتب الموظف الأمريكي العادي طوال السنة، فإن بمقدورك أن تزيد قليلا الضرائب التي تدفعها.

هذا الشعور تحديدا هو الذي لا نتحمل خسارته ـــ فعلى الرغم من الفروقات الضخمة في الثروة، نحن ننهض ونسقط معا. ومع تسارع خطى التغيير، حيث ينهض بعضهم ويسقط كثيرون غيرهم، يصبح من الأصعب الحفاظ على الشعور المشترك بالقرابة. لم يكن جيفرسون مخطئا كليا حين خشي من رؤية هاميلتون لأمريكا، لأننا بقينا على الدوام في حالة توازن مستمر بين المصلحة الذاتية والمصلحة العامة، بين السوق والديمقراطية، بين تركز الثروة والقوة وإتاحة الفرصة للجميع. لقد فقدنا هذا التوازن في واشنطن، كما أعتقد. فعندما نسعى جميعا لجمع المال للحملات الانتخابية، وتضعف النقابات، ويتشتت انتباه الصحافة، وتمارس مجموعات الضغط نفوذها لمصلحة الأقوياء والأغنياء، تبقى بعض الأصوات المعارضة لتذكرنا بمن نحن ومن أين أتينا، وتؤكد روابطنا التي تجمعنا معا.

ذلك هو المعنى الضمني الكامن في الجدل الذي احتدم عام 2006، حين أطلقت فضيحة رشوة مساعي وجهودا جديدة لكبح نفوذ جماعات الضغط في واشنطن. أحد الاقتراحات تمثل في عدم السماح لأعضاء مجلس الشيوخ بركوب الطائرات الخاصة بسعر الدرجة الأولى في الطائرات التجارية. ومن المؤكد أن الاقتراح سيرفض. ومع ذلك، اقترح الموظفون العاملون معي أن أمتنع ذاتيا عن هذه الممارسة، وذلك بوصفي الناطق باسم الديمقراطيين فيما يتعلق بقضايا الإصلاح الأخلاقي.

فعلت الصواب، لكني لن أكذب؛ فأول مرة قمت فيها بجولة على أربع مدن في يومين على متن طائرة تجارية، شعرت بوخزات الندم. الازدحام في الطريق إلى مطار اوهارا مروع. وحين وصلت إلى هناك، علمت أن الرحلة إلى ممفيس قد تأخرت. وسكب طفل عصير البرتقال على حذائي.

وعندما كنت منتظرا في الطابور، أتى إلي رجل في منتصف الثلاثينيات من العمر، يرتـدي ملابـس رياضية، وقال إنه يأمل أن يفعل الكونغرس شيئا فيما يتعلق بأبحاث الخلايـا الجذعية هـذه السنة، وإنه مصـاب بداء باركنسون لكـن في مرحلة مبكرة، ولديـه طفل في الثالثة من عمره. من المرجح أنه لـن يلعب الكرة معه أبدا. فهو يعرف كما قال أن الأوان قد فات، لكن لا يوجد سبب يدعو شخصا آخر ليعاني ما عاناه.

قلت في نفسي: هذه هي القصص التي تفوتك حين تسافر على متن طائرة خاصة.

- 6 -

الـديـن

بعـد يومين من فوزي بترشيح الحزب الديمقراطي في سباق الكونغرس الأمريكي؛ تلقيت رسالة بالبريد الإلكتروني من دكتور يدرس في كلية الطب بجامعة شيكاغو.

كتب الدكتـور يقول: «أهنئك على فوزك التمهيـدي الساحق والملهم. سررت لأنني صـوت لصالحك، وأنا أفكر بصورة جدية بالتصويت لك أيضا في الانتخابات العامة. أكتب إليك لأعبر عن القلق الذي قد يمنعني في نهاية المطاف من تأييدك»

وصف الدكتور نفسه بأنه مسيحي يفهم التزاماته بوصفها شاملة وإجمالية. وقاده إيمانـه إلى معارضة الإجهاض وزواج المثليين معارضـة قوية، لكن قاده أيضا كما قال إلى مساءلـة عبـادة وثن السوق الحـر واللجوء السريع إلى الحلـول العسكرية اللذين ميزا على ما يبدو معظم السياسة الخارجية للرئيس بوش.

السبـب الذي دعـا الدكتور إلى التفكـير بالتصويت لمنافسـي لم يكن موقفي من الإجهاضـ بحـد ذاته. بل لأنه قـرأ عبـارة استهلالية على موقعي علـى الويب تشير إلى أننـي أحارب «المنظرين اليمينيين الذين يريدون سلـب المرأة حقها في الاختيار» وأضاف قائلا:

> أستشعـر وجود إحساس قوي بالعدالة لديـك، والموقف المزعزع للعدالة في أي نظام سياسي، وأعرف أنك كنت صوت من لا صوت لهم. أستشعر أيضا أنـك شخص نزيه وغير متحيز تقدر قيمـة العقل والمنطق.. وبغض النظر عـن قناعاتـك، إذا اعتقدت حقـا أن معارضـي الإجهاض هـم منظرون مدفوعـون برغبات مشوهة ومنحرفة لإلحـاق الأذى بالنساء، فإنك برأيي لسـت نزيها بـل متحيزا.. تعرف أننا ندخل عصـرا تحتشد فيه احتمالات الخـير والشـر، عصرا نكافـح فيه لاستخلاصـ معنى منطقـي من نظام

سياسـي مشـترك في سياق التعدديـة، عصرا يغيب فيـه اليقين ولا نعرف الأرضية المؤسسة لإطـلاق المزاعم والدعاوي المتعلقة بالآخرين.. لا أطلب منـك في هـذه المرحلة معارضـة الإجهاض، بل التحدث عـن هذه القضية بكلمات نزيهة غير متحيزة.

بحثـت في الموقع وعثرت على الكلمات المسيئـة. لم تكن كلماتي؛ بل كتبها الموظفون الذين يعملون معي لإيجاز موقفي المؤيد لإباحة الإجهاض خلال الانتخابات التمهيدية، في وقـت كان فيه بعض المنافسين يضعـون التزامي تأييد قرار المحكمة العليا (رو ضد ويـد) الـذي أعطى المرأة حقا غير مقيد بالإجهاض خـلال الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل موضع المساءلة. وضمن شرنقة سياسة الحزب الديمقراطي، كان ذلك شعارا معياريـا مصمما لتهييج القاعدة الشعبية. إن فكرة إشراك الطرف الآخر في القضية لا معنـى لهـا، كما تقول الحجـة؛ وأي إبهام لها يعني الضعف ضمنـا، وتواجهه القوى المناهضة للإجهاض بمقاربة وحيدة الهدف ولا تعرف الرحمة، ولذلك يجب ألا تظهر أي ضعف.

لكن عند إعادة قراءة رسالة الدكتور، شعرت بوخزة خجل. أجل، هنالك المتزمتون في حركة مناهضة الإجهاض الذين لا أتعاطف معهم، الذين يحتشدون أمام العيادات أو يمنعـون النساء من دخولها، ويرفعون صور الأجنة الممزقة في وجوههن ويصرخون بأعلى صوتهم؛ الذين يتنمرون ويهددون ويلجؤون إلى العنف أحيانا.

لكـن هـؤلاء المحتجـين المعارضين للإجهاض كانـوا يختلفون عن الذيـن ظهروا بـين الحين والآخـر في اجتماعات حملتـي الانتخابية الحاشدة. فقـد ظهروا عادة في مجموعـات أصغـر حجما في الأماكن القصيـة التي زرناها في الولايـة، وقد ارتسمت علـى وجوههم تعابـير التعب والإنهاك مـع الإرادة والتصميم، حيـث يقفون صامتين متيقظـين خـارج أي مبنى يعقـد فيه الاجتمـاع، رافعين اللافتات المكتوبـة بخط اليد وكأنهـا دروع أمامهـم. لم يلجؤوا إلى أسلوب الزعيـق أو الصراخ لإرباك الاجتماعات وإيقاع الفوضى فيها، مع أنهم أثاروا أعصاب كادر العاملين معي. في أول مرة ظهرت جماعة من المحتجين، دق أفراد فريقي الذين سبقوني إلى المكان جرس الإنذار؛ وقبل

خمس دقائق من وصولي، اتصلوا بسيارتي وطلبوا أن أندس خلسة من المدخل الخلفي كي أتجنب المواجهة.

قلت للسائق: «لا أريد الدخول من الباب الخلفي. قل لهم إننا سندخل من الباب الأمامي».

انعطفنا نحو المرأب فشاهدنا سبعة أو ثمانية محتجين مصطفين على طول الحاجز: عدة نساء متقدمات في السن وعائلة على ما يبدو ــ رجل وامرأة وطفلان صغيران. ترجلت من السيارة وذهبت إلى المجموعة، وقدمت نفسي. صافحني الرجل مترددا وذكر اسمه. بدا أنه في مثل عمري، يرتدي سروال الجينز وقميصا ملونا وقبعة الكرادلة في سنت لويس. صافحتني زوجته لكن النساء المسنات رفضن مصافحتي. أما الطفلان (وكانا في التاسعة أو العاشرة) فقد حدقا إلي بعيون فضولية.

سألت: «أتريدون الدخول إلى المبنى؟».

قال الرجل: «لا شكرا» وناولني كراسا. ثم أضاف: «سيد أوباما، أريدك أن تعلم أنني أوافق على معظم ما ستقوله».

«أقدر ذلك».

«وأعرف أنك مسيحي، ورب أسرة».

«هذا صحيح».

«إذن، كيف تؤيد قتل الأطفال؟».

قلت له إنني أتفهم موقفه، لكنني أخالفه الرأي. وشرحت مفسرا اعتقادي أن قلة من النساء يتخذن قراراً اعتباطياً بإنهاء الحمل؛ وأن أي امرأة حامل تشعر بالقوة الكاملة للقضايا الأخلاقية المعنية وتصارع ضميرها عند اتخاذ القرار المؤلم؛ وأنني أخشى أن يجبر حظر الإجهاض النساء على السعي إلى إجراء عمليات إجهاض غير مأمونة، مثلما فعلن في هذا البلد ذات يوم ومثلما يفعلن في البلدان الأخرى التي تعاقب الأطباء الذين يجرون العملية والنساء اللاتي يجرينها. واقترحت أن من الممكن لنا الاتفاق على طرق كفيلة بتقليص عدد النساء اللاتي يشعرن بالحاجة إلى الإجهاض أصلاً.

أصغى الرجل بتهذيب ثم أشار إلى إحصائيات في الكراس تدرج عدد الأطفال في الأرحام الذين يضحى بهم كل سنة، كما قال. بعد بضع دقائق، قلت إن علي الدخول لإلقاء التحية على المؤيدين والأنصار ودعوت المجموعة مرة أخرى إلى الدخول. رفض الرجل مجددا. وحين استدرت لأذهب، نادتني زوجته.

قالت: «سوف أصلي لأجلك. سوف أصلي لتغير رأيك»

لم يتغير لا رأيي ولا موقفي ذلك اليوم، ولا في الأيام التالية. لكنني تذكرت تلك العائلة حين جاوبت الدكتور وشكرته على رسالته. في اليوم التالي، وزعت الرسالة الإلكترونية على الموظفين والمساعدين وطلبت تغيير المفردات المستخدمة في الموقع بأخرى تعبر بأسلوب واضح لكن بسيط عن موقفي المؤيد لإباحة الإجهاض. في تلك الليلة، قبل أن أذهب إلى السرير، تلوت صلاتي، ودعوت الله أن يساعدني على معاملة الآخرين بالنية الطيبة ذاتها التي أظهرها الدكتور نحوي.

من القضايا المسلم بها أننا، نحن الأمريكيون، شعب متدين. ووفقا لآخر استطلاعات الرأي، تبين أن 95% من الأمريكيين يؤمنون بالله، وأكثر من الثلثين ينتمون إلى إحدى الكنائس، و37% يعدون أنفسهم مسيحيين ملتزمين دينهم، وعدد الذين يؤمنون بالملائكة يفوق كثيرا عدد المعتقدين بالارتقاء والنشوء. ولا ينحصر الدين في أماكن العبادة فقط. فالكتب التي تزعم اقتراب نهاية الزمان تبيع ملايين النسخ. والموسيقى الدينية المسيحية شائعة ومنتشرة على أوسع نطاق، ويبدو أن كنائس كبرى جديدة تظهر يوميا في ضواحي كل مدينة رئيسة، لتوفر لأتباعها كل شيء: من الرعاية النهارية إلى دروس تعلم اليوغا والرقص معا. ورئيسنا يكرر بشكل روتيني كيف غير المسيح قلبه، ولاعبو كرة القدم يشيرون إلى السماء شكرا وحمدا بعد كل هدف يسجلونه.

ليست هذه الموجة من التدين جديدة بالطبع. فقد أتى الحجاج الآباء إلى شواطئنا هربا من الاضطهاد الديني والممارسات الدينية، والتزموا نسختهم المتزمتة من الكالفينية*. أما حركة الإحياء الإنجيلية فقد اكتسحت الأمة مراراً، واستخدمت

* نسبة إلى جون كالفين (1564-1509)، اللاهوتي السويسري (الفرنسي الأصل)، الذي انشق عن الكنيسة الكاثوليكية (1533) ووضع الأركان المؤسسة لما يعرف اليوم بالكنيسة المشيخية. (م)

الدين موجات متلاحقة من المهاجرين لترسيخ حياتهم في عالم جديد غريب. وأطلقت المشاعر الدينية والنشاطية الدينية بعضا من أقوى حركاتنا السياسية، من إلغاء الرق إلى الحقوق المدنية إلى شعبوية السهوب بزعامة وليام جيننغز بريان.

ومع ذلك، إذا سألت قبل خمسين سنة أبرز المعلقين الثقافيين عن مستقبل الدين في أمريكا، فسيقولون لك دون شك إنه في حالة انحسار وتراجع. الدين القديم يذبل ويذوي، كما تؤكد الحجة، ويقع ضحية للعلم، والمستويات الرفيعة من التعليم بين عامة السكان، وأعاجيب التقانة. صحيح أن المواطنين المحترمين ما يزالون يذهبون إلى الكنيسة كل أحد؛ والمبشرين الإنجيليين الذين يستشهدون بالكتاب المقدس للترغيب والترهيب، والمعالجين بالأدعية الدينية ما يزالون ينتشرون في الولايات الجنوبية؛ والخوف من «الشيوعية الملحدة» ربما ساعد في تغذية المكارثية و«الرعب الأحمر»، لكن على الأغلب عُدّت الممارسة الدينية التقليدية ـ والأصولية الدينية بالتأكيد ـ متناقضة مع الحداثة، وملاذا للفقراء والأميين من مشقات ومصاعب الحياة. حتى حملات بيلي غراهام الضخمة عدها الخبراء والعارفون والأكاديميون مفارقة تاريخية غريبة، أثرا بائدا من عصر سابق لا علاقة له بالعمل الجاد لإدارة الاقتصاد الحديث أو صياغة السياسة الخارجية.

بحلول الستينيات، استنتج العديد من زعماء التيار الغالب البروتستانتي والكاثوليكي أن عليهم التكيف مع العصر المتغير إذا أرادوا الإبقاء على المؤسسات الدينية في أمريكا، وذلك عبر مواءمة عقيدة الكنيسة مع العلم، والتوكيد على المبادئ المسيحية الاجتماعية التي تتناول القضايا المادية المتصلة بالظلم الاقتصادي والعنصرية والتفرقة بين الجنسين، والنزعة العسكرية الأمريكية.

ما الذي حدث؟ من ناحية، بالغ المراقبون دوما في الاعتقاد أن الحماس الديني يهدأ ويفتر. في هذا السياق على الأقل كان لانتقاد المحافظين لـ «النخبوية الليبرالية» أساس قوي من الصحة: استقر الأكاديميون والصحفيون ومروجو الثقافة الشعبية في أمان الجامعات والمراكز الحضرية الكبرى، وفشلوا في تقدير أهمية الدور المتواصل الذي لعبته أشكال التعبير الديني كافة في المجتمع في شتى أرجاء البلاد. وفي الحقيقة،

فـإن إخفاق المؤسسات الثقافية المهيمنة في الاعتراف بالدافع الديني في أمريكا ساعد في تعزيـز نوع من المشروع الديني المنظم ليس له نظير يضاهيه في أي مكان من العالم الصناعـي. صحيح أنه محتجب عـن النظر، إلا أنه مفعم بالحيويـة والنشاط في قلب البلاد وفي «حزام الإنجيل»*، عالم مواز بازغ لا يتكون من الكهنة والقساوسة الإحيائيين والناشطـين فقط، بل من محطات الإذاعة والتلفزيون والجامعات ودور النشر ووسائل الترفيه المسيحية، وكلها تتيح للمؤمنين تجاهل الثقافة الشعبية مثلما تتجاهلهم.

إحجـام العديد من الإنجيليين عن دخول معترك السياسة ـ التركيز الداخلي على الخلاص الفـردي والاستعـداد لإعطاء قيصر مـا لقيصر ـ كان سيستمـر إلى ما لا نهايـة لولا الاضطرابات الاجتماعية في الستينيات. ففي أذهان المسيحيين الجنوبيين، بدا قـرار المحكمة الاتحادية البعيـدة بإلغاء الفصل العنصـري متسقا ومنسجما مع قراراتهـا بإلغـاء الصـلاة في المدارس ــ هجوما متعـدد الشعب علـى ركائز الحياة الجنوبيـة التقليدية. وكانت الحركة النسائية، والثـورة الجنسية، وتعاظم ثقة المثليين والشـاذات جنسياً بالنفس، وقرار المحكمة العليـا بمنح النساء الحق في الإجهاض في الأشهـر الثلاثة الأولى من الحمل، تحديا مباشرا لتعاليم الكنيسة فيما يتعلق بالزواج والجنسانية والـدور الصحيح والمناسب للرجل والمرأة. ووجـد المسيحيون المحافظون الذيـن شعـروا أنهـم عرضة للسخريـة والهجـوم أن من المتعـذر عـزل أنفسهم عن الاتجاهـات والميول السياسيـة والثقافية العريضة في البلد. وعلى الرغم من أن جيمي كارتـر كان أول من أدخل مفـردات المسيحية الإنجيلية في قاموس السياسة الوطنية الحديثـة، إلا أن الحزب الجمهوري، بتوكيده المتزايد على الـتراث التقليدي والنظام و«قيـم العائلـة»، كان في أفضل موقـع لجني ثمار اليقظـة الإنجيليـة سياسيا وحشد الإنجيليين ضد التزمت الليبرالي.

مـن الضروري هنا تكرار القصة التي تصف كيف استطاع رونالد ريغان، وجيري فالويـل، وبات روبرتسون، ورالف ريد، وأخـيرا كارل روف وجورج بوش، حشد وتعبئة هـذا الجيش مـن جنود المشـاة المسيحيـين. يكفي القـول إن المسيحيـين الإنجيليين

* منطقة ممتدة عبر الجنوب والغرب الأوسط من الولايات المتحدة حيث تهيمن الأصولية الدينية. (م)

البيض (إلى جانب الكاثوليك المحافظين) يمثلون قلب وروح القاعدة الشعبية للحزب الجمهوري ـ قاعدة أساسية من الأنصار والمؤيدين تحشدها باستمرار شبكة من المنابر ومنافذ وسائل الإعلام استطاعت التقانة تضخيمها. أما قضاياها ـ الإجهاض، زواج المثليين، الصلاة في المدارس، التصميم العاقل للكون، تيري شيافو، إيداع الوصايا العشر في المحاكم والمراكز الإدارية للمقاطعات، التدريس في المنزل، خطط القسائم التعليمية، تكوين المحكمة العليا ـ فهي التي تهيمن على عناوين الأخبار وتمثل واحدا من أكبر خطوط التصدع في السياسة الأمريكية. وأوسع فجوة في الارتباط الحزبي لدى الأمريكيين البيض ليست بين الرجل والمرأة، أو الذين يقيمون في الولايات الحمراء والولايات الزرقاء، لكن بين الذين يذهبون إلى الكنيسة بانتظام والذين لا يدخلونها. في هذه الأثناء، يكافح الديمقراطيون بمشقة للتعامل مع الدين، حتى إن كانت الشريحة الأساسية للناخبين المؤيدين لهم تتمسك بالتوجه العلماني بعناد، وتخشى ـ وهي محقة دون شك ـ من أن أجندة الأمة المسيحية قد لا تفسح مكانا لها أو لخياراتها الحياتية.

لكن التأثير المتزايد لليمين المسيحي لا يمثل سوى جزء من القصة. فلربما استغلت «الأغلبية الأخلاقية» و«الائتلاف المسيحي» سخط واستياء العديد من المسيحيين الإنجيليين، لكن ما هو لافت وملحوظ أكثر قدرة المسيحية الإنجيلية لا على البقاء والاستمرارية فقط، بل على الازدهار والنماء في أمريكا الحديثة المتقدمة تقانيا. وفي وقت تخسر فيه الكنائس البروتستانتية الرئيسة أعضاءها بوتيرة متسارعة، تتوسع الكنائس الإنجيلية اللاطائفية وتكبر بسرعة، وتتمتع بمستويات من الولاء والمشاركة من أعضائها لا تضاهيها بها أي مؤسسة أمريكية أخرى. لقد أصبح الحماس الديني هو التيار الغالب.

هنالك تفسيرات متنوعة لهذا النجاح، تتراوح بين مهارة المبشرين الإنجيليين في ترويج وتسويق الدين وبين الشخصيات الكاريزمية الآسرة لزعمائهم. لكن نجاحهم يشير أيضا إلى طلب على المنتج الذي يبيعونه، جوع إليه يتجاوز إطار أي قضية معينة أو مسألة محددة. ففي كل يوم يبدو أن آلاف الأمريكيين الذين يمارسون حياتهم

العادية ــ يوصلون أبناءهم إلى المدارس، ويذهبون إلى وظائفهم، ويسافرون لحضور لقاءات العمل، ويتسوقون في مراكز التسوق، ويحاولون الحفاظ على نظامهم الغذائي ــ يتوصلون إلى قناعة مفادها أن شيئا ما ينقصهم. يشعرون ويقررون أن عملهم وانشغالهم وممتلكاتهم الدنيوية وتسلياتهم ليست كافية. يريدون إحساسا بوجود هدف، تغييرا مثيرا في حياتهم، شيئا يريحهم من العزلة المزمنة، ويزيل عنهم تعب وإرهاق وكد الحياة اليومية. يحتاجون إلى توكيد يطمئنهم إلى وجود من يرعاهم ويصغي إليهم هناك في السماء ـ وأن مصيرهم ليس العدم.

إن امتلكتُ أي رؤية ثاقبة لهذا التحرك نحو تعميق الالتزام الديني فربما يعود السبب إلى السبيل الذي اخترته.

لم أنشأ في أسرة متدينة. فمع أن جدي وجدتي لأمي اللذين قدما من كنساس عاشا طفولة متدينة: ترعرع جدي في كنف جدين مؤمنين من أتباع الكنيسة المعمدانية بعد أن هجره والده وانتحرت أمه، في حين كان والدا جدتي ـ اللذان احتلا مرتبة أعلى قليلا في تراتبية مجتمع البلدات الصغيرة في حقبة الكساد الكبير (عمل والدها في مصفاة للنفط وكانت والدتها مدرسة) ـ من أتباع الكنيسة الميثودية.

لكن ربما للأسباب ذاتها التي دفعتهما (جدي وجدتي) لمغادرة كنساس والهجرة إلى هاواي، لم يتجذر الدين في قلبيهما أبدا. فقد كانت جدتي عنيدة في عقلانيتها إلى حد رفض قبول كل ما لا تراه رأي العين، أو تلمسه أو تعده أو تحسبه. أما جدي، الرجل الحالم في أسرتنا، فقد امتلك روحا قلقة ربما وجدت ملاذا في الإيمان الديني لولا تلك السمات والصفات ـ تمرد جواني، عجز كامل عن ضبط الشهوات، تسامح عريض مع أخطاء وضعف الآخرين ـ التي منعته من أخذ أي شيء على محمل الجد.

التوليفة التي شملت هذه النزعات والميول ـ عقلانية جدتي الصوانية، ومرح جدي وعجزه عن الحكم الصارم على نفسه أو على الآخرين ـ انتقلت بالوراثة إلى أمي. فتجاربها كطفلة حساسة مولعة بالقراءة، ترعرعت في البلدات الصغيرة في كنساس وأوكلاهوما وتكساس، عززت هذه الشكوكية الارتيابية. وذكرياتها عن المسيحيين

الذيـن عرفتهـم في صباهـا ليسـت محببـة. فمن حـين لآخـر، كانت تتذكـر الدعاة والوعـاظ من مدعـي الفضيلة والتقوى الذيـن يرفضون وينكرون ثلاثـة أرباع البشر بوصفهـم ملاحدة جاهلين قدر عليهـم قضاء الآخرة كلها في جهنـم وبئس المصير ـ والذين يصرون على أن السماوات والأرض خلقت في سبعة أيام، على الرغم من الأدلة الجيولوجية والفيزيائية الفلكية التي تدحض ذلك. تذكرت سيدات الكنيسة المحترمات اللاتـي يسارعن إلى تجنب أولئك اللذيـن لا يستوفون معاييرهن عن السلوك اللائق، حتـى حين يجهدن لإخفاء أسرارهن القـذرة؛ وآباء الكنيسة الذين يجاهرون بالنعوت العنصرية ويخدعون عمالهم ويسلبونهم آخر فلس يملكونه.

برأي والدتي، كثيرا ما يتزيا انغلاق الدين المنظم بلبوس الصلاح والتقوى، وتتستر الوحشية والقمع بعباءة الفضيلة والاستقامة.

هـذا لا يعنـي القول إنهـا لم تزودني بالتعاليـم الدينية. ففي ذهنهـا، تعد المعرفة العمليـة بديانات العالم الكبرى جزءا ضروريا من أي تعليم متوازن ومتطور. في بيتنا، وضـع الإنجيل والقـرآن وأغنية الرب (أشهر نص هندوسـي مقدس) على الرف إلى جانب كتب أساطير اليونان والاسكندناقيين والأفارقة. في عيد الفصح أو عيد الميلاد، كانت أمي تجرني إلى الكنيسة، مثلما تجرني إلى المعبد البوذي، والاحتفال بعيد رأس السنـة الصينية، وضريح الشنتو، والمدافن الأثرية في هـاواي. لكنني دُفعت لأفهم أن مثـل هـذه العينات الدينيـة لا تتطلب التزامـا مستداما من جانبي ـــ لا مشقة التأمل الباطنـي ولا تعب جلد الـذات. الدين تعبير عن الثقافة الإنسانيـة، كما كانت تشرح، لا نبعهـا الوحيـد، واحد من الطرق ـ وليس أفضلها بالضـرورة ـ التي جربها الإنسان للسيطرة على المجهول وفهم الحقائق العميقة المتعلقة بحياتنا.

باختصـار، رأت والدتـي الديـن مـن منظـور الأنثروبولوجيا التـي ستختص بها؛ ظاهـرة يجب التعامل معها باحـترام مناسب، لكن بتجرد مناسـب أيضاً. فضلاً عن ذلـك، نادراً مـا اتصلتُ في طفولتي مع أولئـك الذين يعرضون رأيـا مختلفا اختلافا جوهريـا للدين. غاب والدي غيابا كليا عـن طفولتي، بعد أن طلق أمي حين لم أتجاوز السنتين من العمر؛ وعلى أي حال، مع أن والدي نشأ مسلماً، إلا أنه غدا ملحدا عندما

التقى والدتي، حين اعتقد أن الدين ليس سوى خرافة، مثل شعوذات الأطباء السحرة الذين شاهدهم في القرى الكينية في شبابه.

حين تزوجت والدتي مرة ثانية، كان زوجها إندونيسيا على القدر ذاته من الشك، رجلا يرى الدين مفيدا على نحو خاص من الناحية العملية ليشق المرء طريقه في الحياة. فقد نشأ في بلد والف بسهولة بين دينه الإسلامي وبقايا التقاليد التراثية الهندوسية والبوذية والأرواحية القديمة. وخلال السنوات الخمس التي عشناها مع زوج أمي في إندونيسيا، التحقت أولا بمدرسة كاثوليكية في الحي، ثم بمدرسة إسلامية؛ في الحالتين كلتيهما، كانت والدتي أقل اهتماما بتعليمي تعاليم الدين ومعنى أذان العشاء، من تعليمي جدول الضرب.

لكن على الرغم من علمانية والدتي المعلنة، إلا أنها كانت أكثر امرأة روحانية عرفتها. فقد امتلكت دافعا غريزيا لا يحيد للطيبة والخير والحب، وقضت معظم حياتها تتصرف وفقا لتلك الغريزة، حتى لو سببت الضرر لها. ودون مساعدة النصوص الدينية أو السلطات المرجعية الخارجية، عملت بقوة ودأب على غرس القيم التي يتعلمها العديد من الأطفال الأمريكيين في مدارس الأحد داخلي: الصدق والأمانة والتعاطف مع الآخرين والانضباط وتأخير الإشباع والجد والاجتهاد. كان يغضبها الفقر والظلم، وتزدري أولئك الذين لا يبالون بهما.

والأهم أنها امتلكت إحساسا راسخا بالتساؤل والدهشة، واحتراما للحياة وطبيعتها الثمينة والزائلة، بحيث يمكن وصفها بأنها مؤمنة. خلال اليوم، قد تشاهد لوحة فنية، أو تقرأ بيتا من الشعر، أو تسمع معزوفة موسيقية، فأرى الدموع تترقرق في عينيها. في بعض الأحيان، حين كبرت قليلا كانت توقظني في منتصف الليل لكي أحدق إلى القمر بمنظره الخلاب، أو تطلب مني أن أغلق عيني ونحن نسير معا في الغسق لنسمع حفيف الشجر. كانت تحب أن تأخذ أي طفل لتضعه في حضنها وتدغدغه أو تلعب معه أو تفحص يديه، لتتلمس معجزة تكوين عظامه وعضلاته وبشرته، وتبهجها الحقائق التي تجدها هناك. كانت ترى أسرارا غامضة في كل مكان وتستمتع بغرابة الحياة.

حين أسترجع الماضي بالطبع، أفهم مدى عمق التأثير الذي مارسته روحها في نفسي - كيف أعالتني ورعتني على الرغم من غياب الأب عن المنزل، وكيف أنقذتني من أخطار وصعوبات فترة المراهقة، وكيف أرشدتني، بأسلوب غير مرئي، إلى السبيل الذي اتخذته في نهاية المطاف. ربما ألهب والدي مطامحي الضارية - عبر معرفتي بإنجازاته وإخفاقاته، ورغبتي المكتومة بالفوز بحبه، واستيائي منه وغضبي عليه. لكن إيمان والدتي الجوهري، في طيبة وفضيلة الناس وفي القيمة النهائية لهذه الحياة العابرة التي منحت لكل منا، هو الذي وجه هذه الطموحات. البحث عن توكيد لقيمها هو الذي دفعني لدراسة الفلسفة السياسية، والسعي للعثور على لغة ومنظومات للعمل يمكن أن تساعد في بناء المجتمع وجعل العدالة حقيقة واقعية. والبحث عن تطبيق عملي لتلك القيم هو الباعث وراء قبولي العمل بعد التخرج في ميدان التنظيم الاجتماعي لمجموعة من الكنائس في شيكاغو كانت تحاول مغالبة البطالة والمخدرات واليأس.

سجلت في كتاب سابق الطرائق التي ساعدني عبرها عملي المبكر في شيكاغو على العبور إلى مرحلة الرجولة - كيف شد عملي مع رعاة الكنيسة والناس العاديين عزيمتي على دخول ميدان الحياة العامة، وكيف قوى هؤلاء هويتي العرقية وإيماني بقدرة الفرد العادي على أداء مهمات استثنائية. لكن تجاربي في شيكاغو أجبرتني أيضا على مواجهة معضلة لم تتمكن والدتي من إيجاد حل لها في حياتها: حقيقة عدم وجود مجتمع أو طائفة أو تقاليد مشتركة يمكن أن ترتكز عليها معتقداتي المتجذرة في كياني. المسيحيون الذين عملت معهم رأوا أنفسهم فيّ؛ تأكد لهم أنني أعرف كتابهم وأقاسمهم قيمهم وأرتل أناشيدهم. لكنهم استشعروا أن جزءا مني ظل مراقبا بعيدا ومنفصلا عنهم. أدركت أنه في غياب قالب لمعتقداتي، والتزام واضح بطائفة دينية معينة، سأبقى منفصلا وحرا بالطريقة التي كانت عليها والدتي، لكن وحيدا كما غدت وحيدة في نهاية المطاف.

هنالك ما هو أسوأ من مثل هذه الحرية. عاشت والدتي سعيدة حين عَدَّت العالم وطنها، وجمعت حولها صديقات وأصدقاء على الدوام، وأشبعت حاجتها لوجود معنى من عملها وأولادها. في مثل هذه الحياة، كنت سأرضى أنا أيضا لولا بعض السمات

المعينة التـي ميزت كنيسة السود تاريخيا، سمـات ساعدتني على التخلي عن شكوكي واعتناق الديانة المسيحية.

لقد جذبتنـي قوة التراث الديني الأمريكي الأفريقـي لتحفيز التغيير الاجتماعي. ونتيجـة الضـرورة، كان على كنيسة السـود مساعدة الفرد برمته. ونـادرا ما تمتعت بـترف فصـل الخلاص الفـردي عن الخلاص الجمعـي. وجب عليهـا أن تكون مركز المجتمـع المحلـي السياسـي والاقتصادي والاجتماعـي فضلاً عن الروحـي؛ إذ فهمت بطريقـة حميميـة دعوة الإنجيـل لإطعـام الجائع وسـتر العريان وتحـدي السلطات والقوى والإمارات. في تاريخ هذه الصراعات، تمكنت من رؤية الإيمان الديني بوصفه أكـثر من مجرد مواساة الكليل والعاني أو توقي المـوت؛ كان عاملا فاعلا وملموسا في العـالم. في العمل اليومي للرجال والنساء الذين قابلتهم في الكنيسة، في قدرتهم على «صنـع المستحيـل»، والتشبث بالأمـل والكرامة في أصعب الظـروف، استطعت أن أرى «الكلمة»تتمظهر وتتبدى.

ولربمـا انطلاقا من هـذه المعرفة الحميمة بالمشقة، وتأسيـس الدين على الكفاح، قدمـت لي كنيسـة السود رؤية ثانية: الإيمان الدينـي لا يعني أن الشكوك بعيدة عنك، أو أن تتخلـى عـن تشبثـك بهذه الدنيا. فالعظـة النمطية في كنيسـة السود، قبل وقت طويـل من بثها على شاشات محطات التلفزيـون الدينية والتبشيرية، تعترف صراحة بـأن جميـع المسيحيين (ومنهم رعـاة الكنيسة) لديهم القدر المتوقـع ذاته من الطمع والاستياء والشهوة والغضب الذي يختبره الكل. فالأغنيات الإنجيلية وحركات الجسم والدمـوع والصراخ تشـير جميعا إلى الانطـلاق والتحرر والاعتراف بهـذه العواطف والمشاعـر وأخـيرا توجيهها. في مجتمع السود، تبهت الخطـوط الفاصلة بين الخاطئ ومن حظي بالخلاص؛ فخطايا الذين حضروا إلى الكنيسة لا تختلف كثيرا عن خطايا الذيـن غابوا، ومن ثم يمكن الحديث عنها بـروح الدعابة والإدانة في آن. أنت بحاجة للذهـاب إلى الكنيسـة لأنـك جزء من هـذا العالم، ولسـت منفصلا عنـه؛ والفقراء والأغنيـاء والمذنبـون والأنقياء والأتقياء، بحاجـة إلى الإيمان بالمسيـح لأنهم ارتكبوا ذنوبـا يجب غسلها ـ لأنهم بشر وبحاجة إلى حليف في رحلتهم الصعبة، يسهل عليهم وعورة الطريق ويجعل السبل كلها مستقيمة.

بسبب هذا الفهم المكتشف حديثا ـ الالتزام الديني لا يتطلب مني وقف تفكيري النقدي، وفك الارتباط عن النضال في سبيل العدالة الاقتصادية والاجتماعية، أو التراجع والانسحاب من العالم الذي عرفته وأحببته ـ تمكنت أخيرا من دخول كنيسة الثالوث الأقدس المتحدة في أحد الأيام لأتعمد. كان ذلك خيارا لا كشفا؛ فالأسئلة داخلي لم تختف بشكل سحري. خضعت لإرادة الرب وكرست نفسي لاكتشاف حقيقته.

مناقشة الدين والإيمان نادرا ما تكون سمجة أو خرقاء داخل مجلس الشيوخ. إذ لا يسأل أحد عن ارتباطه الديني؛ ونادرا ما سمعت اسم الرب يستحضر خلال النقاش في القاعة. وقس المجلس رجل حكيم ودنيوي، عمل سابقا رئيسا لقساوسة البحرية، وهو أمريكي أفريقي نشأ في واحد من أعنف أحياء بلتيمور ويؤدي واجباته المحدودة ـ صلاة الصبح، وجلسات دراسة الإنجيل الطوعية، والمشورة الروحية لمن يريدها ـ بروح ودودة وشمولية لا تستثني أو تقصي أحدا. صلاة صباح الأربعاء (مع الفطور) طوعية كليا، يشارك فيها أعضاء الحزبين، ومسكونية (تشمل أتباع جميع الكنائس) (مسؤول الحزب الجمهوري عن إقامتها هو العضو اليهودي نورم كولمان)؛ وأولئك الذين يختارون، طوعا، الحضور ينتقون فقرات من الكتاب المقدس ويناقشونها جماعيا. ولا ريب أن سماع ما يميز حديث حتى أكثر الأعضاء تدينا، مثل ريك سانتوروم أو سام براونباك أو توم كوبورن، من صدق وانفتاح وتواضع ودعابة، حين يتقاسمون مع البقية رحلاتهم الإيمانية الشخصية خلال هذه الجلسات، يغري المرء بالافتراض إن الدين يمارس في السياسة تأثيرا مفيدا وصحيا، ويكبح جماح المطامح الشخصية، ويقي من الرياح العاصفة لعناوين الأخبار والذرائع التبريرية والأنانية السياسية السائدة اليوم.

لكن خارج تخوم الرقة واللطف والتهذيب المحددة للمجلس، يمكن أن ينحدر أي نقاش حول الدين ودوره في السياسة إلى درجة أقل من اللطف والكياسة. خذ على سبيل المثال خصمي الجمهوري السفير السابق الان كيز في انتخابات عام 2004، الذي استخدم حجة جديدة لاجتذاب الناخبين في الأيام الأخيرة من الحملة.

أعلن السيد كيز: «المسيح ما كان ليصوت لمصلحة باراك أوباما لأنه قرر التصرف بطريقة لا يتخيل أحد أن المسيح سيتبعها»

لم تكن تلك المرة الأولى التي يدلي فيها السيد كيز بمثل هذه البيانات والتصريحات. فبعد أن أجبر خصمي الجمهوري الأساسي على الانسحاب في أعقاب افتضاح ملف طلاقه، قرر الحزب الجمهوري في الينوي، بعد أن عجز عن اختيار مرشح محلي آخر، تجنيد السيد كيز لأداء المهمة. وحقيقة أن كيز أتى من مريلاند، ولم يعش أبدا في الينوي، ولم يفز أبدا بانتخابات، وعَدَّه الكثيرون في الحزب الجمهوري مغرورا ومتغطرسا، لم تردع قيادة الحزب الجمهوري في الينوي. أحد زملائي الجمهوريين في مجلس شيوخ الولاية قدم لي تفسيرا واضحا وصريحا لإستراتيجيتهم: «لدينا رجل محافظ أسود تخرج في هارفارد يقف ضد رجل ليبرالي أسود تخرج في هارفارد. ربما لن ينجح، لكن يستطيع على الأقل نزع تلك الهالة عن رأسك»

لم يكن السيد كيز يفتقر إلى الثقة بالنفس. فهو حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة هارفارد، وترعاه جين كيركباترك، سفيرة الولايات المتحدة في المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة (في عهد ريغان)، وحاز شهرة كبيرة لدى عامة الناس حين ترشح مرتين لمجلس الشيوخ عن مقعد ولاية مريلاند، وخاض السباق مرتين للفوز بترشيح الحزب الجمهوري لرئاسة الولايات المتحدة. صحيح أنه هزم في السباقات الأربعة كلها، لكن هذه الهزائم لم تفعل شيئا لتقليص شهرته لدى مؤيديه وأنصاره؛ فبرأيهم بدا الإخفاق الانتخابي إثباتا يؤكد ولاءه الثابت والعنيد لمبادئ المحافظين.

لا شك في أن الرجل خطيب مفوه. إذ يستطيع أن يرتجل فورا خطبة عصماء خالية من الأخطاء النحوية عن أي موضوع. ويقدر خلالها أن يرفع مستوى حدتها وكلماتها النارية، فيهتز جسمه، ويتصبب العرق من حاجبيه، وتطعن أصابعه الهواء، ويعلو صوته الصداح ويرتجف من شدة التأثر وهو يدعو المؤمنين إلى محاربة قوى الشر.

لكـن لسوء حظه، لم يتمكن لا ذكاؤه ولا بلاغته الخطابية من مغالبة بعض العيوب والنواقص التي يعانيها كمرشح. فخلافا لمعظم السياسيين مثلا، لم يبذل السيد كيز أي جهـد لإخفاء ما أعلنه بكل وضوح من تفوق أخلاقـي وفكري. فمع وقفته المنتصبة وأسلوبـه المسرحي الرسمي، ونظرته المحدقة وجفنيه السميكين، بدا مضجرا ومملا. وجمعت شخصيته صفات واعـظ الكنيسة العنصرانية (التي تشدد على أهمية حلول الروح القدس) ووليام بوكلي.

إضافـة إلى ذلك، أعاقت تلك الثقة المفرطة بالنفـس غرائز الرقابة الذاتية لديه التي أتاحت لمعظم النـاس شق طريقهم في الحياة دون الدخول في مشاجرات مستمرة وتبـادل اللكمات. اعتاد السيد كيز قول كل مـا يخطر بباله، واستخدام المنطق العنيد لمتابعـة أي فكرة تأتيه حتى النهايـة. وبسبب الظروف غير المواتية الناجمة عن تأخره في بـدء الحملة، والافتقار إلى التمويل الكافي، ووضعه كسياسي غريب يترشح في غير منطقتـه، أزعـج وأغضب خـلال ثلاثة أشهر فقـط الجميع. فقد دعـا المثليين كلهم، ومنهـم ابنة ديك تشيني، «الأنانيين المنغمسـين في الملذات»، وألح على أن تبني زوجين من المثليين طفلا سيؤدي إلى سفاح الأقارب حتما. واتهم الصحفيين في الينوي بأنهم أداة «لأجنـدة معارضـة الزواج ومناهضـة الحياة» ثم اتهمني باتخـاذ «موقف مالك العبيـد» في دفاعـي عن حقوق الإجهاض، ودعاني بـ «الأكاديمـي الماركسي المتصلب» بسبـب تأييدي للرعاية الصحية الشاملة وغيرها مـن البرامج الاجتماعية ـ وأضاف بأنني لست أمريكيا أفريقيا لأنني لست متحدرا من نسل العبيد. بل استعدى في إحدى المراحـل الجمهوريين المحافظين الذين رشحوه أصلا لمقعد الينوي حين أوصى ـ سعيا وراء أصـوات السود ربما ـ بتعويضات علـى شكل إلغاء تام لضريبة الدخل على جميع السـود المتحدرين من العبيد (علق موقع اليمين المتشـدد في الينوي على الويب قائلاً: «هذه كارثة!» وأضاف «ماذا عن البيض؟!»).

بكلمـات أخـرى، كان الان كيز خصمـا مثاليا؛ وكل ما كان علي فعلـه هو السكوت والبـدء بالتخطيط لمراسم أداء القسم بعد فوزي الأكيـد. ومع ذلك، ومع تقدم مسار الحملـة الانتخابية، وجدت أنه يشغل تفكيري ويزعجني إلى حد لم أعهده قبلا. وحين

كنـا نلتقي خلال الحملة، كثيرا ما كنت أكبح دافعا يستحثني على الهزء به وتعييره أو كسر رقبته. في إحدى المرات، عندما تقابلنا صدفة في موكب عيد الاستقلال الهندي، نكزتـه في صـدره وأنا أناقشه، وكان مسلكا ذكوريا عدائيـا لم أتبعه منذ أيام المدرسة الثانويـة، لكـن كاميرات وسائل الإعـلام التقطته؛ وأعادت عرضـه بالحركة البطيئة علـى شاشة التلفزيون في تلـك الأمسية. وفي المناظرات الثلاث التـي جرت بيننا قبل الانتخابات، كنت معقود اللسان، وحاد الطبع، ومتوترا على غير العادة ـ حقيقة فاتت علـى عامـة الناس غالبا (نظرا لأن مصـيره حسم عند هذه المرحلـة)، لكنها سببت قـدرا غـير قليل من الغم والكرب لبعضـ أنصاري. وكانوا يسألونـني: «لماذا تدع هذا الرجـل يصدمـك ويثير غضبـك؟» فبرأيهم كان السيـد كيز معتوهـا، ومتطرفا، ولا تستحق حججه حتى التفكير فيها.

مـا لم يفهموه هو أنني كنـت مضطرا لأخذ السيد كيز على محمل الجد. فقد زعم التحـدث باسم ديني ـ ومـع أنني لم أكن أحب ما يقوله، لكن وجب علي الاعتراف بأن لبعض آرائه الكثير من المؤيدين داخل الكنيسة المسيحية.

كانـت حجته تسير على النحو التالي: أسست أمريـكا على مبدأين توأمين وهبهما الله همـا الحرية والمسيحية. أمـا الإدارات الليبرالية المتعاقبة فقد اختطفت الحكومة الاتحاديـة وأجبرتهـا على خدمـة المادية الملحـدة ومن ثـم اقتطعت ـ عـبر القواعد التنظيميـة، وبرامج الرعايـة الاجتماعيـة الاشتراكية، وقوانـين الأسلحة، والحضور الإلزامـي في المدارس العامة، وضريبـة الدخل («ضريبة العبيد» كمـا سماها السيد كيز) ـ أجزاء كبيرة من الحرية الفردية والقيم التقليدية. وساهم القضاة الليبراليون في هـذا الانحطاط الأخلاقي عبر تشويه وتحريف التعديل الأول ليعني فصل الكنيسة عـن الدولـة، والموافقـة على جميع أنمـاط السلوك المنحـرف ـ خصوصـا الإجهاض والمثليـة ـ التي تهدد بتدمير العائلة النووية. إذن، كان الجواب على التجديد الإحيائي في أمريـكا بسيطا: يجب إعـادة الدين عموما، والمسيحية علـى وجه الخصوص، إلى مكانـه الطبيعـي في مركز الحياة العامة والخاصة، ورصـف وتدعيم القانون بالمبادئ والأركان الدينية، وتقييد سلطة الحكومة الاتحادية إلى حد بعيد فيما يتعلق بالتشريع في المجالات الموصوفة إما في الدستور أو في الوصايا الإلهية.

بكلمات أخرى، قدم الان كيز رؤية جوهرية لليمين الديني في هذا البلد، مجردة من جميع المحاذير أو التنازلات أو التسويفات أو الاعتذارات. رؤية كانت ضمن شروطها الخاصة متسقة ومترابطة كليا، وزودت السيد كيز بيقين وطلاقة أنبياء العهد القديم. وفي حين وجدتها بسيطة إلى حد يكفي لدحض حججه الدستورية والسياسية، إلا أن قراءته للإنجيل أجبرتني على اتخاذ موقف الدفاع.

كان السيد كيز يقول: يدعي السيد أوباما إنه مسيحي لكنه يؤيد أسلوب حياة يدعوه الإنجيل منكرا.

يقول السيد أوباما إنه مسيحي لكنه يؤيد تدمير الحياة البريئة والمقدسة.

ماذا كان بمقدوري أن أرد؟ القراءة الحرفية المتزمتة للكتاب المقدس حماقة خرقاء؟ وعلى السيد كيز، الكاثوليكي، تجاهل تعاليم البابا؟ عندما رغبت عن الخوض في هذا المجال، قدمت الجواب الليبرالي المعتاد في مثل هذه المجادلات ـ نحن نعيش في مجتمع تعددي، ولا أستطيع فرض آرائي الدينية على الآخر، وأنني أرشح نفسي لمقعد مجلس الشيوخ عن ولاية الينوي لا لمنصب قسيس الينوي.

لكن حتى في هذه الحالة، لم يغب عن ذهني اتهام كيز الضمني ـ رجل تملؤني الشكوك، وإيماني الديني فاسد ومغشوش، ولست مسيحيا تقيا وحقيقيا.



بمعنى من المعاني، عبرت معضلتي مع السيد كيز عن مشكل محير أوسع تواجهه الليبرالية عند الرد على اليمين الديني. فقد علمتنا التسامح مع معتقدات الناس الدينية، طالما لا تسبب ضررا أو تتعدى على حق الآخر في اختلاف الدين. لكن هذا التسامح لم يختبر فيما يتعلق بمدى الرضى الذي تبلغه الطوائف والمجتمعات الدينية في تجنب الاتصال مع المجتمعات الأخرى وحصر الدين في إطار الضمير الفردي.

لكن نادرا ما مورس الدين في عزلة؛ فالدين المنظم، على الأقل، شأن عام. وقد يشعر المؤمنون بأن دينهم يفرض عليهم التبشير به ونشره بقدر ما يستطيعون. وأن الدولة العلمانية تروج قيماً تنتهك معتقداتهم انتهاكاً مباشراً. وربما يريدون من المجتمع الأوسع تصديق آرائهم وفرضها.

وحين يملك الذين يحركهم الدافع الديني الثقة الكافية بالنفس لتحقيق هذه الأهداف على المستوى السياسي، يضطرب الليبراليون وتتوتر أعصابهم. قد يحاول المسؤولون الذين يشغلون مناصب عامة تجنب الحديث عن القيم الدينية برمتها، خوفا من الإساءة إلى الآخرين وجرح مشاعرهم، ويزعمون أن المبدأ الدستوري ـ بغض النظر عن معتقداتنا الشخصية ــ يقيد يدينا فيما يتعلق بقضايا متنوعة: من الإجهاض حتى الصلاة في المدارس (يبدو أن السياسيين الكاثوليك من جيل معين يلتزمون جانب الحذر على نحو خاص، ربما لأنهم أتوا من عصر تساءلت فيه شرائح واسعة من الأمريكيين هل سيتلقى جون كنيدي الأوامر من البابا في نهاية المطاف). بعض أهل اليسار (من غير المسؤولين) يمضون خطوة أبعد، حيث ينكرون الدين علنا بوصفه لا عقلانيا ولا متسامحا، ولذلك فهو خطر - ويلاحظون أن الخطاب الديني، بتشديده على الخلاص الفردي ومراقبة الأخلاق في المجال الخاص، قد زود المحافظين بالغطاء اللازم لتجاهل مسائل الأخلاق العامة، مثل الفقر أو مخالفة القانون من قبل الشركات.

قد تنجح مثل هذه الإستراتيجيات بالنسبة للتقدميين حين يكون الخصم الان كيز. لكن على المدى الطويل، أعتقد أننا نرتكب خطأ حين نخفق في الاعتراف بقوة تأثير الدين في حياة الشعب الأمريكي، ومن ثم نتفادى الحوار الجاد حول كيفية مصالحة الدين مع ديمقراطيتنا التعددية الحديثة.

بادئ ذي بدء، تلك سياسة سيئة. فهنالك شرائح واسعة من المتدينين في أمريكا، تشمل أغلبية من الديمقراطيين. وحين نتخلى عن ميدان الحوار الديني ـ ونتجاهل الجدل حول معنى أن تكون مسيحيا أو مسلما أو يهوديا صالحا طيبا؛ وحين نناقش الدين من منظور أين يجب عدم ممارسته أو كيف، أي بالمعنى السلبي، بدلا من المعنى الإيجابي المتمثل في التزاماتنا تجاه بعضنا بعضا حسب تعاليمه؛ وحين نبتعد عن الاجتماعات الدينية والبرامج الدينية على افتراض أننا لن نلقى الترحيب ـ فإن غيرنا سوف يملأ الفراغ. وأولئك الذين يفعلون ذلك يرجح أن يكونوا من المؤمنين بأكثر الآراء انعزالا وضيقا في الأفق عن الدين، أو يستخدموا الدين وسيلة لتبرير الغايات الحزبية الضيقة.

والأهم أن انزعاج بعض التقدميين من أي إشارة تلميحية إلى التدين أعاقنا غالبا عـن التصدي بفاعلية للقضايـا المطروحة بتعابير أخلاقية. بعضـ المشكلات بلاغية خطابية: حين نشطب لغة الرضى الديني نخسر الصور التخييلية واللغة الاصطلاحية التـي يفهـم بواسطتها ملايـين الأمريكيين مبادئهـم الأخلاقية الشخصيـة والعدالة الاجتماعيـة. لنتصور مثلا خطاب القسم الثاني الذي ألقـاه لينكولن دون إشارة إلى «أحـكام الـرب» أو خطبـة مارتن لوثر كينـغ «لـدي حلم» دون إشـارة إلى «جميع عيال الله» فاستحضـار هؤلاء للحقيقة السامية ساعد في إلهام ما بدا مستحيلاً ودفع الأمة لاعتنـاق فكرة المصير المشترك. وبالطبع، لا يحتكر الدين المنظم الفضيلة، ولا يحتاج المرء إلى أن يكون متدينا لإطلاق دعاوى أخلاقية أو مناشدة الصالح العام. لكن يجب ألا نتجنب إطلاق مثل هذه الدعاوى والمناشدات ـ أو نتخلى عن أي إشارة إلى تقاليدنا الدينية الثرة ـ في سبيل تفادي الإساءة للآخرين.

لكن فشلنا كتقدميين في الاستفادة من الركائز الأخلاقية للأمة لا ينحصر في إطار الخطـاب البلاغي. فخشيتنا مـن التحول إلى «وعاظ» قد تدفعنا إلى التقليل من شأن الـدور الذي تؤديه القيم والثقافة في التصدي لبعضـ من أكثر مشكلاتنا الاجتماعية إلحاحا وأهمية.

علـى الرغم من كل شـيء، ليست مشـكلات الفقر والعنصريـة، والعاطلين من العمـل والمحرومين مـن الضمان والرعاية، مجرد مشـكلات تقنية بحاجة إلى خطة مثاليـة من عشر نقاط. لكنها متجذرة في صميم اللامبالاة المجتمعية وعدم تعاطف الأفـراد ـ الرغبة لدى أولئك المتربعين على قمـة السلم الاجتماعي في الحفاظ على ثرائهـم ومكانتهم مهما كان الثمـن، إضافة إلى اليأس والدمـار الذاتي لدى أولئك الرابضين في قاعه.

سـوف يتطلب حل هذه المشكلات تغييرات في السياسة الحكومية؛ وسيتطلب أيضا تغـيرا في المواقـف والأذهان. أؤمن بضرورة إبعاد السلاح عـن أحياء المدن الداخلية، وأعتقـد أن على زعمائنا الوقـوف في وجه جماعة الضغط المؤيـدة لمصنعي الأسلحة. لكننـي أعتقد أيضا أننـا نعاني من مشكلة أخلاقية، حين يطلـق أحد أفراد عصابات

الشــوارع النار بطريقة عشوائية على حشد من الناس لأنه شعر بأن أحدهم لم يعامله باحــترام. نحــن لسنا بحاجــة إلى معاقبة ذلــك الرجل على جريمته فقــط، بل علينا الاعــتراف بأن لديه مشكلــة يعانيها، وأن البرامج الحكوميــة وحدها قد لا تتمكن من إصلاحــه. أؤمــن بالتطبيق الصارم لقوانيننا التي لا تميز بــين المواطنين؛ وأن صحوة الضمير والالتزام الحقيقي بالتنوع من كبار المسؤولين والمديرين يمكن أن يعطي نتائج سريعــة لن تعطيهــا كتيبة من المحامين. أعتقــد أن علينا توظيف مزيــد من ضرائبنا الدولارية في تثقيف وتعليم البنــات والصبيان الفقراء، وتزويدهم بالمعلومات المتعلقة بمنــع الحمــل من أجــل منع حــالات الحمل غــير المرغوب فيهــا، وتخفيضــ معدلات الإجهاض، والمساعدة في ضمان رعاية كل طفل. لكنني أعتقد أيضا أن بمقدور الدين تدعيــم وتقوية إحساســ الفتاة بالذات، وإحساس الشــاب بالمسؤولية، واحترام جميع الشبان والشابات للعلاقة الجنسية الحميمة.

أنــا لا اقترح أن على كل تقدمي أن يقبض فــورا على اللغة الاصطلاحية الدينية أو أن نتخلى عن النضــال في سبيل إحداث تغيير مؤسسي لصالح «آلاف النقاط المضيئة» فأنــا أدرك كــم تحولت مناشــدة الفضيلة إلى أعــذار تبريرية للعطالــة والامتناع عن الفعــل. فضلا عن ذلك، لا شيء أكثر وضوحــا من التعابير الدينية المزيفة والكاذبة ـ مثــل السياسي الذي يزور كنيسة السود قــرب موعد الانتخابات ويصفق (دون معرفة الإيقــاع) مع جوقة المنشدين أو يورد بعض الشواهد من الإنجيل لإضافة بعض الإثارة إلى خطبته السياسية المملة.

فإذا تخلينا نحن التقدميون عن بعض من أحكامنا المتحيزة، نستطيع أن ندرك ونميــز القيم التــي يتقاسمها المتدينــون والعلمانيون فيما يتعلــق بالتوجه الأخلاقي والمــادي لبلادنــا. وندرك أيضــا أن الدعــوة إلى التضحية في سبيــل الجيل التالي، والحاجــة إلى التفكــير بلغــة «أنت» لا مجرد «أنــا»، تتردد أصداؤهمــا في الصلوات في مختلــف كنائس البــلاد. نحن بحاجــة إلى أخذ الدين على محمــل الجد وعدم الاكتفــاء بمناهضــة اليمين الديني، بــل إشراك جميع المتدينــين في المشروع الأكبر لتجديد وبعث أمريكا.

هنالـك خطـوات اتخـذت في هـذا الاتجاه. فرعـاة الكنائـس الكـبرى، مثل ريك وارن وتـي. دي. جيكز، يرصون الصفوف ويمارسون نفوذهـم الهائل لمحاربة الإيدز، وتخفيـف عـبء الديون عن بلـدان العالم الثالـث، ووقف عمليات الإبـادة العرقية في دارفـور. أمـا «الإنجيليون التقدميـون»، كما يسمون أنفسهم، مثـل جيم واليس وتوني كامبولـو، فيستخدمـون تعاليم الإنجيـل التي تحض علـى مساعدة الفقـراء كوسيلة لحشد المسيحيين ضد تخفيضـات ميزانية البرامج الاجتماعية وتفاقم الظلم وغياب المساواة. وترعـى الكنائس الفردية المنتشرة في شتى أرجاء البلاد، مثل الكنيسة التي أنتمـي إليهـا، برامج الرعايـة النهارية، وبنـاء المراكز للمسنـين، ومساعدة المذنبين السابقين على استعادة حياتهم الطبيعية.

لكـن التأسيس علـى هذه الشـراكات المؤقتة وغـير المستقرة بـين العالمين الديني والدنيـوي/ العلمـاني، يحتاج إلى إنجاز مزيد من العمـل. إذ يجب التصدي مباشرة للتوتـرات والشكـوك المتأصلة لـدى كل جانب من الجانبين، وسيحتـاج كل منهما إلى قبول بعض القواعد الأساسية للتعاون.

أولى الخطوات وأصعبها على المسيحيين الإنجيليين هي الاعتراف بالدور الحاسم الـذي لعبه البند التأسيسي في الدستور لا في تطوير ديمقراطيتنا فقط، بل في تنشيط وتعزيـز ممارستنا الدينية. فخلافـا لمزاعم العديد من المنتمـين إلى اليمين الديني، الذيـن يهاجمون وينتقـدون فصل الكنيسة عـن الدولة، فإن خلافهـم ليس مع حفنة مـن القضـاة الليبراليين في الستينيـات. بل مع الذين صاغوا مسـودات إعلان حقوق المواطنين وأسلاف أتباع الكنيسة الإنجيلية.

معظـم الرواد من قادة الثـورة الأمريكية، خصوصاً فرانكلـين وجيفرسون، كانوا من المؤمنين بمذهب التأليه الطبيعي، الذين لم يكتفوا بوضع عقائد الكنيسة المسيحية موضـع الشك والمساءلة ـ رغم إيمانهم بالله ـ بـل الأركان المركزية للديانة المسيحية ذاتهـا أيضاً (ومنهـا ألوهة المسيح). وقـدم جيفرسون وماديسـون خصوصاً الحجة لصالـح ما دعـاه جيفرسون «حائط الفصل» بـين الكنيسة والدولـة، كوسيلة لحماية

الحرية الفردية في الاعتقاد والممارسة الدينيين، ووقاية الدولة من النزاعات الطائفية، والدفاع عن الدين المنظم أمام تعدي الدولة أو نفوذها المفرط.

وبالطبع، لم يوافق جميع الآباء المؤسسين؛ فقد قدم باتريك هنري وجون أدامز مثلا تشكيلة متنوعة من الاقتراحات لاستخدام ذراع الدولة لترويج وتشجيع الدين. لكن في حين كان جيفرسون وماديسون هما من اقترحا قانون فيرجينيا التشريعي للحرية الدينية الذي سيصبح نموذجا للتعديل الأول على البنود الدينية، إلا أن أتباع عصر الأنوار هم الذين أثبتوا أنهم المدافعون النافذون عن فصل الكنيسة عن الدولة.

بل إن المعمدانيين، من أمثال القس جون ليلاند وغيره من الإنجيليين، هم الذين وفروا التأييد الشعبي المطلوب لتصديق هذه البنود. فعلوا ذلك لأنهم كانوا لا منتمين؛ لأن أسلوبهم العبادي الحيوي اجتذب الطبقات الدنيا؛ لأنهم دعوا إلى المسيحية جميع القادمين، ومنهم العبيد، الذين هددوا النظام القائم؛ لأنهم لم يحترموا الرتبة والمزايا؛ لأنهم تعرضوا باستمرار لاضطهاد وازدراء الكنيسة الإنجيلية المهيمنة في الجنوب والطرق الرهبانية الأبرشية السائدة في الشمال. ولم يخشوا من أن أي دين ترعاه الدولة قد يضعف قدرتهم، كأقليات دينية، على ممارسة دينهم فقط؛ بل اعتقدوا أيضا أن الحيوية الدينية لا بد أن تذوي وتنحسر حين تفرضها أو ترعاها الدولة. وحسب تعبير القس ليلاند: «الخطأ وحده يحتاج إلى الحكومة لتدعمه؛ أما الصواب فيظل أفضل حالا بدون دعمها»

نجحت صيغة جيفرسون وليلاند للحرية الدينية. ولم تتمكن أمريكا من تجنب أنواع النزاعات الدينية التي مازالت آفتها تجتاح العالم فقط، بل استمرت المؤسسات الدينية في الازدهار ـ وهي ظاهرة يعزوها بعض المراقبين بصورة مباشرة إلى غياب الكنيسة التي ترعاها الدولة، ومن ثم فهي مكافأة على التجريب والتطوعية الدينية. فضلاً عن ذلك، ونظرا لازدياد تنوع سكان أمريكا، لم تبلغ أخطار الطائفية مثل هذه الدرجة المرتفعة من قبل. وبغض النظر عما كنا عليه، لم نعد أمة مسيحية؛ نحن أمة يهودية ومسلمة وبوذية وهندوسية وملحدة.

لكن دعونا نفترض أننا مسيحيون وحسب. فأي نسخة من المسيحية نعلم التلاميذ في مدارسنا؟ نسخة جيمس دوبسون أم آل شابرون؟ وأي فقرات وآيات من الكتاب المقدس تستهدي بها سياستنا الخارجية؟ هل نعتمد سفر اللاويين الذي يبيح الرق ويحرم أكل المحار؟ وماذا عن سفر التثنية الذي يأمرك برجم طفلك إذا ضل عن صوابية الدين؟ أم هل نتشبث بالخطبة التي ألقاها المسيح أمام أتباعه وغيرهم ـ وهي فقرة راديكالية إلى حد أن وزارة الدفاع ذاتها لن تستطيع تطبيقها دون أن تنهار؟

يوصلنا ذلك كله إلى نقطة مختلفة ـ الأسلوب الذي يجب أن ترشد عبره آراؤنا الدينية الحوار العام وتهدي المسؤولين المنتخبين. من المؤكد أن العلمانيين يخطؤون حين يطلبون من المتدينين ترك دينهم أمام الباب قبل الدخول إلى المجال العام؛ إذ لم يكتف الدين بحث وتحفيز فريدريك دوغلاس وابراهام لينكولن ووليام جيننغز بريان ودوروثي داي ومارتن لوثر كينغ ـ بل أغلبية الشخصيات الفاعلة العظيمة في التاريخ الأمريكي ـ فقط ولكن هؤلاء استخدموا مرارا وتكرارا اللغة الدينية لتقديم الحجة الدامغة على قضاياهم أيضا. ومن العبث عمليا القول إن على الرجال والنساء عدم حقن «مبادئهم الأخلاقية الشخصية» في الحوارات والمجادلات السياسية العمومية؛ وقانوننا هو بالتعريف تقنين للمبادئ الأخلاقية، ومعظمه مؤسس على التراث اليهودي المسيحي.

ما تتطلبه ديمقراطيتنا التداولية/ التشاورية التعددية أن يترجم المدفوعون بباعث الدين اهتماماتهم ومشاغلهم إلى قيم شمولية غير محصورة في إطار الدين. تتطلب أن تكون اقتراحاتهم خاضعة للحجة والحوار ومذعنة للعقل والمنطق. فإذا عارضتُ الإجهاض لأسباب دينية وسعيت لإصدار قانون يحظر الممارسة، لا يمكنني الإشارة إلى تعاليم الكنيسة أو استحضار إرادة الله وتوقع أن تقنع تلك الحجة الآخرين وتدفعهم إلى تأييدي. لكن إذا أردت منهم الإصغاء إلي فعلي أن أفسر لماذا ينتهك الإجهاض مبدأ يعتنقه أتباع جميع الديانات، ومنهم أولئك الذين لا يؤمنون بأي دين.

وفيما يتعلق بأولئك الذين يؤمنون بعصمة الكتاب المقدس، مثل الكثير من الإنجيليين، قد تبدو قواعد الاشتباك هذه مجرد مثال آخر على طغيان العالمين

العلمـاني والمادي على المقدس والروحي. لكن في الديمقراطية التعددية ليس لدينا أي خيار. فالدين والعقل، بالتعريف تقريبا، يشتغلان في مجالين مختلفين ويشملان سبلا متباينة نحو تبيين وتمييز الحقيقة. العقل، والعلم، يشملان المعارف المتراكمة اعتمادا على الوقائع الحقيقية التي يمكن لنا جميعا فهمها وإدراكها. أما الدين فيعتمد، خلافا لذلك، على الحقائق غير القابلة للإثبات عبر الفهم البشري العادي ـ «الإيمان بالغيب» وحين يصر مدرسو العلوم على تجاهل نظرية الخلق واستبعاد التصميم العاقل للكون، فهـم لا يؤكـدون أن المعرفة العلمية متفوقة على الرؤيـة الدينية. بل يلحون على أن كل سبيل للمعرفة يشمل قواعد مختلفة وأن هذه القواعد ليست قابلة للتبادل.

يصعـب اعتبـار السياسـة علمـا، فهـي لا تعتمـد كثيرا علـى العقـل والمنطق. في الديمقراطيـة التعدديـة، تنطبـق التمايزات ذاتهـا. إذ ترتكز السياسـة، مثل العلم، علـى قدرتنا علـى حث وإقناع بعضنا بعضـا بالأهداف المشتركة اعتمـادا على الواقع المشترك. فضلا عن أن السياسة (خلافا للعلم) تشمل التسويات والتنازلات، فهي فن الممكن. وعلى مستوى من المستويات الجوهرية، لا يسمح الدين بالتنازلات والتسويات. بـل يصر بإلحاح على المستحيل. فإذا أمر الله، يجب على الأتباع الارتقاء إلى مستوى أمـره، بغض النظـر عن النتائج. وتأسيس حياة الفرد علـى مثل هذه الالتزامات التي لا تقبـل التسويات قد يكون أمرا ساميا وعظيما؛ لكن رسم سياستنا استنادا إلى هذه الالتزامات سيكون أمرا محفوفا بالخطر.

قصـة إبراهيم واسحق تقدم مثالا بسيطا لكن معـبرا. فوفقا للكتاب المقدس، أمـر الله إبراهيم بتقديم ابنـه الحبيب الوحيد اسحق قربانا. أطاع إبراهيم الأمر الربـاني دون تـردد، فأخـذ ابنه إلى قمة الجبـل ووضعه على المذبـح ورفع سكينه واستعد لتنفيذ الأمر.

نعـرف بالطبع الخاتمـة السعيدة ـ أرسل الله ملكا للتدخـل في آخر لحظة. ونجح إبراهيـم في اختبـار الـولاء والإخلاص. وأصبح نموذجـا لطاعـة الله، وكوفئ على إيمانـه الراسخ عبر أجيـال المستقبل. ومع ذلك، فإن من الإنصـاف القول لو رأى أي منـا إبراهيم في القرن الحـادي والعشرين يرفع سكينه على طفلـه فوق سطح منزله

لاستدعى الشرطة على الفور؛ ولسوف ننزله من السطح؛ وحتى لو ترك السكين في اللحظة الأخيرة سوف يأخذ «قسم خدمات الطفل والأسرة» اسحق منه ويتهمه بإساءة معاملة الأطفال. سوف نفعل ذلك لأن الله لا يكشف عن نفسه أو عن ملائكته أمامنا. نحن لا نسمع ما سمعه إبراهيم، ولا نرى ما رآه، مهما كان صادقا. ولذلك، فإن أفضل ما نفعله هو التصرف وفقا للمعايير التي يمكن لنا جميعا معرفتها، وفهم حقيقة أن جزءا مما نعرف أنه صدق، كأفراد أو طوائف دينية، لا يراه غيرنا بوصفه كذلك.

أخيرا، تتطلب أي مصالحة بين الدين والديمقراطية التعددية بعض القدرة على الحكم على الأهمية النسبية للأشياء. وهذا ليس غريبا كليا عن العقيدة الدينية؛ فحتى من يؤكدون عصمة الكتاب المقدس يميزون بين الأحكام والأوامر المقدسة، اعتمادا على الشعور بأن بعض الفقرات والآيات ـ مثل الوصايا العشر أو الاعتقاد بألوهية المسيح ـ لا تحتمل التأويل وتحظى بأهمية مركزية للدين المسيحي، في حين أن لغيرها مدلولات ثقافية ويمكن تعديلها وتأويلها لتناسب الحياة الحديثة. يفهم الشعب الأمريكي ذلك بالغريزة والبداهة، ولهذا السبب يمارس غالبية الكاثوليك تحديد النسل، ويعارض بعض مناهضي زواج المثليين إجراء تعديل دستوري يحظره. ليس على الزعامة الدينية قبول مثل هذه الحكمة في مشاورة رعيتها، لكن عليها الاعتراف بها في سياستها.

إذا كانت المقدرة على الحكم على الأهمية النسبية للأشياء ترشد النشاطية المسيحية، فيجب أن تهدي أيضا أولئك الذين يحرسون الحدود الفاصلة بين الكنيسة والدولة. إذ لا يعد كل ذكر لله أمام الملأ خرقا في جدار الفصل؛ ومثلما أقرت المحكمة العليا وأصابت، فالسياق أمر مهم. ومن المشكوك فيه أن يشعر الأطفال الذين يتلون «عهد الولاء» بالقمع كعاقبة للنطق بعبارة «تحت مظلة الرب»؛ لم أشعر أنا بذلك. إن السماح باستخدام المباني المدرسية للصلاة الطوعية يجب ألا يمثل تهديدا، تماما كما لا يمثل استخدامها من جانب النادي الجمهوري للمدارس الثانوية تهديدا للديمقراطيين. ويمكن تصور إقامة بعض البرامج المرتكزة على الدين ـ لمساعدة المذنبين السابقين أو المدمنين ـ التي تعرض طريقة مؤثرة وفريدة لحل المشكلات ومن ثم تقدم الدعم المناسب.

هـذه المبادئ العريضة لمناقشة الدين ضمن النظـام الديمقراطي ليست شمولية. علـى سبيـل المثال، سيكون مـن المفيـد إذا استطاعت المجادلات والمناظـرات المتعلقة بالأمـور التـي تلامس الديـن ـ مثلما هي الحـال في جميع المجـادلات الديمقراطية ـ مقاومة إغراء اتهام المخالفين في الرأي بسوء النية والانحراف عن جادة الدين. وعند الحكـم على مدى إقنـاع مختلف المزاعم الأخلاقية، يجب علينـا البحث عن التساوق في كيفيـة تطبيقها: كقاعـدة عامة، أنا أكثر ميلا إلى الإصغـاء إلى أولئك الذين تثير غضبهـم مشكلة التشرد الشائنة مثلما تفعل أفلام الفيديو الإباحية. نحن بحاجة إلى الاعـتراف بأن حججنا ومجادلاتنا تكون أحيانـا أقل اتصالا بما هو حق وصواب منها بمن يملك القول الفصل في نهاية المطاف ـ هل نحتاج إلى ذراع الدولة القاهرة لتطبيق قيمنا، أم من الأفضل ترك الموضوع للضمير الفردي والمعايير المتطورة.

حتى التطبيق الصارم لهذه المبادئ لن يحل بالطبع جميع المشكلات والصراعات. ورغبة الكثيرين من معارضي الإجهاض في استثناء حالات الاغتصاب وسفاح القربى تشـير إلى استعـداد لتعديـل المبدأ لاعتبـارات عمليـة؛ واستعداد أشد مؤيـدي إباحة الإجهاضـ حماسا للقبـول ببعض القيود على عمليات الإجهاضـ في المراحل المتأخرة مـن الحمـل يدل علـى اعتراف بـأن الجنين أكـثر من مجرد جـزء من الجسـم وأن للمجتمـع مصلحـة في الاهتمام بتطوره ونمائـه. ومع ذلك، هنالك نقطـة لا يستحيل عندهـا التلاقي بين أولئـك الذين يعتقدون أن الحياة تبدأ مـن الحمل وأولئك الذين يعـدون الجنين استطالة وامتـدادا لجسد الأم حتى ولادته. أفضـل ما نفعله عند تلك النقطة هو ضمان أن يقرر الإقناع لا العنف أو الترهيب النتيجة السياسية – وأن نعيد تركيـز بعض قدراتنا، على الأقل، علـى تقليص عدد حالات الحمل غير المرغوب فيها عـبر التثقيـف والتعليم (وترويج التعفـف) ومنع الحمل والتبنـي أو أي إستراتيجيات أخرى تحظى بدعم عريض وتأييد واسع وثبت نجاحها.

بالنسبة للعديد من المسيحيين الملتزمين، ينطبق على زواج المثليين العجز ذاته عن التسويـة وتقديم التنازلات. أجد مثل هـذا الموقف مقلقا، خصوصا في مجتمع يمارس فيـه الرجال والنساء المسيحيون علاقات الزنا غـير الشرعية وغيرها من الانتهاكات

بحـق دينهم دون التعرضـ للعقوبات المدنيـة. وكثيرا ما جلسـت في الكنيسة وسمعت راعيهـا يتهجم على المثليين ويهزأ بهم ويسخر منهم ـــ كأن يصرخ بأعلى صوته حين لا تسـير العظـة على ما يـرام: «في البـدء كان آدم وحواء، لا آدم وستيـف!» أعتقد أن بمقـدور المجتمع الأمريكـي أن يختار نحت مكان خاص لاتحـاد الرجل والمرأة كوحدة لرعايـة الأطفال الشائعة في كل ثقافة. لست مستعدا لقبول أن تحرم الدولة المواطنين الأمريكيين من اتحاد مدني يمنح حقوقا متساوية فيما يتعلق بأمور أساسية مثل زيارة المستشفى أو الضمان الصحي لمجرد أن الشخصين الذين يتبادلان الحب من الجنس ذاته – ولا بقبول قراءة للكتاب المقدس تعد عبارة غامضة الدلالة باللغة اللاتينية أكثر تحديدا للمسيحية من عظة المسيح على الجبل.

لربما أعاني من حساسية تجاه هذه القضية لأنني خبرت الألم الناجم عن إهمالي. فقبـل انتخابي، وفي خضم المناظرات والمجادلات مع السيد كيز، تلقيت رسالة هاتفية مـن واحدة من أقوى أنصـاري. كانت صاحبـة منشأة تجارية صغـيرة، وأما كريمة، وشخصيـة عميقة التفكـير. وهي أيضاً شاذة جمعتها علاقـة حميمة بشريكتها طوال العقد الماضي.

عرفـتْ عندمـا قـررت تأييدي أننـي أعارض الزواج بـين أفراد الجنسـ الواحد، وسمعتنـي أقـدم الحجة علـى أن تشديـد التركيز على الـزواج، في غيـاب أي إجماع هادف، يشتت الانتباه عن الإجراءات الأخرى الممكن تحقيقها لمنع التمييز ضد المثليين والشاذات جنسياً. واستحثت رسالتهـا الهاتفية في هذه الحالة بالذات مقابلة إذاعية أجريتهـا وأشرت فيهـا إلى تقاليدي الدينية في تفسير موقفـي من القضية. أخبرتني أن ملاحظاتي جرحت مشاعرها؛ وأحست أن إقحام الدين في المعادلة يعني في دلالته اتهامها، وآخرين مثلها، بسوء الخلق والانحراف.

شعـرت بالحزن، وأخبرتها بذلك. وحين تحدثت إليها تذكرت أنه بغض النظر عن زعم المسيحيين المعارضين للمثلية بأنهم يكرهون الذنب ويحبون المذنب، فإن مثل هذا الحكـم يؤلم الأخيـار والطيبين ـ والذين هم أشد إخلاصـا لرسالة المسيح من الذين يوجهـون الإدانات إليهم. تذكرت أيضاً أن مـن واجبي، لا كمسؤول منتخب في مجتمع

تعـددي وحسب بـل كمسيحي أيضاً، البقـاء منفتحا على احتمـال أن تكون معارضتي لـزواج المثليـين خاطئة، مثلما لا أستطيـع زعم العصمة من الزلـل في تأييدي لحقوق الإجهاض. يجـب أن أعترف باحتمـال تأثري بآفـة الأحكام المسبقـة والمتحيزة التي يتبناهـا المجتمع وينسبهـا إلى الله؛ وأن دعوة المسيح إلى أن يحب أحدنا الآخر تتطلب استنتاجات وترتيبات مختلفة؛ ولربما أبدو في السنوات التالية على الجانب الخطأ من التاريـخ. لا أعتقـد أن مثل هذه الشكوك تجعلني مسيحيا طالحـا. بل تجعلني إنسانا، محـدود القـدرات على فهم غايـة الله وغرضه، ولذلك فهو عرضـة للوقوع في الخطأ وارتـكاب المعصيـة. حين أقرأ الكتاب المقدس، لا أجده نصـاً جامداً سكونياً، بل نصاً حياً، وأشعر أن علي أن أبقى منفتحاً على أي كشف ملهم جديد ـ بغض النظر هل أتى من صديقة شاذة أو من طبيب يعارض الإجهاض.

هـذا لا يعني القول أنني غير متشبث بديني. هنالـك بعض الأمور التي أثق بها ثقة مطلقـة ـ القاعدة الذهبية (عامل الآخرين كما تحـب أن يعاملوك)، الحاجة إلى مناهضـة القسـوة بأشكالها كافة، قيمة الحب والإحسـان والخير، والتواضع، واللباقة واللطف.

هذه المعتقدات اتضحت وبانت لي قبل سنتين حين سافرت بالطائرة إلى برمنغهام (بولايـة الاباما) لإلقاء خطبة في معهد الحقوق المدنيـة. يقع المعهد في الجهة المقابلة للكنيسـة المعمدانيـة، حيث قتل عـام 1963 أربع فتيـات ـ إدي مـاي كولينز، وكارول روبرتسون، وسينثيا ويسلي، ودينيس مكنير ـ بانفجار قنبلة وضعها غلاة العنصريين البيض عند حضورهن الدرس الديني يوم الأحد، وقبل إلقاء الخطبة انتهزت الفرصة لزيـارة الكنيسـة. استقبلني راعي الكنيسـة الشاب وعدد مـن الشمامسة عند الباب وشاهدت آثار الشظايا على الجـدار، والسـاعة في القسـم الخلفي من الكنيسـة التي ما زالت متوقفة عند الساعة 10:22 صباحاً. تفحصت صور البنات الأربع.

بعد الجولة، أمسكنا أنا وراعي الكنيسة والشمامسة أيدينا وتلونا صلاة. ثم تركوني لأجلس في أحد المقاعد وألملم أفكاري. تساءلت عما حدث لآباء وأمهات هؤلاء الفتيات قبل أربعين عاما، بعد أن اختطفهن من الحياة هذا العمل الوحشي الذي كان عشوائيا

ولئيماً وحقوداً في آن؟ كيف تحملوا الألم والحزن والتبريح لو لم يتأكد لهم وجود هدف يكمن وراء جريمة قتل بناتهم، وأن ثمة معنى يمكن استخلاصه من هذه الخسارة التي لا تعوض؟ شاهد هؤلاء الآباء والأمهات المعزين يتدفقون من جميع أرجاء البلاد، وليندون جونسون يعلن على التلفزيون الوطني أن الوقت قد حان، والكونغرس يصدر في نهاية المطاف قانون الحقوق المدنية لعام 1964. أكد لهم الأصدقاء والغرباء على حد سواء أن بناتهن لم يمتن عبثا ـ وأنهن أيقظن ضمير أمة وساعدن في تحرير شعب؛ وأن القنبلة قد فجرت سدا لتتدفق العدالة كالسيل الجارف والفضيلة كالشلال الهادر. لكن هل كانت حتى هذه المعرفة كافية لمواساتهم، وإبعادهم عن حافة الجنون وتهدئة غضبهم الدائم العارم ـ لولا ثقتهم أيضا بأن أطفالهم انتقلوا إلى مكان أفضل؟

تحولت أفكاري إلى أمي وأيامها الأخيرة، بعد أن انتشر السرطان في جسمها كله، وتبين أن لا أمل لها بالشفاء. كانت قد اعترفت أمامي خلال مرضها بأنها ليست مستعدة للموت؛ لأنه فاجأها وأخذها على حين غرة، كأنما العالم المادي الذي أحبته بهذا القدر قد انقلب عليها، وخانها، وغدر بها. ومع أنها حاربت بشجاعة، وتحملت الألم والعلاج الكيماوي برضى ورحابة صدر حتى النهاية، إلا أنني رأيت أكثر من مرة نظرة خوف في عينيها. خوف يتجاوز الخشية من الألم أو من المجهول، ما أرعبها الشعور بالوحدة عندما يأتي الموت، كما أظن ـ فكرة أنها في هذه الرحلة الأخيرة، في هذه المغامرة الأخيرة، لن تجد أحدا تتقاسم تجربتها معه، أو يعجب معها بقدرة الجسم على إيلام نفسه، أو يضحك على عبثية الحياة الصارخة حين يبدأ الشعر بالتساقط وتغلق الغدد اللعابية.

حملت هذه الأفكار معي حين غادرت الكنيسة وألقيت خطبتي. في وقت متأخر من تلك الليلة، بعد عودتي إلى شيكاغو، جلست إلى مائدة العشاء، أراقب ماليا وساشا تضحكان وتتشاجران، وترفضان أكل طبق الفاصولياء، قبل أن تطاردهما أمهما إلى الطابق العلوي. وحين كنت وحيدا في المطبخ أغسل الأطباق، تخيلت البنتين تكبران، وشعرت بالألم الذي يحسه كل أب في وقت ما، تلك الرغبة في اقتناص كل لحظة من حضور طفلك والتشبث بها ـ تسجيل كل حركة وإيماءة، والاحتفاظ إلى الأبد بمنظر

خصـــلات شعره والإحساس بلمسة أصابعه. تذكرت ساشا وهي تسألني ذات مرة عما يحـدث لنــا حين نموت، وقالت دون مبالاة: «لا أريد أن أمـوت يا أبي»، فعانقتها وقلت: «أمامـك طريق طويل طويل قبل أن يقلقك هذا الأمـر»، وبدا أن الجواب قد أرضاها. تساءلت هل كان يجب أن أخبرها الحقيقة، وأنني لست واثقا مما يحدث حين نموت، مثلمــا لا أعـرف أين تذهب الـروح أو ماذا كان يوجد قبل الانفجــار الكبير. لكن حين صعـدت الدرج عرفت ما كنت آمل به ـ أن تكون أمي مع أولئك الفتيات الأربع، وقادرة بطريقة ما على عناقهن، والاستمتاع مع أرواحهن.

عرفت أنني حين وضعت طفلتيّ في فراشهما لتناما نوما هانئا مريحا، فهمت شيئا عن السماء والجنان.

- 7 -

العرق

جرت مراسم التشييع في كنيسة كبيرة، يمتد بناؤها الهندسي البديع على مساحة أربعة هكتارات حسنة التنسيق والتنظيم. قيل إن بناءها كلف 35 مليون دولار، وظهرت قيمة كل دولار أنفق عليها ـ هنالك قاعة للولائم، ومركز للمؤتمرات، ومرآب يتسع لألف ومئتي سيارة، ومنظومة صوتية من أحدث طراز، ومرفق للإنتاج التلفزيوني مجهز بمعدات رقمية.

داخل حرم الكنيسة تجمع زهاء أربعة آلاف من المعزين، معظمهم من الأمريكيين الأفارقة، والعديد منهم من المهنيين: أطباء ومحامين ومحاسبين وتربويين ووسطاء عقاريين. على المسرح، اختلط أعضاء مجلس الشيوخ، وحكام الولايات، والصناعيون الكبار مع الزعماء السود من أمثال جيسي جاكسون وجون لويس وآل شابرون و تي. دي. جيكز. وخارجها، وقف الآلاف تحت أشعة شمس أكتوبر المشرقة على طول الشوارع الهادئة: أزواج وزوجات بلغوا من العمر عتيا، ورجال متوحدون، وشابات مع عربات أطفالهن، بعضهم يلوح للمواكب التي تمر بين الحين والآخر، وغيرهم يقف صامتا متأملا، وجميعهم في انتظار إلقاء النظرة الأخيرة على المرأة الضئيلة التي شاب شعرها وترقد في التابوت المزخرف.

أنشدت فرقة المرتلين؛ وتلا راعي الكنيسة صلاة افتتاحية. نهض الرئيس السابق بيل كلينتون ليتحدث، وبدأ يصف ماذا كان يعني له كصبي جنوبي أن يركب الحافلات المخصصة للبيض فقط، وكيف حررته حركة الحقوق المدنية، التي ساعدت روزا باركس* على إطلاقها، هو وجيرانه البيض من تعصبهم وعنصريتهم. أسلوب

---

* سيدة أمريكية سوداء رفضت التخلي عن مقعدها في الحافلة لِرَجُلٍ أبيض في مدينة مونتغمري (بولاية الاباما) عام 1955، فانطلقت شرارة حركة الحقوق المدنية في مختلف أرجاء الولايات المتحدة. (م)

كلينتـون السهل الحميم في مخاطبة مستمعيه السود، وحبهم له، عبرا عن المصالحة، عن المسامحة، عن مداواة جروح الماضي العميقة ولو جزئيا.

رؤية الرجل الذي كان زعيما للعالم الحر وابن الجنوب يعترف بما يدين من فضل إلى الخياطـة السـوداء، كانت من عـدة جوانب إشادة مناسبة بمـيراث روزا باركس. وفي الحقيقة فإن الكنيسـة الرائعة، وكثرة المسؤولين السود المنتخبين، وعلائم النعمة والازدهـار الباديـة علـى العديد مـن الحاضرين، ووجـودي كعضـو في مجلس شيوخ الولايـات المتحـدة ـ يمكـن اقتفاء أثرها جميعـا إلى ذلك اليوم من أيـام شهر كانون الأول/ ديسمـبر 1955، حين رفضت السيدة باركس، بكل تصميم وعزيمة وعزة نفس وهـدوء، أن تتخلـى عن مقعدهـا في الحافلة لرجل أبيض. حينما نكـرم روزا باركس، نكـرم غيرهـا أيضا، آلاف النسـاء والرجال والأطفال في شتى أرجـاء الجنوب الذين غابـت أسماؤهـم عن كتـب التاريـخ، وضاعت قصصهـم في غياهـب النسيان، لكن شجاعتهم وسجاياهم ساعدت في تحرير شعب.

ومـع ذلـك، عندمـا جلسـت واستمعـت إلى الرئيسـ السابـق وموكـب الخطباء المتلاحقين بعده، علقت في ذهني مشاهد الدمار التي هيمنت على الأخبار قبل شهرين فقـط، حين اجتاح إعصار كاترينا ساحل الخليج وغرقـت نيو أورليانز. تذكرت صور الأمهات المراهقات يبكين ويندبـن أو يطلقن الشتائم واللعنات أمام قبة نيو أورليانز، وهن يحملـن أطفالهن، وامرأة عجوز تجلس في كرسي متحرك، وقد تدلى رأسها إلى الخلف من شدة الحر، ولاحت ساقاها الذاويتان من تحت ثوبها القذر. فكرت بالفيلم الإخبـاري الـذي صور جثة مددهـا أحدهم بجانب جـدار، ترقد وحيـدة دون حراك تحـت دثار رث رقيـق؛ ومشاهد الشباب بصدورهم العاريـة وسراويلهم المتهدلة وهم يخوضـون في المياه الدكنـاء، ويحملون ما استطاعوا اقتناصه مـن بضائع من المتاجر القريبة، وشرارة الفوضى تبرق في عيونهم.

كنـت خارج البلاد حين اجتاح الإعصار الخليـج، في طريق العودة من روسيا. بعد حـدوث المأساة بأسبوع، سافرت إلى هيوسـتن، وانضممت إلى بيل وهيلاري كلينتون، إضافـة إلى جـورج بوش الأب وزوجتـه باربرا، حين أعلنوا مسعاهـم لجمع التبرعات

لمصلحـة ضحايا الإعصار وزاروا قرابة خمسة وعشريـن ألفا ممن أجلوا عن بيوتهم ولجؤوا إلى مبنى هيوستن استرودوم ومركز ريلينت المجاور.

بذلت مدينة هيوستن جهـودا مؤثرة لإقامة مرافق الطوارئ لاستيعاب هذا العدد الكبـير من اللاجئين، وعملـت مع الصليب الأحمر ووكالـة إدارة الطوارئ الاتحادية علـى توفير الغـذاء والكسـاء والمـأوى والرعاية الصحيـة لهم. لكن حـين سرنا بين صفـوف الحشايا في مركز ريلينت، وداعبنـا الأطفال وصافحنا الناس، وأصغينا إلى قصصهـم، توضـح أن العديـد من الناجين قـد تخلت عنهم الدولة قبـل وقت طويل مـن حدوث الإعصار. كانوا من سكان الأحيـاء الداخلية الذين تجدهم في أي مدينة أمريكيـة، من السـود الذين يطحنهم الفقر ــ العاطلين وشبـه العاطلين من العمل، والمرضى والذين سيصيبهم المرض قريبا، والضعفاء وكبار السن. قالت أم شابة إنها وضعـت طفلها في حافلـة مليئة بالغرباء. ووصف الشيوخ البيـوت التي دمرت وغياب أي ضمـان أو أسرة يعتمـدون عليها. وأصرت جماعة من الشبـان على أن المصاطب والحواجـز فجرت بواسطة أولئك الراغبين بتخليص نيو أورليانز من سكانها السود. امرأة طويلة القامة مهزولة الجسم ترتدي قميصا قطنيا أكبر من مقاسها، أمسكت ذراعي وجذبتني إليها.

همست قائلة: «لم نكن نملك شيئا قبل العاصفة، فتصور ماذا لدينا الآن!»

في الأيـام اللاحقة، عـدت إلى واشنطـن واستخدمت الهاتف محـاولا تأمين مؤن الإغاثة والمساهمات والتبرعات. وفي اجتماعات أعضاء الحزب الديمقراطي في مجلس الشيـوخ، ناقشـت وزملائي إصـدار تشريع قانـوني. وظهرت في برامـج صباح الأحد الإخباريـة، وأعلنت رفضـي اتهام الإدارة بالبطء في التصـرف لأن ضحايا الإعصار كانوا من السود ـ «العجز يعاني من عمى الألوان»كما قلت ـ لكن ألححت على أن نقص التخطيـط أظهر قدرا من الابتعاد عن/ واللامبالاة تجاه مشكلات الفقر التي تطحن برحاهـا أحيـاء المدن الداخليـة، ويجب التصدي لهـا. في أصيل ذلك اليـوم شاركنا الأعضـاء الجمهوريين فيمـا سمته الإدارة إيجـازا سريا حـول الاستجابة الاتحادية. حضـر وزراء الحكومـة كلهم تقريبـا، إلى جانب رئيس هيئـة الأركان المشتركة، وظل

الوزيـران شيرتـوف ورامسفيلد يتلـوان بكل ثقـة، دون إظهار أي نـدم أو أسف، عدد عمليات الإجلاء التي تمت والحصص الغذائية العسكرية التي وزعت، وجنود الحرس الوطنـي الذين نشروا. بعد بضعة أيام، شاهدنا الرئيس بوش في تلك الساحة الغريبة التـي اجتاحهـا الطوفان، يعـترف بميراث الظلم العرقـي التي ساعـدت المأساة على فضحه، ويعلن أن نيو أورليانز ستنهض من جديد.

والآن، وأنـا أحضـر جنـازة روزا باركـس، بعد قرابـة شهرين مـن العاصفة، وما شعـر به الأمريكيون في شتى أنحـاء البلاد من غضب وخجل وعار خلال الأزمة، وبعد الخطـب والرسائل الإلكترونية والمذكرات واجتماعات أعضاء الحزبين في الكونغرس، وبعـد البرامـج التلفزيونيـة الخاصـة ومقـالات وأخبـار الصحف، شعـرت كأنما لم يحـدث شيء. السيارات بقيت رابضة على أسطـح البيوت، والجثث ما زالت تكتشف. والقصص القادمة من الخليج تشير إلى أن المقاولين يقتنصون عقودا بمئات الملايين مـن الدولارات، ويحاولـون الالتفاف على القوانين المتعلقة بالحـد الأدنى من الأجور، وتشجيـع زيادة تمثيـل النساء والأقليـات (خصوصا في الاستخـدام)، حيث يوظفون العمـال مـن المهاجرين غير الشرعيـين لتوفير النفقـات. الإحساس بـأن الأمة بلغت لحظة تحول وتغيير ـ أي صحا ضميرها من غفوته الطويلة وستعلن حربا جديدة على الفقر ـ انحسر بسرعة وتلاشى.

بـدلا من ذلك، جلسنا في الكنيسة نرثـي روزا باركس، ونتذكر انتصارات الماضي، ويكتسحنـا الحنـين إليه. هنالك قانـون يقضي بإقامة تمثال لـروزا باركس تحت قبة مبنى الكابيتول. لسـوف يصدر طابع تذكاري يخلدها، وتحمل اسمها أعداد لا حصر لهـا من الشوارع والمدارس والمكاتب في طـول أمريكا وعرضها دون ريب. تساءلت عما يعنيـه ذلـك كله لـروزا باركس ـ هل تكفي الطوابـع أو التماثيل لترتـاح روحها، أم أن تخليد ذكراها يتطلب المزيد.

فكـرت بما قالته تلك المـرأة في هيوستن، وتساءلت عن حكـم الناس علينا في تلك الأيام بعد انهيار الحواجز والمصاطب.

حين ألتقي جماعة من الناس أول مرة، يستشهدون أحيانا بعبارة قلتها في خطبة لي أمام المؤتمر الوطني الديمقراطي عام 2004 ويبدو أنها أصابت عصبا حساسا: «لا يوجد شيء اسمه أمريكا السوداء أو البيضاء أو أمريكا اللاتين أو الآسيويين ـ هنالك الولايات المتحدة الأمريكية» في نظرهم، يبدو أن العبارة تجسد رؤية لأمريكا التي تحررت أخيرا من ماض هيمنت عليه سياسة التمييز العنصري، ونظام الرق، ومعسكرات احتجاز الأمريكيين من أصول يابانية، وقبول دخول العمال الزراعيين من المكسيك مؤقتا، والتوترات في أماكن العمل، والصراع الثقافي ـ أمريكا توفي بوعد مارتن لوثر كينغ بأننا لن يحكم علينا وفقا للوننا أو بشرتنا، بل تبعا لمضمون شخصيتنا.

بمعنى من المعاني، لم يكن لدي خيار آخر سوى الإيمان بهذه الرؤية لأمريكا. وبوصفي طفلا لرجل أسود وامرأة بيضاء، وولدت في بوتقة صهرت الأعراق في هاواي، وشقيقا لأخت نصف إندونيسية لكن يظن الناس أنها من المكسيك أو بورتوريكو، وبعض أقربائي يتحدرون من الصين، وبعضهم الآخر يشبهون مارغريت تاتشر وغيرهم بيرني ماك، واجتماع الأسرة في عيد الميلاد يشبه اجتماعا للجمعية العامة للأمم المتحدة، لذلك لم يكن لدي أبدا خيار حصر ولائي في نطاق العرق، أو قياس قيمتي على أساس القبيلة أو الطائفة.

فضلا عن ذلك، أعتقد أن جزءا من نبوغ وعبقرية أمريكا تجسد دوما في قدرتها على امتصاص وتمثل القادمين الجدد، وتشكيل هوية وطنية من المهاجرين اليائسين الذين يصلون إلى شواطئنا. ساعدنا على ذلك دستور تضمن في جوهره وصميمه ـ على الرغم من خطيئة الرق التي لطخته ـ فكرة المواطنية والمساواة أمام القانون؛ ونظاما اقتصاديا أتاح، أكثر من أي نظام آخر، الفرصة لجميع القادمين، بغض النظر عن مكانتهم أو لقبهم أو رتبتهم. وبالطبع، كثيرا ما أضعفت المشاعر العنصرية وتفضيل السكان على المهاجرين هذه المثل العليا؛ وكثيرا ما عمل الأقوياء وأصحاب المزايا على استغلال أو تهييج الأحكام المسبقة والمتحيزة لتحقيق غاياتهم ومآربهم. لكن حين وضعت مثل المساواة والعدالة بين أيدي المصلحين، من توبمان إلى دوغلاس إلى شافيز وكينغ، صاغت بالتدريج أساليب فهمنا لأنفسنا وأتاحت لنا تشكيل أمة متعددة الثقافات لا يوجد شبيه لها في أي مكان آخر على الأرض.

أخيرا، تصف هذه السطور في خطبتي الوقائع والحقائق الديمغرافية لمستقبل أمريكا. فولايات تكساس وكاليفورنيا ونيومكسيكو وهاواي ومقاطعة كولومبيا تسكنها الآن أغلبية من الأقليات. وهناك اثنتا عشرة ولاية أخرى أكثر من ثلث سكانها من أصول لاتينية أو أفريقية أو آسيوية (أو جميعها معا). ويبلغ عدد السكان الأمريكيين اللاتين اليوم 42 مليون نسمة، وهم أسرع المجموعات الديمغرافية نموا، حيث مثلوا نصف النمو السكاني تقريبا بين عامي 2004 ــ 2005؛ أما السكان الأمريكيون الآسيويون (مع أنهم أقل عددا) فمن المتوقع أن يزداد عددهم بنسبة تتجاوز 200% خلال السنوات الخمس والأربعين القادمة. ويتوقع الخبراء أن أمريكا بعد عام 2050 بقليل لن تعود أمة غالبيتها من البيض ـ بكل ما لذلك من تبعات لا يمكن التنبؤ بها تماما على اقتصادنا وسياستنا وثقافتنا.

ومع ذلك، عندما أسمع المعلقين يفسرون خطبتي لتعني أننا وصلنا إلى حقبة «سياسة ما بعد العرق»أو أننا نعيش الآن في مجتمع مصاب بعمى الألوان، أشعر بأن علي تقديم كلمة تحذير. فالقول إننا شعب واحد لا يشير في دلالته إلى أن العرق لم يعد مهما ـ وأننا كسبنا المعركة في سبيل العدالة والمساواة، أو أن المشكلات التي تواجهها الأقليات اليوم هي المسؤولة عنها. نعرف الإحصائيات: كل مؤشر اجتماعي ـ اقتصادي تقريبا، من معدل وفيات الأطفال إلى متوسط العمر المتوقع إلى فرص العمل وملكية البيوت، يدل على تخلف الأمريكيين السود واللاتين عن نظرائهم البيض. أما الأقليات في مجالس إدارة الشركات في شتى أنحاء أمريكا، فهي غير ممثلة تمثيلا عادلا؛ في حين لا يوجد في مجلس الشيوخ سوى ثلاثة أعضاء من أصول لاتينية واثنين من أصول آسيوية (من هاواي)، وأنا الأمريكي الأفريقي الوحيد (عند كتابة هذه السطور). والقول إن مواقفنا العرقية لا تلعب دورا في هذا التفاوت الصارخ يعني تجاهل تاريخنا وتجربتنا ـ وإعفاء أنفسنا من مسؤولية تصحيح الأمور.

فضلاً عن ذلك كله، في حين أن نشأتي لا تكاد تمثل نموذجا لتجربة الأمريكي الأفريقي ــ وعلى الرغم من أنني أشغل الآن، نتيجة الحظ السعيد غالبا والظروف المواتية، منصبا يقيني الصدمات والعقبات التي يجب على الأمريكي الأسود العادي

مواجهتهـا ـ إلا أنني أستطيع سرد الحكايات المعتـادة التي وجهت سبيلي طيلة أعوامي الخمسـة والأربعين: حراس الأمن الذين كانوا يتعقبـوني عندما كنت أتسوق في المتاجر المتعددة الأقسام، البيض الذين كانوا يعطوني مفاتيح سياراتهم حين أقف خارج المطعم ظنـا منهـم أنني أعمل هناك، سيارات الشرطة التي تدقق في أوراقي بعد أن تطلب مني الوقوف على جانب الطريق دون سبب واضح. أعرف ما معنى أن يمنعني النـاس من عمل مـا أريد بسبب لوني، وأعـرف مرارة كظم الغيظ. أعرف أيضـا أن علينا، أنا وميشيل، التيقـظ والانتبـاه لبعض القصص التـي تؤثر في البنتـين ـ من التلفزيـون والأصدقاء والشارع ـ فيما يتعلق برأي العالم الخارجي بهما والصورة التي يجب أن تظهرا بها.

إذن، يتطلب التفكير بالعرق رؤية العالم على شاشة متعددة الصور ـ الحفاظ على رؤانـا ونوع أمريكا التي نريد ونحن ننظر إليها مباشـرة كما هي، والاعتراف بخطايا وأخطـاء الماضي وتحديات الحاضر دون السقوط في فخ الشك في نيات الآخرين أو في مصيـدة اليأس. لقد شهدت تغيرا عميقـا في العلاقات العرقية في حياتي. وشعرت به كما يشعر المرء بتغيير درجة الحرارة. وحين أسمع بعض السود ينكرون هذه التغيرات، أفكـر بـأن ذلك لا يسيء إلى سمعـة أولئك المكافحين والمناضلين مـن أجلنا فقط، بل يحرمنـا مـن قدرتنا على استكمـال العمل الذي بدؤوه. لكن مثلما ألـح على أن الأمور تحسنت، أعرف هذه الحقيقة أيضا: التحسن ليس كافيا.



تشـير حملتي للحصول على مقعد في مجلس الشيوخ إلى التغييرات التي حدثت في مجتمعي البيض والسود في الينوي خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية. فبحلول الوقت الذي أعلنت فيه ترشيحي، تمتعت الينوي بتاريخ حافل من السود الذين اختيروا لشغل مناصب رسمية على مستوى الولاية، ومنهم المفتش المالي، والمدعي العام (رونالد بوريـس)، وعضو مجلس الشيـوخ (كارول موسلي براون)، وأمين سر الولاية المنتخب، جيسـي وايت، الذي حصل على أكثر الأصوات عددا قبل سنتين فقط. وبسبب النجاح الرائـد لهـؤلاء المسؤولين، لم تكن حملتي الانتخابية أمـرا جديدا ـ ولربما لم يكن من المرجح أن أفوز، لكن حقيقة خوضي السباق لم تمنع الاحتمال.

وفضلا عـن ذلك، تحدت أنواع الناخبين الذين جذبتهـم حملتي في نهاية المطاف الحكمـة التقليديـة السائـدة. على سبيل المثـال، في اليوم الذي أعلنـت فيه ترشيحي لمجلـس الشيوخ الأمريكي، صدق الإعـلان ودعمه ثلاثة من زملائي البيض في مجلس شيوخ الولاية. لم يكونوا من أولئك الذين نسميهم في شيكاغو «ليبراليي الواجهة»- أي الديمقراطيـين الذين يقال إنهم يركبون سيارات الفولفو، ويرشفون القهوة بالحليب، ويشربـون النبيذ الأبيض، الذين يغرم الجمهوريـون بالسخرية منهم ويتوقعون منهم تبنـي القضايـا الخاسرة، مثل قضيتي. بدلا من ذلك، كانـوا ثلاثة رجال في منتصف العمـر من الطبقة العاملة ـ تيري لينك (من ليك كاونتي) وديني جاكويس (من روك ايلانـد ومولـين) ولاري ولش (من ويل كاونتي) ـ وجميعهـم يمثلون البيض أو الطبقة العاملة أو مجتمعات ضواحي شيكاغو على الأغلب.

ساعد على الأمر أن هؤلاء الرجال يعرفونني جيدا؛ فقد خدمنا معا في سبرينغفيلد خلال السنوات السبع الماضية واعتدنا لعب البوكر كل أسبوع خلال الفصول التشريعية. وساعـد أيضا أن كلا منهم كان يفخر باستقلاليته، ولذلك فهو على استعداد للوقوف معي على الرغم من ضغط المرشحين البيض الأوفر حظا.

لكن العلاقة الشخصية التي جمعتنا لم تكن السبب الوحيد وراء دعمهم لي (على الرغـم من أن قـوة صداقتي مع هؤلاء الثلاثـة ـ وجميعهم نشـؤوا في أحياء متجاورة في وقـت كان فيه العداء للسود أمرا يكاد يكون عاديـا ـ تدل على شيء يتصل بارتقاء العلاقـات العرقية). اشتهـر هؤلاء الأعضـاء الثلاثة في مجلس شيـوخ الولاية بأنهم سياسيون عمليـون ويتمتعون بالخبرة والدراية؛ وليست لديهم رغبة بدعم الخاسرين أو تعريضـ مواقعهم للخطر. الحقيقة أنهم اقتنعوا بقدرتي على «البيع» في مناطقهم ـ حالما يلتقي بي الناخبون ويتجاوزون مسألة الاسم.

لم يكـن حكمهـم يفتقد الرويـة والتفكير. فطـوال سبع سنين راقبـوا تفاعلي مع ناخبيهـم، في مجلس شيوخ الولايـة، أو أثناء زيارتي إلى دوائرهم. شاهدوا الأمهات (من البيضـ) يدفعون إلي بأطفالهـم لالتقاط الصور التذكاريـة معي، والمحاربين القدمـاء (مـن البيضـ الذيـن خاضـوا غمار الحـرب العالميـة الثانيـة) يندفعون

لمصافحتي بعد أن خطبت في اجتماعهم. واستشعروا ما عرفته من تجربة حياتي برمتها: مهما كانت الأفكار المسبقة التي ما زال الأمريكيون البيض يتشبثون بها، فإن الأغلبية الساحقة منهم قادرة هذه الأيام، إذا سمح الوقت، على تجاوز إطار العرق عند الحكم على الناس.

هذا لا يعني القول إن الأحكام المسبقة والمتحيزة قد اختفت وغابت. فلا يوجد بيننا ـ نحن السود أو البيض أو اللاتين أو الآسيويون ـ من يتمتع بالمناعة من القوالب المنمطة التي ما زالت ثقافتنا تغذينا بها، خصوصا الأنماط المتعلقة بنزوع السود إلى الجريمة، أو بذكائهم، أو أخلاقيات العمل لديهم. على وجه العموم، ما يزال يحكم على أفراد كل جماعة من الأقليات وفقا لدرجة اندماجهم على الأغلب ـ مدى توافق أنماط الكلام أو اللباس أو السلوك مع ثقافة البيض المهيمنة ـ وكلما ابتعدت الأقلية عن هذه العلامات الخارجية الفارقة، زاد تعرض أفرادها للافتراضات السلبية. وإذا منع تذويت معايير مناهضة التمييز العنصري خلال العقود الثلاثة الأخيرة ـ فضلاً عن التأدب واللباقة الاجتماعية ـ معظم البيض من التصرف وفقا لهذه الأنماط في تفاعلاتهم اليومية مع أفراد الأعراق الأخرى، فإن من غير الواقعي الاعتقاد إن هذه القوالب المنمطة لا تمارس تأثيرا تراكميا على القرارات المتسرعة حول من ينال الوظيفة ومن يحظى بالترقية، ومن يعتقل ومن يدعى عليه، وما شعورك فيما يتعلق بالزبون الذي دخل متجرك أو ديمغرافية مدرسة أطفالك.

لكنني أجزم أن مثل هذه الأحكام المتحيزة ليست راسخة ومتجذرة في أمريكا اليوم كما كانت في الماضي ـ ومن ثم فهي عرضة للدحض والنقض. فمراهق أسود يسير في الشارع قد يخيف زوجين من البيض يمران قربه، لكن إن تبين لهما أنه زميل لابنهما في المدرسة، فربما يدعوانه لتناول العشاء. وقد يجد رجل أسود صعوبة في العثور على سيارة أجرة في الليل، لكن إن ثبت أنه مهندس برمجيات كفء فلن تتردد مايكروسوفت في توظيفه.

لا أستطيع إثبات هذه التوكيدات؛ فالمسوح التي تستطلع المواقف العنصرية تعاني من عيوب فاضحة ويصعب الوثوق بها أو الاعتماد عليها. وحتى لو كنت على صواب،

فلـن يشعر أفراد العديد من الأقليات بالارتيـاح والمواساة. فعلى الرغم من كل شيء، حـين تقضـي أيامك في دحض القوالب المنمطة لا بد أن تصـاب بالتعب والسأم. فثمة حمـل إضافي ينوء به العديد من أفـراد الأقليات، خصوصـا الأمريكيين الأفارقة، في جولاتهـم اليوميـة ـــ الشعور بأننـا كجماعة لا نملـك رصيدا من النيـات الحسنة في حسابـات أمريـكا، وأن علينا كأفراد أن نثبـت أنفسنا من جديد كل يـوم، وأننا نادرا مـا نحصـل على فائدة الشك ولا نملك سوى هامش ضيـق للخطأ. إن شق الطريق في مثل هذا العالم يتطلب من التلميذة السوداء أن تطرد التردد الإضافي من نفسها حين تتأهب لدخول صف معظم تلاميذه من البيض في اليوم الأول من الدراسة؛ ويستدعي أيضـا أن تغالـب المرأة المتحدرة مـن أصول لاتينية الشك الذاتي حـين تستعد لإجراء مقابلة توظيف في شركة معظم العاملين فيها من البيض.

والأهم أنه يتطلب مقاومة إغراء وقف المسعى وبذل الجهد. إذ لا يمكن لسوى بضع أقليـات أن تنعزل بإرادتها عن مجتمع البيض بصورة كلية ـ من المؤكد أن ذلك لا يتم بالطريقـة التي يمكن للبيضـ استخدامها بنجاح لتجنب الاتصـال مع أفراد الأعراق الأخـرى. لكن تستطيع الأقليـات أن تنغلق على الذات نفسيا، وتحمي نفسها بافتراض الأسـوأ. قـال لي بعض السود: «لمَ نبذل جهدا لنخلصـ البيض من أوهامهم وجهلهم بنا؟ نحن نحاول منذ ثلاثمئة سنة ولم نفلح حتى الآن»

فقلت لهم إن البديل هو الاستسلام ـ لما كان بدلا لما يجب أن يكون.

مـن أكثر الأشياء التي أقدرها في تمثيل ولايـة الينوي الطريقة التي زعزع عبرها افتراضاتي فيما يتعلق بالمواقـف العرقية. على سبيل المثال، خلال حملتي الانتخابية لمجلسـ الشيـوخ، سافـرت مع سينـاتـور الينوي، ديـك دوربن، في جولـة شملت تسعا وثلاثـين مدينـة في جنـوب الولاية. مـن محطاتنا المقـررة في البرنامج بلـدة تدعى القاهـرة في أقصى الجنوب، حيـث يلتقي نهرا المسيسيبي وأوهايـو. اشتهرت البلدة في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات لأنها شهدت أسوأ صدام عرقي خارج ولايات الجنـوب. كان ديـك قـد زار البلدة أول مرة خـلال تلك الحقبة، حـين عمل محاميا (شابا) للحاكم بول سايمون وأرسل للبحث عن الوسائل الكفيلة بتخفيف حدة التوتر

هنـاك. حين وصلنـا القاهرة، تذكر تلـك الزيارة: كيف حذر بعيـد وصوله من مغبة استخـدام الهاتـف في فندقه لأن عامل البدالـة عضو في مجلس المواطنين البيض؛ وكيف أغلق أصحاب المتاجـر من البيض متاجرهم حتى لا يذعنوا لمطالب المقاطعين بتوظيـف السـود؛ وكيـف أبلغه السـكان السود بجهودهـم لدمج المدارس، وخوفهم وإحباطهـم، وقصص الغوغاء الذين يشنقون السـود، وحالات الانتحار في السجون، وإطلاق الرصاص، وأعمال الشغب.

لم أكـن أعرف ما ينتظرنا حين ندخل البلدة. ومع أن الوقت ظهرا، بدت مهجورة، فيمـا عدا بضعة متاجر مفتوحة في الشارع الرئيس وبعض الشيوخ والعجائز يخرجون من عيادة طبية على ما يبدو. وصلنا إلى مرأب واسع لنفاجأ بحشد يضم حوالي مئتي شخص في انتظارنا، ربعهم من السود وجميع الباقين تقريبا من البيض.

كانوا جميعا يضعون أزرارا زرقاء كتب عليها: أوباما إلى مجلس الشيوخ.

تقدم اد سميث، الرجل الودود النشيط الذي شغل منصب المدير الإقليمي في الغرب الأوسط لاتحاد العمال العالمي، ونشأ وترعرع في القاهرة، إلى حافلتنا الصغيرة وعلى وجهه تكشيرة عريضة.

قـال مصافحا ونحن نخرج من الحافلـة: «مرحبا، آمل أن تكونـا جائعين، فلدينا حفلة شواء وأمي هي الطاهية»

لا أدعـي أنني عرفت ما يجول بأذهان البيض الذين احتشدوا ذلك اليوم. كان معظمهـم في مثـل عمري أو أكبر، ولذلـك تذكروا - إن لم يكونوا جـزءا من - تلك الأيـام الكئيبة قبل ثلاثـين سنة. ولا شك في أن العديد منهـم اجتمعوا هنالك لأن اد سميـث، أحد أقوى الشخصيات نفوذا وتأثيرا في المنطقة، أراد منهم الاجتماع؛ ولربمـا حضـر غيرهم لمجـرد الاستمتـاع بالطعـام أو مشاهدة سيناتـور أمريكي ومرشح للمجلس في منطقتهم.

لكننـي عرفـت أن الشـواء كان لذيـذا، والحـوارات التـي جـرت تبعـث الحيويـة والنشـاط، وبدا النـاس مبتهجين للقائنا. بقينـا طوال ساعة أو نحوهـا نأكل ونلتقط

الصور التذكارية ونصغي إلى اهتمامات وهموم الناس. ناقشنا ما يمكن عمله لإعادة تنشيط اقتصاد المنطقــة والحصول على مزيد من المال للمدارس؛ سمعنا عن الأبناء والبنــات الذين ذهبــوا إلى العراق، والحاجة إلى هدم المستشفــى القديم الذي أفسد مركــز المدينة. وعندما غادرنا، شعرت بأن علاقة توطدت أواصرها بيني وبين الناس الذين التقيت بهم ـ صحيح أنه لم يحدث تحول جذري، لكنه كان كافيا لتقويض بعض أحكامنا المتحيزة وتدعيم دوافعنا الخيرة والطيبة والإيجابية. بكلمات أخرى، بني نوع من الثقة بيننا.

وبالطبع، كثيرا ما تكون هذه الأنماط من الثقة بين السباقات الانتخابية مؤقتة ولا تدوم. ويمكن أن تنحسر وتضمحل بكل سهولة. فهي تدوم طالما بقيت الأقليات صامتة وساكنة ومذعنة للظلم؛ ويمكن أن تنفجر وتنهار بواسطة بضع إعلانات دعائية سلبية وفي الوقت المناسب تصور العمال البيض يفقدون عملهم بسبب تشجيع تمثيل الأقليات (خصوصا في مجال العمل)، أو عبر خبر يؤكد إطلاق الشرطة النار على شاب أعزل أسود أو من أصل لاتيني.

لكنني أعتقــد أيضا أن لقاءات مماثلة لتلك التي عقدت في القاهرة تمارس تأثيرا يتوسع ويمتد: وأن المواطنين من جميع الأعراق ينقلون تأثير هذه اللحظات إلى بيوتهم وأماكــن عبادتهم؛ وأنها تظلل الحوار مع الأبناء في البيت والزملاء في العمل ويمكنها أن تحت وتضعف بموجات متلاحقة ما يولده الانعزال من كراهية وشكوك.

رجعت من مدة قريبة إلى جنوب ولاية إلينوي، مع أحد مستشاريي الميدانيين، وهو شــاب أبيض يدعى روبرت ستيفان، بعد يوم طويل من الخطب واللقاءات في المنطقة. كانــت ليلة ربيعية جميلــة، تلألأت فيها ميــاه وضفاف المسيسيبي تحــت ضوء القمر. ذكرتنــي الميــاه بالقاهرة وجميــع البلدات الأخــرى على مجرى النهــر، والمستوطنات التي ظهــرت واندثرت مع النقل والعبور بالمراكب، وأحداث التاريخ الحزينة والقاسية والوحشيــة غالبــا التي ترسبت هناك عند ملتقى الأحــرار والعبيد، عالم هكلبري فين وعالم صديقه جيم (في رواية مارك توين الشهيرة).

أبلغت روبرت بالتقدم الذي حققناه فيما يتعلق بهدم المشفى القديم في القاهرة ـ بدأ مكتبنا عقد لقاءات مع الإدارة الصحية في الولاية، ومع المسؤولين المحليين ـ وشرحت له ما حدث في زيارتي للبلدة. ولأن روبرت نشأ في الجزء الجنوبي من الولاية، سرعان ما تطرقنا إلى المواقف العنصرية لأصدقائه وجيرانه. فقبل أسبوع واحد كما قال، دعاه بعض الأشخاص المحليين من أصحاب النفوذ إلى الانضمام إليهم في ناد اجتماعي صغير في التون، قرب المنزل الذي ترعرع فيه. لم يزر روبرت النادي من قبل، واعتقد أن اللقاء سيكون ممتعا. بعد تقديم الطعام وتبادل أحاديث المجاملة، لاحظ روبرت أنه لا يوجد بين الحاضرين الذين بلغ عددهم الخمسين تقريبا شخص أسود واحد. ولأن ربع سكان التون من الأمريكيين الأفارقة، رأى أن الأمر غريب وسأل عنه الحاضرين.

قال أحدهم: إن النادي خاص.

في البداية لم يفهم روبرت حقيقة الأمر ـ ألم يحاول أي أسود الانضمام؟ وحين أجابوا بالنفي، قال: هل نسيتم إننا في عام 2006!

لم يبد الرجال أي اهتمام، وقالوا إن الأمر ظل دوما على هذا المنوال. لا يسمح للسود بالانضمام إلى النادي.

عندئذ، ألقى روبرت منديله على طبقه، ونهض ليودعهم ويغادر المكان.

أفترض أنه كان بمقدوري التفكير مليا بأولئك الرجال في النادي، وأعده دليلا يثبت أن البيض ما يزالون يتشبثون بمواقفهم العنصرية المعادية لأمثالي. لكنني لا أريد أن أمنح هذا التعصب العنصري قوة لم يعد يمتلكها.

اخترت التفكير بروبرت بدلا من ذلك، والإشارات الإيمائية البسيطة لكن الصعبة التي أرسلها. فإذا استطاع شاب مثله بذل الجهد متجاوزا تيارات العادة والخوف ليفعل ما يعرف أنه الصواب، فأنا أريد أن ألقاه على الطرف الآخر ومساعدته على الوصول إلى بر الأمان.

لم يتلـق انتخابي الدعم والتأييد من المواقف العرقية المتطورة للناخبين البيض في الينوي فقط. بل عبر عن تغييرات في مواقف الأمريكيين الأفارقة في الولاية أيضاً.

يمكـن رؤيـة أحد مقاييس هذه التغيرات في أنواع الدعـم المبكر الذي تلقته حملتي الانتخابية. فأول خمسمئة ألف دولار جمعتها خلال الانتخابات التمهيدية أتى نصفها تقريبـاً من المهنيين وأصحاب الفعاليات التجارية السود. ومحطة الإذاعة (WVON) التـي يملكها أحـد السود هي أول من بدأ يبث أخبار حملتـي الانتخابية على الهواء في شيكاغـو، والمجلة الإخباريـة الأسبوعية (التـي يملكها السود أيضـاً) (NDigo) هي التـي وضعت صورتي على الغـلاف. وأول مرة احتجت فيها إلى طائرة خاصة لحملتي الانتخابية كانت لصديق أسود.

مثـل هذه القدرة لم تكن حتى موجودة قبل جيل مـن الآن. ومع أن شيكاغو تمتعت علـى الـدوام بأكثر مجتمعات السود المحلية حيوية ونشاطـا على الصعيد التجاري في أمريـكا، إلا أن حفنة قليلة من الرجال العصاميين في الستينيات والسبعينيات ـ جون جونسون، مؤسس ابيوني وجيت؛ وجورج جونسون، مؤسس شركة جونسون برودكتس؛ واد غاردنر، مؤسس شركة سوفت شين؛ وآل جونسون، أول رجل أسود في أمريكا يمتلك حقـا حصريا في بيع منتجـات جنرال موتورز ـ كانوا يعدون مـن الأثرياء وفقاً لمعايير البيض في أمريكا.

اليـوم، لم تعد المدينة ملآنة بالأطبـاء والمحامين والمحاسبين وغيرهم من المهنيين السـود فقط، بل يشغـل السود عددا من أرفع المناصب في شـركات شيكاغو. ويملكون المطاعم والمصـارف الاستثماريـة ووكالات العلاقات العامة، وشـركات الاستثمارات العقاريـة والهندسة المعمارية. ويستطيعون الإقامـة في الأحياء التي يريدونها وإرسال أولادهم إلى أفضل المدارس الخاصة. وهم ينشطون في الانضمام إلى المجالس المدنية ويدعمون جميع الأعمال الخيرية.

مـن الناحية الإحصائية، يبقى عدد الأمريكيين الأفارقـة الذين يحتلون قمة سلم الدخل (أعلى خمس) صغيراً نسبياً. إضافة إلى ذلك، يستطيع كل مهني ورجل أعمال

مــن الســود في شيكاغو روايــة القصص عن العقبــات العرقية التــي تعترضهم. فقلة من الأمريكيــين الأفارقة من أصحاب المشروعات التجاريــة ورثوا الثروة أو ساعدهم المستثمــرون على إطــلاق أعمالهم أو وفــروا لهم الحماية مــن الانكماش الاقتصادي المفاجــئ. ولا يشــك سوى القليل منهــم في حقيقة أنهم لو كانوا مــن البيض لكان من الأسهل تحقيق ما وضعوه من أهداف.

ومع ذلك لن يستخدم هؤلاء العرق عكازا أو يشيروا إلى التمييز العنصري كذريعة لتبريــر الفشــل. وفي الحقيقة فإن ما يميز هذا الجيل الجديد مــن المهنيين السود هو رفضهــم لوضــع أي حدود لمــا يستطيعون تحقيقه. حــين قرر صديــق لي تفوق في بيع السندات في فرع شيكاغو مــن شركة ميريل لينش، تأسيس مصرف استثماري خاص بــه، لم يكن هدفــه أن يجعله يتربع على قمة الشركات التي يملكها السود - بل أراد أن يتفوق على الشركات الأمريكية كافة. وحين عزم صديق آخر على ترك منصبه الرفيع (مدير تنفيذي) في جنرال موتورز ليؤسس شركة خاصة به بالمشاركة مع شركة هيات، اعتقــدت والدته أنه فقد صوابه. «لم تتصور مــا هو أفضل من وظيفة قيادية في إدارة جــنرال موتورز. لأن مثل هذه الوظائف كانت مستحيلة على أفراد جيلها. لكننــي أردت تأسيس شركة خاصة بي»، كما قال.

تلك الفكرة البسيطة ـ المرء لا ينحصر في إطار أحلامه ـ احتلت موقعا مركزيا في فهمنا لأمريكا إلى حد أنها أصبحت شائعة وسائدة تقريبا. لكن في نظر الأمريكيين الأفارقة، تمثل الفكرة قطيعة جذرية مع الماضي، وكسر القيود النفسية للرق وسياسة التمييز العنصري. لربما يكون أهم ميراث لحركة الحقوق المدنية، الهبة التي قدمها زعماء مثل جون لويس وروزا باركس، الذين تظاهروا واحتشدوا وتحملوا التهديدات والاعتقالات والضــرب في سبيل توسيع أبواب الحرية. وهي شهادة دامغة أيضا على ذلــك الجيل من الآباء والأمهات من الأمريكيــين الأفارقة الذين كانت بطولتهم أقل دراميــة لكنهــا لم تكن أقــل أهمية: الآباء والأمهــات الذين عملوا طــوال حياتهم في وظائــف أقل مــن إمكاناتهم بكثــير، دون أن يشتكوا أو يتذمــروا، وكافحوا ليدخروا ثمــن بيــت صغير؛ وناضلوا من أجل أن ينتسب أطفالهــم إلى دروس تعلم الرقص أو

المشاركة في الرحلات الميدانية التي تنظمها المدارس؛ المدربون الذين أشرفوا على فرق دوري الشباب وألحوا بعناد على المدرسين ليتأكد لهم أن أطفالهم يشاركون في أفضل البرامج وأكثرها تحديا؛ الآباء والأمهات الذين أخذوا أطفالهم إلى الكنيسة في كل يوم أحد؛ وأدبوهم حين خرجوا على قواعد السلوك القويم، ورعوا جميع أطفال المبنى الذي يقيمون فيه خلال أيام الصيف الطويلة. والذين دفعوا أبناءهم لتحقيق الإنجازات ودعموهم بالحب والحنان بحيث يستطيعون تحمل الصعوبات في المجتمع الأوسع.

عبر هذا السبيل الأمريكي الجوهري من الحراك الارتقائي نمت الطبقة الوسطى السوداء بمقدار أربعة أضعاف في خلال جيل واحد، وانخفض مستوى الفقر بين السود إلى النصف. وعبر عملية مشابهة من العمل الجاد والدؤوب والتزام العائلة، حقق الأمريكيون اللاتين مكاسب مشابهة: بين عامي 1979 ـ 1999، نمت الأسر الأمريكية ذات الأصول اللاتينية التي تنتمي إلى الطبقة الوسطى بنسبة تجاوزت 70%. وأصبح من الصعب تمييز العمال السود واللاتين، في آمالهم وتوقعاتهم، عن نظرائهم البيض. فهم الذين يجعلون اقتصادنا دائرا وناشطا وديمقراطيتنا مزدهرة ـ المدرسون والميكانيكيون والممرضات وتقنيو الكمبيوتر وعمال خطوط التجميع وسائقو الحافلات وموظفو البريد ومديرو المتاجر وعمال الصيانة الذين يكونون قلب أمريكا النابض.

ومع ذلك، وعلى الرغم من التقدم الذي تحقق في العقود الأربعة الماضية، تبقى هوة عنيدة بين مستويات معيشة العمال السود واللاتين والبيض. فمتوسط أجر العامل الأسود يعادل 75% من أجر العامل الأبيض، في حين لا يتجاوز معدل أجر العامل من الأصل اللاتيني 71%. أما صافي قيمة الموجودات للسود فهو 6000 دولار، واللاتين 8000%، مقارنة بـ 88000 للبيض. وعندما يسرح السود واللاتين من وظائفهم أو يواجهون حالة طارئة في الأسرة فلديهم مدخرات أقل، مقارنة بالبيض، ليعتمدوا عليها، والآباء أقل قدرة على مد يد المساعدة لأبنائهم. وحتى السود واللاتين الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى يدفعون أكثر للضمان والتأمين مقارنة بالبيض، وهم أقل احتمالا لامتلاك بيوت خاصة بهم، ويعانون مشكلات صحية أكثر من باقي الأمريكيين. لربما تعيش الأقليات الحلم الأمريكي، لكن قبضتها على الحلم تظل واهية وضعيفة.

كيف نستطيع ردم هذه الهوة العنيدة؟، وما دور الحكومة في تحقيق هذا الهدف؟، سؤالان يقعان في صميم الجدل الدائر في السياسة الأمريكية. لكن يجب وضع بعض الإستراتيجيات التي يمكننا الاتفاق عليها. يجب أن نبدأ من استكمال العمل الذي لم تنجزه حركة الحقوق المدنية - أي تطبيق القوانين المناهضة للتفرقة العنصرية في مجالات أساسية مثل الاستخدام والإسكان والتعليم. وكل من يظن أننا لم نعد بحاجة إلى مثل هذا التطبيق يجب أن يقوم بزيارة إلى مرائب السيارات الملحقة بالمكاتب والشركات ويحسب عدد السود المستخدمين، حتى في الوظائف التي لا تتطلب مهارات خاصة، أو يتوقف في قاعة لإحدى النقابات ويسأل عن عدد السود المنتسبين إلى برامج التدريب العملي والمهني، أو يقرأ الدراسات الحديثة التي تظهر أن الوسطاء العقاريين ما يزالون يبعدون الأسر السوداء عن الأحياء التي تقطنها أغلبية من البيض. أعتقد أنك ستدرك أن ثمة خطأ ما يحدث، إلا إذا كنت تعيش في ولاية لا يقطنها العديد من السكان السود.

تحت الإدارات الجمهورية المتعاقبة، كان هذا التطبيق لقوانين الحقوق المدنية فاترا وخجولا في أفضل الأحوال، وفي ظل الإدارة الحالية، لم يعد له وجود عمليا - إلا إذا أخذنا بالاعتبار تشوق إدارة الحقوق المدنية في وزارة العدل إلى تصنيف المنح الجامعية أو برامج تعزيز وإثراء التعليم التي استهدفت طلاب الأقليات بوصفها «تمييزا معكوسا»، بغض النظر عن تدني نسبة تمثيل طلاب الأقليات في مؤسسة معينة أو مجال محدد، ومدى هامشية تأثير البرنامج في الطلاب البيض.

يجب أن يشكل ذلك مصدرا للقلق عبر الطيف السياسي كله، حتى لأولئك المعارضين لسياسة تشجيع الأقليات وزيادة تمثيلها. ويمكن لبرامج هذه السياسة، حين تصمم وتنفذ بأسلوب صحيح، أن تفتح الفرص المغلقة لولاها أمام طلاب الأقليات المؤهلين دون حرمان الطلاب البيض منها. ونظرا لندرة المرشحين السود واللاتين لنيل شهادة الدكتوراه في الرياضيات والعلوم الفيزيائية، مثلا، فإن برنامجا للمنح الدراسية المقدمة لطلاب الأقليات المهتمين بالحصول على شهادات عالية في هذه الحقول (وهو هدف لاستقصاء أجرته وزارة العدل منذ مدة قريبة) لن

يحـرم الطلاب البيض من هذا البرنامـج، لكن يمكن أن يوسع مجموعة المواهب التي ستحتاجهـا أمريكا لكي يعم الازدهار الجميع في اقتصـاد مرتكز على التقانة. فضلا عـن ذلك، وبوصفي محاميا عمـل في قضايا الحقوق المدنية، يمكننـي القول إن وضع أهـداف وجـداول زمنية لاستخدام وتوظيف عمال الأقليات قـد يكون العلاج المنطقي الوحيـد المتـاح، وذلك كلما ظهـر دليل قوي يثبت اتبـاع الشركات الكـبرى أو نقابات العمال أو البلديات نظاما منهجيا وطويل الأمد للتمييز العنصري.

يختلف العديد من الأمريكيين معي في هذا السياق من حيث المبدأ، على أساس أن مـن الواجـب على مؤسساتنا عدم أخـذ العرق بعين الاعتبار، حتـى في حالة مساعدة ضحايـا التمييز في الماضي. حسنـا، أتفهم مثل هذه الحجج، ولا أتوقع العثور على حل للجـدل الخـلافي في المستقبـل القريب. لكن ذلك يجـب ألا يمنعنا من تيقـن أن على الحكومـة، عـبر المدعـين العامين والمحاكـم، التدخـل لتصحيح الأمور، حـين يتقدم متنافسان متساويان في المؤهلات، أحدهما من الأقليات والآخر من البيض، للحصول على وظيفة أو مسكن أو قرض، وجرى تفضيل الأبيض باستمرار.

يجـب أن نتفـق أيضا علـى أن مسؤولية ردم الهـوة لا يمكـن أن تتحملها الحكومة وحدهـا؛ فعلى الأقليـات، أفـرادا وجماعات، تحمـل المسؤولية أيضـا. ولا ريب في أن العديد من العوامل الاجتماعية أو الثقافية التي أثرت سلبا في المواطنين السود، مثلا، تعـبر بصيغة مضخمة عـن مشكلات تؤثر في الأمريكيين جميعـا: الإفراط في المتابعة التلفزيونيـة (تشاهـد الأسرة السـوداء التلفزيون مدة تزيد عن إحـدى عشرة ساعة يوميـا في المعدل الوسطي)، الإفراط في استهـلاك المواد السامة (السود أكثر إفراطا في التدخين وتناول الطعام الدسم)، غياب التوكيد على المنجزات التعليمية.

ثم هنالك انهيار العائلة بسبب الانفصال بين الأب والأم في مجتمعات السود، وهي ظاهرة تتزايد بمعدل ينذر بالخطر عند المقارنة ببقية المجتمع الأمريكي، وكانت ذات يـوم مختلفة في الدرجـة فأصبحت مختلفة في النوع، ظاهرة تعـبر عن لا مبالاة تجاه الجنس ورعاية الأطفال لدى الرجال السود، وهذا ما جعل الأطفال السود أكثر عرضة للخطر ـ ولا يوجد عذر لها.

هــذه العوامل حين تجتمع معا تعيق التقدم. فضلاً عن ذلك، على الرغم من قدرة عمـل الحكومة على المساعدة في تغيير السلوك (تشجيع سلسلة متاجر السوبر ماركت التـي تبيـع منتجات طازجة على افتتـاح فروع لها في أحياء السـود، على سبيل المثال، يمكـن أن يحـدث تأثيرا بالغا في تغيير عـادات الأكل)، إلا أن تغيـير المواقف يجب أن يبـدأ من المنزل، والأحيـاء السكنية، وأماكن العبادة. إن علـى المؤسسات الاجتماعية المرتكز، خصوصا كنائس السود، مساعدة العائلات على إحياء احترام الجيل الشاب للإنجـازات التعليميـة، وتشجيـع أساليب الحيـاة الصحية، وإعـادة تنشيط المعايير الاجتماعية التقليدية المتعلقة بمتع والتزامات وواجبات الأبوة.

لكن أهم أداة لردم الفجوة بين عمال الأقليات والعمال البيض قد لا تتصل بالعرق في نهايـة المطاف. فالآفات التي تصيب ببلواها الطبقتين العاملة والوسطى في مجتمع السـود واللاتين هذه الأيام لا تختلف اختلافا جوهريا عن تلك التي يعانيها نظراؤهم البيضـ: إعـادة الهيكلة وتصغير حجـم الشركات، نقل عمليات الإنتـاج إلى الخارج، الأتمتـة، تجمد الأجـور، تفكيك وإلغاء خطـط وبرامج الرعاية الصحيـة والتقاعدية المرتكـزة على أرباب العمـل، المدارس الفاشلة والعاجزة عن تعليـم الشباب المهارات التـي يحتاجونهـا للمنافسة في الاقتصاد المعولم (السود هـم الأكثر تأثرا ومعاناة من هـذه النزعات، نظـرا لأنهم الأكثر اعتمادا على وظائـف التصنيع، فهم من الشغيلة، «أصحاب الياقات الزرقاء»، ومن المستبعد أن يقيموا في الضواحي الجديدة التي تولد وظائـف جديـدة). وما يساعد عمـال الأقليات هو مـا يساعد العمـال البيض: إتاحة الفرصة للحصول على أجر كاف لتلبية متطلبات الحياة، التعليم والتدريب الضروريان للحصـول على هذا الأجـر، قوانين عمل وضرائب تعيد بعض التـوازن إلى توزيع ثروة البلاد، رعاية صحية ورعاية الطفولة، برامج تقاعدية يمكن للعمال الاعتماد عليها.

هـذا النمط ـ ارتفاع المد الذي يحمل قوارب الأقليات ـ كان صحيحا في الماضي. فقـد تحقـق التقدم بواسطة الجيـل السابق مـن الأمريكيين الأفارقـة واللاتين لأن الفرصـن ذاتهـا التي وفرت ومنحت للطبقـة الوسطى البيضاء أتيحـت للمرة الأولى للأقليـات أيضا. واستفادت، مثل جميـع الأمريكيين، من اقتصاد كان ينمو وحكومة

اهتمت بالاستثمار في مواطنيها. ولم يكتف السود بالاستفادة مباشرة من قلة العمالة في سوق العمل، وسهولة الحصول على رأس المال، وبرامج المنح والقروض فقط؛ بل إن تنامي الدخل والإحساس بالأمان جعلا البيض أقل معارضة لمطالب الأقليات بالعدالة والمساواة.

الصيغة ذاتها تصح اليوم. ففي عام 1999، انخفض معدل البطالة بين السود وارتفع دخلهم إلى مستوى قياسي لا بسبب الموجة الكاسحة لسياسة تشجيع تمثيل الأقليات في العمل والاستخدام أو التغير المفاجئ في أخلاقيات العمل بين السود، ولكن لأن الاقتصاد ازدهر وانتعش ولأن الحكومة اتخذت إجراءات (معتدلة) جديدة ـ مثل توسيع ائتمان ضريبة الدخل المكتسب ـ لنشر وتوزيع الثروة في كل مكان. وإذا أردت أن تعرف سر شعبية بيل كلينتون بين الأمريكيين الأفارقة، لست بحاجة إلى النظر أبعد من هذه الإحصائيات.

لكن هذه الإحصائيات ذاتها يجب أن تدفع أولئك المهتمين منا بالمساواة العرقية إلى إجراء حساب نزيه للتكاليف والأرباح الناجمة عن إستراتيجياتنا الراهنة. وحتى حين نستمر في الدفاع عن سياسة تشجيع تمثيل الأقليات بوصفها أداة مفيدة، وإن تكن محدودة، لتوسيع الفرص المتاحة للأقليات المحرومة والمظلومة، فإن علينا التفكير بإنفاق المزيد من رأسمالنا السياسي لإقناع أمريكا بتوظيف الاستثمارات الضرورية لضمان أداء الطلاب الجيد في صفوفهم وتخرجهم في المدارس الثانوية ـ وهو هدف، إن تحقق، سيكون أقدر من سياسة تشجيع تمثيل الأقليات على مساعدة الأطفال السود واللاتين الذين يحتاجون إليها أكثر من سواهم. على نحو مشابه، يجب علينا دعم البرامج الهادفة لإلغاء التفاوت في الرعاية الصحية بين الأقليات والبيض (تشير بعض الأدلة إلى أن أفراد الأقليات لا يتلقون العناية الكافية حتى عند استثناء الدخل ومستويات الضمان)، لكن وضع خطة للرعاية الصحية الشاملة سوف يساعد في إلغاء التفاوت بين البيض والأقليات أكثر من أي برامج خاصة بالأعراق يمكن أن نصممها.

لا يعد التشديد على البرامج الشمولية، إزاء تلك الخاصة بالأعراق، مجرد خطة عمل جيدة فقط؛ بل سياسة جيدة أيضا. أذكر أنني جلست مرة مع زملائي الديمقراطيين في مجلس الشيوخ ولاية الينوي نستمع إلى سيناتور آخر، أمريكي ـ أفريقي -سأدعوه جون دو- كان يمثل منطقة في الأحياء الداخلية، ألقى خطبة عصماء وحماسية عن السبب الذي يجعل إلغاء بعض البرامج المعينة قضية عنصرية صارخة. بعد بضع دقائق، التفت السيناتور الأبيض (الذي تفوق على زملائه في سجل التصويت الليبرالي) وقال: «أتعرف ما المشكلة مع جون؟ كلما سمعته يجعلني أشعر بأننا أكثر بياضاً».

أشرت في معرض الدفاع عن الزميل الأسود إلى أن من الصعب على السياسي الأسود قياس النبرة الصحيحة التي يجب أن يستخدمها ـ مفرطة في الغضب؟ ليست غاضبة بما فيه الكفاية؟ ـ عند مناقشة المشقات والصعاب التي يواجهها ناخبوه. ومع ذلك، كان تعليق زميلي الأبيض مفيدا. فقد استنفد الذنب الذي يشعر به البيض طاقته في أمريكا (صوابا أو خطأ)؛ حتى أكثرهم نزاهة، الذين يرغبون فعلا في إنهاء الظلم العرقي وتخفيف الفقر، يميلون إلى معارضة الإشارات إلى الاضطهاد العنصري ـ أو المزاعم العرقية المرتكزة على تاريخ التمييز العنصري في هذه البلاد.

يعود جزء من السبب وراء ذلك إلى نجاح المحافظين في تأجيج سياسة الاستياء، مثلا: عبر المبالغة والتهويل في الآثار الضارة لسياسة تشجيع التمثيل العادل للأقليات على العمال البيض. لكن الحقيقة أن المسألة تتعلق بالمصلحة الذاتية. فمعظم الأمريكيين البيض يدركون أنهم لم يشاركوا في ممارسة التمييز العنصري بأنفسهم ولديهم الكثير من المشكلات الخاصة بهم التي تشغلهم وتقلقهم. ويعرفون أيضا أن البلاد، مع اقتراب الدين الوطني من تسعة تريليونات دولار، وبلوغ العجز السنوي في الميزانية 300 مليار دولار، لا تملك سوى عدد قليل من الموارد الثمينة لمساعدتهم على حل تلك المشكلات.

نتيجة لذلك كله، قد تولد الاقتراحات التي تفيد الأقليات فقط وتقسم الأمريكيين إلى «نحن» و«هم»بضعة تنازلات قصيرة الأجل حين لا تكون التكاليف مرتفعة كثيرا

علـى البيض، لكنها لا تخدم كأساس لأنواع التحالفات السياسية المستدامة والعريضة المرتكز التي تحتاجها عملية تغيير أمريكا. من ناحية أخرى، يمكن للجاذبية الشمولية المحيطـة بالإستراتيجيـات التي تساعـد الأمريكيين كافة (المدارس التي تعلم فعلا، والوظائـف التـي تقدم أجرا كافيـا، والرعاية الصحية التي تشمـل كل من يحتاجها، وحكومـة تغيـث المتضررين من الفيضان مثـلا)، إلى جانب الإجـراءات التي تضمن تطبيـق قوانيننـا بعدالة على الجميع، ومن ثم تعزز وتدعم المثـل الأمريكية (التطبيق الأفضـل لقوانين الحقـوق المدنية القائمة مثلًا)، أن تخدم كركيـزة مؤسسة لمثل هذه التحالفات ـ حتى وإن ساعدت هذه الإستراتيجيات الأقليات بشكل غير متناسب.

مثـل هذا التحول في التشديد والتوكيد ليس أمـرا سهلا: العادات القديمة عنيدة ومقاومـة للتغيـير، وثمة خوف دائم يصيـب العديد من الأقليات مـن أن الأمريكيين البيضـ سوف يتخلون عن تعهداتهم فتضيع المكاسب التي تحققت بالنضال والكفاح، إذا لم يظـل التمييـز العنصـري الـذي مورسـ ماضيـا وحاضـرا في الواجهة وعلى قمـة الأولويـات. أتفهم هذه المخـاوف ـ فلا يوجد ما يضمن تحـرك التاريخ في خط مستقيـم، وخلال الأوقات الاقتصادية الصعبـة يمكن لضرورات المساواة العرقية أن تهمش وتوضع على الرف.

ومـع ذلك، حين أنظـر إلى ما وجب على الأجيـال السابقة مـن الأقليات مغالبته، أشعـر بالتفاؤل بقدرة هذا الجيل التالي على استمـرار الدخول في التيار الاقتصادي الغالب. فعلى مدى معظم تاريخنا الحديث، كان استغلال الفرص المتاحة أصعب على السـود؛ والسمـاح للأمريكيين اللاتين بالعمل في أقسام المطافـئ والشركات قد يكون كرهـا وعن غير رضى. لكن على الرغم مـن كل شيء، فإن التوليفة التي جمعت النمو الاقتصـادي والاستثمار الحكومـي في البرامج الشاملة لتشجيع الحـراك الارتقائي، والالتـزام المتواضـع بتطبيق مبدأ مناهضـة التمييز، كانت كافية لجـر أغلبية السود واللاتين إلى التيار الاجتماعي الاقتصادي الغالب بخلال جيل واحد.

نحن بحاجة إلى تذكير أنفسنا بهذا. لكن اللافت ليس عدد الأقليات التي أخفقت في التسلـق إلى الطبقة الوسطى، بل عدد التي نجحت على الرغم من جميع الصعاب

والعقبات؛ ولا مشاعر الغضب والمرارة التي نقلها الآباء الملونون إلى أبنائهم، بل درجة انحسار هذه المشاعر. هذه المعرفة تقدم لنا ركيزة نؤسس عليها. وتخبرنا أن بالإمكان تحقيق مزيد من التقدم.

إذا استطاعت الإستراتيجيات الشاملة الجامعة التي تستهدف التحديات التي يواجهها الأمريكيون كافة أن تمضي شوطا بعيدا نحو ردم الفجوة بين الأمريكيين السود واللاتين والبيض، فهناك جانبان للعلاقات العرقية في أمريكا يتطلبان انتباها خاصا ـ قضايا تؤجج لهيب الصراع العرقي وتضعف التقدم الذي تحقق. فيما يتعلق بالأمريكيين الأفارقة، تتمثل القضية في الظروف المتدهورة لفقراء أحياء المدن الداخلية. وفيما يتصل باللاتين ، تتجسد المشكلة في العمال غير الرسميين والعاصفة النارية السياسية المحيطة بالهجرة.

من المطاعم المفضلة لدي في شيكاغو مطعم يدعى ماك ارثر. فهو يقع بعيدا عن المنطقة التجارية الرئيسة في المدينة على الطرف الغربي من ويست سايد في شارع ماديسون. المطعم بسيط ومضيء يتسع لقرابة مئة شخص. في أي يوم من أيام الأسبوع، يتناول العشاء فيه هذا العدد من الناس تقريبا ـ أسر ومراهقون وجماعات من النساء المحتشمات وشيوخ ـ ينتظرون دورهم، على نمط الكافتيريا، للحصول على أطباق ملأى بالدجاج المقلي وسمك السللور والبازلاء والرز واللحم والملفوف واللحم بالعجين وخبز الذرة وغيرها من الأطباق التقليدية الشائعة بين السود في الجنوب. يستحق الأمر الانتظار في الطابور لأنك تتبادل الحديث مع الناس.

صاحب المطعم، ماك ألكسندر، رجل ضخم الجثة عريض الصدر في أوائل الستينيات من العمر، شاب شعره الخفيف، وتهدل شاربه، وبدا حول خفيف في عينيه خلف نظارته، وأعطته هذه الملامح مظهر البروفسور المتأمل. مارك من المحاربين القدماء، ولد في ليكسينغتون (في المسيسيبي)، وفقد رجله اليسرى في فيتنام؛ بعد أن شفي، انتقل هو وزوجته إلى شيكاغو، حيث حضر دورات تدريبية على ممارسة الأعمال التجارية في حين عمل في أحد المستودعات. في عام 1972، افتتح متجر «تسجيلات

مــاك»، وساعد في تأسيس جمعية تحسين الأعمــال التجارية في الويست سايد، وتعهد بإصلاح وترميم وتحسين ما يدعوه «هذا الركن الصغير من العالم».

نجــح ماك وفقا لجميع المقاييس. فقد نمت تجارته؛ وافتتح مطعما ووظف السكان المحليــين للعمل فيه؛ وبدأ شراء وإعادة ترميم المبــاني المتداعية ثم تأجيرها. وبسبب الجهــود التــي بذلها رجــال ونساء مثل مــاك لم يعد شــارع ماديسون يبــدو كئيبا كما اشتهــرت شــوارع الويست سايــد. هنالك متاجر لبيــع الملابس وصيدليــات وكنائس. وستجد على جانبي الطريق السريع البيوت المكونة من طبقة واحدة - المحاطة بالمروج الخضــراء المشذبــة ومساكب الورد المصممــة بعناية - التي تكــون العديد من الأحياء السكنية في شيكاغو.

ولكــن حين تقطع مسافة قصيرة في أي اتجاه ستجد جانبا مختلفا من عالم ماك: حشود من الشبان على ناصية الشارع يلقون نظرات ماكرة ومختلسة؛ أصوات صفارات الإنــذار تمتزج مع دوي الموسيقــى القادمة من السيارات؛ المباني المظلمة التي تلطخت جدرانهــا بأسمــاء العصابات؛ أكوام القمامــة المنتشرة في كل مــكان تذروها الرياح. إدارة الشرطــة في شيكاغو ثبتــت منذ مدة قريبة كاميرات دائمة وأضواء ساطعة على أعمــدة النور في ماديسون، ففــرق كل مبنى بوهج أزرق دائم. الناس الذين يقيمون في ماديســون لم يشتكوا أو يتذمروا؛ فالأضواء الزرقاء الساطعة غدت منظرا مألوفا. بل تذكرة أخرى بما يعرفه الكل - نظام المناعة في المجتمع المحلي انهار كليا تقريبا، نتيجة المخدرات وإطلاق الرصاص واليأس؛ الفيروس انتشرت عدواه، على الرغم من جهود أمثال ماك، والناس في حالة متفاقمة من الضعف والانحلال.

قــال لي مــاك في أصيل أحد الأيــام ونحن نسير لمشاهدة أحــد مبانيه: «الجريمة ليســت أمــرا جديدا على حي ويســت سايد. ففي السبعينيــات، لم تأخذ الشرطة على محمــل الجــد فكرة الاهتمــام والاعتناء بأحياء الســود. وطالما لا تمتــد الاضطرابات والمشــكلات إلى أحياء البيض، فهــي لا تبالي. أول متجر افتتحته تعرض لثمان أو تسع عمليات اقتحام وسرقة متلاحقة».

أضـاف قائـلاً: «الشرطـة أكـثر استجابـة الآن. وقائدها، وهـو أخ عزيز، يبذل قصـارى جهده. لكـن ما بيده حيلة مثله مثـل الجميع. أترى هـؤلاء الصبية هناك، إنهم لا يأبهون لشيء. الشرطة لا تخيفهم، والسجن لا يرهبهم ـ نصفهم على الأقل مـن أصحاب السوابق. فـإذا اعتقلت الشرطة عشرة منهـم، سيأخذ عشرة آخرون مكانهم بخلال ساعة».

«هـذا هـو الأمـر الذي تغـير.. موقف هـؤلاء الصبيـة. لا يمكنـك لومهم، لأن معظمهـم لا يملـك شيئا في المنـزل. أمهاتهم لا تفيدهـم بشيء ـــ فالعديد منهن مازلـن مراهقات. الآباء في السجون. لا يوجد حولهم من يرشدهم، ويرسلهم إلى المدارسـ، ويعلمهم احترام الآخريـن. لذلك فهم يتربون في الشـوارع. هذا كل ما يعرفونه. العصابات هي عائلاتهم. لا يجدون عملا سوى تجارة المخدرات. أرجو ألا تسـيء فهمي، ما زال لدينا العديد من العائلات الصالحة والكريمة هنا.. صحيح أنها لا تملك مـالا وفيرا، لكنها تبذل قصارى جهدها لتربية أبنائها وإبعادهم عن المشـكلات. لكن العائلات الأخـرى تفوقها عددا بكثير. وكلمـا طالت مدة إقامتها تعاظـم الخطر الذي يهدد أبناءها. لذلك، في اللحظة التي تتاح لها الفرصة تغادر المنطقة. وهذا يجعل الوضع أسوأ حالاً».

هــز ماك رأسه وأردف: «لا أعرف. أفكر دوما بأن في مقدورنا تغيير الحال. لكنني سأكون صادقا معك: من الصعب ألا تشعر أحيانا وكأن الحالة يائسة. إنه أمر صعب، ويزداد صعوبة».

أسمـع الكثير من مثل هذه المشاعر في مجتمعـات الأمريكيين الأفارقة هذه الأيام، اعـتراف صريح بـأن الأوضاع في قلب الأحيـاء الداخلية تخرج عن زمـام السيطرة. في بعضـ الأحيان، سوف يتركـز الحديث على الإحصائيات ـ معـدل وفيات الأطفال (يسـاوي معدلـه في ماليزيا بين الأمريكيـين السود الفقـراء)، أو البطالة بين الذكور السـود (تتجاوز نسبتها الثلـث في بعض أحياء شيكاغو)، أو عـدد السود الذين يتوقع أن يواجهوا النظام القضائي الجنائي في مرحلة ما من حياتهم (واحد من ثلاثة على المستوى الوطني).

لكـن كثـيرا ما تركز الحديث علـى القصص الشخصية، التي تـروى كدليل يثبت الانهيـار الأساس لجزء من مجتمعنـا وتعبر عن مزيج من الحزن وعـدم التصديق. سـوف تتكلم مدرسة عما يعنيـه أن يشتمها صبي في الثامنة بألفـاظ نابية أو يهددها بـالأذى الجسـدي. وسيصـف المحامي العـام صفحـة السوابق المرعبـة لمجرمين في الخامسـة عشرة من العمـر أو اللامبالاة التي يتوقع بها عمـلاؤه أنهم لن يعيشوا إلى سـن الثلاثين. وسوف يصف طبيب أطفال أمهـات مراهقات يحسبن أن من الطبيعي إطعـام أطفالهن الرضع قطع البطاطا المقلية على الإفطـار، أو اللاتي يعترفن بأنهن تركن أطفالا لا تتجاوز أعمارهم خمس أو ست سنوات وحدهم في المنزل.

هذه هي قصص أولئك الذين لم يخرجوا من سجن التاريخ، عن أحياء في مجتمع السود المحلي يسكنها أفقر الفقراء، وتتحول إلى «مستودعات» تخزن جميع ندوب الرق وعنف التمييز العنصـري، والغضب والجهل بالإكراه، وعار الرجال الذين لم يتمكنوا من حماية نسائهم أو إعالة أسرهم، والأطفال الذين قيل لهم إنهم لن يصلحوا لشيء ولم يكن لديهم معين لإزالة الضر والأذى عنهم.

مر زمن بالطبع كان فيه هذا الفقر المدقع الذي يعاني منه الجميع من كل الأعمار يشـكل صدمة للأمة ـ حين استطاع نشر كتاب مايـكل هارينغتون «أمريكا الأخرى» أو زيارات بوبـي كنيدي إلى دلتا المسيسيبي، إثارة الغضب والدعوة إلى العمل. ولت هذه الأيام. فصور ما يسمى اليوم بالطبقة المحرومة موجودة في كل مكان، وأصبحت ثابتا دائمـا في الثقافة الشعبيـة الأمريكية ـ في السينما والتلفزيـون، حيث تنأى عنها قوى القانـون والنظـام؛ في موسيقى الـراب وأفلام الفيديو، حيث تمجـد حياة العصابات ويقلـد المراهقون البيض والسود على حد سواء (مع أن المراهقين البيض، على الأقل، يدركـون أن صورتهـم مجـرد تظاهر وتكلـف)؛ في نشـرات الأخبـار المسائية، حيث أعمال التخريـب والنهب في الأحياء الداخلية تشكل مادة دسمة. وبدلا من استحضار تعاطفنـا، ولدت الألفة مع حياة الفقراء السود تشنجات من الخوف السافر والازدراء الصريح. لكنها على الأغلب لم تولد سوى اللامبالاة. الرجال السود يملؤون سجوننا، والأطفـال السود غير قادرين على القراءة أو محاصـرون وسط معارك الشوارع التي

تخوضها العصابات، والمتشـردون السود ينامون قرب مداخن الأنفاق طلبا للدفء أو في حدائـق عاصمة الأمة ـ نحن نأخذ ذلك كلـه كقضية مسلم بها، كجزء من النظام الطبيعـي للأشياء، وربما هـي حالة مأساوية، لكن لسنا مسؤولـين عنها، وبالتأكيد لا يمكن تغييرها.

فكـرة الطبقة الدنيا المحرومة من السود ـ المنفصلة والمنعزلة والغريبة في سلوكها وقيمهـا ـ لعبـت أيضا دورا مركزيـا في السياسة الأمريكية الحديثـة. فباسم إصلاح حـال غيتـو السود شنت «حـرب جونسون» علـى الفقر، وعلـى أساس إخفاقات تلك الحـرب، الحقيقية والمتخيلة، دفع المحافظون معظـم الأمريكيين إلى معارضة مفهوم دولـة الرعاية الاجتماعية ذاته. ثمـة فكرة أخرى نمت داخل المؤسسـات الاستشارية المحافظة، تؤكد أن الأمراض الثقافية ـ لا التمييز العنصري أو الظلم البنيوي المدمج في اقتصادنا ـ مسؤولة لا عن فقر السود فقط، بل إن البرامج الحكومية مثل الرعاية الاجتماعيـة، بالاقتران مع القضاة الليبراليين الذين «يدللون» المجرمين، فاقمت هذه الأمراض والآفات. شاشات التلفزيون استبدلت بصور الأطفال الأبرياء الذين انتفخت بطونهـم بسبب المجاعة وسـوء التغذية، صور الأطفال السـود الذين يمارسون النهب والسلب والعنـف؛ التقارير كانت أقل تركيزا على الخادمة السوداء التي تكافح لكسب لقمة العيش لأسرتها، مقارنة بتركيزها على «ملكة الرعايـة الاجتماعية»التي تنجب الأطفـال لقبض أموال المعونة. ما كنا بحاجـة إليه، وفقا لحجة المحافظين، هو جرعة إضافيـة من الانضبـاط الصارم ـ مزيد مـن رجال الشرطة، والسجـون، والمسؤولية الشخصية، ونهاية للرعاية الاجتماعية. فإذا لم تغير مثل هذه الإستراتيجيات الوضع في غيتـو السود، فيمكنها علـى الأقل احتواؤه والمحافظة على أمـوال دافعي الضرائب المجدين والمجتهدين ووقف تبديدها وهدرها.

يجـب ألا نفاجئ بكسب المحافظين للـرأي العام وجمهور البيض إلى جانبهم. فقد استغلـت حججهم تمييزا متجـذرا ومتنوعـا في التاريخ الأمريكي يفـرق بين الفقراء الذيـن يستحقـون العـون والذيـن لا يستحقونـه. وهي حجة كثـيرا ما تأثـرت بتلوين عنصـري أو اثنـي واكتسبـت شيوعا أكبر خـلال الأوقات الاقتصاديـة الصعبة، مثل

السبعينيات والثمانينيات. ولم تقدم استجابة صناع السياسة الليبرالية وزعماء الحقوق المدنية أي مساعدة تذكر؛ ففي إلحاحهم على تجنب توجيه اللوم لضحايا العنصرية التاريخية، نزعوا إلى التقليل من شأن/ أو تجاهل الأدلة على أن تجذر أنماط السلوك بين الفقراء السود ساهم فعلا في انتشار الفقر (أشهر الأمثلة اتهام دانييل باتريك موينيهان بالعنصرية في أوائل الستينيات حين حذر من مغبة زيادة الولادات بين الفقراء السود دون زواج). هذه الرغبة في إنكار الدور الذي تؤديه القيم في تشكيل النجاح الاقتصادي لأي مجتمع صعب تصديقها واستعدَت الطبقة العاملة (البيضاء) ـ خصوصا لأن بعضا من أكثر صناع السياسة ليبرالية عاشوا حياتهم بعيدا عن الاضطراب والفوضى في المدن.

الحقيقة أن هذا الإحباط المتنامي نتيجة الظروف في الأحياء الداخلية لا يقتصر على البيض. ففي معظم أحياء السود، ظل السكان الملتزمون بالقانون والمجدون في العمل يطالبون بمزيد من حماية الشرطة منذ سنين، لأن من المرجح أن يسقطوا ضحايا للجرائم. في السر ـ في مطابخ البيوت، وصالونات الحلاقة، وبعد الصلاة في الكنيسة ـ كثيرا ما يرثي السود تآكل وتراجع أخلاقيات العمل، والتربية الناقصة، وانحطاط الآداب والقيم الجنسية، بحماسة تفخر بها مؤسسة التراث.

بهذا المعنى، تعد مواقف السود فيما يتعلق بمصادر الفقر المزمن أكثر محافظة مما ترغب سياسة السود في الاعتراف به. لكن ما لا تسمعه تعابير (مثل «نهاب أو مفترس») يستخدمها السود لوصف شاب ينتمي إلى إحدى العصابات، أو «الطبقة الدنيا» في وصف الأمهات اللاتي يعتمدن على الرعاية الاجتماعية ـ اللغة التي تقسم العالم بين أولئك الذين يستحقون اهتمامنا والذين لا يستحقونه. برأي الأمريكيين السود، لا يعد هذا الانفصال عن الفقراء خيارا أبدا، ولا يعود السبب فقط إلى أن لون جلدنا ـ والنتائج التي يستخلصها المجتمع الأوسع من لوننا ـ يجعلنا جميعا دون استثناء نتمتع بالقدر ذاته من الحرية والاحترام.

بل يعود السبب أيضا إلى أن السود يعرفون القصة الخفية لاختلال وظيفة الأحياء الداخلية. فمعظم الذين نشؤوا في شيكاغو يتذكرون القصة الجمعية للهجرة الكبرى

مــن الجنــوب، وكيف أجــبروا بعد وصولهــم على العيشــ في الغيتوات بسبــب التوجه العنصــري والالتزامــات التقييديــة وجمعوا في مشروعــات الإســكان الشعبية، حيث المدارس دون المستوى المطلــوب، والحدائق تعاني من نقص التمويل، وحماية الشرطة لا وجود لها، وتجارة المخدرات منتشرة وتتساهل معها السلطات. يتذكرون كيف كانت الوظائــف المرموقة تحجــز للجماعات المهاجرة الأخرى، وكيــف تبخرت الأعمال التي يعتمد عليها الشغيلة الســود، بحيث بدأت الأسر تنهار وتتداعى تحت الضغط وينزلق أطفالها عبر شقوق الانهيار والتصدع، إلى أن وصلت الأمور إلى الحضيض وأصبح ما كان استثنــاء محزنا قاعدة سائدة إلى حد ما. يعرفون ما الذي يدفع ذاك الرجل إلى الإدمــان على الكحول لأنه قريبهم وهذا الشاب العنيف إلى الجريمة، لأنهم يتذكرونه حين كان صبيا، مليئا بالحيوية وقادرا على الحب.

بكلمــات أخرى، يفهم الأمريكيــون الأفارقة أن الثقافة عامل مهــم، لكنها تشكلت نتيجــة الظروف. نعلــم أن الكثيرين في أحيائنا الداخليــة محاصرون بسلوكيات تدمر الــذات لكنهــا ليست أصيلة أو فطريــة. وبسبب ذلك العلم، يبقــى مجتمع السود على قناعة بإمكانية تغيير ظــروف أولئك المحاصرين في أحياء المدن الداخلية إذا امتلكت أمريــكا الإرادة للقيام بذلك، وســوف تتغير المواقف الفردية لــدى الفقراء بالطريقة ذاتها، ويمكن رفع الأذى والضر تدريجيا، إن لم يكن من أجل هذا الجيل، فليكن على الأقل في سبيل الجيل التالي.

تساعدنــا هذه الحكمة علــى تجاوز تخوم المشاجــرات والنزاعــات الأيديولوجية، وتخــدم كركيــزة مؤسســة لجهــد متجدد للتصــدي لمشــكلات الفقر في أحيــاء المدن الداخليــة. يمكننــا البدء بالاعتراف ربمــا بأن أفضل خطوة يمكــن اتخاذها في سبيل تخفيف حدة هذا الفقر هي تشجيع المراهقات على استكمال دراستهن الثانوية وتجنب الحمــل خارج إطار الزواج. في هذا المسعى، يجب توسيع البرامج المجتمعية والمدرسية المرتكــز التي ثبت نجاحهــا في تقليص حالات حمل المراهقات، لكــن يجب أيضا على الآبــاء ورجال الدين وزعماء المجتمع المحلي التحــدث جهرا عن هذه القضية بأسلوب أكثر اتساقا وتساوقا وإلحاحا.

علينــا الإقــرار أيضا بــأن المحافظــين ـ وبيــل كلينتون ـــ محقون بشــأن الرعاية الاجتماعيــة كما صممت سابقــا: عبر فصل الدخل عن العمل، وعــدم مطالبة متلقي معونــات الرعاية الاجتماعية بشيء ســوى تحمل البيروقراطيــة الاقتحامية، وضمان يؤكد عدم وجود معيل في الأسرة، فإن برنامج المعونة للأسر التي تعيل الأطفال يضعف في الناس روح المبادرة واحترام الذات. يجب أن تتركز أي إستراتيجية لتقليص الفقر لدى المواطنين من مختلف الشرائح العمرية على العمل، لا على الرعاية الاجتماعية ـ لا لأن العمــل يوفر الاستقلالية والدخل فقط، بل لأنه يوفر النظام والتنظيم والكرامة وفرص النمو في حياة الناس.

لكننا نحتاج أيضا إلى الاعتراف بأن العمل وحده لا يضمن انتشال الناس من وهدة الفقر. ففي مختلف أرجاء أمريكا، استطاع إصلاح نظام الرعاية الاجتماعية تقليص عــدد متلقي إعانة البطالة؛ لكنه ضخم صفوف العاملين الفقراء، حيث فقدت النساء الاستقــرار في سوق العمــل، وحوصرن في وظائف لا يكفي أجرها لسد الرمق، وأجبرن في كل يوم على البحث دون جدوى عن مركز مناسب لرعاية أطفالهن، ومسكن يقدرن على دفع أجرته، ورعاية صحية يسهل الحصول عليها، ليجدن أنفسهن عند نهاية كل شهر عاجزات عن توفير ما يكفي لشراء الطعام واللباس وسداد فاتورة الغاز.

يمكــن لإستراتيجيــات مثل توسيــع برنامج ائتمــان ضريبة الدخــل المكتسب التي تقــدم المساعــدة لجميع العاملين في وظائف متدنية الأجــر، أن تحدث فارقا هائلا في حيــاة أولئــك النسوة وأطفالهن. لكن إذا كنا جاديــن في كسر حلقة الفقر الذي يعاني منــه المواطنــون من جميع الأعمار، فسوف يحتاج العديد مــن هؤلاء النسوة إلى بعض المساعــدة الإضافية لدعم الأساسيات التــي يأخذها من يقيم خارج الأحياء الداخلية قضيــة مسلما بها. فهن بحاجة إلى مزيد من رجــال الشرطة ومزيد من الحراسة في أحيائهن، وتوفير نوع من الحماية الشخصية لهن ولأطفالهن. وهن بحاجة إلى مراكز صحيــة مجتمعية المرتكز تؤكد وتشدد على الوقايــة ـ ومنها رعاية الصحة الإنجابية، والمشــورة المتعلقــة بالتغذية، وفي بعض الحــالات معالجة الإدمــان. بحاجة إلى تغيير جــذري في المدارس التي يدرس فيهــا أطفالهن، وسهولة الحصول على خدمات رعاية الطفل (النهارية) تتيح لهن العمل في وظائف بدوام كامل أو متابعة تعليمهن.

وفي العديد من الحالات، هن بحاجة إلى تعلم كيف يصبحن أمهات فاعلات. ففي الوقت الذي يبلغ فيه العديد من أطفال الأحياء الداخلية سن الدراسة، يعانون التخلف ـــ يعجزون عن تحديد الأرقام أو الألوان الأساسية، أو حروف الأبجدية، وتفاجئهم البيئة المنظمة التي لم يعتادوا عليها، وكثيراً ما يعانون المشكلات الصحية التي لم تشخص طبياً. وهم غير مستعدين الاستعداد الكافي لا لأن أمهاتهم لم يوفرن لهم الحب والحنان، بل لأنهن لا يعرفن كيف يوفرن ما يحتاجه أطفالهن. إن للبرامج الحكومية الجيدة التخطيط والتنظيم ـ تقديم المشورة والنصح قبل الولادة، إتاحة الرعاية الطبية للأطفال، برامج تثقيف وتعليم الآباء والأمهات، برامج تعليم الأبناء في مرحلة الطفولة المبكرة ـ قدرة مثبتة على المساعدة في ملء الفراغ.

أخيراً، نحن بحاجة إلى معالجة ترابط مشكلَتَيّ البطالة والجريمة في الأحياء الداخلية بحيث يستطيع المقيمون فيها البدء بتحمل مسؤولياتهم. الحكمة التقليدية تقول: إن معظم العاطلين عن العمل في الأحياء الداخلية يمكنهم العثور على وظائف إذا أرادوا العمل فعلاً؛ لكنهم يفضلون دوما تجارة المخدرات بكل ما يصاحب أرباحها المحتملة من مخاطر، على الوظائف المتدنية الأجر التي لا يتاح سواها لهم بسبب افتقارهم إلى المهارات اللازمة. وفي الحقيقة، يؤكد الخبراء الاقتصاديون الذين درسوا القضية ـ والشباب الذين وضعت مصائرهم على المحك ـ أن تكاليف العيش ومنافعه في الشارع تختلف عن السائد في الأسطورة الشعبية: في قاع مراتب «المهنة» أو حتى منتصفها، تتعلق قضية تجارة المخدرات بالحد الأدنى من الأجور. فبالنسبة للعديد من رجال الأحياء الداخلية، لا يتمثل ما يمنعهم من العمل في وظيفة مربحة في مجرد غياب الدافع المحفز لمغادرة حياة الشوارع، بل غياب الخبرة الوظيفية أو المهارات المطلوبة ـ ووصمة السوابق الإجرامية التي تتزايد وتتسع الآن.

اسألوا ماك، الذي جعل تزويد الشباب في حيه بفرصة ثانية جزءا من رسالته. 95% من عماله الذكور هم من أصحاب السوابق الإجرامية، منهم أفضل طهاته، الذي ظل يدخل ويخرج من السجن طوال السنوات العشرين الماضية بسبب ارتكابه جرائم تتعلق بالمخدرات وإحداها بسبب قيامه بعملية سطو مسلح. يدفع ماك لمستخدميه في

البداية ثمانية دولارات في الساعة، ليرتفع الأجر إلى خمسة عشر. ولم يعان من نقص في المتقدمين. ماك هو أول من يعترف بأن بعضهم سببوا مشكلات حين بدؤوا العمل — إذ لم يتعودوا الدوام في الوقت المحدد. أو تلقي الأوامر من المشرف - وأن معدل تبديلهم مرتفع. لكن حين يرفض قبول الاعتذار من مستخدميه («أقول لهم لدي عمل تجاري أديره وإذا كانوا لا يريدون الوظيفة فإن غيرهم ينتظرها»)، يجد أنهم سرعان ما يتكيفون. وبمرور الوقت يعتادون إيقاع الحياة العادية والطبيعية: التزام المواعيد، العمل كجزء من فريق، تحمل عبء المسؤولية. ويبدؤون الحديث عن تطوير تعليمهم، وربما يلتحقون بالكلية المتوسطة المحلية.

ويطمحون إلى هدف أفضل.

لو أن لدينا الآلاف من أمثال ماك، ولو تمكن السوق وحده من توفير فرص العمل التي يحتاجها جميع رجال الأحياء الداخلية لتحسن الوضع دون ريب. لكن معظم أرباب العمل ليسوا مستعدين لتحمل مخاطرة استخدام أصحاب السوابق، وكثيرا ما يمنع الراغبون في ذلك. في الينوي مثلا، يحظر على أصحاب السوابق العمل لا في المدارس ودور الرعاية والمستشفيات فقط — وهي قيود منطقية تعبر عن عدم رغبتنا في تعريض سلامة أطفالنا وآبائنا المسنين للخطر - بل يحظر العمل على بعضهم في مجال الحلاقة وتجميل الأظافر.

بمقدور الحكومة إطلاق عملية تغيير الظروف لهؤلاء الرجال عبر التعاون مع أرباب العمل والمقاولين في القطاع الخاص لتدريب وتوظيف أصحاب السوابق في مشروعات يمكن أن تعم فائدتها المجتمع برمته: عزل المنازل والمكاتب لجعلها أكثر توفيرا للطاقة مثلا، أو تمديد خطوط الحزمة العريضة الضرورية لنقل المجتمعات المحلية كلها إلى عصر الإنترنت. سوف تكلف مثل هذه البرامج مالا بالطبع - مع أن أي تقليص في الميول الإجرامية سيساعد في تمويل البرنامج ذاتيا، وذلك حين نأخذ بالاعتبار التكلفة السنوية لاعتقال السجين. لن يفضل جميع العاطلين المتشردين الوظائف المتدنية الأجر التي لا تحتاج إلى مهارات وخبرة على الحياة في الشوارع،

ولن يلغي أي برنامج لمساعدة أصحاب السوابق الحاجة إلى سجن المجرمين العنيدين الذين تجذرت في نفوسهم عادات العنف.

ومع ذلك، يمكننا الافتراض أن توفير العمل القانوني للشباب المتورطين الآن في تجارة المخدرات سوف يخفض معدلات الجريمة في العديد من المجتمعات المحلية؛ وأن النتيجة ستكون مزيدا من أرباب العمل الذين يفتتحون منشآتهم وشركاتهم ومتاجرهم في هذه الأحياء، وسيبدأ الاقتصاد المستدام ذاتيا بالتجذر؛ وستبدأ المعايير بالتغير بخلال مدة تتراوح بين عشر وخمس عشرة سنة، ويبدأ الشباب والشابات التفكير بمستقبل لهم، وترتفع معدلات الزواج، ويحظى الأطفال بعالم أكثر استقرارا يترعرعون في ظله.

ما الذي يفيدنا ذلك كله ـ انخفاض معدلات الجريمة في أمريكا، مزيد من الأطفال الذين يتلقون الرعاية، مدن تولد وتبعث من جديد، تراجع وانحسار الأحكام المسبقة المتحيزة، والخوف، والخلاف المستحكم الناجم عن فقر الأمريكيين السود. ألا تستحق هذه النتائج أن ننفق عليها ما أنفقناه في السنة الماضية على الحرب في العراق؟ أليست أكثر فائدة من المطالبة بإلغاء الضرائب على العقارات؟ يصعب حصر وتحديد منافع وفوائد مثل هذه التغييرات. لأنها بالضبط تنأى عن الحصر.

إذا كانت مشكلات الفقر في أحياء المدن الداخلية ناجمة عن فشلنا في مواجهة الماضي المأساوي، فإن تحديات الهجرة تشعل شرارة الخوف من مستقبل غامض يلفه عدم اليقين. ديمغرافية أمريكا تتغير بطريقة لا يمكن وقفها وبسرعة الضوء، ودعاوى ومطالب المهاجرين لا تناسب نموذج الأسود والأبيض القائم على التمييز والمعارضة والذنب والرد الغاضب والاتهام المضاد. وفي الحقيقة، حتى القادمين الجدد من السود والبيض ـ من غانا وأوكرانيا والصومال ورومانيا ـ يصلون إلى هذه الشواطئ متحررين من عبء الديناميات العرقية والعنصرية لأي حقبة سالفة.

خلال الحملة الانتخابية، شاهدت على أرض الواقع وبطريقة مباشرة وجوه أمريكا الجديدة هذه ـــ في الأسواق الهندية على طول جادة ديفون، في المسجد

الجديد الذي يشيد في الضواحي الجنوبية الغربية، في حفلات زواج الأرمن وحفلات رقص الفليبينيين، في اجتماعات مجلس قيادة الأمريكيين الكوريين، وفي جمعية المهندسين النيجيريين. في كل مكان زرته وجدت مهاجرين يستقرون في أي منازل أو وظائف يعثرون عليها، يغسلون الأطباق أو يقودون سيارات الأجرة أو يكدحون في مصابغ أقربائهم، يدخرون المال ويؤسسون أعمالهم التجارية ويبعثون النشاط والحياة في الأحياء الميتة، إلى أن ينتقلوا إلى الضواحي ليربوا أطفالهم ويعلموهم التحدث بلهجة لا تختلف عن لغة أرض الآباء والأجداد فقط، بل تناقض شهادات ميلادهم في شيكاغو أيضاً. رأيت مراهقين يستمعون إلى موسيقى الراب ويتسوقون من مراكز التسوق ويخططون ليصبحوا في المستقبل أطباء ومحامين ومهندسين وحتى سياسيين.

قصة المهاجرين التقليدية هذه تحدث في شتى أنحاء البلاد، قصة الطموح والتكيف، والعمل الدؤوب والتعليم، والاندماج والحراك الارتقائي. لكن المهاجرين اليوم يعيشون هذه القصة وكأنها من قصص الخيال العلمي. وبوصفهم مستفيدين من أمة أكثر تسامحا ودنيوية من تلك التي واجهها المهاجرون قبل أجيال، أمة أصبحت تحترم أساطير مهاجريها، غدوا أكثر ثقة بمكانهم هنا وأشد تشبثاً بحقوقهم. وبصفتي عضوا في مجلس الشيوخ، أتلقى دعوات لا حصر لها لإلقاء خطب أمام هؤلاء المواطنين الأمريكيين الجدد، حيث كثيرا ما تُستطلع آرائي فيما يتعلق بالسياسة الخارجية ـ ما موقفي من قبرص، مثلاً، أو مستقبل تايوان؟ فلديهم اهتماماتهم ومشاغلهم السياسية المحددة في المجالات التي تهيمن فيها جماعاتهم الاثنية ـ لربما يشتكي الصيادلة الأمريكيون من ذوي الأصول الهندية من تعويض برنامج الرعاية الصحية، ويضغط الكوريون من أصحاب المنشآت التجارية الصغيرة من أجل إحداث تغييرات في النظام الضريبي.

لكن في أغلب الأحوال يريدون توكيدا على أنهم أمريكيون أيضاً. كلما ظهرت أمام جمهور من المهاجرين، أسمع بعض المعاتبات البريئة من جانب المساعدين العاملين معي بعد إلقاء الخطبة؛ فبرأيهم، تتبع ملاحظاتي تركيبة ثلاثية الأجزاء: «أنا

صديقكم»، و«[البلد المعنـي] كان مهدا للحضارة»، و «أنتم تجسدون الحلم الأمريكي» وهم على صواب، فرسالتـي بسيطة. وكما أصبحت أعرف، كان مجرد حضوري أمام هـؤلاء الأمريكيين الجدد يخدم ملاحظة أنهم قوم مهمـون، ناخبون يتمتعون بأهمية حاسمة لنجاحي، ولهم حقوق المواطنة الكاملة ويستحقون الاحترام والتقدير.

وبالطبـع، لا تتبع جميع الحوارات التي أجريها مـع جاليات ومجتمعات المهاجرين المحلية هذا النمط السهل. ففي أعقاب الحادي عشر من سبتمبر، اتسمت لقاءاتي مع الأمريكيين العرب والباكستانيين، مثلا، بطبيعة ملحة وعاجلة، لأن قصص الاعتقالات واستجوابـات مكتب التحقيقات الفيدرالية والنظرات العدائية من الجيران، زعزعت إحساسهم بالأمان والانتماء. فقد ذُكروا أن لتاريخ الهجرة إلى هذا البلد جانبا مظلما وحساسا ونقطة ضعف؛ وهم بحاجة إلى تطمينات محددة تؤكد لهم أن مواطنتهم تعني شيئا بالفعل، وأن أمريكا تعلمت العبر والدروس الصحيحة من احتجاز الأمريكيين من ذوي الأصـول اليابانية خلال الحرب العالمية الثانية، وأننـي سأقف معهم إذا تحولت الرياح السياسية إلى وجهة غير مرغوبة.

لكـن في لقاءاتي مع الأمريكيين اللاتين، في أحياء مثل بيلسن وليتل فيليج، وبلدات مثـل سيسرو واورورا، أجبرت علـى التعبير عن معنى أمريـكا، ومعنى المواطنة، وعن مشاعري المتناقضة أحيانا فيما يتعلق بجميع التغييرات التي تحدث.

وبالطبـع، يعود وجود الأمريكيين اللاتين ـ من بورتوريكو، وكولومبيا، والسلفادور، وكوبـا، والمكسيك غالبا ـــ في الينوي إلى أجيـال مضت، حين بدأ العمـال الزراعيون يتجهون شمالا وينضمـون إلى الجماعات الاثنية العاملة في المصانع المنتشرة في شتى أنحاء المنطقة. وعلى شاكلة المهاجرين الآخرين، اندمجوا في الثقافة، على الرغم من أن التحيز العرقي عرقل حراكهم الارتقائي، شأنهم في ذلك شأن الأمريكيين الأفارقة. ولربمـا لهذا السبب كثـيرا ما رص زعماء السود واللاتين وقادة حركة الحقوق المدنية الصفـوف دفاعا عن القضية المشتركة. في عـام 1983، مثل دعم الأمريكيين اللاتين عاملا حاسما في انتخاب هارولد واشنطن، أول رئيس بلدية أسود لشيكاغو. كان هذا الدعـم متبادلا، حيث ساعد واشنطن في انتخاب جيل من الأمريكيين اللاتين الشباب

والتقدميين إلى مجلس المدينة ومجلس شيوخ ولاية الينوي. وفي الحقيقة، ظل أعضاء مجلس شيوخ الولاية من الأمريكيين اللاتين أعضاء رسميين في لجنة الأعضاء السود التشريعية في ولاية الينوي، إلى أن سمح عددهم بإنشاء تنظيم خاص بهم.

على هذه الخلفية بالذات، تكونت الروابط التي عقدتها مع مجتمع الأمريكيين اللاتين بعد وقت قصير من وصولي إلى شيكاغو. ولأنني اشتغلت في مجال التنظيم الاجتماعي، كثيرا ما عملت مع زعماء الأمريكيين اللاتين على قضايا تؤثر في السكان السود والسمر، بدءا بالمدارس الفاشلة، مرورا بالتخلص من النفايات الضارة بطريقة غير مشروعة، وانتهاء بعدم تمنيع الأطفال (باللقاحات). تجاوز اهتمامي نطاق السياسة؛ فقد بدأت أغرم بالأحياء التي يقطنها المهاجرون من المكسيك وبورتوريكو في المدينة ـ أصوات موسيقى «السالسا» الراقصة ورائحة «المرنغ» التي تفوح من الشقق السكنية في ليالي الصيف الحارة، والجدية والوقار في قداس الكنائس حينما تحتشد بالبولونيين والطليان والأيرلنديين، والأحاديث الحماسية والبهيجة حول مباريات كرة القدم في الحديقة، وروح الدعابة الباردة التي تميز بائعي الشطائر، والعجائز اللاتي يمسكن يدي ويضحكن على جهودي المضنية للتحدث بالإسبانية. أصبح لي أصدقاء دائمون وحلفاء مخلصون في هذه الأحياء؛ واعتقدت أن مصائر السود والسمر متشابكة دائما وأبدا، وتشكل حجر الزاوية لتحالف يمكن أن يساعد أمريكا على الوفاء بوعدها المأمول.

لكن بحلول الوقت الذي عدت فيه من كلية الحقوق، بدأت التوترات بين السود واللاتين في شيكاغو بالظهور على السطح. فبين عامي 1990 ــ 2000، ارتفع عدد الناطقين بالإسبانية في المدينة بنسبة 38%، ومع هذا الارتفاع الكبير في عددهم لم يعد السكان اللاتين يرضون بدور الشريك الصغير في أي تحالف بين السود والسمر. وبعد وفاة هارولد واشنطن، ظهرت في المشهد مجموعة جديدة من المسؤولين اللاتين المنتخبين، ارتبطوا مع ريتشارد دالي وبقايا «الماكينة»السياسية القديمة في شيكاغو، رجال ونساء كانوا أقل اهتماما بالمبادئ السامية والتحالفات الملونة من ترجمة سلطتهم السياسية المتنامية إلى عقود ووظائف. ومع معاناة وضعف وتدهور الأعمال

والقطاعات التجارية للسود، ازدهرت الأعمال التجارية التي يملكها اللاتين، ساعدتها في ذلك، جزئيا، الروابط المالية مع البلدان الأصلية وقاعدة مستهلكين أسرتهم حواجز اللغة. وبدا أن العمال القادمين من المكسيك وأمريكا الوسطى هيمنوا في كل مكان على الوظائف الدنيا المنخفضة الأجر التي كان يشغلها السود ـ نذل في المطاعم وعاملات تنظيف وخدم في الفنادق ـ وأغاروا على قطاع الإنشاءات الذي ظل منذ أمد طويل حكرا على العمال السود. بدأ السود يتذمرون ويشعرون بخطر التهديد؛ وتساءلوا هل هم على وشك أن يكتسحهم هؤلاء القادمون الجدد.

يجب ألا أبالغ في الانقسام الحاصل. فلأن المجتمعين كليهما يواجهان جملة من التحديات، من ارتفاع معدل التسرب من المدرسة الثانوية إلى الضمان الصحي غير الكافي، ما تزال تجمع السود واللاتين قضية مشتركة في السياسة. وعلى الرغم من الإحباط الذي يشعر به السود كلما مروا قرب موقع بناء في حيهم وشاهدوا العمال المكسيكيين وحدهم هناك، إلا أنني نادرا ما سمعتهم يلقون اللوم على العمال أنفسهم؛ بل يحتفظون بغضبهم عادة ليصبوا جامه على المقاولين الذين استأجروهم. وبعد الإلحاح، يعبر الكثير من السود عن إعجاب ممتزج بالحقد تجاه المهاجرين اللاتين ـ ما يتمتعون به من أخلاقيات عمل قوية والتزام شديد بالأسرة، واستعدادهم للبدء من قعر السلم والاستفادة مما لديهم من إمكانيات متواضعة إلى أقصى حد.

ومع ذلك، لا سبيل إلى إنكار حقيقة أن العديد من السود يشعرون بالقلق ذاته الذي يسيطر على الكثير من البيض فيما يتعلق بموجة الهجرة غير الشرعية التي تتدفق من حدودنا الجنوبية ـ شعور بأن ما يحدث الآن يختلف اختلافا جوهريا عما حدث قبلا. بعض هذه المخاوف لها ما يبررها. فعدد المهاجرين المضاف إلى القوة العاملة كل سنة بلغ حدا لم يشهده هذا البلد منذ قرن من الزمان. فإذا كان معظم هذا السيل العارم من العمال غير المهرة يقدم بعض الفوائد للاقتصاد ككل ـ خصوصاً الحفاظ على شباب قوتنا العاملة وحيويتها، خلافا للقوة العاملة التي تشيخ في أوروبا واليابان ـ فهو يهدد أيضا بمزيد من انخفاض أجر الشغيلة الأمريكيين (أصحاب الياقات الزرقاء) ويضيف أعباء جديدة على شبكة الأمان التي تحمل فوق طاقتها

أصــلا. مخاوف الأمريكيــين المولودين في أمريــكا مألوفة إلى حد يثـير القلق، وتردد أصداء رهاب الأجانب الذي وجه ذات مرة نحو الطليان والأيرلنديين والسلاف الذين وصلـوا حديثا إلى الشواطئ ــ مخاوف من أن اللاتين مختلفـون اختلافا أصيلا، في الثقافـة والمزاج، بحيث يصعب دمجهـم بصورة كاملة في أسلـوب الحياة الأمريكية؛ مخــاوف مــن أن يتمكن اللاتين، مع التغيرات الديمغرافيــة التي تحدث الآن، من نزع زمام السيطرة من أولئك الذين اعتادوا الإمساك بالسلطة السياسية.

لكن فيما يتعلق بمعظم الأمريكيين، تعد الهموم الناجمة عن الهجرة غير الشرعية أشـد عمقا من المخاوف الناتجة عن انتقال عمليـات الإنتاج الاقتصادي إلى الخارج وأكـثر تعقيـدا من مجـرد العنصريــة البسيطـة. في الماضي، كانـت الهجرة تحدث وفقــا لشروط أمريكا؛ وأمكن لسجادة الاستقبــال الحمراء أن تمد بطريقة انتقائية، علــى أساس مهارات المهاجر أو لونه أو حاجات الصناعة. ووجد العامل نفسه، بغض النظر هل قدم من الصين أم روسيا أم اليونان، غريبا في أرض غريبة، وقد انقطعت الجــذور التي تربطــه بالوطن، ليخضع غالبــا لقيود قاسية، ويجبر علــى التكيف مع قواعد وأنظمة لم يضعها.

يبــدو اليوم أن هــذه الشروط لم تعد مطبقــة. فالمهاجرون يدخلـون البلاد نتيجة نفوذيــة الحدود لا بسبب سياسة حكومية منهجية؛ وحقيقة كون المكسيك مجاورة لنا، إضافــة إلى الفقر المدقع الذي يعانيــه العديد من سكانها، تشير بدلالتها إلى أن عبور الحــدود لا يمكن حتــى تقليصه، فضلا عن وقفــه. ولا ريب في أن القنــوات الفضائية وبطاقــات الزيارة والتحويــلات المصرفية السلكيــة، إضافة إلى حجــم سوق اللاتين البــازغ، تجعل جميعا مــن الأسهل على المهاجــر اليوم الحفاظ علــى الروابط اللغوية والثقافية مــع مسقط رأسه (تفاخر محطة يونيفيجن الناطقة باللغة الإسبانية بأعلى معــدل للأخبار التي تبث في شيكاغو). ويعتقــد الأمريكيون الذين ولدوا في أمريكا أن عليهــم هم، لا المهاجريــن، التكيف والتأقلــم. وبهذه الطريقة، أصبــح الجدل المتعلق بالهجرة يشير بدلالته لا إلى خسارة الوظائف بل السيادة، مثال آخر ـ كالحادي عشر من سبتمبر، وأنفلونزا الطيور، وفيروسات الكمبيوتر، والمصانع التي تنتقل إلى الصين – يثبت عدم قدرة أمريكا على التحكم بمصيرها.

في مثل هذه البيئة الملتهبة المتفجرة ـ والخلاف الحاد بين طرفي الجدال ـ فكر الكونغرس بمشروع قانون شامل لإصلاح وضع الهجرة في ربيع عام 2006. ومع مئات الآلاف من المهاجرين المحتجين في الشوارع وجماعة عين أفرادها أنفسهم حراسا اندفعوا لحماية الحدود الجنوبية (تدعى ماينيوتمن)، كان الرهان السياسي مرتفعا بالنسبة للديمقراطيين والجمهوريين والرئيس.

وتحت قيادة تيد كنيدي وجون مكين، صاغ مجلس الشيوخ مشروع قانون معتدل مؤلف من ثلاثة مكونات رئيسة. طالب المشروع بتشديد إجراءات الرقابة والأمن، وجعل (عبر تعديل كتبته مع تشوك غراسلي) من الأصعب على أرباب العمل توظيف العمال بطريقة غير شرعية. المشروع أقر أيضا بصعوبة ترحيل اثني عشر مليون مهاجر غير شرعي، ووضع بدلا من ذلك خطة طويلة الأجل (تمتد أحد عشر عاما) يمكن بموجبها للعديد منهم الحصول على الجنسية. أخيرا، تضمن المشروع برنامج العامل الضيف الذي يسمح لمئتي ألف عامل أجنبي بدخول البلاد للعمل بصورة مؤقتة.

حين نأخذ جميع العوامل بعين الاعتبار، أظن أن التشريع يستحق الدعم والتأييد. ومع ذلك، سبب لي بند العامل الضيف بعض القلق؛ فقد كان استرضاء للمصالح التجارية الكبرى، أداة تتوسل بها لاستخدام المهاجرين دون منحهم حقوق المواطنة ـ في الحقيقة، وسيلة تستخدمها للحصول على مكاسب نقل عمليات الإنتاج إلى خارج البلاد دون أن تضطر للقيام بذلك. للتصدي لهذه المشكلة، نجحت في إضافة شرط ينص على ضرورة عرض أي وظيفة على العمال الأمريكيين أولا، وألا يخفض أرباب العمل الأجور عبر دفع أجور للعمال الضيوف تقل عن تلك التي يدفعونها للعمال الأمريكيين. الفكرة هي ضمان ألا تتحول الأعمال التجارية إلى استخدام العمال الأجانب المؤقتين إلا في حالة وجود نقص في العمالة.

من الواضح أن التعديل كان مصمما لمساعدة العمال الأمريكيين، ولهذا السبب دعمته بحماس جميع النقابات. لكن ما إن أضيف الشرط إلى مشروع القانون حتى بدأ بعض المحافظين، داخل وخارج مجلس الشيوخ، مهاجمتي بذريعة «مطالبة القانون بحصول العمال الأجانب على أجور أعلى من العمال الأمريكيين»

في قاعة المجلس، التقيت بأحد الزملاء الجمهوريين الذين وجهوا التهمة إلي. شرحت له أن المشروع سيحمي العمال الأمريكيين فعلا، نظرا لانتفاء الدافع لدى أرباب العمل لاستخدام العمال الضيوف إذا كانوا سيحصلون على أجور تساوي أجور العمال الأمريكيين. الزميل الجمهوري، الذي كان صريحا وعالي النبرة في معارضته لمشروع أي قانون يضفي الصفة الشرعية/ القانونية على المهاجرين غير الشرعيين، هز رأسه وقال:

«أصحاب المشروعات التجارية الصغيرة سوف يظلون يستخدمون المهاجرين، وتعديلك كله يجعلهم يدفعون لهم أكثر»

سألته: «لكن لِمَ يستخدمون العمال المهاجرين إذا كانت أجورهم مساوية لأجور العمال الأمريكيين؟»

ابتسم ورد: «دعنا نواجه الحقيقة يا باراك. هؤلاء المكسيكيون على استعداد للعمل بجد ودأب أكثر من الأمريكيين»

إن قدرة معارضي مشروع قانون الهجرة على الإدلاء بمثل هذه الآراء في السر، بينما يتظاهرون في العلن بالوقوف إلى جانب العمال الأمريكيين، تشير في دلالتها إلى درجة التشكيك والنفاق التي تتخلل الجدل المتعلق بالهجرة. لكن مع الحالة المزاجية السيئة لعامة الأمريكيين، وقلقهم ومخاوفهم التي يغذيها لو دوبس ومقدمو البرامج الإذاعية الحوارية في شتى أنحاء البلاد، لا أستطيع القول إنني فوجئت بعرقلة وتجميد مشروع القانون المعتدل في مجلس النواب بعد أن أجازه مجلس الشيوخ.

وإذا كنت صادقا مع نفسي، يجب علي الاعتراف أنني لا أتمتع بالمناعة الكاملة من هذه المشاعر المؤيدة لمصالح الأمريكيين المولودين في أمريكا. فعندما أرى الأعلام المكسيكية ترفرف في المظاهرات المؤيدة للمهاجرين، أحس أحيانا بفورة حماسية من الاستياء والوطنية. وحين أجبر على استخدام مترجم للتواصل مع العامل الذي يصلح سيارتي، أشعر بنوع من الإحباط.

في إحدى المرات، مع بداية احتدام الجدل حول الهجرة في «الكابيتول»، زارت مكتبي جماعة من الناشطين، وطلبوا مني رعاية مشروع قانون خاص للإغاثة يضفي المشروعية القانونية على ثلاثين مواطنا مكسيكيا جرى ترحيلهم، وتركوا خلفهم زوجات أو أطفالا يملكون إقامة قانونية. التقى أحد مساعدي، داني سبلفيدا، وهو شاب متحدر من أصل تشيلي، بالجماعة وشرح لأفرادها أنني لا أشعر بالارتياح من حيث المبدأ لتولي تقديم تشريع ينتقي ثلاثين شخصا من بين ملايين يعانون أوضاعا مشابهة أو إعفاء استثنائي لقلة من الناس، وذلك على الرغم من تعاطفي مع محنتهم وكوني الراعي الرئيس لمشروع قانون الهجرة في مجلس الشيوخ. غضب بعض أفراد المجموعة وغلبهم الاهتياج؛ وأشاروا إلى أنني لا أبدي اهتماما بعائلات وأطفال المهاجرين، وأنني أكثر اهتماما بحماية الحدود من توخي العدالة. أحد الناشطين اتهم داني بالتنكر لأصله - وأنه ليس متحدرا من أصول لاتينية فعلا.

حين سمعت ما حدث، ملأني الغضب وغلبني الإحباط، في آن. أردت الاتصال بالمجموعة وشرح حقيقية أن المواطنة الأمريكية ميزة وليست حقا؛ وأنه لولا الحدود واحترام القانون، لضعفت وتآكلت حتما الأشياء ذاتها التي جلبتهم إلى أمريكا: الفرص المتاحة والحماية المتوفرة لمن يعيش في هذا البلد؛ وعلى أي حال، لا أتحمل من يسيؤون إلى كادر الموظفين العاملين معي، خصوصا ذلك الذي يدافع عن قضيتهم.

داني هو الذي أقنعني بعدم الاتصال بهم، مستشعرا أن ذلك قد يعطي نتائج عكسية. بعد عدة أسابيع، في صبيحة يوم سبت، حضرت ورشة عمل حول التجنيس في كنيسة سنت بيوس في مدينة بيلسن، برعاية السيناتور لويس غوتييرز، والاتحاد الدولي لموظفي الخدمات، وعدد من الجماعات المدافعة عن حقوق المهاجرين كتلك التي زارت مكتبي. اصطف قرابة ألف شخص خارج الكنيسة، كان منهم أفراد عائلات من الشباب، وشيوخ وعجائز، وأمهات مع أطفالهن؛ أما في الداخل، فقد جلس الحاضرون بصمت في صفوف المقاعد الخشبية، يحملون أعلاما أمريكية صغيرة وزعها عليهم المنظمون في انتظار أحد المتطوعين الذي سيساعدهم في البدء بإجراءات تمتد عاما كاملا للحصول على الجنسية.

حين سرت في الممر بين صفوف المقاعد، ابتسم لي بعض الناس ولوحوا بأيديهم؛ في حين أومأ آخرون رؤوسهم بتردد حين مددت يدي مصافحا وعرفتهم بنفسي. قابلت امرأة مكسيكية لا تتحدث الإنكليزية لكن أرسل ابنها إلى العراق؛ وعرفت رجلا كولومبيا عمل خادما في مطعم محلي وعلمت أنه يدرس المحاسبة في الكلية المتوسطة المحلية. ثم أتت إلي طفلة في السابعة أو الثامنة ومن خلفها أبواها، وطلبت توقيعي؛ قالت إنها تدرس في مدرسة حكومية وسوف تري التوقيع لزملائها وزميلاتها في الصف.

عرفت منها أن اسمها كريستينا وهي تلميذة في الصف الثالث. قلت لها إنها محل اعتزاز وفخر أبويها حتما. وحين شاهدتها تترجم كلماتي لهما، تأكد لي أن على أمريكا ألا تخشى هؤلاء القادمين الجدد، فقد أتوا إلى هنا مدفوعين بالسبب ذاته الذي جعل العائلات تأتي إلى هنا قبل مئة وخمسين سنة - مثل أولئك الذين هربوا من المجاعات والحروب والتراتبيات المتصلبة والعنيدة في أوروبا، الذين لا يملكون الوثائق القانونية المطلوبة أو الصلات الضرورية أو المهارات الفريدة، لكنهم حملوا معهم الأمل بحياة أفضل.

لدينا الحق وعلينا واجب حماية حدودنا. يمكننا الإصرار أمام هؤلاء الموجودين هنا على أن المواطنة مترافقة بالواجبات - اللغة المشتركة، والولاءات المشتركة، والهدف المشترك، والمصير المشترك. لكن في نهاية المطاف، فإن الخطر المهدد لأسلوبنا في الحياة لا يتمثل في اكتساح أولئك الذين لا يشبهوننا أو لا يتكلمون لغتنا. الخطر الداهم سيأتي حين نفشل في الاعتراف بإنسانية كريستينا وأسرتها - إذا حرمناهم حقوقهم ومنعنا عنهم الفرص التي نعتبرها من الأمور المسلم بها، وتساهلنا مع نفاق طبقة موظفين تعيش بين ظهرانينا؛ أو على الأعم، إذا بقينا متفرجين لا نحرك ساكنا أمام استمرار حالة الظلم واللامساواة المتفاقمة في أمريكا. حالة تتحرك على خطوط العنصرية ومن ثم تغذي النزاع العنصري والعرقي، مع ازدياد عدد المواطنين السود والسمر، حالة لم يعد بمقدور ديمقراطيتنا ولا اقتصادنا احتمالها مدة أطول.

قلت لنفسي حين راقبت كريستينا وهي تودعني مع أسرتها: ليس هذا هو المستقبل الـذي أريده لها. ليس هذا هو المستقبل الذي أريـده لابنتي. أمريكا التي سيعيش فيها أطفالنا ستكون حاشدة في تنوعها وتعددية في ثقافتها. ابنتاي سوف تتعلمان الإسبانية وتتفوقـان فيها. وكريستينا ستعرف عن روزا باركس وتفهم أن حياة الخياطة السوداء تعـبر عن حياتهـا. القضايا التي يواجههـا أطفالنا قد تفتقـر إلى الوضوح الأخلاقي الصـارخ الـذي جسدته الحافلة التي تفصـل السود عن البيض، لكـن بشكل أو بآخر سـوف يُمتحن جيلهـم حتما ـ مثلما امتحنت السيدة باركس، وركاب الحرية، ومثلما اختبرنـا جميعـا ـ بواسطة تلك الأصـوات التي تقسمنا وتفرق بيننـا وتحرض بعضنا على بعض.

وحين يمتحن أفراد جيلهم بتلك الطريقة، آمل أن يقرؤوا تاريخ هذا البلد ويدركوا أنهم منحوا هبة ثمينة ونعمة مباركة.

أمريكا كبيرة بما يكفي لتستوعب أحلامهم كلها.



-8-

العالم فيما وراء حدودنا

إندونيسيا بلد مكون من جزر - أكثر من سبعة عشر ألف جزيرة، تنتشر على طول خط الاستواء بين المحيطين الهندي والهادي، وأستراليا وبحر الصين الجنوبي. معظم الإندونيسيين من أصول ملاوية ويعيشون على أكبر الجزر: جاوا وسومطرة وكاليمنتان وبالي. أما الجزر الواقعة في أقصى الشرق مثل امبون والجزء الإندونيسي من غينيا الجديدة، فيتحدر سكانها، بدرجات متفاوتة، من أصول ميلانيزية. المناخ السائد في إندونيسيا مداري، وغاباتها المطرية كانت تحتشد ذات يوم بالأنواع الحيوانية الفريدة والنادرة مثل قرود اورانغوتان ونمور سومطرة. أما اليوم فتنحسر هذه الغابات وتتقلص بسرعة نتيجة قطع الأخشاب والتنقيب عن المعادن وزراعة الرز والشاي والبن والنخيل (الذي ينتج الزيت). وبعد أن حرمت قرود اورانغوتان من موئلها الطبيعي أصبحت من الأنواع المهددة بالانقراض؛ في حين لم يتبق في الغابة سوى بضع مئات من نمور سومطرة.

تحتل إندونيسيا بعدد سكانها البالغ 240 مليون نسمة المرتبة الرابعة في العالم بعد الصين والهند والولايات المتحدة. هنالك أكثر من سبعمئة مجموعة اثنية تقيم ضمن حدودها، وأكثر من 742 لغة تستخدم فيها. تعتنق نسبة 90% من الإندونيسيين الإسلام، وهذا يجعل إندونيسيا أكبر أمة إسلامية. وهي العضو الآسيوي الوحيد في منظمة أوبك، مع أنها تستورد الآن النفط الخام نتيجة البنية التحتية العتيقة والمخزون المستنزف والاستهلاك المحلي المرتفع. اللغة الرسمية هي البهاسا الإندونيسية، والعاصمة جاكرتا، والعملة الوطنية الروبية.

معظم الأمريكيين لا يستطيعون تحديد موقع إندونيسيا على الخريطة!

هذه الحقيقة تحير وتدهش الإندونيسيين، لأن مصير دولتهم خلال السنوات الستين الماضية ارتبط ارتباطا مباشرا بالسياسة الخارجية الأمريكية. تعاقب على

حكـم إندونيسيـا عدد من السلاطـين وملوك الممالك المتشظية خـلال معظم الحقب التاريخيـة، وأصبـح الأرخبيل مستعمرة هولنديـة ـ جزر الهند الشرقيـة ـ في القرن السابـع عشر، وبقيت علـى تلك الحال أكثر من ثلاثة قرون. لكن قبيل الحرب العالمية الثانيـة، غـدت احتياطيات النفـط الوفيرة في جـزر الهند الشرقيـة الهولندية هدفا رئيسـا للتوسع الياباني؛ فبعد ربـط مصير اليابان بقوى المحور ومواجهة حظر النفط الذي فرضته الولايات المتحدة، احتاجت إلى الوقود لتشغيل صناعتها العسكرية. وبعد الهجوم على بيرل هاربر، تحركت اليابان بسرعة للاستيلاء على المستعمرة الهولندية، وظلت تحتلها طيلة الحرب.

مـع استسلام اليابان عام 1945، أعلنت الحركة الوطنية الإندونيسية التي تكونت حديثا استقلال البلاد. أما الهولنديون فكان لهم رأي آخر، وحاولوا استعادة السيطرة على مستعمرتهم السابقة. فاندلعت أربع حروب. في نهاية المطاف، أذعن الهولنديون للضغط الدولي المتعاظم (أقلق الولايات المتحدة انتشار الشيوعية تحت راية مناهضة الاستعمار، وهددت هولندا بقطع تمويلات خطة مارشال) واعترفوا بسيادة إندونيسيا واستقلالهـا. أما زعيـم حركة الاستقلال، سوكارنو، الذي تمتـع بشخصية كاريزمية وحماسية آسرة، فقد أصبح أول رئيس لإندونيسيا.

تبـين أن سوكارنو يمثل إحباطـا شديدا لواشنطن. فإلى جانـب نهرو وجمال عبد الناصـر، ساعد في تأسيس حركـة عدم الانحياز، التي سعت عبرهـا الدول المتحررة حديثـا من نـير الحكـم الاستعمـاري إلى اتخـاذ سبيل مستقـل عن الغـرب والكتلة السوفييتيـة. تعاظم حجم ونفـوذ الحزب الشيوعي الإندونيسي مـع أنه لم يشارك في الحكـم رسميا. سوكارنو نفسه رفع درجة العـداء للغرب في خطابه، وأمم الصناعات الرئيسـة، ورفض المعونات الأمريكية، ووثق الروابـط مع الاتحاد السوفييتي والصين. مع محاصرة القوات الأمريكية في المستنقع الفيتنامي، ونظرية «الدومينو» التي ما زالت تمثـل ركنا مركزيا في السياسة الخارجيـة الأمريكية، بدأت وكالة المخابرات المركزية تقدم الدعم السري لمختلف فصائل المتمردين داخل إندونيسيا، وأنشأت صلات وثيقة مـع الضبـاط الإندونيسيين بعد أن تـدرب العديد منهم في الولايـات المتحدة. في عام

1965، تحـرك الجيش بقيادة الجنرال سوهارتو ضد سوكارنو، وبدأ بعد إعلان حالة الطوارئ حملة تطهـير واسعة ضد الشيوعيين والمتعاطفين معهـم. ووفقا للتقديرات، قتـل عدد يتراوح بين المليون ونصـف المليون شخص خلال الحملـة، وسجن أكثر من 750 ألفا آخرين أو أجبروا على الرحيل إلى المنافي.

في عـام 1967، بعـد سنتين مـن بدء عملية التطهـير (في السنة التـي اعتلى فيها سوهارتـو سدة الرئاسة) وصلت مـع والدتي إلى جاكرتا، نتيجة زواجها (الثاني) من طالـب إندونيسي التقت به في جامعة هاواي. كنت في السادسة آنذاك، وكانت أمي في الرابعـة والعشريـن. في السنوات اللاحقة، كانت تصر علـى أنها لو عرفت مقدما بما سيحـدث في الشهور التالية لما سافرنا إلى هنـاك. لكنها لم تعرف ـ فالقصة الكاملة للانقـلاب العسكري وحملـة التطهير لم تظهـر بسرعة في الصحـف الأمريكية. ولم يتحـدث الإندونيسيون عنها أيضا. أما عمـي (زوج أمي)، الذي ألغيت تأشيرة إقامته وهو في هـاواي وجند في الجيش الإندونيسي قبل بضعة شهور من وصولنا، فقد رفض الحديث عن السياسة مع أمي، ونصحها بأن من الأفضل لبعض الأمور أن ننساها.

وفي الحقيقـة فإن نسيان الماضـي أمر سهل في إندونيسيا. كانـت جاكرتا ما تزال مدينـة راكـدة ومنعزلة في تلك الأيام، حيـث لا يوجد سوى قلة مـن الأبنية التي يزيد ارتفاعها عن أربعة أو خمسة طوابق، وعدد الدراجات ذات الثلاث عجلات يفوق عدد السيارات، ومركز المدينة والأحياء الراقية فيها ـ بأبنيتها البديعة التي تعود إلى الحقبة الاستعماريـة ومروجها الخضراء المنسقة ـ سرعان مـا أفسحت المجال لتجمعات من القـرى الصغيرة بطرقها غير المعبـدة ومجاريها المفتوحة وأسواقهـا المغبرة، وأحياء الفقـر التـي صنعت مساكنهـا من الطـين والآجر وألـواح الخشب والحديـد المضلع، وامتدت بسرعة إلى ضفاف الأنهار العكرة المياه، حيث تغتسل العائلات وتغسل الثياب مثل الحجاج في نهر الغانج.

لم تكن عائلتنـا ميسورة الحال في تلك الأيام؛ فالجيش الإندونيسي لا يدفع رواتب جيدة للضباط من رتبة ملازم. عشنا في منزل متواضع في ضواحي المدينة، دون جهاز تكييف، ولا ثلاجة، ولا مرحاض حديث. لم نكن نملك سيارة ـ كان عمي يركب دراجة

نارية، في حين تركب أمي الحافلات العامة كل صباح للذهاب إلى السفارة الأمريكية، حيث عملت مدرسة للغة الإنكليزية. ودون مال كاف للانتساب إلى المدرسة الدولية التي تضم معظم الأطفال الأجانب، التحقت بمدارس إندونيسية محلية وسرت في الشوارع مع أطفال المزارعين والخدم والخياطين والموظفين.

لم أهتم بذلك كله، فقد كنت صبيا لم أتجاوز السابعة أو الثامنة. بل أتذكر تلك الأيام بوصفها سعيدة ومرحة ومفرحة، وملأى بالمغامرة والغموض ـ مطاردة الدجاج والهروب من جواميس الماء في النهار، والدمى وحكايات الأشباح في الليل، والباعة المتجولون يحضرون حلوى لذيذة إلى بيتنا. بطريقة ما، شعرت بأن حالنا لا بأس بها مقارنة بجيراننا ـ فخلافا للكثيرين، لدينا دوما ما يكفي من طعام.

وأكثر من ذلك ربما، كما فهمت حتى في ذلك العمر المبكر، فإن مكانة أسرتي لا تحددها ثروتنا فقط بل صلاتنا بالغرب. كانت والدتي تغضب من مواقف الأمريكيين تجاه الإندونيسيين، وتعاليهم عليهم، وعدم رغبتهم في تعلم أي شيء عن البلد الذي يستضيفهم ـ لكن بسبب معدلات الصرف، أسعدها أن تقبض راتبها بالدولار بدلا عن الروبية كما يفعل زملاؤها الإندونيسيون الموظفون في السفارة. كنا نعيش مثل الإندونيسيين ـ لكن كثيرا ما كانت أمي تأخذني إلى النادي الأمريكي، حيث أقفز في المسبح وأشاهد أفلام الكرتون وأرشف الكوكاكولا، فأشعر بالرضى والسعادة. في بعض الأحيان، حين يزورني في البيت أصدقائي الإندونيسيون، كنت أعرض عليهم ألبومات الصور، لديزني لاند، ومبنى امبايرستيت، التي ترسلها إلي جدتي؛ وفي أحيان أخرى، نتصفح كتيب سيرز روبك ونعجب بالكنوز التي يعرضها. عرفت أن ذلك كله جزء من ميراثي، ميراث يجعلني مختلفا، فأنا ووالدتي مواطنان أمريكيان، نستفيد من قوة الولايات المتحدة، ونشعر بالأمان والأمن تحت مظلة حمايتها.

يصعب تجاهل مدى وحجم تلك القوة. فالقوات الأمريكية كانت تجري مناورات مشتركة مع الجيش الإندونيسي وتدرب ضباطه. والرئيس سوهارتو لجأ إلى كادر من الخبراء الاقتصاديين الأمريكيين لتصميم ووضع خطة تنمية وتطوير إندونيسيا، اعتمادا على مبادئ السوق الحر والاستثمار الأجنبي. ومستشارو التنمية الأمريكيون

يقدمون خدماتهم للوزارات الحكومية، ويساعدون على إدارة المعونات الخارجية الهائلة التي تتدفق من وكالة التنمية الدولية الأمريكية والبنك الدولي. ومع أن الفساد منتشر ومستشر على كل مستوى من مستويات الحكومة ـ حتى أقل معاملة مع شرطي أو بيروقراطي تحتاج إلى رشوة، وكل سلعة أو منتج يدخل أو يخرج من البلاد، من النفط إلى القمح إلى السيارات، يمر عبر الشركات التي يهيمن عليها الرئيس أو أسرته أو أعضاء الطغمة الحاكمة ـ بقي ما يكفي من ثروة النفط والمساعدات الخارجية ليصرف على المدارس والطرق وغيرها من البنى التحتية، بحيث شهد سكان إندونيسيا مستويات معيشتهم ترتفع ارتفاعا دراميا؛ فبين عامي 1967 ـ 1997، ارتفع دخل الفرد من خمسين دولار إلى 4600 في السنة. وفيما يتعلق بالولايات المتحدة، أصبحت إندونيسيا نموذجا للاستقرار ومصدرا موثوقا للمواد الخام ومستوردا دائما للبضائع الغربية، وحليفا مخلصا وحصنا منيعا ضد الشيوعية.

سأبقى في إندونيسيا مدة كافية لأشهد بعض هذا الازدهار الجديد على أرض الواقع. فبعد أن ترك عمي الجيش بدأ العمل في شركة نفط أمريكية. انتقلنا إلى منزل أكبر وحصلنا على سيارة مع سائق، وثلاجة، وجهاز تلفزيون. لكن بحلول عام 1971، أرسلتني أمي ـ بسبب قلقها على تعليمي، وربما توقعت تفاقم خلافها مع زوجها ـ لأعيش مع جدي وجدتي في هاواي. بعد سنة، انضمت هي وشقيقتي إلينا. لكن روابط والدتي مع إندونيسيا لم تضعف أبدا؛ فقد ظلت تسافر إلى هناك طوال السنوات العشرين التالية، حيث عملت مع وكالات دولية مدة ستة أو اثني عشر شهرا في كل مرة كمتخصصة في قضايا التنمية، وتصميم البرامج لمساعدة النساء القرويات على البدء بمشروعات تجارية خاصة بهن أو نقل منتجاتهن إلى السوق. لكن خلال سنوات المراهقة لم أزر إندونيسيا سوى ثلاث أو أربع مرات مدة قصيرة، وتحولت حياتي واهتمامي بالتدريج إلى وجهة أخرى.

إذن، ما أعرفه عن تاريخ إندونيسيا اللاحق، أتى غالبا من الكتب والصحف والقصص التي روتها والدتي. لقد ظل اقتصاد إندونيسيا طوال خمسة وعشرين عاما ينمو وإن بشكل غير منتظم. وأصبحت جاكرتا حاضرة تضم تسعة ملايين

نسمـة، وتحتشد فيها ناطحـات السحاب وأكواخ الفقر، ويملؤهـا الضباب والدخان وتعـاني زحمة سير كابوسيـة. غادر الرجـال والنساء قراهم في الأريـاف لينضموا إلى صفـوف العمـال المأجورين في منشآت التصنيع التي بناهـا الاستثمار الأجنبي. حيـث تنتج الأحذية الرياضية لشركة «نايكي» والقمصان لشركة «غاب» وغدت بالي منتجعا راقيـا لمارسي رياضة ركـوب الأمواج ونجوم الموسيقـى والغناء، وانتشرت فنادق الخمس نجوم، ومطاعم كنتاكي، والاتصالات بالإنترنت في كل مكان. وبحلول أوائـل التسعينيـات، أصبحت إندونيسيا «نمـرا آسيويا»، وذاعـت قصة نجاحها في العصر المعولم.

حتى أسوأ جوانب الحياة الإندونيسية ـ سياستها وسجلها في مجال حقوق الإنسان ـــ شهـدت علامات التحسن. وفيما يتعلق بالوحشية والقمـع، لم يصل نظام سوهارتو في حقبـة ما بعد عام 1967 إلى تلك المستويات التي شهدها العراق تحت حكم صدام حسين؛ وبسبب أسلوب الرئيس الإندونيسي الخفيف الوطأة والهادئ النبرة، لم يجلب الانتبـاه كما فعل الحكام الديكتاتوريون الأقوياء مـن أمثال بينوشيه وشاه إيران. لكن وفقـا لجميع المقاييس، كان نظام سوهارتو قمعيا وقاسيا. فقد شاعت عمليات اعتقال وتعذيـب المعارضـين والمنشقين، ولم يكـن للصحافة الحرة وجـود، والانتخابات التي أجريـت افتقدت النزاهة وكانـت شكلية. وحين ظهرت الحـركات الانفصالية الاثنية المرتكـز، في مناطق مثل آتشيه، لم يكتف الجيش باستهـداف رجال حرب العصابات فقط بل سارع إلى إنزال العقاب الجماعي بالمدنيين أيضا ـ من قتل واغتصاب وإحراق قـرى. حدث ذلك كلـه طوال السبعينيـات والثمانينيات بمعرفـة، إن لم نقل بالموافقة السافرة للإدارات الأمريكية.

لكـن بحلـول نهاية الحرب الباردة، أخـذت مواقف واشنطن تتغـير. وبدأت وزارة الخارجيـة بممارسة الضغط على إندونيسيا لكبح جمـاح انتهاكاتها لحقوق الإنسان. وفي عـام 1992، بعـد أن ارتكبـت الوحـدات العسكريـة الإندونيسية مذابـح وحشية بحـق المتظاهرين العـزل في ديلي (في تيمور الشرقية)، أوقـف الكونغرس المساعدات العسكريـة للحكومة الإندونيسية. وبحلول عـام 1996، بدأ الإصلاحيون بالخروج إلى

الشوارع، والتحدث علنا عن الفساد المستشري في المناصب العليا، والتجاوزات التي يرتكبها العسكر، والحاجة إلى انتخابات حرة ونزيهة.

وفي عام 1997، تفككت القاعدة وانهارت. حيث اجتاحت الاقتصاد الإندونيسي، الذي يعاني أصلا تآكلا وتراجعا نتيجة عقود من الفساد، موجة بيع العملات والسندات التي عمت مختلف أرجاء آسيا. انخفضت قيمة الروبية بنسبة 85% بخلال بضعة شهور. وشهدت الشركات الإندونيسية التي اقترضت بالدولار ميزانياتها العمومية تنهار. ولقاء معونة مالية إنقاذية بلغت 43 مليار دولار، أصر صندوق النقد الدولي (الذي تهيمن عليه الدول الغربية) على تطبيق سلسلة من الإجراءات التقشفية (تخفيض الدعم الحكومي، ورفع معدلات الفائدة) أدت إلى ارتفاع أسعار المواد الأساسية مثل الرز والكيروسين بمقدار الضعف تقريبًا. وبحلول الوقت الذي انتهت فيه الأزمة، تقلص حجم الاقتصاد الإندونيسي بنسبة 14%. واشتدت أعمال الشغب والمظاهرات إلى حد أجبر سوهارتو على الاستقالة. وفي عام 1998، جرت أول انتخابات حرة في البلاد، حيث تنافس زهاء ثمانية وأربعين حزبا على مقاعد البرلمان، وأدلى ثلاثة وتسعون مليون ناخب بأصواتهم.

على السطح، على الأقل، استطاعت إندونيسيا النجاة من صدمتين اثنتين: الانهيار المالي والدمقرطة. ارتفعت أسعار الأسهم، وجرت الانتخابات الوطنية الثانية دون حوادث تذكر، وهذا أدى إلى الانتقال السلمي للسلطة. فإذا بقي الفساد مستشريا ومتوطنا، والعسكر قوة كامنة، فهناك عدد كبير من الصحف المستقلة والأحزاب السياسية لتوجيه مشاعر الاستياء والسخط.

من ناحية أخرى، لم تستطع الديمقراطية إعادة البلاد إلى حالة الازدهار. فقد ظل دخل الفرد أقل بنسبة 22% مقارنة بحاله عام 1997. وبدا أن الفجوة الهائلة دوما بين الأغنياء والفقراء قد اتسعت. إحساس المواطنين الإندونيسيين العاديين بالحرمان تضخمه الإنترنت والقنوات الفضائية، التي تعرض صورا للثراء الخيالي في لندن ونيويورك وهونغ كونغ وباريس بتفاصيل دقيقة. انتشرت الآن المشاعر المناهضة لأمريكا، التي لم يكن لها وجود خلال سنوات حكم سوهارتو، وذلك بفضل اعتقاد

الإندونيسيين أن الأزمة المالية الآسيوية سببها عن سابق قصد وتصميم المضاربون في نيويورك وصندوق النقد الدولي. وفي استطلاع للرأي أجري عام 2003، تبين أن عدد الإندونيسيين المعجبين بن لادن يفوق عدد المؤيدين لجورج بوش.

يؤكد ذلك كله أعمق تغيير ربما حدث في إندونيسيا ـ تنامي الإسلام الأصولي الجهادي في البلاد. تقليديا، اعتنق الإندونيسيون نسخة معتدلة ومتسامحة وربما توليفية جامعة من الإسلام، تأثرت بالتقاليد البوذية والهندوسية والأرواحية من العصور السابق. تحت العين الساهرة لحكومة سوهارتو التي جاهرت بعلمانيتها، كان شرب الخمور مسموحا، ومارس غير المسلمين دياناتهم بكل حرية، وتمتعت النساء ـ اللاتي كن يرتدين الملابس الغربية أو السارونغ التقليدي في الحافلات أو الدراجات البخارية الخفيفة عند الذهاب إلى العمل ـ بجميع حقوق الرجال. أما اليوم، فتشكل الأحزاب الإسلامية أحد أكبر التكتلات السياسية، وينادي العديد منها بتطبيق الشريعة. وتنتشر المساجد والمدارس الدينية الآن في الأرياف اعتمادا على التمويلات القادمة من الشرق الأوسط. وتبنى العديد من النساء الإندونيسيات الزي الإسلامي السائد في البلدان الإسلامية في شمال أفريقيا والخليج العربي؛ في حين شن الإسلاميون الجهاديون، والذين يدعون أنفسهم «فرق محاربة الرذيلة» هجمات على الكنائس والنوادي الليلية والكازينوهات والمواخير. في عام 2002، قتل تفجير حدث في ناد ليلي في بالي أكثر من مئتي شخص؛ وأعقبه عدد من العمليات الانتحارية في جاكرتا عام 2004 وبالي عام 2005. أدين أعضاء في الجماعة الإسلامية، وهي منظمة لها صلات بالقاعدة، بتهمة التخطيط والمساعدة على عمليات التفجير؛ وفي حين حكم على ثلاثة منهم بالإعدام، أطلق سراح الزعيم الروحي للجماعة، أبو بكر بشير، بعد احتجاز دام ستة وعشرين شهراً.

كنت جالساً على الشاطئ على بعد بضعة أميال من موقع هذه التفجيرات الذي أقمت فيه خلال زيارتي الأخيرة إلى بالي. وحين فكرت بالجزيرة، وبإندونيسيا كلها، لاحقتني الذكريات ـ تجوالي في حقول الأرز حافي القدمين؛ منظر غروب الشمس خلف القمم البركانية؛ صوت المؤذن يدعو لصلاة العشاء، رائحة دخان الحطب المحترق؛

المساومة مع باعة الفواكه المصطفين على طول الطريق؛ الأصوات المحمومة لموسيقى «غيملين»التقليدية، وجوه الموسيقيين الوامضة بلهب النار. كنت أحب أن آخذ ميشيل والبنتين لنتقاسم ذكريات ذلك الجزء من حياتي، ومشاهدة آثار المعبد الهندوسي في برامبانان المشيد منذ ألف عام، أو السباحة في النهر الذي يجري بين التلال المرتفعة في بالي.

لكن الخطط التي وضعتها لمثل هذه الرحلة كانت تتأخر دوما في التنفيذ. فأنا مشغول بصورة مزمنة، والسفر مع الأطفال صعب دوما. ولربما يقلقني ما سأجده هناك ـ ألا تشابه أرض طفولتي ذكرياتي عنها. وعلى الرغم من تقلص حجم العالم، بالرحلات الجوية المباشرة والهواتف الخلوية و«سي ان ان» ومقاهي الإنترنت، لكن إندونيسيا تشعر أنها أنأى مسافة الآن مقارنة بحالها قبل ثلاثين سنة.

أخشى أنها أصبحت أرض الغرباء.

في ميدان الشؤون الدولية، من الخطورة بمكان الاستقراء من تجارب بلد واحد. فكل أمة فريدة متفردة بتاريخها وجغرافيتها وثقافتها وصراعاتها. مع ذلك، يمكن لإندونيسيا أن تجسد بطرق عديدة نموذجا رامزا للعالم القابع فيما وراء حدودنا ـ عالم تتصادم فيه باستمرار العولمة والطائفية، والفقر والوفرة، والحداثة والأصالة.

توفر إندونيسيا أيضا سجلا سهل التناول للسياسة الخارجية الأمريكية طوال السنوات الخمسين الماضية. فعلى وجه الإجمال على الأقل، تبرز هنا العوامل كلها: دورنا في تحرير المستعمرات السابقة وإنشاء المؤسسات الدولية للمساعدة على إدارة النظام العالمي الذي ظهر في أعقاب الحرب العالمية الثانية؛ نزعتنا إلى رؤية الأمم والصراعات من منظور الحرب الباردة؛ تشجيعنا دون كلل وترويجنا دون ملل للطراز الأمريكي من الرأسمالية والشركات متعددة الجنسيات؛ التساهل مع/ وأحيانا تشجيع الطغيان والفساد وتدمير البيئة حين يخدم ذلك كله مصالحنا؛ تفاؤلنا حالما انتهت الحرب الباردة بأن مطاعم «بيغ ماك» العالمية والإنترنت سوف تؤدي إلى نهاية الصراعات التاريخية؛ نمو القوة الاقتصادية لآسيا وتعاظم الاستياء من الولايات المتحدة بوصفها القوة العظمى

الوحيـدة؛ إدراك أن الدمقرطـة، على المـدى القصير على الأقل، سـوف تفاقم بدلاً من أن تهـدئ حدة الكراهية الاثنية والانقسامات الدينية ـ وأن أعاجيب العولمة سوف تسهل أيضاً تقلب وتذبذب الوضع الاقتصادي، وانتشار الأوبئة، والإرهاب.

بكلمـات أخـرى، سجلنا مختلط ـ لا في إندونيسيا فقط بل في شتـى أنحاء العالم أيضـا. في بعض الأحيـان، تمتعت السياسـة الخارجية الأمريكية ببعـد النظر، حيث خدمـت في الوقـت ذاته مصالحنا القوميـة ومثلنا العليا ومصالـح الأمم الأخرى. في أحيـان أخرى، كانت السياسات الأمريكيـة مضللة ومخطئة، ارتكزت على افتراضات تتجاهـل التطلعات والطموحات المشروعـة للشعوب الأخرى، وأضعفـت مصداقيتنا، وجعلت العالم أكثر خطراً.

يجـب ألا يكـون هذا التضارب المبهـم مفاجئاً، لأن السياسـة الخارجية الأمريكية ظلـت علـى الـدوام خلطة مشوشـة مـن الدوافـع المتعارضـة. في الأيـام المبكرة من الجمهوريـة، سـادت غالبا سياسـة الانعزال ـ نتيجـة الحذر من المكائـد والمؤامرات الأجنبيـة، حذر يناسب أمة خرجت لتوهـا من حرب الاستقلال. سأل جورج واشنطن في خطبتـه الوداعية الشهيرة: «لماذا نربط مصيرنا مـع أي جزء من أوروبا، ونشابك أمننـا وسلمنـا وازدهارنا مع المطامح أو العداوات أو المصالـح أو المزاجية أو النزوات الأوروبيـة؟» تعززت آراء واشنطن بما دعاه «حالـة انفصال وابتعاد» أمريكا، انفصال جغرافي يتيح للأمة الجديدة «تحدي الأذى المادي من المضايقة الخارجية».

فضلاً عـن ذلك، في حين تجعل الأصول الثورية ونظـام الحكم الجمهوري أمريكا أمـة متعاطفـة مـع أولئك المكافحـين في سبيل الحريـة في كل مـكان، إلا أن زعماءها الأوائـل حذروا من مغبة المحـاولات المثالية لتصدير أسلوبنـا في الحياة؛ ووفقاً لجون كوينسـي أدامز، يجب علـى أمريكا ألا تذهب «إلى الخارج بحثـا عن الوحوش لقتلها» ولا تصبـح «طاغية العالم» لقد حملت العنايـة الإلهية أمريكا مهمة صنع عالم جديد، وليس إصلاح العالم القديم؛ ونظراً للحماية التي يوفرها المحيط، ووفرة موارد القارة واتساعهـا، يمكن لأمريكا أن تخـدم قضية الحرية بأفضل طريقـة عبر التركيز على التنمية والتطوير فيها، لتغدو منارة للأمل تتطلع إليها أمم وشعوب العالم.

لكـن إذا كانت مشاعر الريبة من التورط الخارجـي متأصلة في موروثاتنا، فكذلك حـال الدافع إلى التوسـع ـ جغرافيا وتجاريا وأيديولوجيـا. توماس جيفرسون عبر في وقت مبكر عن حتمية التوسع خارج حدود الولايات الثلاث عشرة الأصلية، وكان جدوله الزمني لمثل هذا التوسع قد تسارع كثيرا مع شراء لويزيانا وحملة لويس وكلارك. جون كوينسي أدامز نفسه الذي حذر من مغبة المغامرات الأمريكية غدا مدافعا لا يكل عن التوسـع القاري وكان المهندس الرئيس لمبدأ مونرو ـ الذي حـذر القوى الأوروبية من مغبـة الاقتراب من نصف العالم الغربي. ومع تحرك الجنود والمستوطنين الأمريكيين نحـو الغـرب والجنوب الغربـي، وصفـت الإدارات المتعاقبة الاستيلاء علـى الأراضي والمناطـق بتعبير «القـدر المحتوم» ـ الاعتقاد أن هذا التوسـع مقدر مقدما، وجزء من خطة إلهية لتوسيع ما دعاه اندرو جاكسون «منطقة الحرية» عبر القارة.

القدر المحتوم كان يعني أيضا بالطبع حروبا دموية وفتوحات عنيفة ـ حيث أجبرت القبائل الهندية من سكان البلاد الأصليين على النزوح من أراضيها، واضطر الجيش المكسيكي للدفاع عن حدود بلاده. فتوحات ناقضت، مثل الرق، مبادئ الآباء المؤسسين وبُـررت بتعابير عنصرية سافرة، فتوحـات وجدت الأسطـورة الأمريكية على الدوام صعوبـة في امتصاصها وهضمها، لكن البلدان الأخرى أدركتها كما هي في الحقيقة ـ ممارسة للقوة الفظة الفجة.

مع نهاية الحرب الأهلية وترسيخ ما أصبح يعرف الآن بالولايات المتحدة (القارية)، لم يعـد بالإمـكان إنكار تلك القوة. فتحـول اهتمام الأمة إلى الخـارج، بقصد توسيع الأسـواق لبضائعها، وتأمين المـواد الخام لصناعتها، والحفـاظ على الطرق مفتوحة لتجارتهـا. وهكذا جرى ضـم هاواي، مما منح أمريكا موطئ قدم في المحيط الهادي. وأدت الحـرب الأمريكيـة الإسبانيـة إلى السيطرة على بورتوريكو وغـوام والفيليبين؛ وحـين عارض بعض أعضاء مجلـس الشيوخ الاحتلال العسكـري لأرخبيل يبعد سبعة آلاف ميل ـ احتلال سوف يتطلب قيام آلاف الجنود الأمريكيين بسحق حركة استقلال الفيليبـين ـ قدم أحد الأعضاء الحجة على أن الاستيـلاء على الفيليبين سيسهل على أمريـكا الوصول إلى سـوق الصين وهذا يعني «تجارة واسعة وقـدرا هائلا من الثروة

والقـوة» صحيح أن أمريكا لن تتبع الأسلوب الاستعماري المنهجي الذي مارسته الدول الأوروبيـة، لكنهـا تخلت عن جميـع الكوابح والضوابط فيما يتعلـق بالتدخل في شؤون البلـدان الأخرى التي تمتعت بأهمية إستراتيجية في نظرها. على سبيل المثال، أضاف تيـودور روزفلت لازمة منطقية إلى مبدأ مونرو، حيث أعلن أن الولايات المتحدة سوف تتدخل في أي بلد في أمريكا اللاتينية أو منطقة الكاريبي لا تنال حكومته رضى أمريكا. وقـال مؤكداً: «ليس أمـام الولايات المتحدة خيار أن تلعب أو لا تلعب دوراً كبيراً ومؤثراً في العـالم. بـل يجب أن تلعب هذا الدور. الأمر كله يتعلق بمـا إذا كانت ستؤديه بشكل جيد أو سيئ».

بحلـول بدايـة القـرن العشرين، كان مـن الصعب على مـا يبدو تمييـز البواعث والدوافـع للسياسة الخارجيـة الأمريكية عن تلك التي تحرك القوى العظمى الأخرى، مثـل السياسة العملية والمصالـح التجارية. مشاعر العزلة لـدى السكان عموماً ظلت قويـة، خصوصـاً حـين يتعلق الأمـر بالصراعـات في أوروبا، وحين لا تكـون المصالح الأمريكيـة الحيوية على المحك كما يبدو. لكن حجم العـالم كان يتقلص بفعل التقانة والتجـارة؛ وغدا تمييز المصالح الحيوية من غير الحيويـة أمراً صعباً باطراد. خلال الحرب العالمية الأولى، حاول ودرو ولسون تفادي توريط أمريكا في الحرب إلى أن جعلت عمليـات الإغراق المتكـررة للسفن الأمريكيـة بواسطة الغواصـات الألمانية، والانهيار الوشيـك للقارة الأوروبية من المتعذر البقـاء على الحياد. وحين انتهت الحرب، برزت أمريكا كقوة عالمية مهيمنة ـ لكنها قوة فهم ولسون الآن أن ازدهارها مرتبط بالسلام والازدهار في الأراضي القصية والبلاد النائية.

في مسعـى ولسـون للتصـدي لهذا الواقـع الجديد عمـل على إعـادة تفسير فكرة «القـدر المحتوم» علـى أمريكا. فوفقا لحجتـه لا تشمل فكرة جعل «العـالم مكانا آمنا للديمقراطية» مجرد كسب حرب؛ بل إن من مصلحة أمريكا تشجيع حق تقرير المصير لجميع الشعوب وتزويد العالم بإطار قانوني يمكنه من تفادي الصراعات في المستقبل. وكجزء من معاهدة فرساي، التي فصّلت شروط وبنود استسلام ألمانيا، اقترح ولسون إنشـاء عصبة أمم للتوسـط في حل النزاعات بين الـدول، إلى جانب المحكمة الدولية

ومجموعـة مـن القوانـين الدولية التي لا تلـزم الضعفاء فقط بل الأقويـاء أيضا. قال ولسـون: «هذا هو الوقـت الذي يجب فيه علـى الديمقراطية أن تثبـت نقاءها وقوتها الروحيـة وقدرتها على الانتصار. إن قدر الولايات المتحـدة المحتوم يملي عليها قيادة محاولة جعل هذه الروح تسود وتنتصر».

لقيـت اقتراحـات ولسـون في البدايـة ترحيبـا حماسيا داخـل الولايـات المتحدة وخارجهـا. لكـن مجلـس الشيـوخ الأمريكي كان أقـل تأثرا بهـا. فقد عـد السينـاتور الجمهـوري هنري كابوت لودج عصبة الأمم ـ وكل مفهوم عن القانون الدولي ـ تعديا علـى السيادة الأمريكيـة، وقيدا أخرق لقـدرة أمريكا على فرض إرادتها في العالم. وبمساعـدة الانعزاليين التقليديين في الحزبين كليهمـا (العديد منهم عارضوا دخول أمريكا الحرب العالمية الأولى)، إضافة إلى عناد ولسون وعدم رغبته في التسوية، رفض مجلس الشيوخ تصديق عضوية الولايات المتحدة في عصبة الأمم.

طـوال السنوات العشريـن التالية، تحولـت أمريكا بعزم وتصميم نحـو الداخل ـ فقلصت حجم جيشها وبحريتها، ورفضت الانضمام إلى المحكمة الدولية، ولم تحرك ساكنا حين بنت إيطاليا واليابان وألمانيا النازية آلاتها العسكرية. وغدا مجلس الشيوخ موئـلا وحصنا للانعزالية، فأصـدر قانون الحياد الذي حظر علـى الولايات المتحدة تقديم معونات للبلدان التي تعرضت لغزو قوى المحور، وتجاهل مراراوتكرارا مناشدات الرئيـس حين اجتاحـت جيوش هتلر أوروبا. ولم تدرك أمريـكا خطأها الفادح إلا بعد الهجـوم على بيرل هاربر. قال فرانكلين روزفلت في خطبته إلى الأمة بعد الهجوم: «لا يوجـد شـيء اسمه الأمن لأي أمـة، أو أي فرد، في عالم تحكمه مبـادئ العصابات. لا يمكننا أن نقيس أمننا بالأميال على أي خريطة بعد اليوم».

في أعقـاب الحـرب العالمية الثانيـة، سنحت للولايـات المتحدة فرصـة الاستفادة مـن هذه العـبر والدروس وتطبيقها على سياستها الخارجيـة. ومع الخراب الذي حل بأوروبـا واليابـان، واستنـزاف الاتحاد السوفييتـي نتيجة المعارك التـي خاضها على الجبهة الشرقية، وإن أصبح يصدر إشارات تنم عن نواياه بنشر نسخته من الشيوعية التوتاليتاريـة بقدر ما يستطيع، واجهت أمريكا خيـارا. فأصحاب التوجهات اليمينية

قدموا الحجة على أن الولايات المتحدة لا تستطيع صد التهديد الشيوعي البازغ إلا باتباع سياسة خارجية من طرف واحد، وغزو الاتحاد السوفييتي على الفور. ومع أن النزعة الانعزالية من النوع الذي ساد في الثلاثينيات فقدت مصداقيتها تماما الآن. إلا أن أصحاب التوجهات اليسارية الذين قللوا من خطر العدوانية السوفييتية، أكدوا ضرورة التعامل والتسوية مع ستالين نظرا للخسائر السوفييتية الفادحة ودور البلد الحاسم في النصر الذي حققه الحلفاء.

لكن أمريكا لم تتبع أيا من السبيلين. بدلا من ذلك، ابتكرت إدارة حقبة ما بعد الحرب، بقيادة الرئيس ترومان ودين اتشسون وجورج مارشال وجورج كينان، بنية نظام جديد يقرن مثالية ولسون مع الواقعية المتشددة، وهذا يعني إذعان القوة الأمريكية وقبولها بعجز قدرة أمريكا على التحكم في أحداث العالم. وكما أكد هؤلاء، فإن العالم مكان محفوف بالخطر، والتهديد السوفييتي حقيقي؛ وأمريكا بحاجة إلى الحفاظ على هيمنتها العسكرية والاستعداد لاستخدام القوة للدفاع عن مصالحها في شتى أرجاء العالم. لكن حتى القوة الأمريكية محدودة ـ ولأن المعركة ضد الشيوعية معركة أفكار أيضا، واختبار للنظام الذي يحقق آمال وأحلام مليارات البشر في العالم على أفضل وجه، فإن القوة العسكرية وحدها لا يمكن أن تضمن ازدهار أو أمن أمريكا على المدى البعيد.

إذن، ما تحتاجه أمريكا هو حلفاء ثابتون مخلصون ـ حلفاء يقاسمونها مُثُل الحرية والديمقراطية وحكم القانون، ويرون مصلحتهم في النظام الاقتصادي المرتكز على السوق. مثل هذه التحالفات، العسكرية والاقتصادية، التي ينضم إليها الأعضاء بكامل حريتهم وإرادتهم، ويتم الحفاظ عليها بالموافقة المتبادلة، ستكون أكثر ديمومة ـ وتثير أقل قدر من الاعتراض والاستياء ـ مقارنة بأي مجموعة من الدول التابعة والخاضعة التي تستطيع الإمبريالية الأمريكية حشدها. على نحو مشابه، كان من مصلحة أمريكا العمل مع البلدان الأخرى على بناء مؤسسات دولية وتشجيع وترويج معايير دولية. لا بسبب الافتراض الساذج بأن القوانين والمعاهدات الدولية سوف تنهي وحدها الصراعات بين الأمم أو تلغي الحاجة إلى العمل العسكري الأمريكي، بل لأن

تعزيـز المعايير الدولية يزيد الإشـارات الدلالية التي تعطيها أمريكا وتبين استعدادها لإظهار التحفظ وضبط النفس في ممارسة قوتها، ويقلل عدد الصراعات التي تنشأ ـ ومن ثم تتعاظم شرعية أعمالنا أمام عيون العالم حين نضطر للتحرك عسكريا.

وبخـلال أقـل من عقد مـن السنين، أصبحـت البنية التحتية لنظـام عالمي جديد جاهزة. كانت هناك سياسة الاحتواء التي اتبعتها الولايات المتحدة فيما يتعلق بالتوسع الشيوعي، مدعومة لا بالجنود الأمريكيين وحسب، بل بالاتفاقات الأمنية مع دول حلف شمال الأطلسي واليابان؛ وخطة مارشال لإعادة بناء الاقتصادات التي دمرتها الحرب؛ واتفاقية بريتون وودز لتوفير الاستقرار لأسواق العالم المالية، والاتفاقية العامة للتعرفة والتجارة لتأسيس القواعد الناظمة للتجارة العالمية؛ ودعم الولايات المتحدة لاستقلال المستعمـرات الأوروبية السابقة؛ وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي للمساعدة على دمـج هذه الأمم المستقلة حديثـا في الاقتصاد العالمـي؛ والأمم المتحدة لتوفير منتدى للأمن الجماعي والتعاون الدولي.

بعـد ستين سنة، يمكننا رؤيـة نتائج هذه الأعمال والإجـراءات والخطوات الهائلة التـي اتخذت في حقبة الحـرب: خاتمة ناجحة للحرب الباردة، وتفـادي كارثة نووية، ونهايـة فعلية للصراع بين القوى العسكرية الكبرى في العالم، وحقبة غير مسبوقة من النمو الاقتصادي داخل أمريكا وخارجها.

إنجـاز مشهـود دون شك، ولربمـا يكون أعظم هديـة قدمها أعظم جيـل لنا بعد الانتصار على الفاشية. لكن مثل أي نظام من صنع البشر، عانى هذا النظام نواقص وتناقضـات؛ وربما سقط ضحية لتشويهات السياسـة وتحريفاتها، وخطايا الاستكبار والاستعـلاء، والتأثيرات الفاسـدة والمفسدة للخوف. وبسبـب ضخامة حجم التهديد السوفييتـي، وصدمة استيـلاء الشيوعيين علـى الحكم في الصين وكوريـا الشمالية، بدأ صنـاع السياسة الأمريكية ينظرون إلى الحـركات القومية، والصراعات الاثنية، والجهـود الإصلاحيـة، والسياسات التي تميل إلى اليسـار في توجهها في أي مكان من العـالم، عـبر منظور الحرب الباردة ـ شعـروا أنها تهديدات كامنـة تفوق في الأهمية التزامنـا المعلن بالحرية والديمقراطية. وبقينا طـوال عقود من السنين نتساهل مع/

بل نساعد لصوصا مثل موبوتو، ومجرمين مثل نورييغا، طالما يقفون في وجه الشيوعية. من حين لآخر، كانت العمليات السرية الأمريكية تخطط وتنظم انقلابات لإزاحة الزعماء المنتخبين ديمقراطيا في بلدان مثل إيران - بكل ما أفرزته من ارتدادات زلزالية ما زالت تطاردنا حتى اليوم.

سياسة الاحتواء التي اتبعتها أمريكا شملت بناء قوة عسكرية هائلة، ضاهت ثم تفوقت على الترسانتين السوفييتية والصينية مجتمعتين. وبمرور الزمن، استطاع «المثلث الحديدي» المكون من البنتاغون، ومقاولي الدفاع، وأعضاء الكونغرس الذين تحتشد في مناطقهم الانفاقات الدفاعية الكبيرة، جمع ومراكمة قدرة عظيمة على صياغة ورسم السياسة الخارجية للولايات المتحدة. ومع أن تهديد الحرب النووية سوف يستبعد احتمال المواجهة العسكرية المباشرة مع القوى العظمى المنافسة، إلا أن صناع السياسة الأمريكية نظروا على نحو متزايد إلى المشكلات في العالم من منظور عسكري لا ديبلوماسي.

والأهم أن نظام ما بعد الحرب أصبح بمرور الزمن يعاني تأثير السياسة المفرط وقلة التداول والتشاور وغياب الإجماع الداخلي. فمن مواطن القوة التي تمتعت بها أمريكا بعد الحرب مباشرة درجة من الإجماع الداخلي على السياسة الخارجية. لربما ظهرت اختلافات ضارية بين الجمهوريين والديمقراطيين، لكن السياسة لم تكن تتجاوز حدودها؛ وكان من المتوقع من الخبراء المحترفين، في البيت الأبيض أو البنتاغون أو وزارة الخارجية أو وكالة المخابرات المركزية، اتخاذ القرارات اعتمادا على الحقائق والحكم الحصيف السليم، لا على الأيديولوجيا أو لدوافع انتخابية. فضلا عن ذلك، امتد هذا الإجماع ليشمل عامة الأمريكيين؛ وما كان لبرامج مثل خطة مارشال، التي شملت استثمارا هائلا بالتمويلات الأمريكية، أن تسير قدما لولا ثقة الشعب الأمريكي الأساسية بحكومته، إضافة إلى الإيمان المقابل من جانب المسؤولين الحكوميين بأن الأمريكيين شعب أهل للثقة ويمكن ائتمانه على الحقائق المؤسسة للقرارات التي تتخذ وتؤدي إلى إنفاق ما يدفعه من ضرائب أو إرسال أبنائه إلى الحرب.

مع مرور سنوات الحرب الباردة، بدأت العناصر المفتاحية في هذا الإجماع بالتآكل. فقد اكتشف السياسيون أن بمقدورهم الحصول على الأصوات عبر التشدد والتعصب ضد الشيوعية والمزايدة على خصومهم في هذا المجال. إذ هوجم الديمقراطيون بسبب «خسارة الصين» ودمرت المكارثية حياة السياسيين المهنية وحطمت المنشقين. في حين كان كنيدي يلوم الجمهوريين على «فجوة الصواريخ» التي لم تكن موجودة في سبيل إلحاق الهزيمة بنيكسون، الذي اشتهر بإدانة خصومه بوصفهم شيوعيين. وسيجد الرؤساء ايزنهاور وكنيدي وجونسون أن أحكامهم يغلبها الخوف من اتهامهم بـ«اللين مع الشيوعية» وغدت أساليب الحرب الباردة، القائمة على السرية والتجسس والتلصص والمعلومات المضللة المستخدمة ضد الحكومات الأجنبية وشعوب العالم الأخرى، أدوات للسياسة الداخلية، أو وسائل لمضايقة المنتقدين، أو بناء الدعم والتأييد للسياسات المريبة، أو تغطية الأخطاء الذريعة. المفارقة أن المثل العليا ذاتها التي وعدنا بتصديرها إلى الخارج تعرضت للخيانة والغدر في الداخل.

وصلت هذه الاتجاهات والنزاعات جميعها إلى نقطة الذروة في فيتنام. العواقب الكارثية لذلك الصراع ـ فيما يتعلق بمصداقيتنا ومكانتنا في الخارج، وبقواتنا المسلحة (التي ستتطلب جيلا لتتعافى)، والأهم بالنسبة للذين قاتلوا ـ جرى توثيقها بوفرة. لكن ربما تكون أكبر ضحية لتلك الحرب رابطة الثقة بين الأمريكيين وحكومتهم ـ وبين الأمريكيين أنفسهم. ونتيجة للصحافة التي تميزت بجرأة أكبر وصور الجنود القتلى التي بثت على شاشات التلفزيون، بدأ الأمريكيون يدركون أن أفضل وألمع صناع السياسة في واشنطن لا يعرفون دوما ماذا كانوا يفعلون ـ ولا يصدقون دائما. وعلى نحو متزايد، أعلن الكثير من أصحاب الميول اليسارية معارضتهم لا لحرب فيتنام فقط بل للأهداف العريضة للسياسة الخارجية الأمريكية. فبرأيهم، كان الرئيس جونسون، والجنرال ويستمورلند، ووكالة المخابرات المركزية، و«المجمع العسكري ـــ الصناعي»، والمؤسسات الدولية مثل البنك الدولي، مجرد تمظهرات للغطرسة والشوفينية الاستعلائية والعنصرية والرأسمالية والإمبريالية الأمريكية. أما أصحاب الميول اليمينية فقد ردوا بالمثل، محملين مسؤولية خسارة فيتنام، وتراجع وانحطاط

موقف أمريكا في العالم على عاتق جمهور «وجه اللوم لأمريكا أولا» ـ جمهور المحتجين، والهيبيين، وجين فوندا، ومفكري ومثقفي جامعات الساحل الشمالي الشرقي، ووسائل الإعلام الليبرالية التي استهزأت بالمشاعر الوطنية، واعتنقت نظرة نسبوية للعالم، وأضعفت عزيمة أمريكا على مواجهة الشيوعية الملحدة.

لا بد من الاعتراف بأن هذه كلها مجرد صور كاريكاتورية مغالية روجها ناشطون ومستشارون سياسيون. فقد بقي العديد من الأمريكيين في مكان ما من الوسط، يدعمون جهود أمريكا لهزيمة الشيوعية، لكن يشككون بالسياسات الأمريكية التي قد تؤدي إلى سقوط عدد كبير من الضحايا الأمريكيين. وطوال السبعينيات والثمانينيات يمكن العثور على صقور من الديمقراطيين وحمائم من الجمهوريين؛ في الكونغرس، هنالك أعضاء، مثل مارك هاتفيلد (اوريغون) وسام نان (جورجيا)، سعوا إلى تأبيد تقليد السياسة المرتكزة على الحزبين كليهما. لكن الصور الكاريكاتيرية المبالغة هي التي صاغت انطباعات الرأي العام خلال مواسم الانتخابات، حيث صور الجمهوريون الديمقراطيين بوصفهم ضعفاء فيما يتعلق بالشؤون الدفاعية، في حين لجأ المتشككون بالعمليات العسكرية والسرية في الخارج إلى الحزب الديمقراطي على نحو متزايد باطراد باعتباره ملاذهم السياسي.

على هذه الخلفية ـ حقبة من الانقسام لا الإجماع ـ صاغ معظم الأمريكيين اليوم الآراء التي تبنوها تجاه السياسة الخارجية. تلك كانت سنوات عهد نيكسون وكيسنجر، حيث تميزت سياستهما الخارجية بالبراعة والذكاء على الصعيد التكتيكي، لكن خيمت عليها ظلال السياسات الداخلية وحملة القصف الكمبودية التي افتقدت التوجيه الأخلاقي. وسنوات عهد جيمي كارتر، الديمقراطي الذي بدا – بتشديده على حقوق الإنسان ـ مستعدا مرة أخرى لتدعيم ورصف الاهتمامات الأخلاقية بدفاعات قوية، إلى أن جعلته صدمات النفط، والإذلال الناجم عن أزمة الرهائن في إيران، والغزو السوفييتي لأفغانستان، يبدو ساذجا وعديم الفاعلية.

التأثير المهم والمقلق الذي يصعب تجنبه مارسه رونالد ريغان، حيث لم يعادل وضوحه فيما يتعلق بالشيوعية سوى تجاهله لمصادر البؤس الأخرى في العالم. بلغت

شخصيا سن الرشد في عهد ولاية ريغان ـ كنت أدرس الشؤون الدولية في جامعة كولومبيا، ثم عملت في مجال التنظيم الاجتماعي في شيكاغو ـ وعلى شاكلة العديد من الديمقراطيين في تلك الأيام، أسفت لتأثير سياسات ريغان تجاه العالم الثالث: دعم إدارته للنظام العنصري في جنوب أفريقيا، وتشكيل فرق الموت في السلفادور، وغزو غرينادا الصغيرة المنكودة. وكلما تعمقت في دراسة سياسة الأسلحة النووية، زاد اقتناعي بسوء مبادرة حرب النجوم؛ أما الهوة الفاصلة بين خطاب ريغان البلاغي المنمق وصفقة إيران ـ كونترا الرخيصة فقد أصابتني بصدمة مذهلة.

لكن في ذلك الوقت، كنت أجد نفسي، في المناقشات والمجادلات مع الأصدقاء من أصحاب الميول اليسارية، في موقف غريب يدافع عن بعض جوانب نظرة ريغان للعالم. لم أفهم السبب الذي يجعل التقدميين، مثلاً، أقل اهتماما بالقمع خلف الستار الحديدي من الوحشية في تشيلي. لم أتمكن من الاقتناع بأن الشركات الأمريكية المتعددة الجنسيات والشروط الدولية للتجارة هي المسؤولة وحدها عن الفقر في العالم؛ لم يجبر أحد الزعماء الفاسدين في بلدان العالم الثالث على سرقة شعوبهم ونهبها. لربما اعترضت على حجم القوة العسكرية التي عمل ريغان على بنائها، لكن بعد الغزو السوفييتي لأفغانستان بدا التفوق على السوفييت عسكريا أمرا منطقيا وواجبا ضروريا. الاعتزاز والفخر ببلادنا، احترام قواتنا المسلحة، تقدير المخاطر والأخطار الكامنة وراء حدودنا بشكل سليم، الإصرار على عدم وجود تكافؤ سهل بين الشرق والغرب ـ ذلك كله لم أختلف مع ريغان حوله. وحين انهار جدار برلين، كان علي أن أوفي الرجل العجوز حقه، حتى وإن لم أصوت لمصلحته أبداً.

صوت العديد من الناخبين ـ ومنهم كثير من الديمقراطيين ـ لمصلحة ريغان، وهذا ما جعل الجمهوريين يقدمون الحجة على أن رئاسته استعادت الإجماع على سياسة أمريكا الخارجية. وبالطبع، لم يختبر هذا الإجماع قط؛ وحروب ريغان على الشيوعية شنت غالبا بالوكالة، وأدت إلى عجز في الإنفاق، دون نشر الجنود الأمريكيين. وبذلك، جعلت نهاية الحرب الباردة صيغة ريغان تبدو غير مناسبة لعالم جديد. جورج بوش الأب عاد إلى اتباع سياسة خارجية أكثر تقليدية و«واقعية» سوف

تؤدي إلى إدارة متسقة لتفكيك الاتحاد السوفييتي وقدرة فاعلة على التعامل مع حرب الخليج الأولى. لكن مع تركز انتباه الرأي العام الأمريكي على الوضع الاقتصادي الداخلي، لم تنفعه مهارته في بناء التحالفات الدولية أو إبراز القوة الأمريكية بطريقة حصيفة، ولم تفعل شيئا لإنقاذ رئاسته.

بحلول الوقت الذي اعتلى فيه بيل كلينتون سدة الرئاسة، أشارت الحكمة التقليدية إلى ضرورة أن تكون السياسة الخارجية الأمريكية في حقبة ما بعد الحرب الباردة أكثر تركيزا على التجارة من الدبابة، وعلى حماية حقوق الملكية الفكرية الأمريكية من حماية أرواح الأمريكيين. فهم كلينتون أن العولمة لا تشمل تحديات اقتصادية جديدة فقط، بل تحديات أمنية جديدة أيضا. وإضافة إلى تشجيع وترويج التجارة الحرة وتعزيز النظام المالي العالمي، ستعمل إدارته على إنهاء الصراعات الدموية التي طالت مدتها في البلقان وايرلندا الشمالية، ودعم الدمقرطة في أوروبا الشرقية وأمريكا اللاتينية وأفريقيا وجمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق. لكن في نظر عامة الأمريكيين، على الأقل، افتقدت السياسة الخارجية في التسعينيات أي موضوع شمولي أو ضروريات جوهرية ملحة. وبدا العمل العسكري الأمريكي على وجه الخصوص مسألة خيار لا ضرورة ـ نتاج رغبتنا في تعنيف وتأنيب الدول المارقة ربما؛ أو عمل تفرضه الاعتبارات الإنسانية فيما يتعلق بالتزاماتنا الأخلاقية التي ندين بها للصوماليين والهاييتيين والبوسنيين، أو غيرهم من النفوس المنكودة.

ثم أتى الحادي عشر من سبتمبر، وشعر الأمريكيون أن عالمهم انقلب رأسا على عقب.

في كانون الثاني/ يناير 2006، ركبت طائرة شحن عسكرية (من طراز سي ـ 130) في أول رحلة لي إلى العراق. اثنان من زملائي المسافرين ــ السيناتور إيفان بايه (إنديانا) والسيناتور هارولد فورد (تينيسي) ـ قاما بالرحلة من قبل، وحذراني قائلين إن الهبوط في بغداد قد لا يكون مريحا: ففي سبيل تفادي النيران المعادية المحتملة، تقوم الطائرات العسكرية القادمة والمغادرة بسلسلة من المناورات التي تصيب بالغثيان. لكن كان من الصعب الشعور بالقلق حين شقت طائرتنا سماء

الصباح الضبابية. الأحزمة تشدنا إلى المقاعد، ومعظم زملائي الركاب غطوا في النوم، وتمايلت رؤوسهم واهتزت على خلفية الشبكة البرتقالية التي تعبر مركز جسم الطائرة. أحد أفراد الطاقم كان منشغلا بلعبة فيديو على ما يبدو؛ في حين كان آخر يعاين بهدوء خطة الرحلة.

مرت أربع سنوات ونصف السنة منذ أن سمعت أول مرة خبر صدم الطائرة مركز التجارة العالمية. كنت في شيكاغو آنذاك، تقلني السيارة لحضور جلسة اجتماع في مجلس شيوخ الولاية في مركز المدينة. التقارير التي بثها راديو السيارة كانت مشتتة ومشوشة، وافترضت أن ما حصل مجرد حادث، طائرة صغيرة خرجت ربما عن مسارها. وعندما وصلت إلى الاجتماع، كانت الطائرة الثانية قد صدمت البرجين، وأبلغنا بوجوب إخلاء مبنى ولاية الينوي. تجمع الناس في الشوارع، وحدقوا إلى السماء وإلى برج سيرز. وبعد ذلك، جلسنا في مكتبي دون حراك والصور الكابوسية تتكشف على شاشة التلفزيون ـ طائرة دكناء كالشبح، تختفي بعد اختراقها الزجاج والفولاذ؛ رجال ونساء يتشبثون بحواف النوافذ، ثم يسقطون من شاهق؛ صراخ وبكاء وعويل من الناس في الأسفل، وأخيرا سحب الغبار المندفعة تحجب قرص الشمس.

قضيت الأسابيع التالية مثل معظم الأمريكيين ـ أتصل بالأصدقاء في نيويورك وواشنطن، وأرسل التبرعات، وأصغي إلى خطبة الرئيس، وأندب القتلى. بالنسبة لي، كما لمعظمنا، كان الشعور بتأثير الحادي عشر من سبتمبر شخصيا إلى حد بعيد. لم يكن حجم الدمار هو الذي أثر في نفسي تأثيرا بالغا، ولا ذكريات السنوات الخمس التي قضيتها في نيويورك ــ ذكريات الشوارع والمناظر والمشاهد التي تحولت الآن إلى ركام. بل ألفة تلك الأعمال والتصرفات العادية التي تخيلت أن الضحايا قاموا بها قبيل ساعات من مقتلهم، الأعمال الروتينية اليومية التي تكون الحياة في عالمنا الحديث ـ ركوب الطائرة، التدافع عند الخروج من القطار، شرب القهوة وقراءة صحيفة الصباح، تبادل المجاملات في المصعد. بالنسبة لمعظم الأمريكيين، مثلت هذه التصرفات الروتينية انتصار النظام على الفوضى، تعبيرات متعينة وملموسة عن إيماننا بأننا طالما نمارس التمارين الرياضية، ونضع أحزمة الأمان، ونعمل في وظيفة مفيدة، ونتجنب بعض الأحياء السكنية، فإن سلامتنا مضمونة وعائلاتنا مصونة.

الآن، أتـت الفوضـى إلى عتبـة دارنـا. ونتيجة ذلـك، يجب أن نتصـرف بطريقة مختلفـة، ونفهم العالم بأسلوب مختلف. علينـا أن نلبي نداء الأمة. بخلال أسبوع من الهجمـات، شهدت مجلس الشيوخ يوافق بالإجماع (98 ـــ 0)، ومجلس النواب يوافق بأغلبيـة 420 ـــ 1، على منـح الرئيس سلطة «استخـدام القوة الضروريـة والمناسبة ضد تلك الدول أو المنظمـات أو الأفراد»المتورطين في الهجمات. ارتفع مستوى الرغبة في الالتحـاق بالقـوات المسلحة وعدد طلبات الانضمام إلى وكالـة المخابرات المركزية ارتفاعـا كبيرا، حيـث عقد الشباب الأمريكيـون العزم على خدمـة وطنهم. ولم نكن وحدنـا. في باريس، كتبـت «لوموند»عنوانا عريضا على صدر صفحتهـا الأولى: «كلنا أمريكيـون» في القاهرة، صلـى النـاس في المساجد تعاطفا مـع الأمريكيين. ولأول مرة منـذ إنشاء حلف النـاتو عام 1949، استحضر المادة الخامسة من القانون التأسيسي، التـي تؤكد أن الهجوم على أحد أعضائه «يعد هجوما على جميع الأعضاء» مع العدالة التـي تدعمنا والعالم إلى جانبنا، طردنا الطالبان من كابول بخلال شهر تقريبا؛ وفر ناشطو القاعدة أو اعتقلوا أو قتلوا.

كانـت بداية جيدة للإدارة، كما حسبت ـ وطيدة، ومدروسة، والمهمة أنجزت بأقل الخسائـر (لم نكتشـف إلا لاحقا درجـة فشلنا في ممارسة ضغـط عسكري كاف على مقاتلي القاعدة في تورا بورا وتأثير ذلك في نجاة بن لادن). وهكذا، انتظرت صابرا، مـع بقيـة العالم، ما افترضـت أنها الخطوة التاليـة: إعلان صياغـة سياسة خارجية أمريكية للقـرن الحادي والعشرين، سياسة لا تكتفي بالتكيف مع التخطيط العسكري والعمليات الاستخبارية، والدفاعات الوطنية أمام تهديد شبكات الإرهابيين فقط، بل تبني إجماعا دوليا جديدا حول التهديدات العابرة لحدود الدول.

لم يرسم هذا المخطط التفصيلي قط. واتبعنا بدلا منه خلطة مرقعة من السياسات القديمـة التي تجاوزها الزمن، جـرى نفض الغبار عنها، ثم جمعـت معا، واستبدلت اللصاقة الموضوعة عليها. فأصبحت عبارة «إمبراطورية الشر» الآن «محور الشر» أما نسخـة تيودور روزفلت من مبدأ مونرو ـ فكـرة أن بمقدورنا استباق إزاحة الحكومات التـي لا تعجبنـا ـ فقد تحولت الآن إلى ما يعرف بـ «مبـدأ بوش»، لكن مع توسيعها إلى

مـا وراء الجزء الغربي من العـالم لتشمل الكرة الأرضية برمتها. «القدر المحتوم» عاد إلى الواجهـة؛ فكل ما نحتاج إليه، وفقا لبوش، هو القـوة النارية الأمريكية، والعزيمة الأمريكية، و«تحالف الراغبين».

والأسـوأ ربما أن إدارة بوشـ أحيت نمطا من السياسة لم يتبـع منذ نهاية الحرب البـاردة. فحين أصبحت إطاحة صدام حسين اختبـارا لمبدأ بوش القائم على الحرب الوقائيـة، اتهم الذين وضعوا الأس المنطقي لغزو العراق موضع المساءلة بـ«اللين تجاه الإرهـاب» أو «التخلي عن المبـادئ الأمريكية» وبدلا من إجراء جرد حساب نزيه لمزايا ومسـاوئ هذه الحملـة العسكرية، شنـت الإدارة هجـوم علاقات عامـة: عتمت على التقاريـر الاستخباريـة لدعم قضيتها، وقللـت إلى حد معيب مـن متطلبات النفقات والقـوة البشرية اللازمة للعمل العسكري، ورفعت شبـح سحابة الفطر (الناجمة عن الأسلحة النووية).

نجحـت إستراتيجية العلاقـات العامة؛ فبحلول خريف عـام 2002، اقتنع غالبية الأمريكيين بامتلاك صدام حسين أسلحة دمار شامل، واعتقد 66% منهم على الأقل (خطـأ) أن الرئيـس العراقي متـورط شخصيا بهجمات الحـادي عشر من سبتمبر. أمـا نسبة التأييد لغـزو العراق، والتأييد لبوش، فقد بلغـت 60%. سرّع الجمهوريون، وعيونهـم على الانتخابـات النصفيـة، وتيرة الهجمـات، ومارسوا الضغـط من أجل الحصـول على تفويضـ باستخدام القوة ضـد صدام حسين. وفي الحـادي عشر من تشريـن الأول/ أكتوبـر 2002، انضـم ثمانية وعشرون عضوا مـن أعضاء الكونغرس الديمقراطيـين الخمسين إلى الأعضاء الجمهوريين كلهم (باستثناء واحد) في تسليم الرئيس السلطة التي أرادها.

أصيبـت بخيبة أمل في ذلـك التصويت، مع أنني أدركت الضغـوط التي تعرض لها الديمقراطيـون. كنـت قد شعرت ببعضهـا أيضاً. فبحلول خريف عـام 2002، قررت الترشـح لعضوية مجلس الشيـوخ الأمريكي، وعرفت أن احتمـال الحرب على العراق سيحـوم على الأفق في حملتي. وحـين طلبت مني جماعة من الناشطين في شيكاغو أن أخطـب أمام تجمع كبير مناهض للحرب خططت لإقامتـه في تشرين الأول/ أكتوبر،

حــذرني بعض الأصدقاء مــن مغبة اتخاذ موقف علني إلى هذا الحد من هذه القضية الملتهبــة. لا لأن فكــرة الغــزو تحظــى بشعبية متزايــدة فقط، بل لأننــي لم أعد قضية مناهضة الحرب جاهزة بعد. فعلى شاكلة معظم المحللين، افترضت أن صدام حسين يمتلــك أسلحة كيماوية وجرثومية ويرغب في امتــلاك أسلحة نووية. اعتقدت أنه كرر عصيــان قرارات الأمم المتحدة ورفض استقبــال المفتشين عن الأسلحة، وأن مثل هذا السلوك يجب أن يجر عليه عواقب وتبعات. لا مجال للشك في أن صدام حسين قد ذبح شعبه؛ ولم يكن لدي شك بأن العالم، والشعب العراقي، سيكونان أفضل حالا دونه.

لكــن مــا شعرت به هــو أن تهديد صدام حســين ليس وشيكا ولا داهمــا، والركائز المنطقيــة التي اعتمدت عليهــا الإدارة لشن الحرب كانت واهية وغير مقنعة ومدفوعة ببواعــث أيديولوجيــة، وأن الحــرب في أفغانستــان لم تنته بعد. وتأكــد لي أن أمريكا، باختيــار العمــل العسكري المتهــور والأحادي الجانــب ورفض الاستفــادة من الضغط الشديــد والمؤثر للديبلوماسية، وعمليات التفتيش الإجبارية، والعقوبات الذكية، تفوت فرصة بناء قاعدة عريضة من التأييد والدعم لسياستها.

ولذلــك ألقيــت الخطبــة. وقلت أمــام ألفي شخصــ تجمعوا في فيــدرال بلازا في شيكاغــو، إننــي خلافا لبعض المحتشديــن، لا أعارض جميع الحــروب - فجدي تطوع في الجيشــ في اليوم التــالي لقصف بيرل هاربر وحارب في قوات الجنرال باتون. قلت أيضــا إنني بعــد أن «شهدت المجزرة والدمــار، والغبار والدموع، أيــدت ودعمت تعهد هــذه الإدارة باقتلاع جذور أولئك الذين يذبحــون الأبرياء بسبب التعصب» و«أنا على استعداد لحمل السلاح لمنع حدوث مثل هذه المأساة مرة أخرى»

أما الحــرب التي لا أستطيع تأييدها فهي «الحــرب الخرقاء، الحرب المتهورة، الحــرب التي تشــن اعتمادا على الهوى لا على العقل، علــى السياسة لا على المبدأ» ثم أضفت:

> أعــرف أنه حتــى الحرب الناجحة على العــراق سوف تتطلب احتــلالا أمريكيا غــير محدد المــدة، وغير محدد الكلفة، وغــير محدد العواقب. أعــرف أن غزو العراق دون أساس منطقي واضح ودعم دولي كاسح سوف يسعر لهيب الحرائق

في الشـرق الأوسط، ويشجع أسوأ، لا أفضـل، الدوافع في العالم العربي، ويقوي الذراع التجنيدية للقاعدة.

لقيـت الخطبة استقبـالا حسنا؛ وبدأ الناشطـون ينشرون النصـ على الإنترنت، واشتهـرت بقدرتـي على الإفصاح عمـا في ذهني عن القضايا الصعبـة ـ وهي سمعة جعلتنـي أنجح في الانتخابـات الديمقراطية التمهيدية التي شهـدت منافسة شديدة. لكـن لم تكن لدي طريقة آنذاك لتيقن صوابية تقديري للوضع في العراق. وحين غزت القوات الأمريكية البلد أخيرا، وزحفت دون مقاومة إلى بغداد، وشاهدت تمثال صدام حسـين يسقـط والرئيس يقف على حاملـة الطائرات «ابراهـام لينكولن»وخلفه لافتة تقـول إن «المهمة أنجزت»، بدأت أظن أنني ربما كنت مخطئا ـ وشعرت بالارتياح لقلة الخسائر الأمريكية في الأرواح.

والآن، بعـد مرور ثلاث سنوات ـ وارتفاع أعـداد الأمريكيين القتلى التي تجاوزت الألفـين والجرحى التي تجاوزت ستة عشر ألفا؛ وبعـد إنفاق 250 مليار دولار إضافة إلى مئـات المليارات التي يجب دفعها في المستقبل لسداد الديون المترتبة على الحرب ورعاية المحاربين القدماء العاجزين؛ وبعد الانتخابات الوطنية التي أجريت في العراق مرتـين، والاستفتاء على الدستـور، وعشرات الآلاف من العراقيـين القتلى؛ وبعد أن ازدادت المشاعـر المعادية للولايات المتحـدة وارتفعت إلى مستويات قياسية في العالم، وانـزلاق أفغانستـان من جديد إلى حالـة الفوضى والاضطراب ـ ها أنـا أسافر إلى بغـداد كعضو في مجلس الشيوخ، أحمل مسؤوليـة (جزئية) عن العثور على حل لهذه الورطة المتشابكة.

تبين أن الهبوط في مطار بغداد الدولي لم يكن مزعجا كثيرا ـ مع أنني حمدت الله على أننا لم نتمكن من النظر عبر النوافذ حين حطت الطائرة على المهبط ثم توقفت. كان في استقبالنا مسؤول من وزارة الخارجية، إلى جانب عدد من العسكريين المسلحين بالبنـادق. وبعـد أن استمعنا إلى الإيجاز الأمني، وسجلنـا زمر الدم، وجهزنا بالخوذ والستر الواقية، ركبنا حوامتين من طراز بلاك هوك وتوجهنا إلى المنطقة الخضراء، محلقـين علـى ارتفاع منخفض فـوق أميال ممتـدة من الحقول الطينيـة الجرداء في

معظمها، تقطعها طرقات ضيقة وتلوح فيها مزارع صغيرة من أشجار النخيل وملاجئ إسمنتية خاوية على ما يبدو، ودمر بعضها بالجرافات. في نهاية المطاف ظهرت بغداد، على شكل دائرة كبيرة بلون الرمال، ونهر دجلة يخترق مركزها. حتى من الجو، بدت المدينة مهترئة ومدمرة، وحركة المرور في الشوارع متقطعة — مع أن أطباق استقبال البث الفضائي منتشرة على جميع السطوح تقريبا، إلى جانب خدمة الهاتف النقال التي روج لها المسؤولون الأمريكيون كأحد نجاحات إعادة الإعمار.

كان من المقرر أن أقضي يوما ونصف اليوم في العراق، في المنطقة الخضراء على الأغلب، وهي منطقة مركزية في بغداد عرضها عشرة أميال، كانت مقرا لحكومة صدام حسين، لكنها تخضع الآن للسيطرة الأمريكية بعد أن أحيطت تخومها بالأسوار وسيجت بالأسلاك الشائكة. أوجز لنا فريق إعادة الإعمار صعوبة صيانة شبكة الكهرباء وحماية إنتاج النفط من هجمات المتمردين التخريبية؛ ووصف ضباط المخابرات التهديد المتنامي للميليشيات الطائفية واختراقها لقوات الأمن العراقية. وفيما بعد، التقينا بأعضاء الهيئة الانتخابية العراقية، الذين تحدثوا بحماس عن النسبة المرتفعة للمشاركين في الانتخابات التي أجريت منذ مدة قريبة، واستمعنا طوال ساعة إلى السفير الأمريكي زلماي خليل زاد، وهو رجل محنك أنيق في عينيه نظرة سأم من العالم، يشرح السياسة المكوكية الدقيقة التي يمارسها الآن، بهدف جمع الفصائل الشيعية والسنية والكردية معا لتشكيل حكومة وحدة وطنية قادرة على العمل.

بعد الظهر حظينا بفرصة تناول الغداء مع بعض الجنود في قاعة طعام ضخمة بجانب بركة سباحة في أحد قصور صدام السابقة. كانوا خليطا من القوات النظامية، والاحتياطيين، ووحدات الحرس الوطني، من مدن كبيرة وبلدات صغيرة، من السود والبيض واللاتين، والعديد منهم في فترة الواجب الثانية أو الثالثة. تحدثوا بفخر واعتزاز عن المنجزات التي حققتها وحداتهم - بناء المدارس، حماية منشآت الكهرباء، قيادة الجنود العراقيين المدربين حديثا في الدوريات، الحفاظ على خطوط التموين والإمداد للمناطق النائية في البلاد. مرة بعد أخرى، طرح علي

السؤال ذاته: لماذا لا تذكر الصحف الأمريكية سوى عمليات التفجير والقتل؟ هنالك تقـدم حدث، كما أصروا بإلحــاح ـ يجب علي إبلاغ الأمريكيــين في أرض الوطن أن عملهم لم يكن عبثيا.

كان مــن السهـل عند الحديث مع هؤلاء الرجال والنســاء، فهم ما يشعرون به من إحبــاط، فكل الأمريكيــين الذين قابلتهم في العــراق، عسكريــين أو مدنيين، أثروا في نفسي، بولائهم وإخلاصهم ودأبهم، بمهارتهم، باعترافهم الصريح لا بالأخطاء التي ارتكبــت في الماضي وحسب، بل بصعوبات المهمة الملقاة على عاتقهم في المستقبل. وفي الحقيقــة، فإن المشروع في العراق برمته ينبئ عن براعة وإبداع الأمريكيين، وثروتهم، ودرايتهم التقنية؛ عند الوقوف داخل المنطقة الخضراء، أو في أي من قواعد العمليات الكـبرى في العراق والكويت، لا يستطيع المـرء إلا أن يعجب بقدرة حكومتنا على إنشاء مــدن كاملة ضمن مناطق معاديــة، ومجتمعات محلية مستقلة وقائمــة بذاتها بكل ما تحتاجه مــن خدمات وصرف صحي وخطوط كمبيوتر وشبكات لاسلكية وملاعب كرة سلــة وأكشــاك لبيع البوظة. أكثر من ذلــك، يتذكر المرء تلك السمــة الفريدة للتفاؤل الأمريكــي التــي تتمظهر في كل مــكان ـ غياب الشك والريبــة في الآخرين على الرغم مــن الخطر المحــدق، والتضحيات المقدمــة، والنكسات والكبــوات، والإصرار على أن أفعالنــا وأعمالنــا ستــؤدي في نهاية المطــاف إلى حياة أفضل لأمة لا نــكاد نعرف عن شعبها شيئا.

ومع ذلك، ذكرتني ثلاثة حوارات أجريتها خلال الزيارة بمدى دونكيشوتية جهودنا المبذولــة في العراق ـ الرمال المتحركــة التي نبني عليها البيت، على الرغم من الدماء والأمــوال وأصدق النيات. الحوار الأول جرى في الأمسية التي عقد فيها وفدنا مؤتمرا صحفيــا أمام مجموعة من المراسلين الأجانب في بغداد. بعد جلسة الأسئلة والأجوبة، طلبت من المراسلين البقاء لإجراء حوار غير رسمي وليس للنشر. قلت لهم إنني مهتم بمعرفــة ما يجــري خارج أســوار المنطقة الخضــراء. وافقوا بكل ســرور على الطلب، لكنهــم أصروا علــى وجوب ألا تزيد المدة عن خمس وأربعــين دقيقة ـ فالوقت متأخر، وهم يتجنبون مثل معظم سكان بغداد الخروج إلى الشارع بعد الغروب.

كانوا جماعة من المراسلين الشباب الذين تراوحت أعمارهم بين العشرينيات وأوائل الثلاثينيات، ويبدو من مظهرهم ولباسهم كأنهم من طلاب الجامعات. لكن وجوههم أبـدت أمارات القلـق والإجهاد والضغوط التـي يتعرضون لها ـ فبحلـول ذلك الوقت قتل ستـون صحفيا في العراق. وفي الحقيقة، اعتذروا في البداية عن تشتت انتباههم؛ فقد تلقوا للتو خبرا مفاده أن زميلتهم جيل كارول، مراسلة صحفية كريستيان ساينس مونيتور، قد اختطفت، ووجد سائقها مقتولا على جانب أحد الطرقات. وجميعهم الآن يحاولـون معرفـة مكانهـا. مثل هذا العنـف لم يكن أمرا غير عـادي في بغداد في هذه الأيـام، كما قالوا، مع أن العراقيين يتحملون العبء الأكبر منه. فقد انتشر القتال بين الشيعة والسنة، وأصبح أكثر عشوائية وتخويفا وترهيبا، وأقل قابلية للفهم. ولم يعتقد أي منهم أن الانتخابات ستؤدي إلى تحسن مهم في الوضع الأمني. سألتهم: هل يظنون أن الانسحـاب الأمريكي سيخفف حدة التوترات؟ متوقعـا أن يردوا بالإيجاب. لكنهم هزوا رؤوسهم.

قـال أحـد المراسلين: «أعتقد جازمـا أن البـلاد ستنهار وتنزلق إلى حـرب أهلية بخلال أسابيع. ويسقط ضحيتها مئة ألف أو مئتا ألف. نحن نمثل العامل الوحيد الذي يربط أجزاء هذا المكان معاً».

في تلك الليلة، رافق وفدنا السفير خليل زاد إلى مائدة عشاء أقامها الرئيس العراقي المؤقت جلال الطالباني. كانـت الإجراءات الأمنية مشددة حين اخترق موكبنا متاهة من المتاريسـ والحواجز خارج المنطقة الخضراء؛ واصطـف الجنود الأمريكيون على طول طريقنا، في حين طلب منا ارتداء الخوذات والستر الواقية خلال الرحلة.

بعـد عشر دقائق وصلنا إلى فيلاً كبيرة حيث استقبلنـا الرئيس وعدد من أعضاء الحكومـة العراقية المؤقتـة. كانوا جميعا رجـال ضخام الأجسـام في الخمسينيات أو الستينيـات من العمر، رسموا ابتسامات عريضة لكن عيونهم لم تعبر عن أي مشاعر. ميـزت بينهم أحـد الوزراء ـ أحمـد جلبي، الزعيـم الشيعي ورئيسـ المؤتمر الوطني العراقـي، الـذي تلقى تعليمـه في الغرب، وقيل إنـه زود أجهزة المخابـرات الأمريكية وصنـاع سياسة بوش ببعض المعلومات قبل الحرب اعتمد عليها قرار الغزو ـ معلومات

تلقت جماعة الجلبي مقابلها ملايين الدولارات، وتبين أنها مزورة ومزيفة ومضللة. ومنذ ذلك الحين، خسر الجلبي حظوة رعاته الأمريكيين؛ وثمة تقارير تشير إلى أنه سرب معلومات أمريكية سرية إلى الإيرانيين، وأن الأردن أصدر مذكرة باعتقاله بعد أن أدين غيابيا بواحدة وثلاثين تهمة تتعلق بالاختلاس والسرقة وإساءة استخدام أموال المودعين، والمضاربة بالعملات. لكن بدا أنه نجح في الإفلات من ذلك كله؛ كان يرتدي بزة أنيقة وتصحبه ابنته، وهو يشغل الآن منصب الوزير المكلف بشؤون النفط في الحكومة المؤقتة.

لم أتكلم كثيرا مع الجلبي خلال العشاء. فقد جلست بجانب وزير المالية السابق. بدا مؤثرا، وعارفا بالاقتصاد العراقي، وحاجته إلى تحسين مستوى الشفافية وتعزيز إطاره القانوني ليجتذب الاستثمار الأجنبي. في نهاية الأمسية، ذكرت انطباعي الإيجابي أمام أحد موظفي السفارة.

فقال: «إنه ذكي بلا شك. فهو واحد من زعماء حزب المجلس الأعلى للثورة الإسلامية، الذي يهيمن على وزارة الداخلية، المسيطرة على قوات الشرطة. والشرطة.. تعاني مشكلات اختراق الميليشيات لصفوفها. هنالك اتهامات بأنها تختطف الزعماء السنة، فتظهر جثثهم في صباح اليوم التالي..» تلاشى صوت الموظف تدريجيا وهز كتفيه استخفافا: «نحن نتعامل مع ما هو قائم»

وجدت صعوبة في النوم تلك الليلة؛ فشاهدت مباراة على التلفزيون بث على الهواء مباشرة في القصر الذي خصص ذات يوم لصدام وضيوفه. كتمت صوت التلفزيون عدة مرات لأسمع أصوات قذائف الهاون تخترق الصمت. في صبيحة اليوم التالي ركبت الحوامة إلى قاعدة مشاة البحرية في الفلوجة، في الجزء الغربي المقفر من العراق المسمى محافظة الأنبار. جرت في الأنبار التي يهيمن عليها السنة أعنف العمليات الحربية ضد المتمردين، وبدا الجو العام في القاعدة أكثر كآبة منه في المنطقة الخضراء؛ في اليوم السابق، قتل خمسة من المارينز بواسطة عبوة ناسفة وضعت على جانب الطريق وبطلقات الأسلحة الخفيفة. بدا الجنود أغرارا بل مراهقين، ومعظمهم في أوائل العشرينيات من العمر.

الجنرال المسؤول عن المعسكر رتب لقاء يوجز فيه الأوضاع هنا، واستمعنا إلى كبار الضباط يشرحون المعضلة المأزقية التي تواجه القوات الأمريكية: مع تحسن القدرات، يعتقل الأمريكيون مزيدا من قادة المتمردين كل يوم، لكن مثل عصابات الشوارع في شيكاغو، يبدو أن كل قائد يعتقل يحل مكانه اثنان. الوضع الاقتصادي، لا مجرد السياسة، هو الذي يغذي التمرد ـ الحكومة المركزية أهملت الأنبار والبطالة بلغت 70% بين الذكور.

قال أحد الضباط: «مقابل دولارين أو ثلاثة يمكن أن تقنع صبيا بزرع قنبلة. هذا المبلغ كبير هنا»

عند نهاية الإيجاز، خيم ضباب خفيف فتأخرت الرحلة إلى كركوك. أثناء الانتظار، تجول مساعدي المسؤول عن السياسة الخارجية، مارك ليبرت، في المكان وتبادل الحديث مع أحد كبار ضباط الوحدة، في حين كنت أتحادث مع رائد مسؤول عن إستراتيجية محاربة التمرد في المنطقة. كان رجلا ناعم الكلام، قصير القامة، يلبس نظارة؛ ويسهل تخيله مدرس رياضيات في إحدى الثانويات. في الحقيقة، تبين أنه أمضى عدة سنوات في الفيليبين عضوا في فيلق السلام قبل انضمامه إلى مشاة البحرية. العديد من الدروس التي تعلمها هناك بحاجة إلى تطبيقها عسكريا في العراق، كما قال لي. ليس لديه عدد كاف من الذين يتحدثون العربية لبناء الثقة مع السكان المحليين. نحن بحاجة إلى تحسين حساسيتنا الثقافية داخل القوات المسلحة الأمريكية، وتوطيد علاقات طويلة الأمد مع الزعماء المحليين، ورفد قوات الأمن بفرق إعادة البناء، بحيث يمكن للعراقيين رؤية منافع ملموسة ومتعينة من الجهود الأمريكية. ذلك كله سيتطلب وقتا، كما قال، لكن بمقدوره منذ الآن رؤية تغييرات نحو الأفضل وذلك مع تبني العسكريين هذه الممارسات في شتى أنحاء البلاد.

أشار الضابط المرافق إلى أن الحوامة مستعدة للإقلاع. تمنيت للرائد حظا سعيدا واتجهت نحو العربة. جلس مارك بجانبي، فسألته عما علمه من حديثه مع الضابط.

«سألته عما نحتاج إليه برأيه للتعامل مع الوضع على أفضل وجه»

«وماذا قال؟»

«الانسحاب»

قصــة تــورط أمريكا في العراق ســوف تخضع للتحليل والجدل علــى مدى السنين القادمــة ــ في الحقيقة، ما تزال القصــة تكتب الآن. في هذه اللحظــة، تدهور الوضع هناك إلى حد اندلاع حرب أهلية محدودة على ما يبدو، وفي حين أعتقد أن للأمريكيين جميعــا، بغض النظر عن آرائهم حول قرار الغزو، مصلحة في الخروج بنتيجة مقبولة في العراق، ولا يمكنني القول بصدق إنني متفائل بالاحتمالات على المدى القريب.

أعرف في هذه المرحلة أن السياسة ـ حسابات أولئك الرجال (الذين تناولت الطعام معهم) بكل ما يتمتعون به من صلابة وبعد عن العواطف المفرطة ـ لا استخدام القوة الأمريكيــة هي التي تقــرر ما يحدث في العراق. أعتقد أيضا أن أهدافنا الإستراتيجية في هــذه المرحلة يجــب أن تحدد جيدا: تحقيق نوع من الاستقرار في العراق، ضمان ألا يكــون الذين يمسكون بزمــام السلطة في العراق معادين للولايات المتحدة، منع العراق مــن أن يصبح قاعدة للأنشطــة الإرهابية. وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف، أعتقد أن من مصلحة الأمريكيين والعراقيين البدء بعمليات انسحاب مرحلية للقوات الأمريكية بحلول نهاية عام 2006، مع أن مدى سرعة استكمال تحقيق الانسحاب مسألة لا تحسم بالحكــم المسبق بل تعتمد على سلسلــة من أفضل التخمينات والتقديرات ـ فيما يتعلق بقدرة الحكومــة العراقية على الوفاء بالحد الأساس مــن متطلبات الأمن والخدمات لشعبهــا، والدرجــة التــي يؤدي فيهــا وجودنا إلى تحفيــز وتقوية التمــرد، واحتمالات الانــزلاق إلى أتون حرب أهلية شاملة في حالــة الانسحاب. وحين يقترح ضباط مشاة البحريــة الذين تمرسوا في القتال الانسحاب في حين يشــير علينا المراسلون الأجانب المتشككون بالبقاء، يصعب العثور على أجوبة سهلة.

ومــع ذلــك، ليس من المبكر جدا استخلاص النتائج مــن الأعمال التي قمنا بها في العــراق. فما واجهناه من صعوبات لم يكــن نتيجة التنفيذ السيئ فقط. فهي تعبر عن فشــل في المفهــوم والفهم والإدراك أيضــا. والحقيقة أن الولايــات المتحدة، بعد قرابة

خمس سنوات من الحادي عشر من سبتمبر، وخمسة عشر عاما من انهيار الاتحاد السوفييتي، ما تزال تفتقر إلى سياسة أمن وطنية متسقة. وبدلا من الاعتماد على مبادئ هادية، أصدرنا على ما يبدو سلسلة من القرارات المحددة لغرض معين، أفرزت نتائج مريبة وخداعة. لماذا غزونا العراق، وليس كوريا الشمالية أو بورما؟ لماذا تدخلنا في البوسنة ولم نتدخل في دارفور؟ هل أهدافنا في إيران هي تغيير النظام، أم تفكيك القدرات النووية الإيرانية، أم منع انتشار الأسلحة النووية، أم جميعها معا؟ هل نحن ملتزمون استخدام القوة كلما ظهر نظام استبدادي يرهب شعبه ـ وفي هذه الحالة، كم سنبقى في البلد المعني لضمان تجذر الديمقراطية؟ كيف نتعامل مع بلدان مثل الصين التي تجري عملية تحرير اقتصادي لا سياسي؟ هل نعمل عبر الأمم المتحدة على القضايا كافة أم حين تكون الأمم المتحدة مستعدة لتصديق القرارات التي اتخذناها فقط؟

ربما يكون لدى أحد المسؤولين داخل البيت الأبيض إجابات واضحة عن هذه الأسئلة، لكن حلفاءنا ـ وأعداءنا أيضا ـ لا يعرفون بالتأكيد هذه الأجوبة. والأهم أن الشعب الأمريكي لا يعرفها أيضا. وفي غياب إستراتيجية يعبر عنها بوضوح ويؤيدها عامة الأمريكيين ويفهمها العالم، سوف تفتقر أمريكا إلى الشرعية ـ والقوة في نهاية المطاف ـ التي تحتاجها لجعل العالم مكانا أكثر أمنا من وضعه اليوم. نحن بحاجة إلى إطار منقح للسياسة الخارجية يضاهي في الجرأة والمدى سياسات هاري ترومان في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية ـ إطار يتصدى للتحديات ويتعامل مع الفرص المتاحة في الألفية الجديدة، إطار يرشد استخدامنا للقوة ويعبر عن أعمق مثلنا العليا والتزاماتنا.

لا أدعي أنني أحمل هذه الإستراتيجية الجليلة العظيمة في جيبي. لكنني أعرف ما أؤمن به، وسأقترح بضعة أشياء يجب أن يتمكن الشعب الأمريكي من الاتفاق عليها، وتكون نقاط انطلاق لإجماع جديد.

بادئ ذي بدء، يجب أن نفهم أن أي عودة إلى سياسة الانعزال ـ أو مقاربة للسياسة الخارجية تنكر الحاجة في بعض المناسبات إلى إرسال ونشر الجنود الأمريكيين ـ لن

تنجح. الدافع إلى الانسحاب من العالم ما يزال تيارا قويا تحت السطح لدى الحزبين كليهما، خصوصا حين تكون الخسائر الأمريكية في الأرواح على المحك. بعد أن سُحلت جثث الجنود الأمريكيين وجرّت في شوارع مقديشو عام 1993 مثلا، اتهم الجمهوريون الرئيس كلينتون بتبديد وإرسال القوات الأمريكية في مهمات سيئة التخطيط والتنفيذ؛ وبسبب التجربة في الصومال تعهد المرشح جورج بوش في انتخابات 2000 بعدم إهدار الموارد العسكرية الأمريكية على عمليات «بناء الأمم» من المفهوم أن تؤدي أعمال وتصرفات إدارة بوش في العراق إلى ردود أفعال أشد قوة. فوفقا لاستطلاع أجراه مركز بيو للأبحاث، تبين أنه بعد مرور خمس سنوات على هجمات سبتمبر، استنتج 46% من الأمريكيين أن على الولايات المتحدة «أن تهتم بشؤونها الخاصة وتمتنع عن التدخل دوليا وتدع البلدان الأخرى تختار سبيلها بنفسها»

ردة الفعل كانت حادة على نحو خاص بين الليبراليين، الذين شاهدوا في العراق تكرارا للأخطاء التي ارتكبتها أمريكا في فيتنام. الإحباط في العراق والأساليب التكتيكية المثيرة للجدل والتساؤل التي استخدمتها الإدارة لإثبات حجتها لصالح الحرب، دفعت الكثيرين من أصحاب التوجهات اليسارية حتى إلى التقليل من خطر الإرهابيين وانتشار الأسلحة النووية؛ ووفقا لاستطلاع أجري في كانون الثاني/ يناير 2005، كان الذين وصفوا أنفسهم بأنهم محافظون أكثر ميلا بنسبة 29 نقطة من الليبراليين إلى عَدّ تدمير القاعدة واحدا من أهم أهدافهم في السياسة الخارجية، وأكثر ميلا بنسبة 26 نقطة إلى ذكر منع الدول أو الجماعات المعادية من حيازة أسلحة نووية. أما أهم ثلاثة أهداف للسياسة الخارجية في رأي الليبراليين فهي سحب الجنود من العراق ووقف انتشار الإيدز والعمل بتعاون أكبر من الحلفاء.

الأهداف التي فضلها الليبراليون جديرة بالاهتمام. لكن من الصعب أن تكوّن سياسة متسقة للأمن القومي. ومن المفيد أن نتذكر أن أسامة بن لادن ليس هوشي منه* ، وأن التهديدات التي تواجه الولايات المتحدة اليوم حقيقية ومتعددة ويمكن أن

* (1890-1969): زعيم فيتنامي وأول رئيس لفيتنام (1954-1969). ألحق هوشي منه هزيمة مذلة بالجيش الفرنسي في حرب الهند الصينية (1946-1954)، ثم قاد نضال الشعب الفيتنامي (في الشمال) ليهزم الولايات المتحدة وحكومتها العميلة في جنوب فيتنام. توفي قبل توحيد البلاد عام 1976. (م)

تكون مدمرة. لكن سياساتنا زادت الطين بلة، وحتى لو انسحبنا من العراق غدا ستظل الولايات المتحدة مستهدفة، نظرا لموقعها المهيمن في النظام الدولي القائم. وبالطبع، سيخطئ المحافظون بالقدر نفسه إذا ظنوا أننا نستطيع ببساطة إزالة «الأشرار» من الوجود ثم نترك العالم يدافع عن نفسه. فالعولمة تجعل اقتصادنا وصحتنا وأمننا رهائن للأحداث التي تجري في الطرف الآخر من العالم. ولا توجد أمة أخرى على الأرض تتمتع بقدرة أكبر على صياغة ذلك النظام العالمي، أو بناء الإجماع على مجموعة جديدة من القواعد والأنظمة الدولية التي توسع مناطق الحرية والسلامة الشخصية والرفاهية الاقتصادية. شئنا أم أبينا، إذا أردنا أن نجعل أمريكا أكثر أمانا وأمنا، علينا أن نساعد في جعل العالم أكثر أمانا وأمنا.

الأمر الثاني الذي نحتاج إلى تمييزه وإدراكه هو أن البيئة الأمنية التي نواجهها اليوم تختلف اختلافا جوهريا عن تلك التي وجدت قبل خمسين أو خمسة وعشرين أو حتى عشرة أعوام. حين جلس ترومان واتشسون وكينان ومارشال لتصميم بنية نظام ما بعد الحرب العالمية الثانية، كان إطارهم المرجعي التنافس بين القوى العظمى الذي هيمن على القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. في ذلك العالم، أتت أخطر التهديدات التي واجهت أمريكا من الدول التوسعية، مثل ألمانيا النازية أو الاتحاد السوفييتي، التي كانت قادرة على نشر جيوش جرارة واستخدام ترسانات قوية لغزو الأراضي والمناطق المهمة، وتقييد قدرتنا على الوصول إلى الموارد الحيوية، وإملاء شروط عالم التجارة.

ذلك العالم لم يعد موجودا. فاندماج ألمانيا واليابان في النظام العالمي القائم على الديمقراطيات الليبرالية واقتصادات السوق الحر ألغى تهديد صراعات القوى الكبرى داخل العالم الحر. وظهور الأسلحة النووية «والدمار المتبادل الأكيد» جعل أخطار الحرب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي احتمالا بعيدا جدا حتى قبل سقوط جدار برلين. اليوم تلتزم أقوى دول العالم (ومنها الصين إلى حد بعيد ومتزايد) ـــ والأهم، الغالبية الساحقة من الشعوب التي تعيش في هذه الدول ـــ مجموعة مشتركة من القواعد الدولية الناظمة للتجارة، والسياسة الاقتصادية،

والحـل القانـوني والديبلوماسي للنزاعات، حتـى إن كانت لا تلتزم علـى نطاق واسع أفكار الحرية ومفاهيم الديمقراطية داخل حدودها.

إذن، يأتي التهديد المتنامي أساسا من تلك الأجزاء من العالم التي تقع على هوامش وأطـراف الاقتصـاد العالمي حيث لم تتجـذر «قواعد الطريق»العالمية ـــ أجزاء تشمل الـدول الضعيفة أو الفاشلة، والحكـم الاعتباطي، والفساد، والعنـف المزمن؛ مناطق غالبيـة سكانهـا الساحقـة من الفقـراء، والأميـين، والمهمشين والمبعديـن عن شبكة المعلومـات العالمية؛ أماكن يخاف فيها الحكام مـن أن ترخي العولمة قبضتهم المحكمة على السلطة، أو تضعف الثقافات التقليدية، أو تحل محل المؤسسات المحلية.

في الماضـي، انتشـر إدراك مفاده أن بمقدور أمريكا تجاهل الدول والأفراد في هذه المناطـق المنعزلة والمعزولة دون أن يتأثـر أمنها وسلامتها. إذ تستطيع مثل هذه الدول (والأفراد) أن تعادي نظرتنا إلى العالم، وتؤمم الشركات والمصالح الأمريكية، وتسبب ارتفاعا حادا في أسعار السلع، وتدور في فلك السوفييت أو الشيوعيين الصينيين، أو حتى تهاجم السفارات الأمريكيـة أو العسكريين الأمريكيين في الخارج ـ لكنها لن تستطيع مهاجمتنا في عقر دارنا حيث نعيش. أحداث الحادي عشر من سبتمبر أظهرت بطلان هذا الاعتقاد، فالصلة الرابطة نفسها التي تجمع العالم معا على نحو متزايد قد مكنت وقـوت عزيمة الراغبين في تمزيق العالم إربا إربـا. والشبكات الإرهابية تستطيع نشر عقائدها بطرفة عين؛ يمكنها أن تستهدف أضعف حلقات النظام الاقتصادي العالمي، وهــي تعرف أن أي هجوم على لندن أو طوكيو ستـتردد أصداؤه الزلزالية في نيويورك أو هونـغ كونـغ؛ والأسلحة والتقانة التي كانت ذات يوم حكرا على الدول - الأمم يمكن شراؤهـا الآن من السوق السـوداء، أو تحميل مخططاتهـا وتصاميمها من الإنترنت؛ وحرية سفر الأفراد ونقل البضائع عبر الحدود، شريان حياة الاقتصاد العالمي، يمكن استغلالها لغايات إجرامية.

إذا لم تعـد الأمم ـ الـدول تحتكر أعمال العنف الجماعيـة؛ وإذا انخفض احتمال أن تشـن هذه الدول ـ الأمم هجوما مباشرا علينـا، لأن لها «عنوانا» ثابتا ونستطيع أن نرد عليهـا بقوة؛ وإذا كانت التهديدات المتنامية والمتعاظمة عابرة للحدود ـ الشبكات

الإرهابيــة التي تنوي صــد أو تعطيل قوى العولمة، أو جائحــات الأمراض المحتملة مثل أنفلونزا الطيور، أو التغييرات الكارثية في مناخ الأرض ـ فكيف إذن نكيف إستراتيجية أمننا القومي للتصدي لها؟

في البداية، يجب أن يعبر إنفاقنا الدفاعي وبنية القوة لمؤسستنا العسكرية عن الواقع الجديد. فمنذ بدء الحرب الباردة، تكفلت قدرتنا على ردع الدول المعادية بحماية كل بلــد التــزم القواعد والمعايير الدوليــة. وبقدرة أساطيلنا التــي تمخر بحار ومحيطات العــالم، استطعنا الحفاظ على خطــوط الملاحة مفتوحة وآمنــة. ومظلتنا النووية هي التي وفرت الوقاية والحماية لأوروبا واليابان وأنقذتهما من دخول سباق التسلح خلال الحــرب البــاردة، وهذا ما دفع معظــم البلدان ـ حتــى وقت قريب، علــى الأقل ـ إلى الاستنتــاج بــأن امتلاك الأسلحة النوويــة لا يستحق العناء والجهــد. وطالما احتفظت روسيــا والصين بقــوات عسكرية ضخمــة ولم تتخلص من غريزة ممارســة النفوذ ـ وطالمــا رغبت حفنة من الدول المارقة في مهاجمة الــدول الأخرى ذات السيادة، مثلما هاجم صدام الكويت عام 1990 ـ ستأتي أوقات توجب علينا لعب دور «الشريف» المكلف بحفظ الأمن والقانون في العالم. هذا لن يتغير ويجب ألا يتغير.

مــن ناحية أخــرى، حان الوقــت للاعتراف بــأن ميزانيــة الدفاع وبنيــة القوة المصممتــين أساسا لمواجهــة احتمال نشوب حرب عالمية ثالثــة، لم يعد لهما معنى منطقــي على الصعيــد الإستراتيجــي. فقد بلغــت الميزانية العسكريــة والدفاعية الأمريكيــة 522 مليار دولار عام 2005 ـ أي تجــاوزت إنفاق الدول الثلاثين التالية مجتمعة على الدفاع. الناتج المحلي الإجمالي للولايات المتحدة يفوق الناتج الإجمالي في أكبــر اقتصاديــن في العالم وأسرعهما نموا ـ الصــين والهند ـ مجتمعين. نحن بحاجــة إلى الحفاظ على وضعية قوة إستراتيجيــة تتيح لنا مواجهة تهديدات دول مارقة، مثــل كوريا الشمالية وإيران، وتحديــات دول منافسة محتملة مثل الصين. ونظــرا لاستنزاف قواتنا بعــد الحربين في العراق وأفغانستــان، سوف نحتاج على الأرجــح إلى ميزانيــة أعلــى نوعــا مــا في المستقبل القريــب لاستعــادة الجاهزية واستبدال المعدات.

لكن أشد التحديات تعقيدا لن يكون التفوق على الصين فقط (مثلما أن أكبر تحد مع الصين لن يكون عسكريا بل اقتصاديا). الأرجح أن يشمل ذلك التحدي نشر جنودنا على الأرض في مناطق معادية أو لا تخضع لسلطة حكومة حيث يهيمن الإرهابيون وتزدهر شبكاتهم. وهذا يتطلب توازنا أكثر ذكاء بين ما ننفقه على المعدات التقانية المتقدمة وما ننفقه على جنودنا. ويعني أيضا تنامي حجم قواتنا المسلحة للحفاظ على برامج معقولة لتبديل القوات، والحفاظ على الجنود مجهزين بالشكل المناسب، وتدريبهم على اللغة المعنية، وإعادة الإعمار، وجمع المعلومات الاستخبارية، ومهارات حفظ السلام والأمن التي سيحتاجون إليها للنجاح في المهمات التي تزداد صعوبة وتعقيدا باطراد.

لكن إحداث تغيير في تكوين مؤسستنا العسكرية لن يكون كافيا. فمن أجل مغالبة التهديدات اللامتكافئة التي سنواجهها في المستقبل ـ من الشبكات الإرهابية والدول القليلة التي تدعمها ـ ستكون البنية التركيبية لقواتنا المسلحة أقل أهمية في نهاية المطاف من كيفية تقرير استخدام هذه القوات. لقد كسبت الولايات المتحدة الحرب الباردة لا لمجرد أنها تفوقت في العتاد على الاتحاد السوفييتي، بل لأن القيم الأمريكية تفوقت في محكمة الرأي العام الدولي، الذي شمل حتى أولئك الذين يعيشون داخل الأنظمة الشيوعية. يصدق ذلك بشكل أكبر على الصراع ضد الإرهاب المرتكز على الإسلام، حيث لن يكون مجرد حملة عسكرية بل معركة لكسب الرأي العام في العالم الإسلامي، والدول الحليفة، وداخل الولايات المتحدة. يعرف أسامة بن لادن حقيقة أنه لن يستطيع إلحاق الهزيمة بالولايات المتحدة أو إضعاف قدرتها عبر حرب تقليدية. وما يستطيع هو وحلفاؤه عمله هو جعلها تشعر بألم يكفي لاستفزاز ردة فعل من النوع الذي رأيناه في العراق ـ غزو أمريكي أخرق ومتهور وطائش انتهك سيادة بلد إسلامي، فحفز بدوره عمليات تمرد واسعة اعتمدت على الشعور الديني والكرامة الوطنية، وهذا حتم بدوره أيضا احتلالا طويلا وصعبا، أدى إلى تزايد أعداد القتلى من الجنود الأمريكيين والسكان المدنيين المحليين. لا ريب في أن ذلك كله يهيج المشاعر المعادية لأمريكا لدى المسلمين، ويزيد قدرة الإرهابيين على حشد وتجنيد المتطوعين، ويحفز

عامـة الأمريكيين لا لوضع الحرب موضع المساءلة والتشكيك فقط بل السياسات التي تعرض صورتنا أمام العالم الإسلامي في المقام الأول.

تلـك هي الخطـة لكسب الحرب من كهـف في الجبال النائية، ونحـن نلتزم، حتى الآن علـى الأقـل، بالسينـاريـو الموضوع لنـا. في سبيل تغييره، نحن بحاجـة لنتيقن أن أي ممارسة للقـوة العسكرية الأمريكية سوف تساعد علـى تحقيق أهدافها العريضة لا على عرقلتهـا: إضعاف القدرة التدميرية والتخريبية المحتملـة للشبكات الإرهابية وكسب هذه المعركة العالمية على الأفكار.

مـا الذي يعنيه ذلك على الصعيد العملي؟ يجب أن نبدأ من المقدمة المنطقية التي تؤكـد أن الولايات المتحدة، مثل جميـع الدول ذات السيادة، لها حق، من جانب واحد، في الدفـاع عن نفسها ضد الهجوم. وبذلك، تعـد الحملة التي شنتها الولايات المتحدة لتدمـير معسكرات القاعدة وإزاحة نظام طالبان الذي يؤويها مبررة كليا - بل عدتها حتـى معظم البلـدان الإسلامية حملة مشروعة. قد يكون مـن الأفضل الحصول على دعم حلفائنا في مثل هذه الحملات العسكرية، لكن سلامتنا وأمننا لا يمكن أن يصبحا رهينـة للرغبة في الحصول على إجماع دولي؛ فإذا اضطررنا لأداء المهمة وحدنا، فإن الشعب الأمريكي سيكون مستعدا لدفع أي ثمن وتحمل أي عبء لحماية وطننا.

أستطيـع تقديم الحجة أيضا علـى أن من حقنا اللجوء إلى عمـل عسكري أحادي الجانـب للقضاء على أي تهديد وشيك لأمننا ـ طالمـا يأتي ذلك التهديد الوشيك من دولـة أو جماعة أو فـرد على استعداد لمهاجمة أهداف أمريكيـة (أو أهداف في بلدان حليفـة تجمعهـا بالولايات المتحـدة اتفاقات دفاعيـة متبادلة)، أو من عـدو امتلك أو سيمتلـك الوسائل للقيام بذلك في المستقبل القريب. هذا المعيار ينطبق على القاعدة، ويمكننـا، وعلينا، اللجـوء إلى الضربـات الاستباقية ضدها كلمـا استطعنا إلى ذلك سبيـلا. لكن العراق تحت حكم صدام لم يكـن يستوي في هذا المعيار، ولذلك كان غزونا خطـأ إستراتيجيـا. فـإذا أردنا أن نتصرف بأسلـوب أحادي، فمـن الأفضل أن تكون أهدافنا مشروعة وأخلاقية.

لكن حالما نتجاوز إطار الأمور المتعلقة بالدفاع عن النفس، أعتقد أن من مصلحتنا الإستراتيجية دوما التصرف بأسلوب جماعي لا أحادي حين نستخدم القوة في أي مكان من العالم. لا أعني بذلك أن يعترض مجلس الأمن الدولي ـ الهيئة التي كثيرا ما بدت مجمدة خلال حقبة الحرب الباردة بسبب بنيتها التركيبية وأنظمتها ـ على قراراتنا وأفعالنا. ولا أقصد أن نجمع بريطانيا وتوغو معنا ثم نتصرف كما يحلو لنا. إن العمل بأسلوب جماعي يعني أن نفعل ما فعله جورج بوش الأب وفريقه في حرب الخليج الأولى ـ أي الانخراط في عمل ديبلوماسي شاق للحصول على دعم معظم دول العالم لما نفعله، وتيقن أن أعمالنا تخدم هدف تعزيز الاعتراف بالمعايير الدولية.

لماذا يجب أن نتصرف بهذه الطريقة؟ لأنه لا يوجد أحد يستفيد من التزام القوانين والقواعد مثلنا. ولا يمكننا أن نكسب مزيدا من الملتزمين بها إذا تصرفنا وكأنها تنطبق على الجميع ما عدانا. فحين تضبط القوة العظمى الوحيدة في العالم جماح قوتها وتلتزم معايير السلوك التي حظيت بالموافقة الدولية، فإنها تبعث برسالة مفادها أن هذه القواعد والأنظمة تستحق أن نتبعها، وتحرم الإرهابيين والحكام المستبدين من الحجة القائلة إنها مجرد أدوات تستخدمها الإمبريالية الأمريكية.

إن الحصول على موافقة واقتناع العالم يتيح للولايات المتحدة أيضا حمل عبء أخف ثقلا حين يكون العمل العسكري ضروريا ويعزز فرص النجاح. ونظرا لميزانيات الدفاع المتواضعة نسبيا لمعظم حلفائنا، فإن تقاسم العبء العسكري قد يكون مجرد وهم في بعض الحالات، لكن في البلقان وأفغانستان، تحمل شركاؤنا في حلف الناتو بالفعل حصتهم من الأخطار والتكاليف. وفيما يتعلق بأنماط الصراعات التي يرجح أن نجد أنفسنا في خضمها، ستكون العملية العسكرية الأولية أقل تعقيدا وتكلفة من العمل الذي يليها ـ تدريب قوات الشرطة المحلية، واستعادة خدمات شبكات الماء والكهرباء، وبناء نظام قضائي فاعل، وتعزيز ورعاية وسائل الإعلام المستقلة، وإنشاء بنية تحتية للصحة العمومية، والتخطيط للانتخابات. يمكن للحلفاء المساعدة في تحمل التكاليف وتوفير الخبرة لهذه الجهود الحاسمة في أهميتها، مثلما فعلوا في البلقان وأفغانستان، لكنهم سيكونون أكثر رغبة واستعدادا إذا اكتسبت أعمالنا دعما دوليا في البداية. فالشرعية هي «مضاعف القوة» حسب التعبير العسكري.

على القدر ذاته من الأهمية، تجبرنا العملية المجهدة والمرهقة لبناء التحالفات على الإصغاء إلى وجهات نظر الآخرين ومن ثم التفكير قبل القفز. حين لا نكون في حالة الدفاع عن النفس أمام تهديد وشيك ومباشر، سوف نحظى غالبا بفائدة الوقت؛ وتصبح قوتنا العسكرية مجرد أداة من أدوات عديدة (رغم أنها مهمة إلى حد استثنائي) للتأثير في الأحداث وتعزيز مصالحنا في العالم - مصالحنا في الحفاظ على إتاحة مصادر الطاقة الرئيسة، والمحافظة على استقرار الأسواق المالية، واحترام الحدود الدولية، ومنع عمليات الإبادة الجماعية. وفي المسعى لحماية هذه المصالح، علينا الانخراط في تحليل واقعي/ عملي لتكاليف وأرباح استخدام القوة مقارنة بأدوات التأثير الأخرى الموجودة في حوزتنا.

هل يستحق الحصول على نفط رخيص الثمن دفع تكاليف الحرب من دماء ومال؟ هل يؤدي تدخلنا العسكري في نزاع اثني معين إلى تسوية سياسة دائمة أم إلى التزام غير محدد المدة من جانب القوات الأمريكية؟ هل يمكن حل النزاع مع بلد ما ديبلوماسيا أم عبر سلسلة منسقة من العقوبات؟ إذا كنا نأمل بكسب معركة الأفكار الواسعة، يجب أن يدخل الرأي العام العالمي في هذه الحسبة. وفي حين قد نشعر بالإحباط وخيبة الأمل بسبب المواقف المعادية لأمريكا أحيانا من جانب الحلفاء الغربيين، الذين يرتعون في حمايتنا، أو سماع خطب في الجمعية العامة للأمم المتحدة مصممة للإبهام والتشويش أو تشتيت الانتباه، أو تبرير العطالة والامتناع عن فعل شيء، فإن من المحتمل أن تكمن تحت الخطابة البلاغية وجهة نظر يمكن أن تبين الوضع على حقيقته وتساعدنا على اتخاذ قرارات إستراتيجية أكثر صوابا.

أخيرا، عبر إشراك حلفائنا، نمنحهم ملكية مشتركة للعمل الصعب والمنهجي والحيوي، والتعاوني بالضرورة، الذي يهدف إلى القضاء على قدرة الإرهابيين على إلحاق الأذى بنا. هذا العمل يشمل تفكيك الشبكات المالية الإرهابية وتقاسم المعلومات الاستخبارية لمطاردة المشتبه في انتمائهم إلى المنظمات الإرهابية، والتسلل إلى خلاياهم؛ لا يمكن تبرير إخفاقنا المستمر في تنسيق جمع المعلومات الاستخبارية بطريقة فاعلة، حتى بين مختلف الوكالات والأجهزة الأمريكية، إضافة إلى افتقارنا

المتواصـل إلى قدرة استخبارية بشرية مؤثرة. والأهم أننــا نحتاج إلى رص الصفوف لإبعاد أسلحة الدمار الشامل عن أيدي الإرهابيين.

مــن أفضــل الأمثلــة على مثل هذا التعــاون العمل الرائــد الذي قام بــه السيناتور الجمهوري ديك لوغار (إنديانا) والسيناتور الديمقراطي السابق سام نان (جورجيا) في التسعينيــات، بعــد أن فهمــا الحاجــة إلى رعايــة وتعزيــز التحالفات قبـل اندلاع الأزمــات، وطبقا هذا الفهــم على مشكلة انتشار الأسلحــة النووية المحفوفة بالخطر. أمــا المقدمــة المنطقية لما أصبح يعرف ببرنامج نان ـ لوغــار فهي بسيطة: بعد سقوط الاتحــاد السوفييتي، لم يعد أكبر تهديد يدهم الولايــات المتحدة يأتي من ضربة أولى يأمــر بها غورباتشوف أو يلتسين (بغض النظر عن شنهــا بطريق الخطأ)، بل انتقال المواد والدراية النووية إلى أيدي الإرهابيين والدول المارقة، وهي نتيجة محتملة لانهيار الاقتصاد الروسي، والفســاد المستشري في المؤسسة العسكرية، وفقر العلماء الروس، ومنظومــات الأمن والتحكم التي بلغت حالة يتعــذر إصلاحها. ووفقا للبرنامج، وفرت أمريــكا بشــكل أساس الموارد الضروريــة لإصلاح وترميم هذه المنظومــات، وثبت أنه واحد من أهم الاستثمارات التي قمنا بها لحماية أنفسنا من الكارثة، على الرغم من أنه سبب بعض الانزعاج للذين تعودوا التفكير بأسلوب الحرب الباردة.

في آب/ أغسطســ 2005، سافــرت مع السينــاتور لوغار لمشاهــدة بعض من نتائج أعماله. كانــت تلك رحلتي الأولى إلى روسيا وأوكرانيا، وما كنت لأحظى بدليل أفضل مــن ديك، الرجل اللطيف الذي يتمتــع بلباقة بدنية لافتة مع أنــه في الثالثة والسبعين مــن العمر، وصاحب الأسلوب الرزيــن والهادئ، والابتسامة المميزة التي خدمته جيدا خلال اللقاءات الطويلة التي كثيرا ما جمعتنا مع المسؤولين الأجانب. قمنا معا بزيارة المنشــآت النووية في ساراتــوف، حيث أشار الجنرالات الروس بــكل فخر واعتزاز إلى أنظمــة الأمن والتسوير الجديدة التي استكملت منذ مدة قريبة؛ وبعد ذلك دعونا إلى مائدة غداء. في بيرم، حيث يجري تفكيك الصواريخ التكتيكية (من طراز اس اس 24 و اس اســ 25)، تجولنا في مركز إطلاق الصواريخ الضخمة الصقيلة البالغ طول كل منها ثمانية أقدام، التي وضعت الآن بأمان في مخازنها، لكنها كانت ذات يوم موجهة إلى مدن أوروبا.

وفي حي سكني هادئ في كييف، قمنا بجولة في النسخة الأوكرانية لمركز مكافحة الأمراض، وهو بناء متواضع مكون من ثلاث طبقات بدا كمختبر علمي في مدرسة ثانوية. خلال الجولة، وبعد فتح النوافذ بسبب عدم وجود أجهزة تكييف، شاهدنا شرائط معدنية موضوعة على عضادات الباب لمنع الفئران من الدخول، ثم وقفنا أمام ثلاجة صغيرة لا يحميها سوى قفل مختوم. فتحت امرأة في منتصف العمر ترتدي معطف المختبرات الأبيض وقناعا طبيا واقيا باب الثلاجة وسحبت بضعة أنابيب اختبار، ولوحت بها قرب وجهي وقالت شيئا باللغة الأوكرانية.

شرح المترجم ما قالت مشيرا إلى الأنبوب في يدها اليمنى: «هذه جراثيم الجمرة الخبيثة. أما هذا (الذي تحمله باليسرى) فيحوي جراثيم الطاعون»

نظرت إلى الوراء فرأيت لوغار يقف خلفي عند نهاية الغرفة.

سألته، وأنا أتراجع نحوه: «ألا تريد أن تأخذ نظرة عن قرب يا ديك؟»

قال مبتسما: «يكفيني النظر من هنا»

مرت لحظات خلال رحلاتنا ذكرتنا بأيام الحرب الباردة. في مطار بيرم، مثلا، احتجزنا ضابط مسؤول في أوائل العشرينيات من العمر مدة ثلاث ساعات لأننا لم نسمح له بتفتيش طائرتنا، فأمطر مساعدونا السفارة الأمريكية ووزارة الشؤون الخارجية الروسية في موسكو بوابل من الاتصالات الهاتفية. ومع ذلك فإن معظم ما سمعناه وشاهدناه ـ متجر كالفن كلاين وصالة عرض مازاراتي في مركز الساحة الحمراء للتسوق؛ مواكب السيارات التي يقودها رجال أشداء يرتدون بذات لا تناسب مقاساتهم، ربما كانوا يندفعون لفتح الأبواب لمسؤولي الكرملين ذات يوم، لكنهم أصبحوا الآن من مرافقي الشخصيات البارزة في طبقة النخبة من المليارديرات؛ جماعات من المراهقين بالقمصان القطنية الخفيفة وسراويل الجينز يتبادلون السجائر ويستمعون إلى الموسيقى من أجهزة (iPods) وهم يتجولون في شوارع كييف الأنيقة المشجرة ـ أكد عملية التكامل الاقتصادي، إن لم يكن السياسي، التي لا يمكن عكسها بين الشرق والغرب.

كان ذلك كله جزءا من السبب، كما استشعرت، وراء الاستقبال الحار الذي تلقيناه أنا ولوغار في هـذه المنشآت العسكرية المختلفة. فحضورنا لم يعد بالمال لأنظمة الأمن والتسوير والمراقبة فقط؛ بل أكد للرجال والنساء العاملين فيها أنهم يتمتعون بالأهمية حتى الآن. لقد عملوا طيلة حياتهم في مهنتهم وتفوقوا في أدائها وتلقوا التكريم على إتقان أدوات الحرب. والآن، وجدوا أنفسهم يشرفون على بقايا وأطلال الماضي، وتكاد مؤسساتهم تفقد الصلة بأمم غيرت شعوبها بؤرة اهتمامها وأدارت لهم ظهرها.

مـن المؤكـد أن ذلك هو الشعور السائـد في دونتسك، البلـدة الصناعية في الجزء الجنوبـي الشرقي من أوكرانيا، حيـث توقفنا لزيارة منشأة أقيمـت لتدمير الأسلحة التقليديـة. المنشـأة متواريـة في مكان محمي مـن البلاد، ولا يمكن الوصـول إليها إلا عـبر سلسلة من الطرق الضيقة التي تقطعها قطعـان الماعز بين الحين والآخر. قادنا المديـر، وهو رجل مليء الجسـم مشرق الوجه ذكرني بالمشرف علـى سجن شيكاغو، عـبر سلسلة من الأبنية المعتمة الشبيهـة بالمستودعات المتهالكة والمتداعية، حيث يقوم العمال بتفكيك تشكيلة متنوعة من الألغام الأرضية وذخائر الدبابات، في حين تجمعت أغلفـة القذائف على شكل أكوام بارتفاع الكتف. قال المدير إنهم بحاجة إلى مساعدة الولايـات المتحدة، لأن أوكرانيـا تفتقر إلى المال الكافي للتعامل مع جميع هذه الأسلحة الباقية من الحرب الباردة وأفغانستان ـ بالوتيرة التي يسيرون عليها، قد يحتاج تأمين تفكيـك ونزع هذه الأسلحة زهاء ستين سنـة. في هذه الأثناء، ستبقى الأسلحة مبعثرة في مختلـف أرجاء البـلاد، في أكواخ متهالكة غير مغلقة بأقفال آمنة، ويمكن أن تنتقل منهـا الذخيرة والمواد الشديـدة الانفجار والصواريخ المضـادة للطائرات التي تحمل علـى الكتف،إلى أمراء الحرب في الصومال ومقاتلي التاميل في سريلانكا والمتمردين في العراق لتصبح أدوات دمار في أيديهم.

دخلـت مجموعتنـا مبنى آخر، حيث تضـع النساء أقنعة طبية ويقفـن أمام طاولة لنـزع مادة الهيكسوجـين (مادة متفجرة تستخدم في الأعمـال الحربية) من مختلف أنـواع الذخائـر ووضعهـا في أكياس. في غرفـة أخرى، التقيت برجلـين يدخنان قرب مرجل قديم يئز، وينفضان الرماد في مجرور مفتوح ملآن بمياه آسنة برتقالية اللون.

أحد أعضاء الفريق دعاني لمشاهدة ملصق مصفر اللون على الجدار، قيل لنا إنه من بقايا الحرب في أفغانستان: فيه تعليمات عن طريقة إخفاء المتفجرات في الدمى التي تترك في القرى فيأخذها الأطفال الأبرياء إلى بيوتهم.

شهادة دامغة على جنون البشر، كما فكرت آنذاك.

سجل يوثق كيف تدمر الإمبراطوريات ذاتها بذاتها.

ثمة بعد أخير للسياسة الخارجية الأمريكية يجب مناقشته ـ جانب أقل ارتباطا بتفادي الحرب من تشجيع السلم. في السنة التي ولدت فيها، ذكر الرئيس كنيدي في خطاب تنصيبه: «نتعهد لتلك الشعوب المقيمة في الأكواخ والقرى التي تمثل نصف سكان العالم، وتكافح لكسر قيود البؤس الكاسح، نتعهد ببذل قصارى جهدنا لمساعدتهم على مساعدة أنفسهم، مهما طال الزمن ـ لا لأن الشيوعيين قد يفعلون ذلك، ولا لأننا نسعى لكسب أصواتهم، بل لأن ذلك حق وصواب. فإذا لم يتمكن مجتمع حر من مساعدة الفقراء الذين يمثلون الأغلبية، فلن يتمكن من إنقاذ الأغنياء الذين يمثلون الأقلية» بعد خمسة وأربعين عاما، ما يزال ذاك البؤس الكاسح موجودا. وإذا أردنا الوفاء بوعد كنيدي ـ وخدمة مصالحنا الأمنية على المدى البعيد ـ علينا تجاوز مجرد الاستخدام الحصيف للقوة العسكرية. علينا رصف سياساتنا بالمساعدة على تقليص مجالات انعدام الأمن والأمان والفقر والعنف في شتى أنحاء العالم، وإعطاء مزيد من الشعوب الحق في المشاركة في النظام الذي خدمنا جيدا.

وبالطبع، هنالك من يعارض وينتقد المقدمة المنطقية التي انطلق منها: أي نظام عالمي مشيد وفقا للنموذج الأمريكي يمكن أن يقلل البؤس في البلدان الفقيرة. فبرأي هؤلاء المنتقدين، تعد فكرة أمريكا عما يجب أن يكون عليه النظام الدولي ـ التجارة الحرة، الأسواق المفتوحة، التدفق غير المقيد للمعلومات، حكم القانون، الانتخابات الديمقراطية... إلخ ـ مجرد تعبير عن الإمبريالية الأمريكية، مصمم لاستغلال العمالة الرخيصة والموارد الطبيعية في البلدان الأخرى، وتلويث الثقافات غير الغربية بعدوى المعتقدات المنحطة والفاسدة. فبدلا من الامتثال للقواعد والأنظمة الأمريكية،

كما تقول الحجة، يجب على البلدان الأخرى مقاومة مساعي أمريكا لتوسيع هيمنتها؛ واتباع سبيلها الخاص للتنمية والتطور، بقيادة الزعماء الشعبويين من أصحاب الميول اليسارية مثل الرئيس الفنزويلي هوغو تشافيز، أو العودة إلى المبادئ الأكثر تقليدية للتنظيم الاجتماعي، مثل الشريعة الإسلامية.

لا أرفض آراء هؤلاء النقاد دون تفكير وتمحيص. فعلى الرغم من كل شيء، صممت النظام الدولي الراهن أمريكا وشركاؤها الغربيون؛ فهو يمثل أسلوبنا في العمل ـ معاييرنا، ومقاييسنا، ودولارنا، وحقوقنا الفكرية، وتقانتنا، وثقافتنا الشعبية ـ الذي تكيف معه العالم طوال السنوات الخمسين الماضية. فإذا أفرز النظام الدولي على وجه العموم ازدهارا عظيما في أكثر بلدان العالم تقدما، فإنه خلف بلدانا كثيرة وراءه ـ وتلك حقيقة كثيرا ما تجاهلها صناع السياسة الغربيون، بل جعلوا الوضع أسوأ في بعض الأحيان.

لكن في نهاية المطاف، أعتقد أن المنتقدين يخطئون عند الظن بأن فقراء العالم يستفيدون من رفض مُثل السوق الحر والديمقراطية الليبرالية. وعندما يأتي ناشطو حقوق الإنسان من مختلف البلدان إلى مكتبي ويتحدثون عن تعرضهم للسجن أو التعذيب بسبب معتقداتهم، لا يتصرفون بوصفهم عملاء لأمريكا. وحين يشتكى ابن عمي في كينيا من استحالة العثور على عمل إلا إذا دفع رشوة إلى أحد المسؤولين في الحزب الحاكم، لا نستطيع اتهامه بأن الأفكار الغربية غسلت دماغه. فمن الذي يشك في أن معظم الناس في كوريا الشمالية سيفضلون العيش في كوريا الجنوبية لو سنحت لهم الفرصة، أو أن العديد من الناس في كوبا لن يحاولوا الإقامة في ميامي؟

لا يحب أي شخص، من أي ثقافة كانت، أن يستأسد عليه أحد، أو يعيش في حالة من الخوف بسبب اختلاف أفكاره، أو يعاني الفقر أو الجوع، أو يحيا في ظل نظام اقتصادي يحرمه دائما من جني ثمار كده وجهده. لربما يعاني نظام السوق الحر والديمقراطية الليبرالية السائد حالياً في معظم بلدان العالم المتقدم عيوباً ونواقص ومثالب؛ ولربما يعبر غالبا عن مصالح الأقوياء لا الضعفاء. لكنه يخضع باستمرار للتغيير والتحسين ـ وفي هذا الانفتاح على التغيير بالضبط تمنح

الديمقراطيات الليبراليـة المرتكزة على السوق الفرص للناس في شتى أنحاء العالم لتحسين أوضاعهم الحياتية.

إذن، التحـدي الذي يواجهنا هو ضمان أن تدفع سياسات الولايات المتحدة النظام الـدولي نحو مزيد من المساواة والعدالة والازدهـار ـ وأن تخدم القواعد التي نروجها مصالحنـا ومصالح البلـدان التي تكافح وتعـاني. وحين نفعل ذلك، يجـب أن نتذكر بضعة مبادئ أساسية. أولا، يجب أن نشكك بنيات أولئك الذين يعتقدون أن بمقدورنا وحدنـا دون معـين تحرير الشعوب الأخـرى من نير الطغيان. أوافـق جورج بوش حين أعلن في خطاب القسم لولايته الثانية وجود رغبة عالمية شمولية في التحرر. لكن ليس في التاريـخ سوى أمثلة معـدودة على نجاح فرض الحرية علـى الآخرين عبر التدخل الخارجي. ففي كل حركة اجتماعية ناجحة ظهرت في القرن الماضي، من حملة غاندي ضـد الحكـم البريطاني إلى حركة تضامـن في بولندا إلى الحركـة المناهضة للنظام العنصري في جنوب أفريقيا، كانت الديمقراطية نتيجة لليقظة الداخلية.

يمكننـا أن نلهـم وندعـو الشعوب الأخـرى لتوكيـد حرياتها؛ ونستطيـع استخدام المنتديـات والاتفاقيـات الدوليـة لوضـع معايـير يتبعهـا الآخـرون؛ وتقـديم التمويل للديمقراطيـات الوليـدة للمساعـدة علـى مأسسة أنظمـة انتخابية نزيهـة، وتدريب الصحفيـين المستقلين، وغرس قيم المشاركة المدنيـة؛ والتكلم باسم الزعماء المحليين الذيـن تنتهك حقوقهم؛ وممارسة الضغوط الاقتصاديـة والديبلوماسية على الحكام الذين يكررون انتهاك حقوق شعوبهم.

لكـن حين نسعـى إلى فرض الديمقراطية بالمدافـع، أو تمويل الأحـزاب التي تعـد سياستها مماثلة لواشنطـن، أو الوقوع تحت نفوذ وتأثـير منفيين ومعارضين مثـل أحمـد جلبي، الذي لا تحظى مطامحـه بأي دعم محلي مميـز، فإننا نعرض أنفسنـا للفشـل والإخفاق. نحن نساعـد الأنظمة القمعية علـى تصوير الناشطين الديمقراطيـين كأدوات للقـوى الأجنبية، ونعيق احتمال بـروز ديمقراطية حقيقية تنشأ وتترعرع محليا.

ثمـة لازمة منطقية لذلك تتمثـل في أن الحرية تعني أكثر مـن مجرد الانتخابات. في عـام 1941، قـال فرانكلين روزفلـت إنه يتطلع إلى عالم مؤسسـ على أربع حريات جوهريـة: حريـة الكلام، وحريـة العبادة، والحريـة من إسار الحاجـة، والحرية من الخـوف. أما تجربتنا الخاصة فتشير إلى أن الأخيرتين، الحرية من الحاجة والحرية مـن الخوف، هما شرطـان مسبقان للباقيتـين. إذ إن نصف سكان العـالم، أي زهاء ثلاثـة مليارات نسمة، يعيشون على أقل من دولارين في اليوم، والانتخابات في نظرهم هي في أفضل الأحوال وسيلة لا غاية؛ نقطة انطلاق، لا خلاص أو انعتاق. هؤلاء الناس لا يهتمـون بالانتخابـات قـدر اهتمامهم بالضروريـات الأساسية التـي نعدها سمات ومحددات للحياة الكريمة ـ الطعام، والمأوى، والكهرباء، والرعاية الصحية الأساسية، والتعليـم، والقدرة على شق الطريق في الحياة دون تحمل الفساد أو العنف أو السلطة القراقوشيـة العشوائيـة. إذا أردنا كسب قلوب وعقول النـاس في كاراكاس أو جاكرتا أو نيروبـي أو طهران، لن يكون كافيا توزيـع صناديق الاقتراع. علينا تيقن أن القواعد الدولية التي نروجها تعزز، ولا تعرقل، إحساس الناس بالأمان المادي والشخصي.

قـد يتطلب ذلك منا النظر في المـرآة. على سبيل المثال، تطالـب الولايات المتحدة وغيرهـا مـن البلدان المتقدمـة باستمرار البلـدان النامية بإلغاء الحواجـز التجارية التـي تحميها من المنافسة، حتى وإن كنـا نصر بعناد على حماية أسواقنا من منافسة الصـادرات التي يمكن أن تنتشل البلـدان الفقيرة من وهدة الفقر. في غمرة حماسنا المحموم لحماية حقوق وبراءات اختراع شركات الأدوية الأمريكية، عرقلنا قدرة بلدان مثل البرازيل على إنتاج عقاقير معالجة الإيدز المحمية بالعلامة التجارية، التي يمكن أن تنقذ حياة الملايين. وبقيادة واشنطن، كرر صندوق النقد الدولي، الذي أنشئ بعد الحرب العالمية الثانية كصندوق يقدم القروض بوصفها الملجأ الأخير، إجبار البلدان وهـي في خضم الأزمـات المالية، مثل إندونيسيـا، على إجراء تعديـلات هيكلية مؤلمة (رفع معـدلات الفائدة بحدة، وتخفيض الإنفاق الاجتماعـي الحكومي، وإلغاء الدعم للصناعات الأساسية) سببت مشقة هائلة لشعوبها ـ دواء مر يصعب حتى علينا نحن الأمريكيون تناوله.

هنالـك فرع آخر للنظام المـالي العالمي يمثله البنك الدولي، الـذي اشتهر بتمويل المشروعـات الضخمة والمكلفة التي تفيد المؤسسات الاستشارية الغنية والنخب المحلية النافـذة، لكنها لا تفعل الكثير من أجل السواد الأعظم من المواطنين العاديين ـ مع أن هؤلاء هم الذين يدفعون الثمن عندما يحين موعد السداد. وفي الحقيقة، فإن البلدان التي تطـورت بنجاح في ظل النظام الدولي الحالي، تجاهلت أحيانا وصفات واشنطن الاقتصاديـة الصارمة عبر حمايـة الصناعات الوليدة وممارسـة سياسات صناعية جريئـة. ومـن المؤكد أن صندوق النقـد الدولي والبنك الـدولي بحاجة إلى الاعتراف بعدم وجود صيغة وحيدة وثابتة لتطوير وتنمية جميع بلدان العالم قاطبة.

ليس ثمة خطـأ بالطبع في سياسة «مزج الحب والقسـوة» حين يتعلق الأمر بتقديم المساعدات التنموية إلى البلدان الفقيرة. فالعديد منها يعاني عقبات تفرضها قوانين ملكيـة عتيقـة، بـل إقطاعية، وأنظمـة مصرفية متخلفـة؛ في الماضي، لم تـؤد برامج المعونـات الخارجيـة إلا إلى مزيـد من المكاسـب للنخب المحلية، لتخـرج الأموال مرة أخرى إلى الحسابات الخاصة في المصارف السويسرية. وفي الحقيقة، ظلت سياسات المعونات الخارجية زمنا طويـلا جداً تتجاهل الدور الحاسم الذي يلعبه حكم القانون ومبـادئ الشفافية في تنمية وتطويـر أي بلد. وفي حقبة تعتمد فيهـا التعاملات المالية الدوليـة على عقود موثوقة وواجبة التنفيذ، ربما نتوقـع أن يؤدي الازدهار في النشاط التجـاري العالمي إلى إصلاحات قانونية واسعة النطاق. لكن بعض البلدان، مثل الهند ونيجيريـا والصين، وضعت في الحقيقة نظامـين قانونيين ـ واحدا للأجانب والنخب، وآخر للمواطنين العاديين الذين يحاولون دخول معترك قطاع الأعمال.

أما فيما يتعلق ببلدان مثل الصومال أو سيراليون أو الكونغو، فهي لا تتبع أي قوانين على الإطـلاق. حين أفكر أحيانا ببلايا أفريقيا ـ ملايين المصابين بالإيدز، المجاعات وجائحات القحط المستمرة، أنظمة الحكـم الديكتاتورية، الفساد المستشري، وحشية حـروب العصابات التي يخوضها فتية في الثانية عشرة مـن العمر مسلحون بالفؤوس وبنادق كلاشينكوف ولا يعرفون في الدنيا سوى الحرب ـ يجتاحني الشك واليأس. إلى أن أتذكـر أن «الناموسيـة» الواقية من الملاريا تكلف ثلاثة دولارات؛ وبرنامج الاختبار

الطوعي لفيروس العوز المناعي المكتسب في أوغندا حقق اختراقات مهمة فيما يتعلق بمعدل العداوى الجديدة بكلفة تتراوح بين 3 ـ 4 دولارات لكل اختبار؛ وأن انتباها متواضعا ـ على شكل استعراض دولي للقوة أو إنشاء مناطق حماية للمدنيين ـ ربما أوقف المذابح في رواندا؛ وحالات كانت عنيدة ومستعصية ذات يوم، مثل موزامبيق، حققت خطوات مهمة تجاه الإصلاح.

كان فرانكلين روزفلت على صواب بالتأكيد حين قال: «ربما نفخر كأمة بحقيقة أننا نتصف بالرحمة ورقة القلب؛ لكننا لا نستطيع أن نكون بلهاء» يجب ألا نتوقع مساعدة أفريقيا إذا ثبت أنها في نهاية المطاف غير راغبة في مساعدة نفسها. لكن ثمة نزعات واتجاهات إيجابية في أفريقيا كثيرا ما تكون مخفية بين طيات اليأس. الديمقراطية تنتشر. الاقتصادات تنمو في بلدان عديدة. نحن بحاجة إلى الارتكاز على ومضات الأمل هذه ومساعدة أولئك الزعماء والمواطنين المخلصين في شتى أنحاء القارة على بناء مستقبل أفضل يرغبون به، مثلنا، بإلحاح وإصرار.

فضلا عن ذلك كله، نحن نخدع أنفسنا حين نفكر أن «علينا تعلم مراقبة الآخرين يموتون بهدوء»، حسب تعبير أحد المعلقين، دون أن نتوقع التبعات والعواقب. الفوضى تولد الفوضى؛ والقسوة تجاه الآخرين تنزع إلى نشر الغلظة والقسوة بيننا. وإذا لم تكن المبادئ الأخلاقية كافية لنا لنتحرك حين تنفجر قارة من الداخل، فهناك بالتأكيد أسباب وجيهة تدفع الولايات المتحدة وحلفاءها إلى الاهتمام بالدول الفاشلة التي لا تسيطر على أراضيها، ولا تستطيع مكافحة الأوبئة، وتجتاحها الحروب الأهلية، وترتكب فيها الفظائع. في مثل هذا الوضع من غياب القانون استولى الطالبان على أفغانستان. وفي السودان، حيث تحدث اليوم الإبادة الجماعية البطيئة، أقام بن لادن معسكرا طوال عدة سنوات. في بؤس أحياء الفقر سوف يظهر الفيروس القاتل التالي.

وبالطبع، لا يمكن توقع أن نعالج هذه المشكلات المروعة وحدنا، لا في أفريقيا ولا سواها. لهذا السبب، علينا قضاء مزيد من الوقت وإنفاق مزيد من المال في محاولة تعزيز قدرة المؤسسات الدولية بحيث تتمكن من القيام بجزء من هذا العمل عنا. بدلا

مـن ذلك، كنـا نفعل العكس. فقد ظـل المحافظون في الولايات المتحـدة طوال سنوات يستغلون كل فرصة سياسية متاحة لانتقاد الأمم المتحدة: نفاق القرارات التي تستهدف إدانة إسرائيل وحدها، الخطوة اللامعقولة والمحفوفة بالخطر المتمثلة في انتخاب دول مثـل زيمبابوي وليبيا إلى لجنـة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، ثـم العمولات الخفية التي أصابت بآفتها برنامج النفط مقابل الغذاء.

هـذه الانتقادات صحيحـة. فمقابل كل هيئة تؤدي وظيفتهـا بشكل فاعل في الأمم المتحـدة، مثل اليونيسيف، هنالك هيئات أخـرى لا يزيد نشاطها عن عقد المؤتمرات، وإصـدار التقاريـر، وتوفير المناصب الرسميـة والمرتبات العاليـة لموظفين دوليين من الدرجـة الثالثة. لكن هذه الإخفاقات ليست حجة لصالح تقليص إسهامنا ومشاركتنا في المنظمات الدولية، ولا ذريعة تبرر التصرف الأحادي الجانب من الولايات المتحدة. فكلمـا زادت فاعلية قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة في التعامل مع الحروب الأهليـة والصراعات الطائفية، تقلص احتمال قيامنا بدور الشرطي الدولي لحراسة ومراقبـة المناطق التي نريد أن نراهـا مستقرة. وكلما زادت مصداقية المعلومات التي تقدمها الوكالة الدولية للطاقة الذرية، تزايدت قدرتنا على حشد الحلفاء في مواجهة مساعي الدول المارقة لامتلاك الأسلحة النووية. وكلما تعاظمت قدرة منظمة الصحة العالميـة، خـف عبء مكافحة أنفلونزا الطيور في بلادنـا. لا يوجد بلد آخر له مصلحة مثلنـا في تعزيـز وتقوية المؤسسات الدولية ـــ لهذا السبب، مارسنـا الضغط من أجل إنشائها في المقام الأول، ولهذا السبب نحتاج لأن نكون رواد تحسين أدائها.

أخـيراً، دعوني أقترح، لأولئك الذين أغضبهـم احتمال العمل مع حلفائنا لمواجهة التحديـات العالميـة الضاغطة، مجالا واحـدا على الأقل يمكننا فيـه التصرف بشكل أحـادي وتحسين موقفنا في العـالم ـ صقل وتكميل ديمقراطيتنـا والتحول إلى نموذج يحتـذى مثاله. حين نستمر في إنفاق مليارات الدولارات على منظومات تسلح مشكوك بقيمتهـا ونفعها، ونتردد في صرف المال لحمايـة المصانع الكيماوية المحفوفة بالخطر المحدق في المراكز الحضرية الكبرى، يصبح من الأصعب إقناع البلدان الأخرى بتأمين منشآت الطاقة النووية لديها. وحين نعتقل المشتبه فيهم دون محاكمة مدة غير محددة

أو ننقلهم خلسة تحت جنح الظلام إلى بلدان نعلم أنهم سيتعرضون للتعذيب فيها، نضعف قدرتنا على ممارسة الضغط من أجل التزام حقوق الإنسان وحكم القانون في الأنظمة الديكتاتورية. حين لا نستطيع، نحن الذين نعيش في أغنى بلد على ظهر الأرض ونستهلك 25% من وقود العالم الأحفوري، رفع معايير كفاءة وترشيد استخدام الوقود حتى بنسبة ضئيلة بحيث نقلل من اعتمادنا على حقول النفط السعودية ونبطئ الاحتباس الحراري، يجب أن نتوقع مواجهة أوقات صعبة عند محاولة إقناع الصين بعدم التعامل مع موردين للنفط مثل إيران أو السودان ـ ويجب ألا نعتمد على مزيد من التعاون من جانبها للتصدي للمشكلات البيئية التي تدهم شواطئنا.

إن عدم الرغبة في اتخاذ الخيارات الصعبة والارتقاء إلى مستوى مثلنا العليا لا يؤدي إلى إضعاف مصداقية الولايات المتحدة في عيون العالم فقط، بل يضعف مصداقية الحكومة الأمريكية في نظر الشعب الأمريكي أيضا. في نهاية المطاف، فإن طريقة إدارة هذا المصدر الثمين ـ الشعب الأمريكي، ونظام الحكم الذاتي الذي ورثناه عن الآباء المؤسسين ـ هي التي تقرر نجاح أي سياسة خارجية. العالم الرابض هناك معقد ومحفوف بالخطر؛ وعملية إعادة تشكيله ستكون طويلة وصعبة، وسوف تتطلب بعض التضحيات. مثل هذه التضحيات ستكون ضرورية لأن الشعب الأمريكي يفهم جيدا الخيارات المتاحة أمامه؛ فقد ولد أصلا نتيجة الثقة في ديمقراطيتنا. فرانكلين روزفلت فهم ذلك حين قال بعد الهجوم على بيرل هاربر: «هذه الحكومة ستضع ثقتها في جلد وقوة احتمال الشعب الأمريكي» وكذلك فعل ترومان، حين عمل مع دين اتشسون على إنشاء لجنة لوضع خطة مارشال، مكونة من كبار المديرين التنفيذيين، والأكاديميين، وزعماء العمال، ورجال الدين، وغيرهم ممن يستطيعون ترويج الخطة في مختلف أرجاء البلاد. يبدو كأن ذلك عبرة يجب على الزعماء الأمريكيين اعتبارها.

أتساءل أحيانا هل يقدر الناس في الحقيقة على التعلم من دروس التاريخ؟ ـ هل نتقدم من مرحلة إلى أخرى في مسار ارتقائي صاعد أم نسير في دورة مغلقة من الانتعاش والانكماش، والحرب والسلم، والصعود والهبوط؟. في الرحلة نفسها التي

زرت فيها بغداد، قضيت أسبوعا في إسرائيل والضفة الغربية، التقيت خلاله مسؤولين من الجانبين، ورسمت في ذهني خريطة موقع هذا النزاع. تحدثت مع يهود فقدوا آباءهم في المحرقة وأخوة في التفجيرات الانتحارية؛ وسمعت فلسطينيين يصفون ما يتعرضون له من إذلال ومهانة عند حواجز التفتيش وعن ذكرياتهم عن أرضهم السليبة. ركبت حوامة حلقت فوق الخط الفاصل بين الشعبين ووجدت نفسي عاجزا عن التمييز بين البلدات اليهودية والعربية. حيث بدت كلها مثل مخافر أمامية مكشوفة بين التلال الخضراء والجرداء. نظرت من موقع مشرف على القدس إلى المدينة القديمة، وقبة الصخرة، وحائط المبكى، وكنيسة القيامة، وفكرت بألفي سنة من الحروب التي شنت في هذه البقعة الصغيرة من الأرض، وتأملت مليا عبثية الاعتقاد بإمكانية حل هذا الصراع في عصر جيلنا الحالي، وقدرة أمريكا، على الرغم من قوتها الكاسحة، على تحديد مسار الأحداث في العالم.

لكني لم أتشبث كثيرا بمثل هذه الأفكار — فهي أفكار رجل عجوز. فمهما بلغت صعوبة المهمة، أعتقد أن من واجبنا الانخراط في جهود تحقيق السلام في الشرق الأوسط، لا لفائدة شعوب المنطقة فقط، بل من أجل أمن وسلامة أطفالنا أيضا.

ولربما لا يعتمد مصير العالم على الأحداث في ميادين المعارك وحسب؛ بل يرتكز أيضا على عملنا في تلك الأماكن الهادئة التي تطلب يد العون. أتذكر التقارير الإخبارية عن إعصار تسونامي الذي اجتاح شرق آسيا عام 2004 - بلدات الساحل الغربي من إندونيسيا التي سويت بالأرض وآلاف الضحايا الذين غرقوا في البحر. وكيف شاهدت في الأسابيع التالية بكل فخر واعتزاز الأمريكيين يرسلون معونات تجاوزت قيمتها مليار دولار، والسفن الحربية الأمريكية تنزل آلاف الجنود للمساعدة في توزيع المعونات وإعادة الإعمار. وفقا للتقارير الصحفية، قال 65% من الإندونيسيين الذين استطلعت آراؤهم إن هذه المعونات جعلتهم يتبنون وجهة نظر أكثر إيجابية عن الولايات المتحدة. لست ساذجا إلى درجة الاعتقاد أن واقعة واحدة في أعقاب كارثة يمكن أن تزيل عقودا من الشك والريبة.

لكنها مجرد بداية.

- 9 -

العائلة

بحلول بداية عامي الثاني في مجلس الشيوخ، استقرت حياتي على إيقاع قابل للتدبير. كنت أغادر شيكاغو ليل الاثنين أو صباح الثلاثاء، اعتمادا على مواعيد جلسات التصويت في المجلس. وباستثناء ذهابي يوميا إلى نادي اللياقة البدنية في المجلس والغداء أو العشاء مع صديق (وهذا أمر نادر)، كانت تشغلني في الأيام الثلاثة التالية سلسلة متوقعة ومعروفة من المهمات ـ مراجعة التعديلات على القوانين التي تطرحها اللجان، والتصويت، والغداء مع الأعضاء الديمقراطيين، والبيانات في قاعة المجلس، والخطب، والصور مع الأعضاء، وجمع التبرعات في الأمسيات، والرد على المكالمات الهاتفية، وكتابة المراسلات، ومراجعة التشريعات، وكتابة مسودات المقالات، وتسجيل الملفات الرقمية من الإنترنت، وتلقي الإيجازات السياسية، واستضافة الناخبين، وحضور سلسلة لا نهاية لها من الاجتماعات واللقاءات. وفي أصيل أيام الثلاثاء، نعرف، حين نكون في غرفة الاستراحة الملحقة بالمجلس، موعد التصويت، وفي الوقت المحدد أقف في الطابور مع الزملاء لأدلي بصوتي، قبل أن أنزل درجات مبنى الكابيتول مسرعا لألحق بالطائرة التي تقلني إلى شيكاغو وأصل إلى المنزل قبل أن تخلد البنتين إلى النوم.

على الرغم من برنامج المواعيد المتخم، وجدت العمل مثيرا وساحرا، وإن يكن محبطا بين الحين والآخر. فخلافا للمدركات الشعبية السائدة، لا يعرض على التصويت في قاعة المجلس سوى قرابة عشرين مشروع قانون يحظى بالأهمية كل سنة، ومن النادر أن يقدم أحدها عضو من حزب الأقلية. ونتيجة لذلك، انحصرت في إطار اللجان معظم المبادرات الرئيسة التي قمت بها – تشكيل مناطق مبتكرة للمدارس العامة، وخطة لمساعدة مصنعي السيارات الأمريكيين على دفع تكاليف الرعاية الصحية للعمال المتقاعدين مقابل رفع معايير الاقتصاد في استهلاك الوقود، وتوسيع

برنامج بيل غرانت لمساعدة الطلاب من ذوي الدخل المحدود على تلبية نفقات التعليم الجامعي المرتفعة.

مـن ناحية أخرى، استطعت بفضل العمل الـدؤوب للموظفين المساعدين أن أدخل تعديـلات علـى عدد كبير مـن القوانـين: ساعدنا على توفـير التمويـلات الضرورية للمحاربـين القدماء الذيـن لا يملكون بيوتا. وفرنا ائتمانـات ضريبية لمحطات الوقود التـي تنصـب مضخات وقـود (E85). حصلنا علـى تمويل لمساعـدة منظمة الصحة العالميـة على الرصد والاستجابة لجائحـة أنفلونزا الطيور المحتملة. أجزنا في المجلس تعديـلا يلغي العقود التي لا تعتمـد على مناقصات فيما يتعلق بإعـادة إعمار المناطق المنكوبـة التي اجتاحها إعصار كاترينا، وبذلك عـاد مزيد من المال إلى أيدي ضحايا المأساة. صحيح أن هذه التعديلات لن تغير البلد، لكنني شعرت بالرضى لأن كلا منها قـدم لبعض الناس مساعدة متواضعة أو دفع القانون قليلا في اتجاه قد يثبت أنه أكثر اقتصادا أو أكثر استجابة أو أكثر عدالة.

في أحـد أيام شهر شباط/ فبراير، وجدت نفسي في حالة مزاجية ومعنوية جيدة، بعـد أن استكملت جلسة استمـاع حول تشريع قدمته أنا وديـك لوغار استهدف تقييد انتشـار الأسلحة وتجارتها في السوق السوداء. ولأن ديك أحد أبرز الخبراء في المجلس فيمـا يتعلـق بقضايا انتشار الأسلحـة، إضافة إلى ترؤسه على لجنـة شؤون العلاقات الخارجيـة، فقـد كانت احتمالات إجازة مشروع القانون واعـدة. أردت أن أتقاسم مع ميشيـل الأخبـار السارة، فاتصلـت بها من مكتبـي في واشنطن وشرحـت لها أهمية القانـون ــ كيف يمكـن للصواريخ المضادة للطائـرات المحمولة على الكتـف أن تهدد الرحـلات الجوية التجاريـة إذا وقعت في أيـدي الأعداء، وكيـف استمرت مخزونات الأسلحـة الخفيفـة مـن حقبة الحـرب الباردة تغـذي الصراعات في مختلـف أرجاء العالم. قاطعتني ميشيل قائلة:

«في بيتنا نمل!»

«ماذا؟»

«وجدت النمل في المطبخ. وفي الحمام»

«حسنا..»

«أريدك أن تشتري مصائد للنمل قبل أن تأتي إلى البيت غدا. أستطيع شراءها بنفسي لكن علي أخذ البنتين إلى موعد الطبيب غدا بعد المدرسة. هل تقدر؟»

«أجل. مصائد للنمل»

«مصائد للنمل. لا تنس يا عزيزي. علي الآن الذهاب لحضور اجتماع. إلى اللقاء»

أغلقت الخط، وتساءلت هل يبتاع تيد كنيدي أو جون مكين مصائد للنمل في طريقهما إلى المنزل من العمل.

معظم الذين يقابلون زوجتي يستنتجون بسرعة أنها تتمتع بشخصية لافتة. وهم على حق - فهي ذكية، وساخرة، وساحرة. وهي أيضا جميلة، لكن جمالها ليس من النوع الذي يجده الرجال مهددا أو تجده النساء مزعجا أو منفرا؛ إنه جمال الأم والموظفة المهنية المشغولة بعملها، الذي يختلف عن صور فتيات الغلاف في المجلات الشهيرة. في كثير من الحالات، يأتي أحدهم إلي بعد سماعها تتحدث في اجتماع أو العمل معها في مشروع ويقول شيئا مثل: «باراك، أنا معجب بك، لكن زوجتك.. رائعة!» في العادة، أومئ برأسي، فأنا أعرف جيدا أنها لو نافستني على أي منصب عام لما وجدت صعوبة تذكر في الفوز علي.

من حسن حظي أن ميشيل لن تدخل معترك السياسة أبدا. وهي تقول لمن يسألها: «ليس لدي الصبر» ومثلما هي عادتها، فهي تقول الصدق.

التقيت ميشيل في صيف عام 1988، حين كنا نعمل معا في مؤسسة قانونية كبيرة (سيدلي و اوستن) يقع مقرها في شيكاغو. ومع أنها تصغرني بثلاث سنين، إلا أنها كانت محامية ممارسة، بعد أن انتسبت إلى كلية الحقوق في هارفارد حالما تخرجت في الجامعة. كنت قد أنهيت لتوي السنة الأولى في كلية الحقوق وبدأت العمل مساعدا مؤقتا في الصيف.

كانـت مرحلة صعبة وانتقالية في حياتـي. فقد انتسبت إلى كلية الحقوق بعد ثلاث سنـوات من العمل في مجال التنظيم الاجتماعي. ومع أنني استمتعت بدراستي، إلا أن الشـك ظـل يراودني فيما يتعلق بقـراري. كنت قلقا في سري مـن أن يمثل ذلك تخليا عن المثل العليا التي تبنيتها في سنوات الشباب، تنازلا للوقائع الصارخة التي يفرضها المال والسلطة ـ العالم كما هو لا كما يجب أن يكون.

فكـرة العمل في مؤسسة قانونيـة، قريبة بهذا القدر ومع ذلك نائية إلى هذا الحد عن الأحياء الفقيرة التي ما زال أصدقائي يكدحون فيها، فاقمت تلك المخاوف. لكن مـع ارتفاع أقسـاط قروض الطلاب بسرعة، لم يكن وضعـي يسمح لي برفض مرتب الشهـور الثلاثة الذي عرضته علـي المؤسسة. وهكذا، بعد أن استأجرت أرخص شقة وجدتهـا، وابتعت أول ثلاث بذات وحذاء جديدا (تبين أنه صغير المقاس وسوف يشل حركتـي طوال الأسابيع التسعـة التالية)، دخلت المؤسسـة في صبيحة يوم ماطر من أيـام شهر حزيـران/ يونيو، وتوجهت إلى مكتب المحاميـة الشابة التي عينت مشرفة على عملي.

لا أتذكـر تفاصيـل أول حديث لي مـع ميشيل. أتذكر فقط أنهـا فتاة طويلة القامة (تماثلنـي في الطـول حـين تلبس حـذاء عـالي الكعـب) ومحببـة وودودة ومحترفة، ومظهرها يدل على شخصيتها. شرحت لي كيف تعين المهمات في المؤسسة، وطبيعتها، وكيف نسجل ساعـات العمل على القضايا. وبعد أن قادتني إلى مكتبي، وزرنا المكتبة، عرفتني بأحد الشركاء وقالت: إنها ستقابلني على الغداء.

أخبرتني ميشيل فيما بعد أنها فوجئت (مفاجأة سارة) حين دخلت مكتبها؛ فالصور الشخصيـة التي أرسلتهـا بدا فيها أنفي أكـبر حجما، وشككـت في رأي السكرتيرات اللاتـي شاهدنني خلال المقابلة وقلـن إنني جذاب: «اعتقدت أنهـن تأثرن، كعهدهن دومـا، برجل أسـود يلبس بزة ويحصل على عمـل» لكن إذا كانت ميشيـل قد تأثرت، فإنهـا لم تظهـر تأثرها خلال الغـداء. عرفت أنها نشأت في منطقـة ساوث سايد، في بيـت صغير إلى الشمال من الحي الذي كنت أمارس فيه عملي التنظيمي. كان والدها مشغل مضخة المدينة؛ وظلت والدتها ربة بيت إلى أن كبر الأولاد، فعملت سكرتيرة في

أحـد المصارف. تخرجت في مدارس شيكاغو الثانوية ثم لحقت بأخيها في برينستون، حيث تألق في فريق كرة القدم. في المؤسسة القانونية كانت عضوا في مجموعة الحقوق الفكريـة وتخصصت في مجال الترفيه؛ في إحـدى المراحل، فكرت بالانتقال إلى لوس أنجلوس أو نيويورك للعمل هناك.

تحدثت ميشيل عن الكثير من الخطط ذلك اليوم، ولم يكن لديها وقت لتنشغل عن خططهـا، كما قالت ـ خصوصا مع الرجـال. وكانت ضحكتها مشرقة. لكنني لاحظت أنهـا ليست في عجلـة من أمرها لتعود إلى المكتب. هنالك أمر آخر، ثمة التماعة تتألق في عينيهـا السوداوين كلما نظرت إليها، تلمح إلى شيء من عدم اليقين، كأنما تعرف في أعمـاق أعماقها مدى هشاشة الأشياء، فإذا فقـدت السيطرة، ولو للحظة واحدة، فسـوف تتفكك الخطط وتتهاوى بسرعـة. تأثرت نوعا ما بتلـك اللمحة من الضعف. وأردت أن أعرف ذلك الجزء منها.

كنـا نلتقي طوال الأسابيع التالية يوميا، في المكتبـة أو الكافتريا أو خلال النزهات العديدة التي تنظمها المؤسسة للموظفين والمساعدين القانونيين المؤقتين لإقناعهم بأن الحياة في مهنة المحاماة ليست مجرد ساعات طويلة من البحث في الوثائق ودراستها. دعتنـي إلى حفلة أو اثنتين، متغاضية بلباقة عما في خزانتي من ثياب قليلة، وعرفتني ببعض أصدقائها. ومع ذلك رفضت الخروج في موعد (غرامي) معا. فذلك ليس لائقا كما قالت لأنها المشرفة علي والناصحة لي.

قلـت لها: «هـذا عذر واه. أي نصيحة قدمتها لي؟ نصائحك لا تتعدى تدريبي على استخدام آلة نسخ الصور، وأفضل المطاعم. ولا أظن أن الشركاء سيعدون الموعد بيننا خرقا خطيرا لسياسة المؤسسة»

هزت رأسها وقالت: «أعتذر»

«حسنـا، أنا مستقيل. مـا رأيك؟ أنـت المشرفة الناصحـة. أخبريني، لمن أتوجه بالشكوى»

في نهايـة المطـاف أذعنـت. وبعد نزهـة المؤسسة، أوصلتنـي بسيارتهـا إلى شقتي، فعرضـت عليهـا تناول البوظة. اشتريـت قطعتين وجلسنا على الحاجـز في أصيل ذلك

اليـوم الحار الرطـب. أخبرتها عن عملـي في متاجر «باسكن روبنـز» للمثلجات عندما كنت مراهقا، وصعوبة الحفاظ على برودة الجسم عندما كنت ألبس المئزر البني وأضع القبعة. فقالت: إنها ظلت مدة سنتين أو ثلاث في مرحلة الطفولة ترفض تناول أي طعام سوى زبدة الفستق والجيلي. قلت: إنني أود لقاء عائلتها. فقالت: إن ذلك يسعدها.

أمضينا بقية الصيف معا. أخبرتها عن التنظيم الاجتماعي، والحياة في إندونيسيا، ورياضة ركوب الأمواج. وأخبرتني عن صديقات الطفولة، ورحلة قامت بها إلى باريس حين كانت في المدرسة الثانوية، وأغنيات ستيفي وندر المفضلة.

لكننـي لم أبـدأ أفهم ميشـيل حقـا إلا بعد أن التقيـت بأسـرتهـا. فقد تبين لي أن زيـارة عائلة روبنسـون أشبـه بالانضـمام فجـأة إلى كـادر العـاملين في فيلـم (Leave It to Beaver). هنالـك فرازيـر، الأب الطيب الحليـم الذي لم ينقطع يوما عـن عمله أو تفوته مباراة لابنه. وهناك ماريان، الأم الجميلة العاقلة التي تخبز كعكة أعياد الميلاد وترتب المنزل، والمتطوعة في المدرسة لتضمن أن يحسن تلاميذها سلوكهم ويؤدي المدرسون الواجب المطلوب منهم. وهنـاك كريغ، لاعب كرة السلة النجم الطويل القامـة، والشقيق الودود والمهذب والمسلـي، الذي يعمل مصرفيا استثماريا لكن يحلم بالعمـل في مجـال التدريب يوما ما. وهنـاك الأعمام والعمات وأبنـاء العمومة الذين يأتـون متى أرادوا ويجلسون إلى مائدة المطبخ ويأكلون ما طاب لهم، ثم يستمعون إلى مجموعـة أسطوانات موسيقى الجاز التي يحتفظ بها الجد ويضحكون ويسهرون حتى منتصف الليل.

لكن العائلة ينقصها كلب. لأن ماريان لا تحب الكلاب في المنزل.

ما جعـل هذه الصورة للأسرة الكريمة أشد تأثيرا حقيقـة أن آل روبنسون غالبوا المشقات التي نادرا ما تظهر قصصها على شاشات التلفزيون. هنالك القضايا المعتادة المتعلقـة بالعنصرية بالطبع: الفرص المحدودة المتاحة لأبوي ميشيل في شيكاغو خلال الخمسينيـات والستينيات؛ الشعور بخطر العنصرية والهلع الذي دفع عائلات البيض إلى الابتعـاد عـن الحـي؛ الطاقـة الإضافية المطلوبة مـن الآباء السـود للتعويض عن

الدخل القليل، والعنف المتصاعد في الشوارع، والملاعب التي تعاني من نقص التمويل، والمدارس المتخلفة العاجزة.

لكن ثمة مأساة عصفت بأسرة روبنسون. فحين بلغ والد ميشيل الثلاثين، أي في ذروة عطاء حياته، تبين بالتشخيص أنه يعاني تصلب الأعضاء والعضلات. وظل طوال السنوات الخمس والعشرين التالية، رغم تدهور حالته، يتحمل مسؤولية عائلته دون أن يشفق على نفسه: أصبح يستيقظ في الصباح قبل ساعة من الموعد المعتاد للذهاب إلى العمل، ويكافح لأداء كل حركة جسدية، من قيادة السيارة إلى ارتداء قميصه، دون أن ينسى ابتسامته ودعابته والقبلة المعتادة لابنته كل يوم. وداوم على الذهاب إلى الملعب لمشاهدته ابنه ـ مع عرج خفيف في البداية ثم بمساعدة عكازين، والعرق يتصبب من رأسه الأصلع.

بعد زواجنا، ساعدتني ميشيل على فهم التأثير الخفي الذي مارسه مرض والدها على العائلة؛ العبء الثقيل الذي أجبرت الأم على حمله؛ الحدود المرسومة بدقة حول حياة الأسرة، حيث يجب التخطيط بعناية حتى لنزهة بسيطة من أجل تجنب المشكلات والإرباك والإحراج؛ وكيف تبدو الحياة المتخبطة مرعبة ومروعة تحت قناع الابتسامات والضحكات.

لكنني لم أجد آنذاك سوى المتعة في منزل آل روبنسون. وبالنسبة لشخص مثلي، لا يكاد يعرف أباه، وأمضى جزءا كبيرا من حياته مترحلا من مكان إلى مكان، وتبعثرت جذوره في الاتجاهات كلها، حرك البيت الذي بناه فرازير وماريان روبنسون، لهما ولأبنائهما، توقا جارفا للاستقرار وإحساسا بالمكان لم يدرك قبلا وجودهما في داخله. مثلما وجدت ميشيل في رفقتي حياة تملؤها المغامرة والمخاطرة والسفر إلى بلاد غريبة ربما ـ أفقا أوسع مما سمحت به لنفسها سابقا.

بعد ستة أشهر من لقائنا، توفي والدها فجأة نتيجة مضاعفات عملية أجريت على كليته. عدت إلى شيكاغو ووقفت أمام قبره، ووضعت ميشيل رأسها على كتفي. فوعدته أن أعتني بابنته. وشعرت بطريقة لا تعبر عنها الكلمات بأننا أصبحنا عائلة واحدة.

يشيـع هذه الأيام الحديث عن تفكك بنية الأسرة الأمريكية. إذ يزعم المحافظون، اجتماعيا، أن العائلة التقليدية تتعرض لهجوم كاسح من أفلام هوليود ومواكب المثليين في الشوارع. في حين يشير الليبراليون إلى العوامل الاقتصادية ـ من تجمد الأجور إلى عدم كفاية الرعاية النهارية ـ التي عرضت العائلات لتهديد متزايد. ثقافتنا الشعبية تغـذي مشاعر الخوف والحذر، وتنشـر حكايات عن نساء سيبقين عانسات إلى الأبد، ورجـال راغبين عن الارتبـاط بالتزامات دائمـة، ومراهقين ينخرطـون في مغامرات جنسية متهورة لا نهاية لها. لا شيء يبدو مستقرا، كما كانت الحال في الماضي؛ أدوارنا وعلاقاتنا كلها متاحة لمن هب ودب كي يأخذها.

نظـرا لهيمنة هذه الحالة من القلـق والانزعاج، قد يكون من المفيد تذكير أنفسنا بـأن مؤسسة الزواج لـن تختفي قريبا. وصحيح أن معدلات الـزواج انخفضت بشكل ثابـت منـذ الخمسينيـات، إلا أن جزءا من هـذا الانخفاض يعـود إلى أن مزيدا من الأمريكيـين يؤخرون زواجهم لاستكمـال تعليمهم أو اختيار مهنـة راسخة لهم؛ لكن في سـن الخامسـة والأربعين، تكون 89% من النسـاء و83% مـن الرجال قد ارتبطوا بعلاقـة زواج مـرة واحدة على الأقـل. وما زالت 67% من العائـلات مكونة من رجل وامـرأة جمعتهمـا علاقة زواج، والأغلبية الساحقة مـن الأمريكيين ما يزالون يعدون الزواج أفضل ركيـزة للعلاقة الحميمة الشخصية، والاستقـرار الاقتصادي، وتربية ورعاية الأطفال.

ومـع ذلـك، لا يمكن إنـكار حقيقـة أن طبيعة العائلة قـد تغيرت خـلال السنوات الخمسـين الأخـيرة. وعلى الرغم من أن معدلات الطـلاق انخفضت بنسبة 21% عن الذروة التـي بلغتها في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، ما زال نصف الزيجات الأولى ينتهـي بالطـلاق. ومقارنة بأجدادنا، نعد أكثر تساهـلا مع العلاقات الجنسية السابقـة على الـزواج، وأكثر استعدادا للمعاشـرة دون زواج، وميـلا إلى العيش دون شريك. نحن أيضا أكثر ميلا إلى تربية الأطفال في أسر غير تقليدية؛ 60% من جميع حـالات الطلاق تخلف أطفالا، و33% من الأطفـال يولدون من علاقات غير شرعية، و34% من الأطفال لا يعيشون في كنف آبائهم البيولوجيين.

تشتد حدة هذه النزعات بين الأمريكيين الأفارقة، حيث من العدل القول إن العائلة النووية على شفا الانهيار. ومنذ عام 1950، انخفض معدل زواج النساء السود من 62% إلى 36%. وبين عامي 1960 ـ 1995، انخفض عدد الأطفال الأمريكيين الأفارقة الذين يعيشون مع أبوين متزوجين بأكثر من 50%؛ واليوم، يعيش 54% من الأطفال السود في أسر وحيدة الأب/ الأم، مقارنة بنسبة 23% لدى الأطفال البيض.

فيما يتعلق بالبالغين، تختلط تأثيرات هذه التغييرات على أقل تقدير. إذ تشير الأبحاث والدراسات إلى أن المتزوجين، في المعدل المتوسط، يعيشون حياة أكثر صحة وثراء وسعادة، لكن ذلك لا يعني القول إن الرجال والنساء يستفيدون من السقوط في فخ زيجات سيئة أو مهينة. ومن المؤكد وجود معنى منطقي وراء قرار الأعداد المتزايدة من الأمريكيين بتأخير زواجهم؛ إذ لا يقتصر الأمر على أن اقتصاد المعلومات اليوم يتطلب مزيدا من التعليم والدراسة فقط، بل أظهرت الدراسات أن الأشخاص الذين ينتظرون حتى بلوغ أواخر العشرينيات أو أوائل الثلاثينيات من العمر للزواج، يرجح أن تستمر حياتهم الزوجية مدة أطول من أولئك الذين يتزوجون في عمر مبكر.

لكن مهما كان حجم التأثير في البالغين، فإن هذه النزعات أضرت بالأطفال. فالعديد من الأمهات العازبات ـ ومنهن أمي ـ يكافحن ويجاهدن جهاد الأبطال من أجل أولادهن. ومع ذلك، يزيد احتمال فقر الأطفال الذين يعيشون في كنف أمهات عازبات بمقدار خمس مرات مقارنة بالأطفال الذين يعيشون في كنف والديهم الاثنين. والأطفال الذين يعيشون تحت رعاية الأمهات العازبات أكثر احتمالا للتسرب من المدرسة وإقامة علاقات جنسية (ظاهرة الآباء والأمهات المراهقين)، حتى حين نلغي عامل الدخل. تشير الأدلة إلى أن الأطفال الذين يعيشون في كنف آبائهم وأمهاتهم البيولوجيين يتفوقون، في المعدل الوسط، على الذين يعيشون مع غير آبائهم أو مع أبوين لا تجمعهما علاقة زواج شرعية.

في ضوء هذه الحقائق، تعد السياسات التي تقوي رابطة الزواج لمن يختارونه وتعيق الولادات غير المرغوبة خارج إطار الزواج أهدافا منطقية ومعقولة يجب السعي إليها. على سبيل المثال، يتفق معظم الناس على وجوب ألا تعاقب برامج الرعاية الاجتماعية

الاتحادية وقانون الضرائب المتزوجين؛ ولذلك تحظى جوانب إصلاح برنامج الرعاية الاجتماعية التي أقرت في عهد كلينتون وتلك العناصر المتضمنة في الخطة الضريبية التي وضعها بوش بدعم قوي من الحزبين كليهما.

الأمر ذاته ينطبق على توقي الحمل في سن المراهقة. إذ يتفق الجميع على أن حمل المراهقات يعرض الأم والطفل معا لأخطار أنواع المشكلات كلها. ومنذ عام 1990، انخفض معدل حمل المراهقات بنسبة 28%، وهذا خبر سار دون شك. لكن ولادات الأمهات المراهقات ما تزال تمثل قرابة ربع الولادات التي تحدث خارج إطار الزواج الشرعي، والأمهات المراهقات أكثر احتمالا لإنجاب مزيد من الأطفال خارج إطار الزواج الشرعي مع تقدمهن بالعمر. لقد تبين أن للبرامج المجتمعية المرتكز سجلا مثبتا في توقي حالات الحمل غير المرغوب فيها ـ عبر تشجيع التعفف والاستخدام الصحيح لوسائل منع الحمل ـ وتستحق دعما واسع النطاق.

أخيرا، تظهر الأبحاث الأولية أن ورشات العمل التثقيفية فيما يتعلق بالزواج يمكن أن تحدث فارقا حقيقيا في مساعدة المتزوجين على البقاء معا وتوطيد رابطة أطول عمرا بينهم. ويجب أن يتفق الجميع على أهمية توسيع مدى وإتاحة هذه الخدمات لتشمل الأزواج من ذوي الدخل المحدود، ربما بالتناغم مع التدريب المهني والتوظيف، والرعاية الطبية الشاملة، وغيرها من الخدمات المتاحة.

لكن فيما يتعلق بالعديد من المحافظين (اجتماعيا)، لا تعد هذه المقاربات البدهية كافية. فهم يريدون العودة إلى حقبة سالفة، حين كانت الجنسانية خارج إطار الزواج تتعرض إلى العقاب والعار، والحصول على الطلاق أشد صعوبة بكثير، ولا يحقق الزواج الرضى الشخصي فقط، بل يحدد بدقة الأدوار الاجتماعية للرجال والنساء. وبرأيهم، فإن أي سياسة حكومية تبدو أنها تكافئ أو حتى تقف على الحياد إزاء ما يعدونه سلوكا فاجرا ومنافيا للأخلاق ـ مثل تقديم وسائل تحديد النسل للشباب، أو خدمات الإجهاض للنساء، أو الرعاية الاجتماعية للأمهات العازبات، أو الاعتراف القانوني بالروابط التي تجمع المثليين ـ يبخس قيمة وأهمية الرابطة الزوجية. مثل هذه السياسات تقربنا خطوة، كما تقول الحجة، نحو عالم جريء

جديد تمحى فيه فوارق الجندر (النوع الاجتماعي)، ويصبح الجنس متعة خالصة، والزواج رابطة يسهل حلها، والأمومة حالة مزعجة، والحضارة نفسها ترتكز على قاعدة من الرمال المتحركة.

أتفهم الدافع لاستعادة إحساس بالنظام إلى ثقافة في حالة من التغيرات المتتابعة والمستمرة. وأقدر بالتأكيد رغبة الآباء في حماية أبنائهم من القيم التي يعدونها وبيلة وضارة؛ إحساس أتقاسمه معهم حين أستمع إلى كلمات الأغاني من المذياع.

لكن على وجه العموم، لا أتعاطف كثيرا مع أولئك الذين يحملون الحكومة مهمة فرض الأخلاق الجنسية بالقوة. وعلى شاكلة معظم الأمريكيين، أعد القرارات المتعلقة بالجنس والزواج والطلاق والحمل من الأمور الشخصية ــ وتقع في صميم نظامنا القائم على الحرية الفردية. أما حين تزيد مثل هذه القرارات الشخصية احتمال إيقاع الأذى البالغ بالآخرين ـ كإساءة معاملة الأطفال، أو سفاح القربى، أو تعدد الزوجات أو الأزواج، أو العنف الأسري، أو الإخفاق في رعاية وإعالة الأولاد ـ يصبح من حق المجتمع وواجبه التدخل (أولئك الذين يعتقدون أن الجنين كائن حي يتمتع بكامل حقوق البشر يصنفون الإجهاض ضمن هذه الفئة). وفيما وراء ذلك، ليست لدي رغبة في تدخل الرئيس أو الكونغرس أو البيروقراطية الحكومية لتنظيم ما يحدث في غرف نوم الأمريكيين.

فضلا عن ذلك، لا أعتقد أننا نقوي ونعزز الأسرة عبر إجبار أو إكراه الناس على إقامة علاقات نعدها مفيدة لهم ـ أو عبر إنزال العقاب بأولئك الذين لا يلتزمون معاييرنا فيما يتعلق بالآداب السلوكية الجنسية. أريد أن أشجع الشباب على إظهار مزيد من الاحترام للعلاقة الجنسية والحميمة، وأصفق استحسانا للآباء والتجمعات الكنسية والبرامج المجتمعية التي تنقل وتبث هذه الرسالة. لكنني لست مستعدا لقبول حصر المراهقة في حياة من المعاناة بسبب حرمانها من وسائل منع الحمل. أريد من كل شريكين أن يفهما قيمة ما يستتبعه الزواج من التزام وتضحيات. لكنني لست مستعدا لاستخدام قوة القانون لإبقائهما معا بغض النظر عن ظروفهما الشخصية.

لربمـا تمنعني طرائق القلب البشري الشديدة التنـوع، وحياتي التي تفتقد الكمال والمثاليـة، من تنصيب نفسي قاضيا مؤهلا للحكـم في محكمة الأخلاق. أعرف تماما أننـا طوال السنـوات الأربع عشرة من زواجنا، لم نختلف أنـا وميشيل نتيجة ما يفعله الآخرون في حياتهم الشخصية.

ما تجادلنا حوله ـ مرارا وتكرارا ـ هو كيف نوازن بين العمل والعائلة بطريقة عادلة لميشيـل ومفيـدة للبنتين. لسنا الوحيدين في ذلك. في الستينيـات وأوائل السبعينيات، مثلـت العائلـة التي ترعرعت فيها ميشيـل القاعدة لا الاستثناء ـــ أكثر من 70% من العائلات لديها والدة في المنزل وتعتمد على الوالد بوصفه المعيل الوحيد.

اليـوم، انعكست هـذه الأرقـام. 70% من الأسر التـي لديها أطفـال يعيلها أبوان عامـلان أو أب أو أم عاملـة. أما النتيجة فهي ما دعتها مستشارتي في شؤون السياسة والخبـيرة في شؤون الأسـرة العاملة، كارين كورنبلوه، «عائلـة الحواة»التي تلعب بعدة كرات في وقت واحد: حيث يكافح الأبوان لدفع الفواتير، والعناية بالأطفال، والحفاظ على الأسرة والمنزل، والمحافظة على العلاقة بينهما. لكن أداء جميع هذه المهمات معا يوقـع أضرارا بحياة الأسـرة. وكما شرحت كارين حين عملـت مديرة لبرنامج العمل والأسـرة في مؤسسـة أمريكا الجديدة، وأدلـت بشهادتها أمام لجنـة مجلس الشيوخ الفرعية المعنية بالأطفال والأسر:

> اليوم، تقلصت المدة التي يقضيها الأمريكيون مع أطفالهم أسبوعيا بمعدل 22 ساعـة مقارنة بحالهم عام 1969. وملايين الأطفال يتركون في مراكز غـير مرخصة للرعاية النهارية كل يوم ـــ أو وحدهم في المنزل حيث يقوم جهاز التلفزيون مقام جليسة الأطفـال. وخسرت الأمهات العاملات زهاء ساعـة من النوم كل يوم في محاولتهن للتكيف مع الوضع. وأكدت البيانات التـي جمعت حديثا أن الآباء الذين لديهم أطفال في سن المدرسة يظهرون أمارات قوية على الإجهاد والتوتر ـ وهذه تؤثر في إنتاجيتهم وعملهم ـ حين تفتقـد وظائفهم المرونة ولا يجدون رعاية نهاريـة مستقرة لهم بعد انتهاء الدوام في المدرسة.

هل يبدو ذلك كله مألوفا؟

يشير العديد من المحافظين (اجتماعيا) إلى أن هذا السيل العارم من النساء اللاتي يخرجن من المنزل وينطلقن إلى العمل ما هو إلا عاقبة مباشرة للأيديولوجية النسوية، ومن ثم يمكن عكسه إذا عادت المرأة إلى رشدها ورجعت إلى أداء دورها التقليدي كربة منزل. صحيح أن الأفكار المتعلقة بالمساواة لعبت دورا حاسما في تغيير مكان العمل؛ ومثلت الفرصة المتاحة للمرأة لكي تعمل وتحقق الاستقلال الاقتصادي وتظهر مواهبها على قدم المساواة مع الرجل، أحد أعظم الإنجازات في الحياة الحديثة في أذهان معظم الأمريكيين.

لكن فيما يتعلق بالنساء الأمريكيات في المعدل المتوسط، لا يعد قرار العمل خارج المنزل مجرد أمر يتصل بتغيير المواقف، بل بعدم تخطي الإنفاق حدود الدخل.

لنفكر بالحقائق مليا. خلال السنوات الثلاثين الماضية، ازداد ما يكسبه الرجل الأمريكي العادي بنسبة تقل عن 1% بعد حساب التضخم. في هذه الأثناء، ارتفعت تكاليف كل شيء، من السكن إلى الرعاية الصحية إلى التعليم، بشكل ثابت ومستمر. أما ما منع الأغلبية الساحقة من العائلات الأمريكية من السقوط من الطبقة الوسطى فهو راتب الأم العاملة. في كتاب اليزابيث وارن واميليا تياغي «فخ المدخولين»، إشارة إلى أن الدخل الإضافي الذي تجلبه الأمهات إلى المنزل لا يبدد على المواد الكمالية. بل يذهب جميعه تقريبا على شراء ما تعتقد الأسر أنه استثمارات في مستقبل الأولاد ـ تعليم ما قبل سن المدرسة، رسوم الجامعة، والأهم منزل في حي سكني آمن فيه مدارس عامة جيدة. وفي الحقيقة، فإن نتيجة هذه التكاليف الثابتة والنفقات الإضافية للأم العاملة (خصوصا تكاليف الرعاية النهارية للأطفال والسيارة الثانية)، تحصل الأسرة ذات المدخولين على دخل أقل تحت تصرفها ـ ودرجة أدنى من الأمان المالي ـ مقارنة بنظيرتها المعتمدة على مدخول واحد قبل ثلاثين سنة.

إذن، هل يمكن للأسرة العادية العودة إلى الحياة المعتمدة على المدخول الواحد؟ يتعذر ذلك حين تعتمد كل أسرة في الحي على مدخولين اثنين وترتفع أسعار البيوت

وأقساط المدارس ورسوم الجامعة. وأظهرت وارن وتياغي أن الأسرة المعتمدة على معيل واحد التي تحاول اليوم الحفاظ على أسلوب حياة الطبقة الوسطى يقل دخلها المتوفر بنسبة 60% عن نظيرتها في السبعينيات. بكلمات أخرى، يعني بقاء الأم في المنزل بالنسبة لمعظم العائلات العيش في أحياء سكنية أقل أمانا وانتساب أولادها إلى مدارس أدنى مستوى.

معظم الأمريكيين ليسو مستعدين لاتخاذ هذا الخيار. بدلا من ذلك، يبذلون قصارى جهدهم ضمن الظروف السائدة، وهم يعرفون أن ذلك النوع من الأسرة التي ترعرعوا فيها ـ الأسرة التي ربى فيها فرازير وماريان روبنسون أولادهما ـ أصبح من الأصعب الحفاظ عليه.

اضطر الرجال والنساء معا إلى التكيف مع هذه الحقائق الجديدة. لكن يصعب مخالفة ميشيل حين تلح بإصرار على أن أعباء الأسرة الحديثة يقع حملها الأكبر على عاتق النساء.

خلال السنوات القليلة الأولى من زواجنا، قمنا أنا وميشيل بإجراء التعديلات المعتادة التي ينبغي على المتزوجين إجراؤها: تعلم قراءة الحالة المزاجية، وقبول الخصال والعادات الغريبة لكل منا. ميشيل تحب الاستيقاظ باكرا ولا تستطيع مغالبة النعاس بعد العاشرة ليلا. أنا مغرم بالسهر ويمكن أن تسوء طباعي قليلا (أغدو لئيما كما تقول ميشيل) خلال نصف الساعة الأولى من نهوضي من السرير. نظرا لأنني كنت أعمل على تأليف كتابي الأول من جهة، وربما لأنني عشت معظم حياتي بوصفي الطفل الوحيد، كثيرا ما كنت أمضي الأمسيات في مكتبي خلف شقتنا؛ وما عَدَدْتُهُ أمرا عاديا ترك ميشيل تشعر بالوحدة. اعتدت على الدوام ترك الزبدة خارج الثلاجة بعد تناول الفطور ونسيان ربط كيس الخبز؛ في حين لا تعد ميشيل جمع بطاقات وقوف السيارة في المرأب واجبا مفروضا على أحد.

لكن على الأغلب، كانت تلك السنوات المبكرة مترعة بالمسرات العادية ـ الذهاب إلى السينما، تناول العشاء مع الأصدقاء، حضور الحفلات الموسيقية بين الحين

والآخـر. كنا نعمل ونكـدح معا: كنت أمارس المحامـاة في مؤسسة صغيرة متخصصة بقضايـا حقوق الإنسان، وبـدأت التدريس في كلية الحقـوق بجامعة شيكاغو، في حين قـررت ميشيل ترك المحاماة، أولا للعمـل في إدارة التخطيط في شيكاغو، ثم في إدارة فرع شيكاغو لبرنامج خدمات وطني يدعى «بوبليك الايز» تقلصت المدة التي نقضيها معـا أكثر حين قررت الترشح لمجلس شيوخ الولاية، لكن على الرغم من أوقات الغياب الطويلـة ونفور ميشيل من السياسة عموما، فقد أيدت القرار؛ كانت تقول: «أعلم أنك تريـد ذلك» في الليـالي التي كنت أقضيها في سبرينغفيلـد، كنا نتحدث ونضحك عبر الهاتف، ونتقاسم الدعابات والإحباطات الناجمة عن ابتعاد أحدنا عن الآخر، ثم أنام قرير العين وواثقا من الحب الذي يجمعنا.

ثـم ولدت ماليا، في الرابع من يوليو، ذكـرى استقلالنا، هادئة وجميلة، لها عينان واسعتان ساحرتان بدا وكأنهما تقرآن العالم لحظة فتحتهما. أتت ماليا في وقت مثالي لكلينـا: كان المجلس والجامعـة في عطلة الصيـف، وتمكنت من قضـاء كل مساء في المنزل؛ في هذه الأثناء، قررت ميشيل قبول عمل بدوام جزئي في جامعة شيكاغو، بحيث تستطيع قضاء مزيد من الوقت مع الطفلة، ولن يبدأ الدوام في الوظيفة الجديدة قبل تشريـن الأول/ أكتوبر. بقينا طوال ثلاثة أشهر ساحرة معا، نتجادل ونتحاور وتنتابنا الهواجس حول الطفلة: نقترب من سريرهـا لنتيقن أنها تتنفس، نستجدي بالملاطفة ابتسامتهـا، نغنـي لهـا، نلتقط الصور معهـا، إلى درجة أننا بدأنا نقلـق على عينيها. وفجـأة، تبـين أن اختلاف نظامنا الحيوي كان مفيدا: حين تنـام ميشيل باكرا، أسهر أنا حتى الواحدة أو الثانية صباحا، أغير «الحفاضات»، وأدفئ الحليب، وأشعر بأنفاس ابنتي الرقيقة على صدري حين أهزها لتنام، وأحاول أن أحزر أحلامها الطفولية.

لكن حين أتى الخريف ـ عندما بدأت الدروس في الجامعة، وبدأ الفصل التشريعي في المجلس، وعادت ميشيل إلى العمل ـ لاحت نذر التوترات في علاقتنا. كثيرا ما كنت أغيـب عن المنزل ثلاثة أيـام متواصلة، وحتى حين أعـود إلى شيكاغو، كنت مضطرا لحضـور الاجتماعـات المسائية، أو تصحيح أوراق امتحانـات الطلاب، أو كتابة بعض الملخصـات. أمـا ميشيـل فقد وجـدت أن العمل بـدوام جزئي يتوسع ويمتـد بطريقة

مضحكـة. عثرنا على جليسة أطفال رائعة مقيمة في المنزل لرعاية ماليا حين نكون في العمل، لكن راتبها زاد الضغط على ميزانيتنا.

لم يعـد لدينـا وقـت لتبـادل الحديث، فضلا عـن الغـرام، بسبب التعـب والشدة والإرهـاق. وحين بدأت حملتي الانتخابية المنكـودة إلى مجلس شيوخ الولاية، لم تخف ميشيـل امتعاضهـا من قراري. فجـأة لم يعد من المحبب لديهـا امتناعي عن تنظيف المطبخ، ولم تعد تبادلني قبلة الوداع في الصباح. وبحلول الوقت الذي ولدت فيه ساشا ـ التـي شابهت أختها في الجمـال والهدوء - لم تعد زوجتي تستطيع احتواء غضبها على ما يبدو.

كانـت تقول لـي: «أنت لا تفكر إلا بنفسـك. لم أحسب أبـدا أنني سأرعى عائلة وحدي»

استفزتنـي مثل هـذه الاتهامات؛ واعتقدت أنها ظالمة. فعلـى الرغم من كل شيء، أنـا لا أذهـب للسهر والعربدة مع أصدقائي كل ليلة. ولا أطالبها بالكثير ـ إذ لم أنتظر منهـا أن ترفـو جواربي أو تحضر العشاء وتنتظرني حـين أعود إلى المنزل. وكنت كلما استطعـت أسهم في رعاية الطفلتين. وكل ما أطلبه بالمقابل بعض الرقة والحنان. لكن بـدلا من ذلك، وجدت نفسي في خضم مفاوضـات لا تنتهي حول جميع تفاصيل إدارة شـؤون المنـزل، وأمام لوائح طويلة بالمهمات التي يجب أن أؤديها أو نسيت أداءها، وفي موقـف محـرج دوما. ذكّـرت ميشيل أننا عائلـة محظوظة إلى حـد لا يصدق مقارنة بمعظـم العائلات الأخرى. وأنني أحبها وأعشـق البنتين على الرغم من جميع مثالبي وعيوبي. وأعتقد أن حبي سيكون كافيا. فبرأيي، ليس ثمة سبب يدعوها للشكوى.

لم أبـدأ تقديـر حجم مـا عانته ميشيـل آنذاك، وكفاحهـا وكدهـا المميزين للأم العاملـة اليوم، إلا بعد تأمل عميق واختبارات ومحـن تلك السنين وذهاب البنتين إلى المدرسـة. فبغض النظر عن مدى الحرية التي أحببت أن أتمتع بها ـ وكم قلت لنفسي إننـا شريكان متساويان، وأحلامها وطموحاتها مهمـة مثل طموحاتي وأحلامي ـ فإن الحقيقـة أن ميشيـل، ولست أنـا، هي التي كان مـن المطلوب منها إجـراء التعديلات

الضرورية على حياتها حالما أتت البنتان. صحيح أنني قدمت بعض المساعدة، لكنها كانت وفقا لشروطي، وتبعا لبرنامجي. في هذه الأثناء، وجب عليها أن تتخلى عن عملها مؤقتا، وترعى البنتين كل يوم. فإذا مرضت إحداهما، أو لم تأت الجليسة، كان عليها أن تتصل وتعتذر عن الحضور إلى العمل.

لم يقتصر الأمر على أن المهمة الشاقة للتوفيق بين العمل ورعاية الطفلتين جعلت وضع ميشيل على هذه الدرجة من الصعوبة فقط. بل حقيقة أنها لم تكن تبلي بلاء حسنا في أي منهما من وجهة نظرها. بالطبع لم يكن ذلك صحيحا؛ فرب عملها كان معجبا بها، وشهد الجميع بنجاحها كأم. لكنني بدأت أعرف أن هناك رؤيتين اثنتين تتصارعان في ذهنها ـ الرغبة في أن تشبه أمها بكل ما اتصفت به من صلابة وموثوقية، وحب ورعاية لأولادها؛ والرغبة في التفوق في مهنتها، وترك أثر يخلدها في هذه الدنيا، وتنفيذ جميع تلك الخطط التي عرفتها في أول يوم التقينا معا.

في النهاية، أدين بالفضل لقوة ميشيل ـ استعدادها لمعالجة تلك التوترات وتقديم التضحيات من أجلي ومن أجل البنتين ـ على تجاوزنا تلك الأوقات الصعبة. لكن كان لدينا أيضا موارد في متناولنا لم يمتلكها العديد من الأسر الأمريكية. أولا، وضعنا كمهنيين سمح لنا بإعادة ترتيب برامجنا والتعامل مع حالات الطوارئ (أخذ يوم إجازة مثلا) دون التعرض لخطر فقدان الوظيفة. في حين أن 57% من الأمريكيين لا يتمتعون بهذا الترف؛ وفي الحقيقة، فإن معظمهم لا يستطيعون أخذ يوم إجازة لرعاية أطفالهم دون خسارة أجره أو حسمه من أيام الإجازة السنوية. وفيما يتعلق بالآباء الذين يحاولون وضع برامج وجداول مواعيد خاصة بهم، كثيرا ما تعني المرونة العمل في وظيفة مؤقتة أو بدوام جزئي دون ارتقاء على السلم الوظيفي ودون تعويضات ومكاسب إضافية.

كنا أنا وميشيل نحصل أيضا على دخل كاف لدفع جميع نفقات الخدمات التي تساعد على التخفيف من حدة الضغوط التي تعاني منها الأسر التي يعيلها الأبوان معا: رعاية موثوقة ويعتمد عليها للأطفال، جليسة أطفال كلما احتجنا إليها، وجبات عشاء من المطاعم نحضرها حين لا نجد الوقت أو الطاقة للطبخ في المنزل، خادمة

تأتـي مـرة في الأسبوع لتنظيف البيـت، مدرسة حضانـة خاصة للبنتـين، معسكرات صيفيـة حين بلغتا عمرا مناسبا. مثل هذه المساعـدة بعيدة، ماليا، عن متناول معظم الأسـر الأمريكية. فتكلفة الرعاية النهارية مرتفعة على نحو خاص؛ والولايات المتحدة هـي الوحيدة من بين البلدان الغربيـة التي لا توفر خدمات الرعاية النهارية المدعومة من الحكومة والجيدة النوعية إلى عمالها جميعا.

أخـيرا، كانت والدة ميشيل تسكن على بعد خمسـ عشرة دقيقة من بيتنا. صحيح أنهـا في أواخـر الستينيات لكنها تبـدو أصغر عمرا بعشر سنـين، وفي السنة الماضية، حين عادت ميشيل إلى العمل بدوام كامل، قررت ماريان (الأم) تخفيض عدد ساعات عملهـا في المصرف، بحيث تستطيع أخذ البنتين من المدرسة والعناية بهما في فترة ما بعـد الظهر. مثل هذا العون ليس متاحا للعديد من العائلات الأمريكية؛ وفي الحقيقة، فإن الوضع معكوس بالنسبة للعديد من الأسر ـ تقديم أحد أفراد العائلة الرعاية لأب طاعن في السن يعد أولوية من أولوياتها.

وبالطبـع، يستحيل على الحكومة الاتحادية أن تضمن لـكل أسرة «حماة» مدهشة تتمتـع بصحة جيـدة وشبه متقاعدة وتقيـم في منزل قريب. لكـن إذا كنا نهتم جديا بقيـم العائلة، يمكننا اتبـاع سياسات مناسبة تجعل العمل خـارج المنزل وداخله أمرا أكـثر سهولة. نستطيع البدء بإنشاء مراكز جيدة النوعية للرعاية النهارية متاحة لكل أسـرة تحتاجها. فخلافا لمعظم البلدان الأوروبية، تفتقر الرعاية النهارية في الولايات المتحـدة إلى التخطيط والتنسيق. ويمكن لتحسين معايير الترخيص والتدريب لمراكز الرعاية النهارية، وتوسيع الائتمانات الضريبية لرعاية الأطفال على المستوى الاتحادي ومستـوى الولاية، وتقديم الدعـم الحكومي للأسر المحتاجة، يمكنهـا جميعا أن توفر لآبـاء أسر الطبقة الوسطى والمحدودة الدخل شيئا من هدوء البال خلال يوم العمل ـ وتفيد أرباب العمل عبر خفض معدلات التغيب عن العمل.

حـان الوقت أيضا لإعادة تنظيم وتصميم مدارسنا ــ لا من أجل الآباء والأمهات العاملـين فقط، بل لتهيئـة وإعداد أطفالنا لعـالم تزداد فيه حـدة المنافسة. لقد أكد عدد لا يحصى من الدراسات الفوائد التعليمية لبرامج ما قبل مرحلة المدرسة، ولهذا

السبب تسعى حتى الأسر التي لا يعمل فيها الأبوان إلى إلحاق أطفالها بها. والشيء ذاته ينطبق على زيادة ساعات الدوام في المدرسة، والمدارس الصيفية، وبرامج ما بعد الدوام في المدرسة. ولا ريب في أن إتاحة هذه الفوائد لجميع الأطفال سوف تكلف مالا، لكن بوصفها جزءا من الجهود الواسعة لإصلاح حال المدارس، يجب علينا، كمجتمع، أن نستعد لتحمل التكلفة.

فوق كل شيء، نحن بحاجة إلى التعاون مع أرباب العمل لزيادة مرونة ساعات الدوام. إدارة كلينتون اتخذت خطوة في هذا الاتجاه عبر قانون الأسرة والإجازة الطبية، لكن لأنه ينطبق على الإجازة غير مدفوعة الأجر والشركات التي تضم أكثر من خمسين موظفا فقط، لم يتمكن معظم العمال الأمريكيين من الاستفادة منه. ومع أن جميع الدول الغنية الأخرى (باستثناء واحدة) تتبع صيغة من صيغ إجازة الأمومة المدفوعة الأجر، إلا أن معارضة قطاع الأعمال للإجازة المدفوعة الأجر كانت ضارية، وذلك بسبب القلق من التأثير السلبي على الأعمال التجارية الصغيرة.

مع قليل من الإبداع، يجب أن نتمكن من التغلب على هذه الورطة. كاليفورنيا بدأت حديثا تطبيق الإجازة المدفوعة الأجر، من خلال صندوق ضمان العجز، لكن مع تيقن ألا يتحمل أرباب العمل وحدهم التكلفة.

يمكننا أيضا التعامل بمرونة مع الآباء والأمهات لتمكينهم من تلبية احتياجاتهم اليومية. والعديد من الشركات الكبرى تعرض على موظفيها دواما مرنا، وهذا أدى إلى ارتفاع معنوياتهم وتقليص معدل تبديل الوظائف. أما بريطانيا فقد ابتكرت مقاربة جديدة لحل المشكلة - كجزء من «حملة التوازن بين العمل والحياة» التي تحظى بشعبية كبيرة، حيث يحق للآباء الذين تقل أعمار أطفالهم عن ست سنوات الطلب من أرباب العمل تغيير موعد دوامهم. صحيح أن أرباب العمل ليسوا ملزمين بالموافقة، لكن عليهم الاجتماع مع الموظفين للتفكير بالأمر؛ ونجح حتى الآن ربع الآباء البريطانيين المتمتعين بهذا الحق في العمل بدوام يناسب الأسرة دون حدوث أي انخفاض في الإنتاجية. ومع توليفة تجمع رسم مثل هذه السياسة المبتكرة، والمساعدة التقنية، وزيادة الوعي، يمكن للحكومة أن تعين الشركات والمنشآت التجارية على مساعدة موظفيها بنفقات رمزية.

وبالطبـع لا يحتاج أي من هذه السياسات إلى منع العائلات من إبقاء أحد الأبوين في المنزل، بغض النظر عن التضحيات المالية. ففيما يتعلق ببعض العائلات، قد يعني ذلـك حرمانها مـن بعض وسائل الراحة المادية. وبالنسبـة لغيرها، قد يعني الدراسة في المنـزل، أو الانتقال إلى حي تنخفض فيـه تكلفة المعيشة. وبالنسبة لعائلات أخرى، قد يضطر الأب إلى البقاء في المنزل ـ مع أن الأم تقوم بدور مقدم الرعاية الرئيس في غالبية الأسر.

ومهمـا كانـت الحالة، يجب احترام مثل هـذه القرارات. فـإذا أصاب المحافظون بشـيء فهـو أن ثقافتنا الحديثة تخفق أحيانا في تقدير قيمـة المساهمات الاستثنائية، العاطفيـة والمالية ــ التضحيات والكدح ــ لربة المنزل. أما ما أخطـأ فيه المحافظون فهـو الإصرار على أن هذا الدور التقليـدي أصيل وفطري ـ نموذج الأمومة الأفضل أو الوحيد. أريد لابنتي أن تختار ما هو أفضل لها ولأسرتها. ولن يعتمد ذلك على جهدها وموقفهـا فقط، بل على رجال ــ ومجتمع أمريكي ـ يحترمـون ويستوعبون الخيارات التي تتخذها، كما علمتني ميشيل.

«مرحبا يا أبي»

«مرحبا يا حلوتي»

إنـه أصيل يوم الجمعـة، وقد عدت إلى البيت مبكرا لأرعـى البنتين عندما تذهب ميشيـل إلى الحلاق. عانقـت ماليا ولاحظت وجود فتاة شقـراء في مطبخنا، ترمقني عبر نظارتين كبيرتين.

سألت «من هذه؟»

«هذه سام، جاءت لنذهب للعب معا»

«مرحبـا يا سام»، ومددت يدي فترددت قبل أن تصافحني. ونظرت إليَّ ماليا غير مصدقة.

«اسمع يا أبي.. يجب ألا تصافح الأطفال»

«ألا تفعلون ذلك؟»

قالـت ماليا: «لا. حتى المراهقـين لا يتصافحون. لربما لم تلاحظ، لكننا في القرن الحادي والعشرين»، ونظرت إلى سام التي كبحت ابتسامة.

«وماذا تفعلون في القرن الحادي والعشرين؟»

«نكتفي بقول: مرحبا، وأحيانا نلوح. هذا يكفي»

«أجل. آمل أنني لم أسبب لك إحراجا»

ابتسمـت ماليـا وقالـت: «لا بأس يا أبـي. أنت لا تعـرف، فقد اعتـدت مصافحة الكبار»

«هذا صحيح. أين أختك؟»

«في الطابق العلوي»

صعـدت إلى الطابق العلوي لأجد ساشا تقـف بملابسها الداخلية وصدرية وردية. عانقتني ثم قالت إنها لا تجد بنطالا قصيرا تلبسه. بحثت في الخزانة فوجدت واحدا أزرق اللون فوق الدرج.

«ما هذا؟»

عبست ساشا لكنها أخذته على مضض ولبسته. بعد بضع دقائق جلست في حضني.

«هذا البنطال ليس مريحا يا أبي»

عدنـا إلى الخزانـة مرة أخرى وفتحنا الـدرج ووجدنا بنطالا قصـيرا آخر، أزرق اللون أيضا. سألتها: «ماذا عن هذا البنطال؟»

قطبت مجددا، وبدت نسخة مصغرة عن أمها. دخلت ماليا وسام لمراقبة الأزمة.

قالت ماليا مفسرة: «ساشا لا تحب هذه السراويل»

التفت إلى ساشا وسألتها عن السبب. نظرت إلي بحذر وكأنها تقيس طول قامتي.

قالت أخيرا: «الوردي والأزرق لا يتناسقان»

قهقهت ماليا وسام. حاولت أن أبدو متجهما مثلما تفعل ميشيل في مثل هذه الظروف، وأمرت البنت بارتداء البنطال. أطاعت، لكنني أدركت أنها تنفذ رغبتي.

حينما يتعلق الأمر بالبنتين، لا يخدع أسلوبي الصارم أحدا.

ومثل العديد من الرجال اليوم، نشأت دون وجود أب في المنزل. فقد انفصل أبي وأمي بالطلاق حين كان عمري سنتين، ولم أعرف أبي إلا عبر الرسائل التي كان يبعث بها أو الحكايات التي ترويها أمي وجدتي. كان هناك رجال في حياتي - عمي زوج أمي الذي عشنا معه أربعة أعوام، وجدي الذي ساعد جدتي في تربيتي، وكلاهما رجل طيب أبدى نحوي كل مودة ورقة ولطف. لكن علاقاتي معهما كانت بالضرورة جزئية وغير مكتملة. في حالة عمي، كان ذلك نتيجة المدة المحدودة التي قضيناها معا وطبيعته المتحفظة. وصحيح أنني كنت مقربا من جدي، لكنه كأن طاعنا في السن ويعاني مشكلات كثيرة بحيث لم يتمكن من توجيهي.

النساء، إذن، هن اللاتي وفرن الاستقرار في حياتي - جدتي التي استطاعت بقدرتها العملية العنيدة إنقاذ الأسرة من الغرق، وأمي التي تمكنت بما قدمته من حب وما تمتعت به من صفاء الروح من الإبقاء على عالمنا أنا وشقيقتي مركزا. وبسبب تضحياتهما لم أشعر بالحاجة قط إلى أي شيء مهم. ولسوف آخذ منهما القيم التي استهديت بهديها حتى اليوم.

ومع ذلك، أدركت حين كبرت مدى الصعوبة التي واجهتها أمي وجدتي في تربيتنا دون وجود رجل قوي في البيت. شعرت أيضا بالتأثير الذي يخلفه غياب الوالد في الطفل. وقررت أن أحول عدم تحمل والدي مسؤوليته تجاه أولاده، وبعد عمي عني، وإخفاقات جدي، إلى دروس استخلص منها العبر، وأن يكون لأولادي أب يعتمدون عليه.

بالمعنى الأساس، حققت نجاحا في هذا السياق. فزواجي مستمر وناجح ولم أتردد في إعالة أسرتي. وأنا أحضر الاجتماعات التي تضم الآباء والمدرسين والحفلات

المدرسيــة، ولا ينقصــ ابنتيَّ الحنان والعطف والحب. ومع ذلــك، تظل طاقاتي كزوج وأب، من بين جميع المجالات الأخرى، محل شك وريبة.

أدرك أننــي لست الوحيد في ذلك؛ فعلى مستوى مــن المستويات، أعاني العواطف المتناقضــة ذاتهــا التي تــلازم الآبــاء الآخرين في وضــع اقتصادي متقلــب ومعايير اجتماعيــة متغيرة. فصورة الأب في خمسينيات القــرن العشرين ـ إعالة أسرته عبر وظيفــة يمتد الــدوام فيها من التاسعة صباحــا إلى الخامسة مســاء، وتناول العشاء التــي تحضره زوجتــه كل أمسية، وتدريب فريق الشباب، وإجــراء بعض التصليحات في المنــزل ـ ما زالت تهيمن على الثقافة بقوة، مثلها مثل صورة الأم ربة المنزل، حتى وإن زادت صعوبــة محاكاتها باطــراد. وفي نظر الكثيرين اليوم، يعد العجز عن إعالة الأســرة مصدرا للإحبــاط وحتى للخزي والعار؛ وليس من الضــروري أن يكون المرء مــن دعاة الحتميــة الاقتصادية كي يؤمن بأن ارتفاع معــدلات البطالة وتدني الأجور يسهمــان في عــدم تحمــل الأب لمسؤولياتــه و انخفاضــ معدلات الزواج بــين الرجال الأمريكيين الأفارقة.

فيما يتعلق بالعاملين، وبالعاملات أيضا، تغيرت شروط الاستخدام. وبغض النظر أكان الأب مهنياً مرتفع الأجر أم مجرد عامل عادي على خط التجميع، فهو يقضي مدة أطــول في الوظيفة مقارنة بحاله في الماضي. مثل هذه الوظائف التي تتزايد متطلباتها فيمــا يتعلق بالــدوام متزامنة مع توقع ـ وفي كثير من الحالات، حاجة ـ أن يكون الآباء أكثر مشاركة في حياة أبنائهم مقارنة بمشاركة آبائهم في حياتهم.

لكــن إذا كانت الفجوة بين مفهوم الأبوة/ الأمومة كما أفكر فيه والواقع الحياتي ليســت فريدة، فإن ذلك لا يلغي شعوري بأنني لا أعطي عائلتي دوما كل ما أستطيع. في عيــد الآبــاء الماضي، دعيــت للتحدث أمــام أعضــاء كنيسة ســالم المعمدانية في منطقــة ساوث سايــد في شيكاغو. لم يكــن أمامي نص مكتوب، لكــن الموضوع كان: «كيــف تصبح رجلا ناضجا تمام النضج؟» قلــت: «إن الوقت قد حان للرجال عموما والسود على وجه الخصوص للتخلي عن أعذارهم التبريرية للابتعاد عن عائلاتهم. وذكــرت الرجال الحاضريــن أن الأبوة تعني أكثر من مجــرد رعاية الأطفال؛ وحتى

أولئـك الذين لا يغيبون عـن بيوتهم جسدياً كثيراً ما يغيبون عنها عاطفيا ووجدانيا؛ ولأن العديـد منـا لم يكن لديه آباء في المنزل، علينـا مضاعفة جهودنا لكسر الحلقة المفرغـة؛ وإذا أردنا أن ننقل الآمال والطموحات الكبـيرة لأطفالنا، علينا أن نمتلك أولاً مثل هذه الآمال والطموحات».

حـين أفكر بما قلت حينئـذ، أسأل نفسي أحيانـاً هل أطبق بالأفعال مـا أدعو إليه بالأقـوال؟. فعلـى الرغـم من كل شـيء، وخلافا للعديـد من الرجـال الذين تحدثت أمامهـم ذلك اليوم، لست مضطـرا للعمل في وظيفة إضافيـة أو ليلية لإعالة أسرتي. فقد كان بمقدوري العثور على وظيفة تسمح لي بالبقاء في المنزل كل ليلة أو العثور على عمل بأجر أعلى، تبرر فيه ساعات الدوام الطويلة بعض المكاسب لأسرتي ـ كأن تقلص ميشيل ساعات عملها مثلاً، أو ندخر مزيدا من المال للبنتين.

بدلاً من ذلك، اخترت حياة مهنية تتسم بسخف برنامجها وساعات دوامها، حياة تتطلـب مني الغياب عن ميشيل والبنتين مدة طويلة، وهذا يعرض ميشيل لجميع أنواع الإجهـاد والضغوط. قـد أقول لنفسي إننـي بالمعنى الأوسع أعمـل بالسياسة من أجل ماليا وساشا، وأن العمل الذي أقوم به سوف يجعل العالم مكاناً أفضل لهما. لكن مثل هـذه العقلنة تبدو واهيـة ومغالية في التجريد إلى حد مؤلم حـين تفوتني المشاركة مع البنتـين في مأدبـة الغداء التي تقيمها المدرسة بسبب التصويـت في المجلس، أو أتصل بميشيل لإبلاغها بتمديد الجلسة وضرورة تأجيل العطلة التي قررنا قضاءها معا. وفي الحقيقـة، لم يفلح النجاح الذي حققته في السياسـة في تخفيف حدة الشعور بالذنب؛ ومثلما قالت ميشيل ذات مرة، في شبه مداعبة، إن رؤية صورتي في الجريدة أمر مثير أول مرة، لكنها تصبح نوعاً من الإحراج بمرور الزمن.

وهكـذا، بذلـت قصارى جهدي للرد علـى الاتهام الذي يهيمن علـى تفكيري ـ أنا شخصـ أناني، وهـدفي الوحيد هو تدعيـم وتضخيم شعوري الأنوي ومـلء الفراغ في ذاتـي. فحين أكون في المدينة، أحـاول تناول العشاء في المنـزل، وسماع حكايات ماليا وساشـا عما جرى خلال اليوم، وقراءة القصص لهمـا، ووضعهما في السرير. أحاول عـدم الارتبـاط بمواعيد أيام الأحـد، وأستغلهـا في عطلة الصيف لآخـذ البنتين إلى

حديقة الحيوانات أو المسبح؛ أما في الشتاء فنزور المتحف أو حوض الأسماك. وأعنف البنتين برقة ولطف حين تسيئان التصرف، وأحاول تقليص ما تأخذانه من التلفزيون وما تأكلانه من الطعام غير الصحي. أتلقى التشجيع على ذلك كله من ميشيل، مع شعوري في بعض الأحيان أنني انتهكت مجالها الحيوي ــ وأنني بغيابي المستمر ربما عززت بعض الحقوق في التدخل في العالم الذي شيدته.

وفيما يتعلق بالبنتين، يبدو أنهما في وضع مزدهر وسعيد على الرغم من غيابي المتواصل. وتلك شهادة دامغة على مهارات الأمومة التي تتمتع بها ميشيل؛ فهي على ما يبدو تمتلك لمسة سحرية حين يتصل الأمر بماليا وساشا، قدرة على رسم الحدود دون شدة أو تصلب. وهي تعمل على ضمان عدم تعديل أسلوب حياة البنتين كثيراً نتيجة انتخابي إلى مجلس الشيوخ، مع أن التغيير الذي أصاب أطفال الطبقة الوسطى في أمريكا هذه الأيام يماثل ما أصاب الآباء على ما يبدو. لقد ولت تلك الأيام التي كان فيها الأبوان يرسلان طفلهما ليلعب خارج المنزل أو في الحديقة على أن يعود قبل العشاء. فمع أخبار عمليات الاختطاف وشك الآباء بكل ما هو تلقائي وعفوي، أو حتى نتيجة شيء من الكسل، فإن برامج ومواعيد الأطفال تنافس برامج ومواعيد الآباء. هنالك الاجتماعات التي يعقدها الآباء والأمهات ليتيحوا لأطفالهم اللعب معا، ودروس الباليه واللياقة البدنية والتنس والبيانو، والمباريات الرياضية، وحفلات أعياد الميلاد التي يبدو أنها تقام أسبوعياً. قلت لماليا ذات مرة إنني لم أحضر طوال مرحلة الطفولة أكثر من حفلتي عيد ميلاد، ولم يزد عدد الحاضرين في كل منهما عن خمسة أو ستة أطفال. فنظرت إلي كما كنت أنظر إلى جدي حين كان يروي لي قصص حقبة الكساد الكبير، بمزيج من الانسحار وعدم التصديق.

مهمة تنسيق نشاطات البنتين متروكة في عهدة ميشيل، التي تؤديها بنجاعة وكفاءة. وأتطوع أنا، عندما أستطيع، للمساعدة، وهو أمر تقدره ميشيل، مع أنها حريصة على تقليل حجم مسؤولياتي. ففي اليوم السابق على حفلة عيد ميلاد ساشا في يونيو الماضي، طُلب مني شراء عشرين بالونا، وما يكفي من البيتزا لإطعام عشرين طفلاً، إضافة إلى المثلجات. بدا ذلك أمراً أستطيع تدبره، وعندما قالت ميشيل إنها

ذاهبة لتحضر بعض الأكياس لتضع فيها الهدايا والأطعمة ونوزعها عند انتهاء الحفلة، اقترحت أن أقوم أنا بالمهمة، فردت ضاحكة:

«لا يمكنك ذلك. دعني أشرح لك. عليك أن تذهب إلى المتجر وتختار الأكياس، ثم تختار ما ستضعه فيها، ومحتوى أكياس البنات يجب أن يكون مختلفا عن محتوى أكياس الصبيان. عليك أن تتجول في المتجر مدة ساعة، فتشعر أن رأسك سينفجر»

تراجعت ثقتي بنفسي. لكنني عثرت عبر الإنترنت على متجر يبيع البالونات قرب المكان الذي ستقام فيه الحفلة، ومطعم للبيتزا وعد بإرسال ما طلبت في الساعة 3:45. بحلول الوقت الذي بدأ فيه المدعون يأتون في اليوم التالي، كانت البالونات معلقة في مكانها وعلب العصير جاهزة وباردة. جلست مع الآباء الآخرين أراقب زهاء عشرين طفلا وطفلة في نحو الخامسة من العمر يقفزون ويلعبون كجماعة من الأقزام المسحورين المبتهجين. أحسست بشيء من القلق حين لم تحضر البيتزا في الساعة 3:50، لكنها وصلت قبل عشر دقائق من موعد الطعام. كريغ، شقيق ميشيل، هنأني، وميشيل ابتسمت مشجعة وهي تضع قطع البيتزا على الأطباق الكرتونية.

كان الختام مسكا، فبعد أن التهم الأطفال البيتزا وشربوا العصير، وأنشدنا معا «سنة حلوة»، وتناولنا بعض قطع الكاتو، جمع مدرب التمارين الرياضية الأطفال كلهم حول مظلة قديمة متعددة الألوان وطلب من ساشا الجلوس في المركز. وعند العدد حتى ثلاثة، طارت ساشا في الهواء وعادت مرة أخرى. تكررت الحركة البهلوانية ثلاث مرات، وفي كل مرة ارتفعت فيها ضحكت وضحكت من أعماق قلبها.

أتساءل هل ستتذكر ساشا تلك اللحظة حين تكبر. لربما لن تذكر؛ إذ يبدو أنني لا أستطيع استعادة سوى نتف من الذكريات من عمر الخامسة. لكني أحسب أن السعادة التي شعرت بها سوف تعلق إلى الأبد في نفسها؛ هذه اللحظات تتراكم وتنغرس في شخصية الطفل، وتصبح جزءا من ذاته. في بعض الأحيان، حين أسمع ميشيل تتحدث عن والدها، أسمع صدى مثل هذه البهجة في داخلها: الحب والاحترام اللذين حظي بهما فرازير روبنسون لا عبر الشهرة أو الأعمال المشهودة، بل التصرفات العادية

اليومية ـ حب اكتسبه لأنه موجود هناك على رأس عائلته. وأسأل نفسي هل ستذكرني البنتان بالطريقة ذاتها.

سرعـان ما تغلـق نافذة هذه الذكريات. يبدو أن ماليا منـذ الآن تنتقل إلى مرحلة جديدة؛ فهـي أكثر اهتماما بالفتيان والعلاقات، وبملابسهـا. كانت على الدوام تبدو أكبر من عمرها، وتتمتع بحكمة استثنائية. في إحدى المرات، حين كانت في السادسة، كنـا نتحدث ونحـن نسير على شاطئ البحيرة، فسألتنـي دون مقدمات هل نعد عائلة ثريـة. قلت إننا لسنا أثرياء فعـلا، لكننا نملك مالا أكثر من معظم الناس. ثم سألتها لماذا تريد أن تعرف.

«كنت أفكر.. وقررت أنني لا أريد أن أكون غنية. أريد أن أعيش حياة بسيطة»

كانـت كلماتهـا مفاجئة إلى حد أنني ضحكت فنظـرت إلي وابتسمت، لكن عيناها أكدت أنها تعني ما قالته.

كثـيرا مـا أفكر بذلك الحديث بيننـا. وأسأل نفسي ما هـو رأي ماليا بحياتي التي ليست بسيطة كثيرا. من المؤكد أنها لاحظت أن آباء أفراد فريقها يحضرون المباريات أكـثر منـي، ولو أزعجهـا ذلك لما بـان عليها، لأنها تميـل إلى المحافظـة على مشاعر الآخريـن، وتحـاول رؤية أفضل ما في كل حالة. ومع ذلـك، يريحني قليلا التفكير بأن ابنتي التي بلغت الثامنة تحبني إلى حد تتغاضى فيه عن نواقصي وعيوبي.

تمكنـت من حضور إحدى مباريات ماليا منذ مدة، حـين انتهى الفصل التشريعي قبل أسبوع من الوقت المحدد. كان أصيل يوم صيفي جميل، والعائلات منتشرة في كل مكان حـين وصلت، من السود والبيض واللاتين والآسيويـين من جميع أنحاء المدينة، نسـاء يجلسن علـى الكراسي، ورجال يلعبـون الكرة مع أطفالهـم، وأجداد يساعدون الأطفـال الصغـار على الوقوف. وجـدت ميشيل وجلست على العشـب بجانبها، وأتت ساشـا وجلسـت في حضني. كانت ماليا في الملعب، ضمـن جماعة من اللاعبين الذين يحيطون بالكرة. ومع أن كرة القدم (الأمريكية) ليست رياضتها المفضلة ـ فهي أطول قامـة من أصدقائها، لكن قدميها الصغيرتين لا تناسبان طول جسمها ـ إلا أنها تلعب

بطريقة متحمسة وتنافسية جعلتنا نهتف لها ونشجعها. في استراحة ما بين الشوطين، أتت إلى حيث كنا نجلس.

سألتها: «كيف حالك يا صديقة؟»

قالت وهي ترشف الماء: «على أحسن ما يرام! أبي، لدي سؤال»

«هيا»

«هل نستطيع شراء كلب؟»

«ما رأي أمك؟»

«طلبت مني أن أسألك. أعتقد أنني أقنعتها»

نظرت إلى ميشيل، فابتسمت وهزت كتفيها.

قلت: «لماذا لا نؤجل الحديث إلى ما بعد المباراة»

«حسنا»، ثم قبلتني وهي تشرب جرعة أخرى من الماء وقالت «أنا سعيدة بوجودك»

قبل أن أجيب كانت في الملعب. لوهلة، وفي وهج شمس الأصيل، شعرت وكأنني رأيت المرأة التي ستكونها ابنتي الكبرى، كأنما في كل خطوة تزداد طولا، ورشاقة، وكأن ساقيها الطويلتين تأخذانها إلى حياة خاصة بها.

ضممت ساشا إلى صدري بقوة. ميشيل أمسكت يدي، كأنها تستشعر ما أحس به. تذكرت شاهدا قالته ميشيل أمام أحد الصحفيين خلال حملتي الانتخابية، حين سألها ماذا يعني لها أن تكون زوجة سياسي.

قالت: «إنه وضع صعب»، ثم أضافت حسب ما قال الصحفي وعلى محياها ابتسامة ماكرة: «ولهذا السبب أراه حامدا شكورا»

كانت زوجتي على حق، كعادتها دائما وأبدا.

خاتمة

مراسم أدائي القسم عضوا في مجلس شيوخ الولايات المتحدة (كانون الثاني/ يناير 2005) استكملت عملية بدأت في اليوم الذي أعلنت فيه ترشيحي قبل سنتين ـ واستبدال حياة مغمورة نسبيا بأخرى عامة وشهيرة.

من المؤكد أن العديد من الأمور بقيت على حالها. فأسرتنا ما زالت تقيم في شيكاغو. وما زلت أذهب إلى الحلاق ذاته، ولم نغير أصدقاءنا، أنا وميشيل، الذين يأتون لزيارتنا في البيت، وما زالت البنتان تلعبان في الملاعب نفسها.

ومع ذلك، ليس ثمة شك في أن العالم قد تغير تغيرا عميقا بالنسبة لي، بطرائق لا أعترف بها دائما. كلماتي، وأفعالي، وخطط رحلاتي، وضرائبي، أصبحت تنشر في الصحف الصباحية أو تبث في نشرات الأخبار المسائية. ووجب على ابنتي تحمل أن يقاطع نزهتنا في حديقة الحيوانات غرباء يظهرون الود ويتحدثون معي. حتى خارج شيكاغو، غدا من الصعب السير في المطارات، مثلا، دون أن أثير انتباه الناس.

على وجه العموم، أجد من الصعب التعامل مع هذا الاهتمام كله بجدية كبيرة. فعلى الرغم من كل شيء، ما زلت في بعض الأيام أخرج من البيت وأنا أرتدي سترة لا تناسب البنطال. وأفكاري تفتقر إلى الترتيب، وأيامي تفتقد التنظيم، وصورتي الحقيقية لا تتطابق كثيرا مع تلك التي تبرزها الآن وسائل الإعلام أمام العالم، وتفسر أحيانا بعض اللحظات الهزلية. أتذكر اليوم السابق على أداء القسم، حين قررت أنا والموظفون المساعدون عقد مؤتمر صحفي في مكتبي. في ذلك الوقت، كان ترتيبي التاسع والتسعين في السن، واحتشد جميع المراسلين في مكتب مؤقت صغير في قبو مبنى ديركسن، قرب مستودعات التموين التابعة للمجلس. كان ذلك يومي الأول في المبنى؛ لم أشارك في أي عملية تصويت، ولم أقدم أي مشروع قانون ـ في الحقيقة، لم أجلس بعد في مقعدي حين رفع مراسل جدي الملامح يده وسأل: «سيناتور أوباما، أين هو مكانك في التاريخ؟».

حتى بعض المراسلين الآخرين غلبهم الضحك.

يمكن اقتفاء أثر المبالغة والغلو في الخطبة التي ألقيتها أمام المؤتمر الديمقراطي في بوسطـن عام 2004، حين أثرت أول مرة الاهتمام على المستوى الوطني. في الحقيقة، بقيت العملية التي تم عبرها اختياري المتحدث الرئيس سرا غامضا بالنسبة لي. كنت قـد التقيت جون كـيري أول مرة بعد الانتخابات التمهيدية في الينوي، حين تحدثت في حملتـه لجمع التبرعات، ورافقته في مهمة استهدفت تسليط الضوء على أهمية برامج التدريب الوظيفية. بعد بضعة أسابيع، علمنا أن مساعدي كيري يريدون مني التحدث أمـام المؤتمر، مـع أنه لم تتضح بعد الصفـة التي أمثلها. بعد الظهـر، ركبت السيارة عائـدا من سبرينغفيلـد إلى شيكاغو للمشاركة في الحملـة، واتصلت بي مديرة حملة كيري الانتخابية لتبلغني النبأ. بعد انتهاء المكالمة قلت لسائقي مايك سيغناتور:

«أعتقد أن الأمر مهم جدا»

أومأ مايك وقال: «يمكنك أن تقول ذلك»

لم أحضـر مؤتمـرات الحزب الديمقراطي من قبل سوى مـرة واحدة، مؤتمر عام 2000 في لوس أنجلوس. لم أخطط لحضور ذلك المؤتمر؛ كنت خارجا للتو من الهزيمة التي منيت بها في الانتخابات التمهيدية للحصول على مقعد المنطقة التشريعية الأولى في ولايـة الينوي ومصممـا على قضاء معظـم عطلة الصيف في استكمـال الواجبات والقضايـا القانونية التي تركتها خلال الحملة (وهذا إهمـال تركني مفلسا تقريبا)، إضافـة إلى تعويضـ الوقـت الـذي خسرته مع زوجـة وابنة غبت عنهمـا كثيرا خلال الشهور الستة الماضية.

لكـن في اللحظـة الأخيرة، أصر عدد من الأصدقـاء والأنصار من المخططين على الانضمام إليهم. قالوا إن عليك توطيد اتصالات على المستوى الوطني، تفيدك عندما تترشـح مـرة أخرى ـ وعلى أي حال ستكون المناسبة ممتعـة. ومع أنهم لم يلمحوا إلى أمـر آخر آنـذاك، إلا أنني أظن أنهم عدوا الرحلـة إلى المؤتمر نوعا من العلاج المفيد لي، علـى أسـاس أن أفضـل شيء أفعله بعـد أن سقطت عن الحصان هـو العودة إلى السبيل الصحيح.

في نهاية المطاف أذعنت وحجزت تذكرة إلى لوس أنجلوس. وحين حطت الطائرة، ذهبت إلى مكتب هيرتز لتأجير السيارات وناولت الموظفة بطاقتي الائتمانية، وبدأت أبحث في الخريطة عن الاتجاهات المؤدية إلى فندق رخيص السعر، فوجدت واحدا قرب فينيس بيتش. بعد بضع دقائق عادت الموظفة وعلى وجهها أمارات الإحراج

«عفوا يا سيد أوباما، رفضت بطاقتك».

«هذا مستحيل، هل يمكنك المحاولة مرة أخرى؟».

«حاولت مرتين يا سيدي. ربما عليك الاتصال بأمريكان اكسبريس».

بعد مكالمة دامت نصف ساعة على الهاتف، أجاز المشرف الطيب استخدام بطاقتي لاستئجار سيارة. لكن الحادثة كانت نذير شؤم. ونظرا لأنني لست مندوبا، لم أتمكن من ضمان الحصول على إذن بدخول قاعة المندوبين؛ ووفقا لرئيس الحزب في الينوي، فقد تلقى سيلا دافقا من الطلبات، وأفضل ما يمكن أن يفعله هو منحي الإذن بدخول مكان الاجتماع. ولذلك، انتهى بي المطاف أشاهد وأستمع إلى معظم الخطب عبر شاشات التلفزيون المبعثرة في مختلف أرجاء مركز ستيبلز، وأتبع الأصدقاء أو المعارف إلى المقصورات حيث اتضح أنني غريب عن المكان. بحلول مساء الثلاثاء، أدركت أن حضوري لا يفيدني ولا يخدم أي هدف بيّن للحزب الديمقراطي، وبحلول الأربعاء كنت على أول رحلة عائدا إلى شيكاغو.

نظرا للفارق الواسع بين دوري السابق كضيف غير مدعو ودوري الجديد كخطيب رئيس، شعرت ببعض القلق من أن ظهوري في بوسطن قد لا يسير على ما يرام. لكن لأنني ربما تعودت بحلول ذلك الوقت الأمور الغريبة التي تحدث في حملتي الانتخابية، لم أحس بأي توتر. بعد بضعة أيام من مكالمة السيدة كاهيل، عدت إلى غرفتي في الفندق في سبرينغفيلد، أدون الملاحظات في مسودة الخطبة في حين أشاهد مباراة في كرة السلة. فكرت بالموضوعات التي تناولتها خلال الحملة - استعداد الناس للعمل بجد ودأب إذا منحوا الفرصة، ضرورة قيام الحكومة بتوفير الأرضية المناسبة للفرص، الاعتقاد أن الأمريكيين يشعرون بالتزام متبادل تجاه

بعضهم بعضا. وضعت قائمة بالقضايا التي يمكن أن أتطرق لها ـ الرعاية الصحية، والتعليم، والحرب في العراق.

لكن قبل كل شيء، فكرت بأصوات جميع الناس الذين قابلتهم خلال مسار الحملة. تذكرت تيم ويلر وزوجته في غيلزبرغ، محاولا معرفة الطريقة التي يمكن عبرها لابنهما المراهق إجراء عملية زرع الكبد التي يحتاج إليها. تذكرت شابا في ايست مولين اسمه سيموس اهرن الذي كان في طريقه إلى العراق ـ رغبته في خدمة وطنه، أمارات الفخر والاعتزاز والخوف على وجه والده. تذكرت شابة سوداء قابلتها في ايست سنت لويس، نسيت اسمها، أخبرتني عن مساعيها للانتساب إلى الجامعة رغم عدم وجود أحد في أسرتها تخرج في المدرسة الثانوية.

لم يكن كفاح هؤلاء الرجال والنساء هو الذي أثر في نفسي، بل عزيمتهم، واعتمادهم على الذات، وتفاؤلهم العنيد على الرغم من المشقات. تذكرت جملة استخدمها القس جيرميه رايت، في إحدى مواعظه:

الجرأة على الأمل

فكرت بأنها تجسد أفضل ما في الروح الأمريكية ـ الجرأة على الإيمان بأن في مقدورنا استعادة حس الجماعة إلى أمة مزقتها الصراعات، على الرغم من الأدلة التي تثبت العكس؛ التجرؤ على الاعتقاد أننا نمتلك بعض السيطرة ـ ومن ثم المسؤولية ـ على مصيرنا، على الرغم من النكسات الشخصية، أو فقدان الوظيفة، أو مرض أحد أفراد العائلة، أو الطفولة الممرغة في وحل الفقر.

تلك الجرأة، كما فكرت، هي التي جمعتنا معا كشعب واحد. روح الأمل المنتشرة تلك هي التي ربطت قصة عائلتي مع قصة المجتمع الأمريكي الأوسع، وقصتي الشخصية مع قصص الناخبين الذين أسعى إلى تمثيلهم.

توقفت عن متابعة المباراة، وأغلقت التلفزيون، وبدأت الكتابة.

بعد بضعة أسابيع، وصلت إلى بوسطن، وسرقت ثلاث ساعات نوم، وذهبت من فندقي إلى فليت سنتر من أجل أول ظهور لي في برنامج «قابل الصحافة». وقرب

انتهـاء البرنامـج، وضع تيم روسيرت على الشاشة مقتطفـات من مقابلة أجريتها مع صحيفـة كليفلاند بلين ـ ديلر غابت عن ذاكرتي كليا، حيث سألني المراسل ـ بوصفي دخلـت للتو معترك السياسة كمرشـح لمجلس شيوخ ولاية الينوي ـــ عن رأيي بالمؤتمر الديمقراطي في شيكاغو:

المؤتمر للبيع.. أنت تحصل على طبق العشاء مقابل 10 آلاف دولار، وبطاقة النادي الذهبية. أعتقد أن الناخب العادي حين يرى ذلك، يشعر بأنه مبعد عن العملية. إذ لا يمكنه حضور حفلة إفطار بقيمة 10 آلاف دولار. ويعرف أن القادرين ستتاح لهم أمور لا يتصورونها حتى في خيالهم.

بعد أن غاب الشاهد المقتبس عن الشاشة، التفت روسيرت إلي وقال: «مئة وخمسون متبرعـا قدموا أربعين مليـون دولار لهذا المؤتمر. الوضع أسـوأ حالا من شيكاغو وفقا لمعايـيرك. هـل تشعر بتعرضـك للإساءة، ومـا الرسالة التي يبعث بهـا ذلك كله إلى الناخب العادي؟».

قلـت مجيبا إن السياسة والمال يمثلان مشكلة للحزبين كليهما، لكن سجل تصويت جـون كيري، وسجلـي أنا، أشارا إلى أننـا صوتنا لمصلحة البلـد. وأن المؤتمر لن يغير ذلـك، مع أنني اقترحت فعلا أنه كلما زاد تشجيع الديمقراطيين للمشاركة من جانب الناس المغيبين عن العملية، زاد إخلاصنا لأصولنا وجذورنا كحزب المواطنين العاديين، وتعاظمت قوتنا كحزب سياسي.

اعتقدت في سري أن الشاهد الأصلي (لعام 1996) كان أفضل وأصدق تعبيراً.

في بعض الأحيـان كانت المؤتمرات السياسية تعبر عن الحالات الطارئة والدرامية للسياسـة ـــ حين كانـت الترشيحـات تقررها قيـادات المؤتمـر وأعـداد الحاضرين والصفقـات الجانبية والضغـوط والتهديدات، حين كانت العواطـف والأهواء أو سوء الحساب تؤدي إلى جولة ثانية أو ثالثة أو رابعة من التصويت. لكن هذا الزمان مضى وانقضـى. فمع ظهـور الانتخابـات التمهيدية الملزمـة، وإنهاء هيمنـة زعماء الحزب والصفقـات الجانبية والمفاوضات السريـة، لم تعد المؤتمرات تخبئ المفاجآت. بل تعد

إعلانـا دعائيـا يستمر أسبوعـا للحزب ومرشحه ـ إضافة إلى كونهـا وسيلة لمكافأة الأنصار المخلصين والمساهمين الرئيسيين في الحزب بأربعة أيام من الطعام والشراب والتسلية وتبادل الحديث عن القضايا التي تهمهم.

قضيـت معظم الأيام الثلاثـة الأولى من المؤتمر أمارسـ دوري في هذا المهرجان. تحدثـت في قاعـات مليئـة بالمتبرعـين الديمقراطيين الرئيسيـين، وتناولـت الفطور مـع مندوبين مـن الولايات الخمسين. كنـت أجرب إلقاء الخطب أمـام شاشة فيديو، وأؤدي «البروفـات» حول تنفيذها، وأتلقى التعليمات فيما يتعلق بالمكان الذي أقف فيه وإشـارات اليدين وأفضل طريقة لاستخدام الميكروفونـات. وكنت أصعد وأنزل أدراج مبنـى فليت سنتر، برفقة مديـر اتصالاتي، روبرت غيبز، لإجـراء مقابلات، لم يكن يفصل بينها أحيانا سوى دقيقتين، مع محطات إيه بي سي، وإن بي سي، وسي بي إس، وسي إن إن، وفوكس نيوز، وإن بي آر، مؤكدا في كل منها على النقاط التي قدمها فريق كـيري ـ إدواردز، واختبرت كل كلمة منهـا دون شك بواسطة العديد من استطلاعات الرأي والمجموعات التمثيلية.

نظـرا لسرعتي الشديدة في تلك الأيام المحمومة، لم يكن لدي الوقت الكافي لأشعر بالقلق على تأثير خطبي وأحاديثي. ولم أشعر بشيء من التوتر إلا مساء الثلاثاء، بعد أن تجـادل المساعدون مع ميشيـل حول ربطة العنق التي سأرتديها (اتفقنا أخيرا على ربطـة عنق روبرت غيبز)، وبعـد أن ذهبنا إلى فليت سنتر وسمعنا الناس يهتفون لي: «حظـا سعيدا!»، و«اسحقهم يا أوباما»، وبعـد أن زرنا السيدة الكريمة والمسلية تيريزا هاينـز كيري في غرفتها في الفندق، وجلسنا أنا وميشيل نشاهد البث في غرفة خلفية. ذكرت لميشيل أنني أشعر ببعض الألم في معدتي فعانقتني ونظرت في عيني وقالت: «لا تفسد الأمر يا رفيق!».

ضحكنـا معاً. في تلك اللحظة أتى أحد مديـري الإنتاج وقال إن الوقت قد حان لآخذ مكاني خلف المسرح. وقفت وراء الستارة السوداء، واستمعت إلى ديك دروبن يقدمني، فكرت بأمي وأبـي وجدي وشعورهم لو كانوا بين الحضور. فكرت بجدتي في هـاواي، التـي تشاهد المؤتمر على شاشـة التلفزيون لأن حالـة ظهرها المتردية

منعتها من السفر. فكرت بالمتطوعين والأنصار والمؤيدين في الينوي الذي بذلوا قصارى جهدهم من أجلي.

قلت لنفسي: يا إلهي ساعدني على رواية قصصهم بطريقة صحيحة. ثم دخلت إلى المسرح.

سأكون كاذبا لو قلت إن ردة الفعل الإيجابية على خطبتي في مؤتمر بوسطن - الرسائل التي تلقيتها، والحشود التي تجمعت لاستقبالنا حين عدنا إلى الينوي - لم تكن مرضية لي شخصيا. فعلى الرغم من كل شيء، دخلت معترك السياسة لأمارس بعض التأثيرات في الجدل العام، لأنني اعتقدت أن لدي ما أقوله فيما يتعلق بالوجهة التي يجب أن تسير نحوها البلاد.

ومع ذلك، عززت موجة الشهرة الكاسحة التي أعقبت الخطبة إحساسي بأن الشهرة أمر زائل وعابر، ومرتكز على ألف من العوامل المختلفة، منها الحظ والأحداث التي اتخذت هذا المسار لا ذاك. أعرف أنني لست أكثر ذكاء من الرجل الذي كنته قبل ست سنين، حين سقطت في تلك الورطة - المؤقتة - في لوس أنجلوس. أفكاري المتعلقة بالرعاية الصحية أو التعليم أو السياسة الخارجية لم تشهد إضافات محسنة صقلتها وشذبتها وجعلتها أفضل مما كانت عليه حين كنت مغمورا أجاهد وأكافح في ميدان التنظيم الاجتماعي. فإذا أصبحت أكثر حكمة، فلأنني تقدمت خطوة على السبيل الذي اخترته لنفسي، سبيل السياسة، وعرفت لمحة عن الوجهة التي يؤدي إليها، إلى النفع أو إلى الضر.

أتذكر حديثا لي مع صديق قبل عشرين سنة، رجل أكبر مني عمرا كان ناشطا في مجال حقوق الإنسان في شيكاغو في الستينيات، وأستاذا للدراسات الحضرية في جامعة نورث ويسترن. كنت قد قررت لتوي، بعد ثلاث سنوات من العمل في التنظيم الاجتماعي، الانتساب إلى كلية الحقوق؛ ولأنه واحد من الأكاديميين القلائل الذين عرفتهم، طلبت منه توصية.

قال إنه يسعده أن يكتب التوصية، لكن يريد أن يعرف أولا ما أنوي فعله بشهادة الحقوق. ذكرت له اهتمامي بالحقوق المدنية، وأنني سأحاول في مرحلة ما الترشح

لأحـد المناصـب العامة. أومأ رأسـه وسألني هل فكرت بما يعنيه اتخـاذ هذا السبيل، ومـا هي الأشيـاء التي سأكون مستعدا لفعلها لإجراء مراجعـة على القانون، أو اتخاذ شريـك، أو الارتقاء في ذلك المنصب الذي سأنتخب له. كقاعدة عامة،يتطلب القانون والسياسـة كلاهمـا تنازلات وتسويات، كمـا قال؛ لا فيما يتعلـق بالقضايا وحسب، بل بالأمـور الجوهريـة ـ القيـم والمثل. لم يكن يقـول ذلك ليثنيني عن هـدفي، كما أكد. بـل هي الحقيقة. فبسبب عدم رغبته في تقديم التنـازلات، رفض دوما دخول معترك السياسة على الرغم من الطلبات الكثيرة التي دعته إلى دخولها في شبابه.

قـال لي: «لا يعني ذلك أن الخطأ متأصـل في التسوية، بل لأنني لم أجدها مرضية ولا مقنعـة. والشيء الذي اكتشفته مع تقدمـي في العمر أن عليك أن تفعل ما يرضيك ويقنعـك. وفي الحقيقة، فإن هذه إحدى مزايـا الشيخوخة، كما أفترض، حيث تعرف أخـيرا ما يهمك. يصعب أن تعرف ذلك في السادسة والعشرين. والمشكلة أنه لا يوجد من يجيب عن هذا السؤال من أجلك. عليك أن تفكر به وحدك».

بعـد عشرين سنة، فكرت بذلك الحديث وقـدرت أهمية كلمات صديقي أكثر مما فعلـت آنئذ. فقد بلغت عمرا يجعلني أعرف مـا يرضي نفسي، ومع أنني أكثر تسامحا مـع التسويـات مقارنـة بصديقي، إلا أنني أعـرف أن رضى النفس لـن أجده في وهج كامـيرات التلفزيـون أو تصفيق الجمهور. بل يبدو أنه يأتي غالبا الآن من معرفة أنني استطعـت بطريقة يمكن إثباتها مساعدة الناس على العيش بشيء من الكرامة. أفكر بمـا كتبـه بينجامـين فرانكلين إلى أمـه، ليشرح لها لمـاذا كرس هذا القـدر من وقته للخدمة العامة: «أفضل أن يقال: استفاد الناس من حياته، بدلا من مات ثريا».

هـذا ما يرضي نفسـي الآن كما أحسب ـــ أن أكون مفيدا لأسرتـي والناس الذين انتخبـوني، وأخلـف ورائي ميراثا يجعل حيـاة أطفالنا مترعة بأمـل أكبر من حياتنا. في بعضـ الأحيان، حين أعمل في واشنطن، أشعـر أنني أحقق ذلك الهدف. في أحيان أخـرى، يبـدو أن الهدف يبتعد عنـي، وكل النشاط الذي أمارسه ـــ جلسات الاستماع والخطب والمؤتمـرات الصحفية والبيانات التي أعلن فيها وجهة نظري ـ نشاط عبثي لا طائل فيه ولا يفيد أحدا.

حين أجد نفسي في هذه الحالة الذهنية، أحب ممارسة رياضة الجري. في العادة، أبدأ عند المغرب، خصوصا في الصيف والخريف، حين يكون الهواء في واشنطن دافئا وهادئا ولا تكاد الريح تهز أوراق الشجر. وبعد هبوط الليل، لا أجد كثيرا من الناس في الطريق ـ اللهم سوى بعض الأزواج والزوجات الذين يسيرون هنا وهناك، وبعض المشردين على المقاعد يرتبون حاجياتهم. في معظم الأحيان أتوقف عند نصب واشنطن التذكاري، لكنني أحيانا أصل إلى النصب التذكاري لأبطال الحرب العالمية الثانية، ثم إلى النصب التذكاري لقدامى المحاربين في فيتنام، وبعدئذ أصعد درج نصب لينكولن.

في الليل، يكون الضريح العظيم مضاء لكن خاليا. أقف هناك بين الأعمدة الرخامية، وأقرأ خطبة غيتسبرغ وخطاب القسم للولاية الثانية. ثم أنظر إلى ريفلكتينغ بول، وأتخيل الحشد المسحور بإيقاع صوت مارتن لوثر كينغ، ثم إلى ما وراءها حيث المسلة المضاءة وقبة الكابيتول البراقة.

وفي ذلك المكان، أفكر بأمريكا وبُناتها، الآباء المؤسسين لهذه الأمة الذين ارتقوا فوق مطامحهم الصغيرة وسموا فوق حساباتهم الضيقة وتخيلوا أمة تمتد دولتها عبر قارة. وأولئك الذين نذروا حياتهم، مثل لينكولن وكينغ، لجعل اتحاد يفتقد الكمال كاملا. وجميع أولئك الرجال والنساء، الذين لا وجوه لهم ولا أسماء، والعبيد، والجنود، والخياطين، واللحامين، الذين بنوا حياة لهم ولأطفالهم وأحفادهم، لبنة لبنة، ومدوا السكك الحديدية وشيدوا الطرقات وجاهدوا وكافحوا بأيديهم الصلبة وأذرعهم القوية لتحقيق أحلامنا الجمعية.

هذه العملية هي التي أريد أن أشارك فيها.

فقلبي مترع بالحب لهذا البلد.

كلمة شكر

مــا كان لهذا الكتــاب أن يرى النور لولا الدعــم الاستثنائي الذي قدمه عدد من الأشخاص.

علــي أن أبدأ بزوجتي ميشيل. فالزواج من سناتور أمر يصعب تحمله، لكن الزواج مــن سيناتــور يؤلف كتابــا يحتاج إلى صبر أيــوب. إذ لم تكتف بتوفــير الدعم المعنوي والعاطفــي طيلة مدة الكتابة، بل ساعدتني على التوصــل إلى العديد من الأفكار التي عــبر عنهــا الكتاب. مع كل يوم يمــر، أعرف كم أنا محظــوظ بوجودها في حياتي، ولا يمكننــي ســوى الأمل بــأن يقدم حبــي اللامحدود لها بعضــ المواســاة والتعويض عن انشغالي المستمر عنها.

أريد أن أعبر أيضا عن الشكر لمحررة الكتاب، ريتشيل كليمان. فحتى قبل أن أفوز بانتخابــات المجلــس التمهيدية، كانت ريتشيل هي التي نبهــت دار النشر، كراون، إلى أهميــة كتابي الأول «أحلام مــن أبي» بعد أن نفدت نسخه. وهــي التي أيدت اقتراحي بتأليف هذا الكتاب. وهي التي ظلت شريكتي الدائمة في الجهد الصعب لكن المتواصل والمتســارع لاستكمــال إنجــازه. في كل مرحلــة مــن عمليــة التحرير، تميــزت بالرؤى الثاقبــة، والدقــة الشديدة، والحماســة التي لا تهدأ. وكثيرا ما فهمــت ما كنت أحاول تحقيقــه من الكتاب حتى قبل أن أبدا، وأعادتني بلطف ورقة لكن بصرامة لا تلين إلى المســار الصحيح كلما ضللت السبيل وانزلقــت إلى مستوى الرطانة، أو اللغة الطنانة، أو العاطفــة المفرطــة المغالية. فضــلا عن ذلك، اتسمت بصــبر لا ينفد تجاه انشغالي الدائــم وبرنامج مواعيــدي المتخم في المجلــس، والنوبات الدورية مــن فتور الحماس وانقطــاع الإلهام؛ وكثيرا ما كان عليها التضحية بنومها الهانئ، أو عطلها الأسبوعية، أو إجازاتها مع أسرتها لكي تدفع المشروع قدما إلى الأمام.

باختصار، كان محررة مثالية ـ وغدت صديقة لا تقدر بثمن.

وبالطبـع، ما كانـت ريتشيـل لتستطيع إنجاز مـا أنجزته لولا الدعـم الكامل من الناشريـن في مجموعـة كراون، جينـي فروست وستيـف روس. فـإذا شملت صناعة النشـر تشابك الفن والتجارة، فقـد انحاز الاثنان باستمـرار إلى جانب جعل الكتاب علـى أفضـل صورة ممكنة. وإيمـان كل منهما به دفعه إلى بذل جهـد دؤوب إضافي ـ مرارا وتكرارا ـ في سبيل نشره، ولذلك أدين لهما بالشكر الجزيل.

الروح ذاتها ميزت جميع العاملين في دار كراون للنشر الذين بذلوا جهدا مضنيا في سبيل الكتاب. آميبورستاين، التي لم تتعب من إدارة عملية الإنتاج المرهقة على الرغم مـن ضيق الوقت. في حين دافعـت تينا كونستابل وكريستين ارونسـون دفاعا مستميتا عن الكتاب واستطاعتا بكل مهارة وحذق جدولة (وإعادة جدولة) اللقاءات معي وفقا لمواعيـد عملـي في المجلس. وبذلت جيـل فلاكسمان جهدا دؤوبا مـع قسم المبيعات في رانـدوم هاوس والمكتبـات لتساعد في سرعة وصـول الكتاب إلى أيـدي القراء. وأنتج جاكـوب برونستاين ـ للمرة الثانية ـ نسخة صوتية متميزة للكتاب في ظروف لا يمكن وصفها بالمثاليـة. إلى هؤلاء جميعا أقدم شكري وتحياتي القلبية، ولن أنسى الأعضاء الآخرين في فريق دار كراون: لوسيندا بارتلي، ويتني كوكمان، لورين دونغ، لورا دوفي، سكيـب داي، ليتـا ايفانثيز، كريستـين كايسر، دونا باسانانت، فيليـب باتريك، ستان ريدفيرن، باربرا ستورمان، دون فايسبيرغ، والعديد غيرهم.

هنالك عـدد من الأصدقاء، منهـم ديفيد اكسلرود، كاسانـدرا بوتس، فوريست كلاييـول، جوليوس جيناتشوفسكي، سكوت غريشن، روبـرت فيشر، مايكل فرومان، دونالـد غيبسـ، جـون كوبـر، انتوني ليـك، سـوزان رايس، جـين سبيرلينـغ، كاس سونستايـن، جيم واليس، الذيـن قرؤوا المخطوط وقدموا اقتراحـات ثمينة ومفيدة. سامانثا باور تستحق شكرا خاصا على كرمها الاستثنائي؛ فعلى الرغم من أنها تؤلف كتابا خاصا بها، عملت على مراجعة كل فصل كأنه من فصول كتابها، وقدمت سيلا دافقـا مستمرا من الملاحظات المفيـدة، وشجعتني على المتابعة كلما استشعرت فتورا في طاقتي وتراخيا في همتي.

وهنالـك عدد من الموظفين المساعدين في المجلس، منهم بيت روز، كارن كورنبلوه، مايك ستروتمانيز، جون فافرو، مارك ليبيرت، جوشوا دوبوا، وخصوصا روبرت غيبس وكريس لو، قرؤوا المخطوط خلال وقت الفراغ وقدموا لي اقتراحات تتعلق بالتحرير، وتوصيات تتصل بالسياسة، ومذكرات، وتصويبات. الشكر كل الشكر لهم جميعا على القيام بأكثر مما تطلبته واجباتهم.

الموظفـة التي عملت معـي سابقا، مادوري كوماريدي، كرسـت فصل الصيف قبل التحاقهـا بكلية الحقوق بجامعة ييل من أجـل التحقق من دقة المعلومات في المخطوط برمتـه. أذهلتنـي موهبتهـا وأدهشتنـي طاقتهـا. أتوجـه بالشكر أيضـا إلى هيلاري شرينيـل، التي تطوعت لمساعدة مادوري في التحقق من عدد من المعلومات الواردة في فصل السياسة (الخارجية).

أخيرا، أود أن أشكر وكيلي، بوب بارنيت (من شركة وليامز كونولي)، على صداقته، ومهارته، ودعمه. فالتأثير الإيجابي الذي مارسه كان هائلا.

في تموز/ يوليو ٢٠٠٤، سبب باراك أوباما موجة عارمة من الإثارة اجتاحت المؤتمر الوطني للحزب الديمقراطي، حين ألقى خطبة مؤثرة توجه فيها إلى الأمريكيين على اختلاف مواقعهم من الطيف السياسي. ثمة جملة محددة على نحو خاص استقرت في أذهان المستمعين: «الجرأة على الأمل»، حسب تعبير أوباما، لأنها ذكرتهم بأنهم ـ كأمة ـ استرشدوا دائما وأبدا بهدي تفاؤل راسخ الجذور بالمستقبل، وذلك على الرغم من جميع الخلافات والصراعات التي شهدها تاريخهم.

والآن، يدعو أوباما في «الجرأة على الأمل» إلى نمط جديد من السياسة، سياسة لأولئك الذين أسأمتهم الحزبية المريرة ونفرتهم «الصدامات التي لا تنتهي بين الجيشين» في مجلس الشيوخ والحملات الانتخابية: سياسة متجذرة في الإيمان والدين، والشمولية التي لا تستبعد أحدا، ونبل الروح وشهامة النفس، تكمن في صميم «تجربتنا الديمقراطية التي لا تصدق». يستكشف أوباما هذه القوى ـ بدءا من الخوف من الاستسلام إلى الحاجة الأبدية إلى جمع المال وانتهاء بقوة وسائل الإعلام ـ التي يمكن أن تكبت حتى أصدق السياسيين نية وأنبلهم مقصدا. ويتناول أيضا بأسلوب مفاجئ في حميميته ومدهش في ألفته وسخريته وتقليله من شأن الذات، عمله بوصفه عضواً في مجلس الشيوخ، وبحثه عن التوازن بين مطالب الخدمة العامة ومتطلبات الحياة العائلية، والتزامه الديني العميق.

لقد كتب أوباما، السيناتور، والمحامي، والأستاذ الجامعي، والأب، والمسيحي المؤمن، والمعتنق لمبدأ الشك، ودارس التاريخ والطبيعة البشرية، كتابا يتمتع بقوة تغييرية. إذ لا يمكن للأمريكيين ـ برأيه ـ إصلاح حال العملية السياسية المنهارة وإعادة تنظيم آليات عمل الحكومة العاجزة التي افتقدت الصلة إلى درجة الخطر مع المواطنين العاديين، إلا بالعودة إلى المبادئ التي أنتجت الدستور. هؤلاء الأمريكيون يقفون هناك «في انتظار الجمهوريين والديمقراطيين للحاق بركبهم».

«باراك أوباما من السياسيين القلة الذين يملكون موهبة الكتابة، وبأسلوب بليغ ومؤثر وأصيل، عن الذات.. وهو يسعى في هذه الصفحات إلى تأسيس تفكيره السياسي على الحس البدهي السليم والمنطق العقلاني البسيط.. في حين يعبر عن أفكاره بأسلوب نثري رصين ونزيه وبعيد عن الحزبية الضيقة. وهذا بحد ذاته أمر غير عادي، لا في هذه الأيام السابقة على الانتخابات بكل ما يسودها من حقد ولؤم وضغينة، بل في هذا العصر الذي تتفاقم فيه حالة الاستقطاب».

مايكل كاكوتاني- نيويورك تايمز.

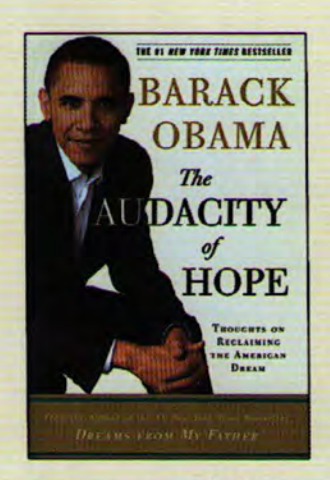
«أوباما واحد من أفضل الكتاب الذين دخلوا معترك السياسة».

جوناثان الترـ نيوزويك (دوت. كوم).

موضوع الكتاب: ١- الولايا ت المتحدة - الأحوال السياسية

٢- الولايات المتحدة - تاريخ

موقعنا على الإنترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com



باراك أوباما: عضو في مجلس الشيوخ الأمريكي عن ولاية الينوي، ومؤلف كتاب «أحلام من أبي» الذي اختارته صحيفة نيويورك تايمز واحداً من أكثر الكتب مبيعا. وهو يعيش في شيكاغو مع زوجته ميشيل وابنتيه ماليا وساشا.

ISBN:978-9960-54-647-6

